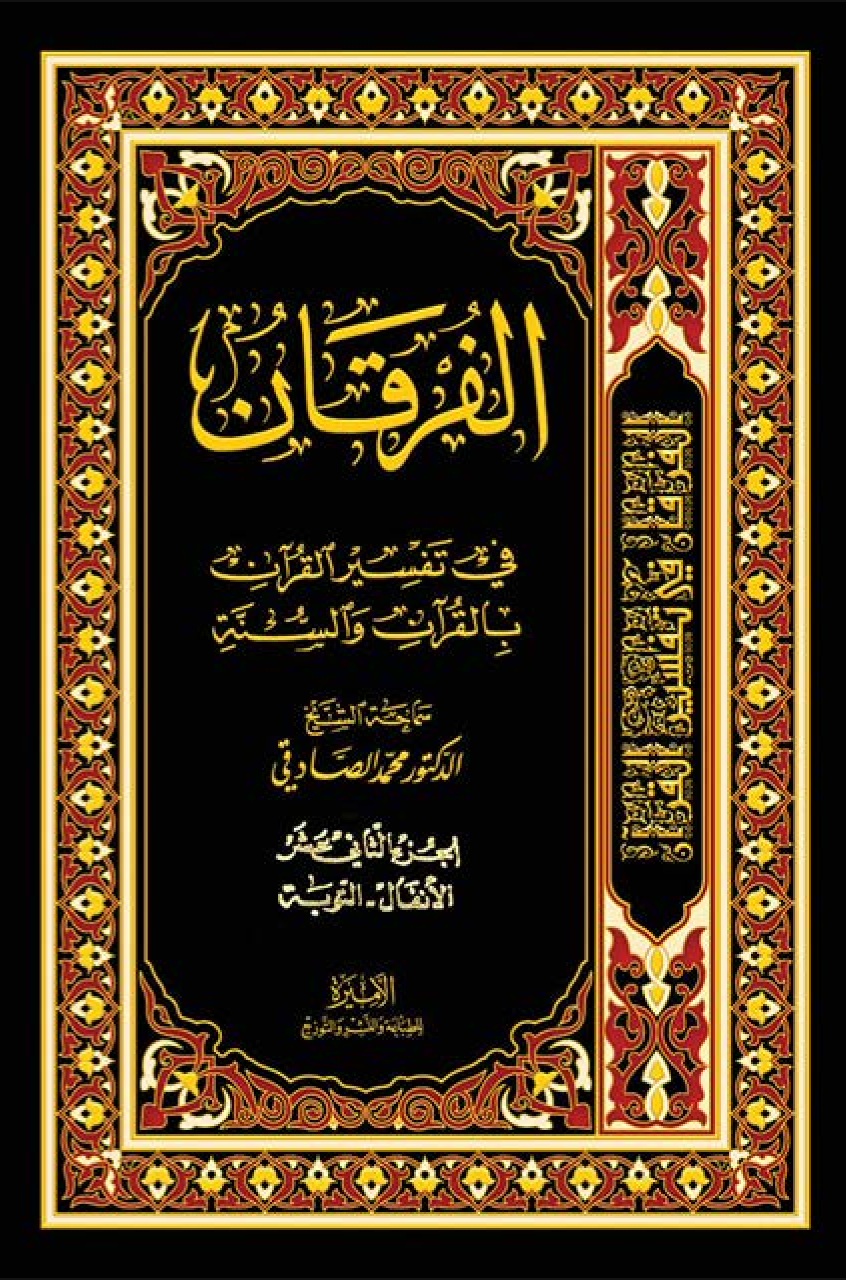

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الثاني عشر
الأنفال - التوبة
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

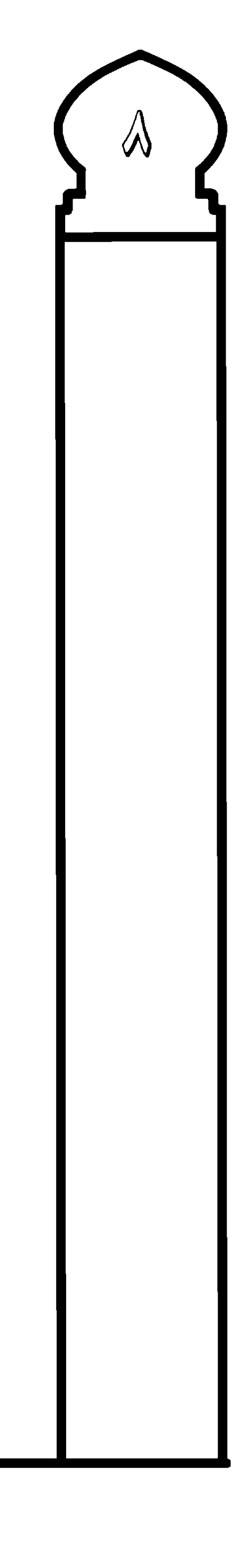
الجزء الثاني عشر

سورة الأنفال - سورة التوبة



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



سُورَةُ الأنفَالِ



وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾

«سورة الأنفال» سمِّيت بها حيث ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وإنها هي الوحيدة في القرآن حول الأنفال، ما تختص بالقيادة الإسلامية السامية، وليست لتختص بأشخاص خصوص حكومةً أو شعباً، إنما هي لصالح الحكم الإسلامي حيث تُصرف في المصالح العامة الراجعة - ككل - إلى الكتلة المؤمنة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)﴾:

هنا ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ مضارعة، دون «سألوك» ماضيةً، مما تلمح لاستمرارية

السؤال عن الأنفال، منذ السؤال الأول حتى يوم الدين، والجواب: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إجابة وافية للمتسائلين حوله إلى يوم الدين.

فالضرائب المستقيمة الإسلامية حسب القرآن هي أربع: هنا الأنفال فقط ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ صرفاً في الدعاية التوحيدية والرسولية، وتحكيماً لعُراهما، ثم الفيء الذي عديد مستحقيه هو كعديد مستحقي الخمس - إن كان الخمس حقاً سوى الزكاة -: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[(١)].

فمقسم الفيء والخمس هو الستة، ومقسم الأنفال اثنان، ثم مقسم الزكاة ثمانية، ولا اشتراك بينها وبين ست الخمس إلا في المساكين وابن السبيل، فتبقى ستة من مقسم الزكاة غير مذكورة في مقسم الخمس، كما أن أربعة من مقسم الخمس غير مذكورة في الزكاة، أم أن الخمس ضريبة أخيرة من أنصبة الزكاة نسختها وكما يأتي تفصيله في آية الخمس.

فعلى أية حال قد تختلف الأنفال عن سائر الضرائب مصرفاً وعديداً، كما اختلفت مادة ومديداً.

فمادة الأنفال - وهي الزوائد من الأموال التي لا تختص بناس خصوص على أية حال - هي البحار والأنهار والصحاري والغابات وبطون الأودية والجبال[(٢)] وما أشبه من عامة الأموال، التي لم تحصل بسعي، بل

(١) سورة الحشر، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) نور الثقلين ٢: ١١٨ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب أو قوم صالحوا أو قوم أعطوا بأيديهم وكل أرض خربة وبطون الأودية فهو لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو للإمام بعده يضعه حيث يشاء.

هي من خلق الله كما خلق، أم لا مالك له بالفعل مهما حصل بسعي سابق لمالك سابق.

فمن الأنفال ميراث من لا وارث له[١]، كما منها الأموال المتروكة المعَرض عنها[٢] وما أشبههما مما حصل بسعي وليس له مالك بالفعل، والأراضي المفتوحة عنوة بغير قتال مهما كانت - كأصل - من الأنفال، ولكنها مخصصة بآية الفيء، وتبقى الأراضي وما أشبه، التي تركها أهلوها، خربت أم هي بعدُ عامرة.

إذاً فنحن مع حرفية النص ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ نمشي معها كما تمشي، فإنها هي الأموال الزائدة، غير المفروضة لأحد، حيث الأموال الخاصة هي مفروضة لأصحابها، فلا تدخل في عامة الأموال وأنفالها حتى تختص بصالح القيادة الرسولية والرسالية.

وترى ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ سؤال لأخذ الأنفال لمكان ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾؟[٣] وصيغته ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾! أم سؤال عن مادة الأنفال

(١) المصدر عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل يموت ولا وارث له ولا مولى قال: هو أهل هذه الآية ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: ١] وفي أخرى عنه عليه السلام قال: من مات ليس له مولى فماله من الأنفال.

(٢) المصدر عن إسحاق بن عمار قال سألت أبا عبد الله عن الأنفال فقال: هي القرى التي قد خربت وانجلى أهلها فهي لله والرسول وما كان للملوك فهو للإمام وما كان من أرض خربة لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب وكل أرض لا رب لها والمعادن ومن مات وليس له مولى فماله من الأنفال.

(٣) المصدر ٢: ١١٧ في تهذيب الأحكام في مرفوعة بعض أصحابنا ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: ١] أن تعطيهم منه قال «قل الأنفال لله وللرسول وليس هو يسألونك عن الأنفال».
أقول: علّه ينفي اختصاص السؤال بمادة السؤال، ولقد غلط من قال قد صح أن قراءة أهل البيت ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: ١] كما في البحار (١٩: ٢١١) وفي جامع الجوامع للطبرسي.
قرأ ابن مسعود وعلي بن الحسين زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام: يسألونك الأنفال.

وحكمها ومصرفها؟ و﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ تلمح أنه سؤال لأخذ الأنفال!، أم مصرفها.

علّ السؤال - قضيةَ الأمرين - هو عن الأمرين، و«عن» يؤكد السؤال عن مادة الأنفال وحكمها ومصرفها مهما كان - أيضاً - سؤالاً إياها، قضية ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ فلأن الأنفال كانت معلومة المادة ومجهولة المورد والحكم، لذلك اختص الجواب بالثاني، وقد تعني لام التعريف تعريفاً بأنفال سالفة الذكر على لسان الرسول ﷺ، فصحيح أن الأنفال مطلقة تشمل كل زائد عن حاجيات الحياة، إلا أن تعريفها يعرِّفها أن لها عهداً بين المسلمين ولا نجد لها عهداً إلّا في الأموال التي ليس لها أصحاب خصوص، ففي كل حاجة من حاجيات الحياة فرائض وأنفال، ولكن المعني من الأنفال هنا ما عنته السنة وعرَّفته دون سائر الأنفال.

ولأن ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ من النفل وهو الزائد، فالأنفال في حقل الأموال هي الزائدة عن المساعي كالتي لا مالك لها خاصاً، أم عايدة بمساعي وسواها ثم طرأ عليها عُدم مالك لها كميراث من لا وارث له، أم الأموال التي أعرض عنها أصحابها[1] وأما الزوائد عن الحاجات المتعودة فيما حصلت بمساعي كما عنتها ﴿ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ في: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾[2] فلأنها غير

(١) مما يوافق الآية موثقة إسحاق بن عمار المروية في تفسير القمي عن الأنفال فقال: هي القرى التي قد خربت وانجلى أهلها فهي لله وللرسول ﷺ وما كان للملوك فهو للإمام وما كان من الأرض الخربة لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب وكل أرض لا رب لها والمعادن منها من مات وليس له مولى فماله من الأنفال، والمروي في تفسير العياشي عن أبي بصير وما الأنفال؟ قال: منها المعادن والآجام - الحديث.

ومما يخالفها هي التي تعد المعادن مما يجب فيه الخمس، كما عن تفسير النعماني بإسناده عن علي عليه السلام قال: الخمس يجري من أربعة وجوه من الغنائم التي يصيبها المسلمون من المشركين ومن المعادن ومن الكنوز ومن الغوص.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

محصورة بـ ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فلأصحابها إنفاقها في مختلف الحاجات والمحاويج فلا تشملها ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ بدليل اختصاصها بالله والرسول.

وهل المعادن من الأنفال؟ كونها من واقع الأنفال يحسبها منها، ومختلف الرواية حولها معروض على عموم الآية، فليست المعادن - إذاً - مما يجب فيه الخمس، بل هي كسائر الأنفال لله والرسول.

وهكذا الكنوز وما أشبه من أموال لا يُعرف لها مالك خاص، فانحساب المعادن والكنوز مما يجب فيه الخمس يطارد آية الأنفال.

وقطائع الملوك هي من الأنفال فإنهم لا يملكونها لكونها من الأنفال أم مجهولة المالكين[١]، وكذلك الأراضي أو البلاد التي سلِّم للمسلمين دون حرب، إذاً فبين الفيء والأنفال والخمس بون، حيث يختص الفيء بما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب والأنفال تعم كل الأنفال، والخمس بما غنمتم من شيء، فالمعادن والكنوز ليست من موارد الخمس.

وليست آية الخمس - الآتية - بالتي تنسخ آية الأنفال، بل هي تُخصَّص بها بغير الأنفال، لا سيما وأن المحتمل قوياً - كما يأتي - كون الخمس ضريبة ناسخة لأنصبة الزكاة في السنة كما لا تنسخها آية الفيء، فالأنفال عامة لعموم آيتها، ثم تخصص بالفيء كما تتخصص بها الخمس خروجاً للمعادن والكنوز عنه إلى الأنفال.

إن موضوع الخمس ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾[٢] والغنيمة تباين ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ فإنها خارجة عن المساعي مغنماً سواه، وموضوع الفيء هو الفيء، فلا

---

(١) وتدل عليه صحيحة داود بن فرقد قال قال أبو عبد الله عليه السلام: «قطائع الملوك كلها للإمام وليس للناس فيها شيء» (التهذيب ١: ٣٨٨).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

تناسخ - إذاً - بين هذه الثلاثة، وإنما لكلٍّ موضوعُه الخاص وحكمه دون تدخل لبعض في بعض أو تداخل.

إذاً ف ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ - باستثناء الفيء - هي كلها لله والرسول، تُصرف في صالح الدعوة التوحيدية والرسولية والرسالية، فهي بيد الرسول ﷺ يصرفها في صالح الرسالة الإسلامية كما يراه صالحاً، ثم خلفاؤه المعصومون عليهم السلام كلٌّ تلو الآخر، ومن ثم الشورى من الرعيل الأعلى في العلماء الربانيين، فالمصرف هو المصرف مهما كان الصارف في مثلث مترتب تلوَ بعض.

ومهما نزلت سورة الأنفال في جو بدر الكبرى وغزوته بملابساتها الخاصة، ولكنها ليست - على أية حال - بأنفال بدر فقط، قضيةَ جمعها المحلى باللّام حيث يفيد الاستغراق.

ذلك ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وذلك هتاف عِطاف لهذه القلوب المتنازعة المتفللة غير المتنفلة حول الأنفال، من هؤلاء الأغفال الذين كانوا يتهافتون على الأنفال.

ومن حصائل تقوى الله وإصلاح ذات البين طاعة الله ورسوله:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله، ومتقين حرمات الله ورسوله.

وإصلاح ذات البين هو من هامة الفرائض الإيمانية، محاولة جماهيرية من كافة الأطراف المعنية لإصلاح الفاسد فيما بينهم حيث بزغ الشيطان ونزغ بينكم، ف ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[1]. ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ﴾[2].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٨.

والله هو المصلح بيننا بما نسعى ونصلح في الآخرة[1] والأولى. ولكنه ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2] وقد تعني ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ إلى مختلف الأطراف المتنازعة، ذوات الأنفس، حيث الاختلاف بين العقل والنفس، بل وإصلاح النفس هو قبل إصلاح ذات البين لآخرين.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾:

هنا مثلث وَجَل القلوب، وزيادة الإيمان، والتوكل على الرب، هي المحاصيل الأصيلة لصالح الإيمان.

١ - فـ ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ حيث يدخل ذكر الله من مسامعهم إلى عقولهم ومنها إلى قلوبهم فهي وَجِلة من عُظم الموقف من ربهم حيث يجدونه حاضراً في قلوبهم، فيغيب عنها كل ما سوى الله حيث احتل مجالاتِها ذكُر الله.

وترى كيف ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؟ والإذاعة القرآنية تعلن ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[3]! هنا ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾[4] إلى الله، وهناك ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عما سوى الله، حيث تجلت بذكر الله، وَجَل من أن تحل في قلوبهم ذكر غير الله مع الله، ووَجَل من عظمة الله، ثم تجلٍّ كامل فيها لذكر الله، فاطمئنانٌ - إذاً - بذكر الله، كما ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[5].

---

(١) في الدر المنثور ٣: ١٦٢ عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة نادى مناد يا أهل التوحيد إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض وعليّ الثواب.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨١.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

فالوَجَل والقشعريرة هما حالتان سلبيتان للقلوب تخلية لها عما سوى الله، ثم الاطمئنان لها بذكر الله حالةٌ إيجابية تمثيلاً للكلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[١] مهما كان للوجل حالة أخرى إيجابية تجتمع مع الاطمئنان وهي الشعور بعظم الموقف الرهيب أمام الله.

فليس الله ليوجَل ويُخاف إلا من عدله ومن عُظم محتده، وذلك الوجل الثاني هو الوسيط بين الأول وبين اطمئنان القلوب بذكر الله، وهو يعيش ذلك الاطمئنان ومن حصائل ذلك الوجل الجلل والطمأنَة:

٢ - ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ حيث تجلو القلوب بتلاوة آيات الله إذ تحل فيها وتحتل القمة منها ف ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ على إيمانهم، ف ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[٢] بتلاوة آياته سمعاً وعقلاً وعلماً وطاعةً بكاملها.

هنا ﴿تُلِيَتْ﴾ وليست «قرأت» مما يلمح بأن ذلك من خواص التلاوة المتبعة، كما وأن مهمة الرسالة الإسلامية هي ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾[٣] دون «أقرأ» حيث التلاوة هي المتابعة.

وقد تعني ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[٤] هذه التلاوة الصالحة المصلحة التي يتلوها ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

فقد يحصل حاصل الإيمان الزائد بفاعلية ﴿تُلِيَتْ﴾ وقابلية القلب المتلوّ عليه، فأما إذا فقد القابلية بسوء الاستقبال أم عدم تصميمه في صميمه فلا مَحْصل للقلب قطعاً، وفي القابلية - وحتى مع نقص الفاعلية - له محصل

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٣٥.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٣) سورة النمل، الآية: ٩٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٣.

مهما اختلفت الدرجات، فواويلاه إذا ضعف الطالب والمطلوب، نقصاناً في الفاعلية والقابلية.

و﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ جمعاً مضافاً تستغرق إلى الآيات التدوينية، الأخرى التكوينية، فحين تتلى تبيناً عليه هذه الآيات زادته إيماناً كما زادته آياته التشريعية إيماناً.

وهذه التلاوة المباركة لطليق آياته تُسمعه ما يحرضه على زائد الإيمان سمعاً ثم عقلاً وتدبراً ثم علماً ثم عقيدة ثم تطبيقاً شخصياً ثم نشراً وبلاغاً.

٣ - ومن ثم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في الحصول على مزيد الإيمان وصالح أعمال الإيمان، دونما اتكالية خاوية عن مساعي، أم توكل دون معداته.

ولقد ذكر الإمام أمير المؤمنين لأهل الذكر ذكراً جميلاً ما أجمله، قاله عند تلاوته ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]: إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب، تَسمع به بعد الوقرة، وتُبصر به بعد الغشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله - عزت آلاؤه - في البُرهة بعد البُرهة، وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يَقَظَةٍ في الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكِّرون بأيام الله ويخوِّفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حَمِدوا إليه طريقه، وبشروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشِمالاً ذمّوا إليه الطريق، وحذروه من الهلكة، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات، وأدلة تلك الشبهات - وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، يأمرون بالقسط ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه،

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عذابهم، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون[١].

ولأن أصل الذكر هو في القلوب فخير الذكر هو في أوعى القلوب وكما قال لكميل بن زياد: «يا كميل! إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة، فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهَمَج رَعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق -

اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا وأين؟ أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إلى رؤيتهم، انصرف يا كميل إذا شئت»[٢].

«يا كميل! العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرُس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله -

يا كميل بن زياد! معرفة العلم دين يُدان به، به يكِسب الإنسان الطاعة

---

(١) (الخطبة ٢١٣).

(٢) الحكمة ١٤٠ قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبّان، فلما أصحو تنفس الصّعداء ثم قال: . . .

في حياته، وجميلَ الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه - يا كميل بن زياد! هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، ها أن هاهنا لعِلماً جماً لو أصبت له حَمَلة، بلى أصبت لَقِناً غير مأمون عليه مستعمِلاً آلة الدين للدنيا، ومستظهِراً بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، ألا لا ذا ولا ذاك، أو منهوماً باللَّذة، سَلِس القياد للشهوة، أو مُغرَماً بالجمع والادخار، ليسا من رعاة الدين في شيءٍ شَبَهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه -

﴿إِنَّمَا﴾ هؤلاء الأكارم هم ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ شرطَ أن يكونوا من:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③﴾:

رباطٌ أوّل بالله بإقام الصلاة التي هي عمود الدين وعماد اليقين، ورباط ثان بالإنفاق لأهل الله في الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ما يمكن إنفاقه مالاً وحالاً: علماً وعملاً صالحاً وعقيدة ﴿يُنفِقُونَ﴾: دون رجاءٍ لجزاء أو شكور إلا ابتغاء وجه الله، فـ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④﴾:

فحق الإيمان وحاقُّه ودرجاتٌ عند الرب ومغفرة ورزق كريم، ليست إلّا على ضوء الواقع من ذلك المخمس البارع، ثم مَن دون هؤلاء هم دونهم في الإيمان والدرجات والمغفرة والرزق الكريم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1]

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

و«بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرطون النار»(١).

ولقد تقدمت هنا أفعال القلوب الثلاثة على أفعال القوالب الإثنين في الذكر، قضيةَ تقدمها في صالح الترتيب واقعياً، فما لم يعمَّر القلب لم يعمّر القالب.

فالخطوة الأولى من الأولى هي ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بجانبي السلب والإيجاب، والثانية ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وهي جانب الإيجاب، والثالثة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كلا السلب والإيجاب، ابتداءً بذكر الله وانتهاءً إلى التوكل على الله، وهم على طول الخط يعيشون الإيمان بالله، متكاملاً متكافلاً على مدار الحياة في سبيل الله.

ومن محاصيل هذه الخطوات القلبية الثلاث كظاهرة أولى في العمل: إقام الصلاة. ومن ثم الإنفاق من رزق الله، فـ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وقد تُختصر هذه الخمس في: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٢) كما العكس هو عكسه: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(٣).

وهنا - قضيةُ مختلف الدرجات لذلك المخمس وعامليها ﴿دَرَجَاتٌ عِندَ

(١) نور الثقلين ٢: ١٢١ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: . . .
وفي الدر المنثور ٣: ١٦٢ - أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، قال: يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الحج، الآية: ٥١.

رَبِّهِمْ﴾ مقسَّمة فيما بينهم حسب درجاتهم في هذه الخطوات الخمس دونما فوضى جزاف، كما والعندية الزلفى أيضاً ﴿دَرَجَتٌ﴾ درجات حسب الدرجات ولا يظلمون فتيلاً.



﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ۝١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝١٣﴾

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾:

ترى وإلى مَ يرجع التشبيه في ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ ثم الذين كفروا هم الذين أحرجوه حتى أخرجوه بالباطل، فكيف - إذاً - ﴿أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ

بِٱلْحَقِّ﴾؟: فــ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾(١)! لأن الرسول ﷺ كان في أعلى قمم التقوى، وجلاً قلبه بذكر الله، زائداً إيمانه إذا تليت عليه آيات الله أو تلي آيات الله، متوكلاً - على أية حال - على الله، مقيماً للصلاة ومنفقاً مما رزقه الله في الله، لذلك فعلى الله ألا يكلَه إلى نفسه وأن يرعاه بخاصة رعايته، وإخراجه من بيته مهما كان بإخراج المشركين تصميماً لقتله، ولكن - من ناحية أخرى - إخراج من الله إلى الغار حيث أعماهم كيلا يروه، خلاصاً عن قتلهم إياه، وإلى المدينة حتى بعد عدَّته، ويُمضي مدته خلال عشرة كاملة فيرجع إلى بيته عزيزاً منتصراً، ثم إخراجاً منه للبدر الكبرى كانتصار أول له بعد الهجرة، فمهما كان ذلك الإخراج من المشركين بالباطل قضية تصميمهم على قتله، فقد كان من الله بالحق، بل إنهم ما أخرجوه في مكرهم اللعين، بل صمموا على قتله فأخرجه الله تخليصاً له عن كيدهم أولاً، وتأسيساً لدولة الإسلام في مهجره أخيراً، ثم رجوعاً إلى العاصمة منتصراً.

فنسبة الإخراج إلى الذين كفروا نسبية فإنه - فقط - إحراج بتصميم قتله فأخرجه الله، ثم نسبته إلى الله واقعية حقيقية حيث نجاه به من بأسهم.

فهو - إذاً - إخراج من ربك بالحق، قضية التربية القمة الخاصة بك، حيث يريد الله تكميل رسالتك وبلاغ دعوتك، ولأنها لم تكن لتتم في ذلك الجو المُحرج المكي، فقد أخرجه الله إلى المدينة استتماماً لدعوته واستكمالاً لبقيته، وكما أخرجك ربك من بيتك بالحق يوم بدر.

ذلك، رغم ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ ذلك الإخراج، بقصر النظر إلى ظاهر الإحراج وحاضره الوبيء، دون نظرة إلى صالح الحاضر فراراً عن بأسهم، وصالح المستقبل استرجاعاً للعاصمة بكل قوة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

فحين يرى الداعية أن جو الدعوة الحاضر صعب صلب صلت، وقد يُقضى على دعوته فيه أو يُصد عنها، فصالح الدعوة أن يتنقل بحياته وحياة الدعوة إلى جو آخر يستكمل فيه عِدته وعُدته لردح صالح من الزمن، ثم إذا رأى كفاحاً صارماً في بنيته بأنصاره يرجع إلى عاصمة الدعوة قوياً صارماً منتصراً وكما فعله الرسول ﷺ بما أخرجه الله من بيته بالحق.

ذلك إخراج بالحق هجرة، ثم إخراجات أخرى كما أخرجك ربُّك من المدينة لحرب بدر ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ كراهة لمعركة دموية خطيرة، حيث يرون عدم المكافحة في عِدة ولا عُدة، فإنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً والمشركون ألف أو يزيدون، وكما كانوا كارهين اختصاص الأنفال بالله والرسول، فبين الكراهتين تشابه موردهما في الحق لصالحهم أنفسهم.

ف ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ﴾ في التأويل الأول، هي كما أخرجناه، وفي الثاني قد يعني: أن الله خصك بعد نفسه تعالى بالأنفال، كما خصّك أن ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾. فلولا أن الله أخرجه يوم بدر لم يحصل ذلك الفتح المبين، جبراً لكسر إخراجه من العاصمة بعد ثمانية عشر شهراً من مهجره.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾:

هؤلاء الكثيرة الكارهة لخروجك عن العاصمة عند الهجرة، وخروجك عن المدينة إلى بدر ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى﴾ ذلك ﴿ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ لهم بما أخرجك ربك وحياً فارضاً ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ حيث يرونهم قلة وأعداءهم كثرة كثيرة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى مضاجعهم في هذه الحرب الحرجة الخطيرة المَرِجَة[1].

---

(١) روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره بإسناده عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قِبَل =

. . . .

= هذه العير لعل الله أن يغنمناها؟ فقلنا: نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: ما ترون في قتال القوم؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم؟ فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذن لا نقول لك يا رسول الله ﷺ كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المَائدة: ٢٤] فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد بن عمرو أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ [الأنفَال: ٥].

وفي البحار ١٩: ٢١٥ قال أصحاب السير وذكر أبو حمزة وعلي بن إبراهيم في تفسيرهما دخل حديث بعضهم في بعض: أقبل أبو سفيان بعير قريش من الشام وفيها أموالهم وهي اللطيمة فيها أربعون راكباً من قريش فندب النبي ﷺ أصحابه للخروج إليها ليأخذوها وقال: لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ولم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى كيداً ولا حرباً، فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي ﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لعيرهم في أصحابه فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال أن رجلاً أقبل على بعير له ينادي يا آل غالب اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجمله على أبي قبيس فأخذ حجراً فدهدهه من الجبل فما ترك داراً من دور قريش إلا أصابته منه فلذة فانتبهت فزعة من ذلك فأخبرت العباس بذلك فأخبر العباس عتبة بن ربيعة فقال عتبة هذه مصيبة في قريش وفشت الرؤيا فيهم وبلغ ذلك أبا جهل فقال: هذه بنية ثانية في بني عبد المطلب واللات والعزى لننظرن ثلاثة أيام فإن كان ما رأت حقاً وإلا لنكتبن كتاباً بيننا أنه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالاً ولا نساء من بني هاشم، فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت: يا آل غالب يا آل غالب اللطيمة اللطيمة العير العير أدركوا وما أراكم تدركون، إن محمداً والصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم فتهيأوا للخروج وما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مالاً لتجهيز الجيش وقالوا: من لم يخرج نهدم داره، وخرج معهم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وأخرجوا معهم القيان يضربون الدفوف وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فلما كان بقرب بدر أخذ عيناً للقوم فأخبره بهم -

وفي حديث أبي حمزة الثمالي بعث رسول الله ﷺ عيناً له على العير اسمه عدي فلما قدم على رسول الله ﷺ فأخبره أين فارق العير نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره بنفير المشركين من مكة فاستشار أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله =

. . . .

= إنها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت ولا ذلت منذ عزت ولم تخرج على أهبة الحرب. . وأنا عالم بهذا الطريق فارق عديٌّ العير بكذا وكذا وساروا وسرنا فنحن والقوم على بدر يوم كذا وكذا كأنّا فرسا رهان، فقال ﷺ: اجلس فجلس ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها وقد آمنا بك وصدقنا وشهدنا أن ما جئت به حق والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك، والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنا نقول: امض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون فجزاه رسول الله ﷺ على قوله ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس - وإنما يريد الأنصار - لأن أكثر الناس منهم ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: إنا براء من ذمتك حتى نصل إلى دارنا، ثم أنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع آباءنا ونساءنا فكان يتخوف أن لا يكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدو وأن ليس عليهم أن ينصروه بخارج المدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله كأنك أردتنا؟ فقال: نعم، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله إنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت وخذ من أموالنا ما شئت واترك منها ما شئت، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك ولعل الله أن يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله ففرح بذلك رسول الله ﷺ وقال: سيروا على بركة الله فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده والله لكأني أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان وأمر رسول الله ﷺ بالرحيل وخرج إلى بدر وهو بئر - وأقبلت قريش وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء فأخذهم أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش، قالوا: فأين العير؟

قالوا: لا علم لنا بالعير، فأقبلوا يضربونهم وكان رسول الله ﷺ يصلي فانفتل من صلاته وقال: إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم فأتوه بهم فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: يا محمد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟ قالوا: لا علم لنا بعددكم قال: كم ينحرون كلّ يوم من جزور؟ قالوا: تسعة إلى عشرة، فقال رسول الله ﷺ: القوم تسعمائة إلى ألف رجل فأمر ﷺ بهم فحبسوا وبلغ ذلك قريشاً ففزعوا وندموا على مسيرهم ولقي عتبة بن ربيعة أبا البختري بن هشام فقال: أما ترى هذا البغي والله ما أبصر موضع قدمي خرجنا لنمنع عيرنا وقد أفلتت فجئنا بغياً وعدواناً والله ما أفلح قوم بغوا قط ولوددت ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهبت ولم نسر هذا المسير فقال له أبو البختري: إنك سيد من سادات قريش فسر في الناس وتحمل العير التي أصابها محمد ﷺ وأصحابه بنخلة ودم ابن الحضرمي فإنه حليفك، فقال له: علي ذلك وما على أحد منا خلاف إلا ابن الحنظلة يعني أبا جهل، فسر إليه وأعلمه أني حمّلت العير ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعلي عقله، قال: فقصدت خباه =

وهنا نعرف أن التكتيكات الحربية إلى سائر التصرفات الرسالية، كانت كلها بوحي من الله وكما قال الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[1] فحاكميته الرسالية في كل حقولها ليست إلَّا بما أراه الله دون رأيه أم آراء المسلمين.

ومهما استشار الرسول ﷺ في ظاهر الحال أصحابه في مواجهة النفير أو العير وأكثرهم كانوا مع العير خائفين عن النفير كأبي بكر وأضرابه، ولكن قلة قليلة كالمقداد وأضرابه تقول «امض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون» ولكنه كان ماضياً بأمر الله على أية حال حيث ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

ذلك والمجادلة بين محظورة ومحبورة[2] والمحظورة هي المجادلة في الحق نكراناً له، والمحبورة هي المجادلة تصديقاً إياه.

= وأبلغته ذلك فقال: إن عتبة يتعصب لمحمد فإنه من بني عبد مناف وابنه معه ويريد أن يخذل بين الناس، لا واللّات والعزى حتى نقحم عليهم يثرب، أو نأخذهم أسارى فندخلهم مكة وتتسامع العرب بذلك وكان أبو حذيفة بن عتبة مع رسول الله ﷺ وكان أبو سفيان لما جاز بالعير بعث إلى قريش قد نجى الله عيركم فارجعوا ودعوا محمداً والعرب وادفعوه بالراح ما اندفع وإن لم ترجعوا فردّوا القيان، فلحقهم الرسول ﷺ في الجحفة فأراد عتبة أن يرجع فأبى أبو جهل وبنو مخزوم وردوا القيان من الجحفة، قال: وفزع أصحاب رسول الله ﷺ لما بلغهم كثرة قريش واستغاثوا وتضرعوا فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾ [الأنفال: ٩].

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٢) يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «نحن المجادلون في دين الله» وقد نهي عن الجدل والاختلاف، وهو الجدل في الحق لإبطاله أو التشكيك فيه دون عناية لإيضاحه وتحقيقه كما في مفتاح كنوز السنة تحت عنوان «النهي عن الجدل والاختلاف» عن بخ - ك ٩٦ ب ٢ و٣ و٢٦، مس - ك ٤٣ ح ١٣٢ و١٣٤، ك ٤٨ ح ٥، بد - ك ٣٩ ب ٤، قا ١٨، مج - المقدمة ب ٧ و١٠، مي - المقدمة ب ٢٨ و٣٤، حم - أول ص ٤٥٧، ثان ص ٣١٧.

وتحت عنوان «ما يهدم الإسلام من الجدل» عن مي - المقدمة ب ٢٢، وتحت عنوان ما ضل قوم بعد هدي إلا أوتوا الجَدَل عن مس - ك ٤٣ ح ١٣٠ و١٣١ حم - خامس ص ٢٥٢ و٢٥٦.

والمجادلة في الحق بعد التبين أشد حظراً منها بغير علم كما ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ ومن ثم بغير علم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾(١) وأنحس منهما المجادلة لدحض الحق: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾(٢).

وكما للمجادلة المحظورة دركات، كذلك للمحبورة درجات أحسنها أحسنها: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٣) وطالما الجدال نوعان، لكنما المراء محرم على أية حال(٤).

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾! «فإن الموت هادم لذاتكم، ومكدر شهواتكم، ومُباعد طيّاتكم، زائر غير محبوب، وقِرنٌ غير مغلوب، وواترٌ غير مطلوب، قد أعلقتكم حبائله، وتكفتكم غوائله، وأقصدتكم مَعابِله، وعظُمت فيكم سطوته، وتتابعت عليكم عدْوَته، وقلت عنكم نَبْوَته، فيوشَك أن تغشاكم دواجي ظُلله، واحتدام علله، وحنادس غمراته، وغواشي سَكَراته، وأليم إزهاقه، ودُجُوُّ إطباقه، وجشوبَة مذاقه، فكان قد أتاكم بغتةً فأسكت نجيَّكم، وفرق نديَّكم، وعفى آثاركم، وعطل دياركم، وبعث وراثكم يقتسمون تراثكم، بين حميم خاص لم ينفع، وقريب محزون لم يمنع، وآخَرَ شامت لم يجزع»(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٤) وعن أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة وأنس قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ «ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة: في رياضها وأوسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء (العوالم ٢ - ٣: ٤٣٢).
(٥) (الخطبة ٢٢١).

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾:

﴿ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ هنا هما العير والنفير[1] عير كبير من الشام إلى مكة مثقلة بأموال ضخمة، ونفير من مكة مثقلة بعتاد للحرب ضخمة يريدون حرب الرسول ﷺ وقد وعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين «أنها تكون لكم» تغلُّباً على العير أم على النفير، والنفير هي بطبيعة الحال ذات الشوكة الحربية القوية عِدة وعُدة، والمسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً في قلة من عِدة وعُدة، فأنتم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ خوفاً عن الشائكة، واغتناماً للغنيمة دونما حرب، ولكن ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بهزيمتهم العظيمة رغم كثرتهم الكثيرة في عِدة وعُدة.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾:

وحيث لا يضمن التغلب على العير إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا تغلباً اقتصادياً، ولكن التغلب على النفير يضمن كل تغلب للحق على الباطل، لذلك أراد الله أن تكون لهم الطائفة ذات الشوكة، تحقيقاً للحق وقطعاً لدابر الكفر، تضعيفاً لساعده ومساعده لردح بعيد من الزمن.

وهكذا حاكَ في نفوس كثير من المؤمنين كراهة القتال حتى ليقول الله عنهم: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ رغم تبين الحق وأن الله وعدهم إحدى الطائفتين، مقدراً لهم إحداهما كما يريد لا كما يريدون.

فقد قدر الله لهم إحدى الطائفتين أولاً على سبيل الإجمال كائنة ما

(١) مر تخريجها في الحاشية رقم (٤) في الصفحة السابقة.

كانت عيراً أو نفيراً، القوية ذات الشوكة والشائكة، أو الأخرى غير ذات الشوكة، وهم يريدون حاضر العير دون تعب، والله يريد حاذر النفير بتعب وليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، بضمان رباني «أنها تكون لكم» مهما كان في أمر مواجهتهم من إمر ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(١)] فأين ما أراده الله لهم مما أرادوه، فلقد كانت تمضي - لو كانت لهم غير ذات الشوكة - قصة غنيمة فحسب، فأما قصة بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة صامدة للمؤمنين، وعقدة كافرة عاندة للكافرين، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله انفصالاً عما سوى الله وتخلصاً من ضعفها الذاتي، فقد خاضت المعركة بنصر الله وكفة الكفر راجحة في الظاهر، فقلبت كفة الإيمان بيقينها ميزان الظاهر فغلبت عليها ذلك الغَلَب الباهر.

ولقد حقق الله وعده في أنها تكون لكم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٢)] ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾[(٣)].

ذلك، وهنا تفاصيل هامة عن وقعة بدر الكبرى امتناناً على الرسول وعلى المؤمنين وليأخذوا درساً عن روحية التكتيك في قتال أعداد الله على مدار الجبهات الإسلامية السامية دونما استثناء.

لقد نسمع الرسول ﷺ في غائلة بدر يقول: «اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض» فما زال يهتف ربه ماداً يديه حتى سقط رداءه من منكبه فأنزل الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾[(٤)] [(٥)]

(١) سورة الشرح، الآية: ٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٧.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٩.

(٥) البحار ١٩ : ٢٢١ قال ابن عباس: لما كان يوم بدر واصطف القوم للقتال قال أبو جهل:=

ويقول: «اللَّهم إنهم حفاة فاحملهم، اللَّهم إنهم عراة فاكسهم، اللَّهم إنهم جياع فأشبعهم»[(١)].

ذلك، وقد دعاهم رسول الله - مبتدراً بينهم - إلى بدر لمواجهة النفير دون العير فقال: هلموا إلى بدر فإن هناك الملتقى والمحشر، وهناك البلاء الأكبر، لأضع قدمي على مواضع مصارعهم، ثم ستجدونها لا تزيد ولا تنقص ولا تتغير ولا تتقدم ولا تتأخر لحظة ولا قليلاً ولا كثيراً فلم يخف ذلك على أحد منهم ولم يجبه إلا علي بن أبي طالب عليه السلام وحده وقال: نعم - بسم الله فقال الباقون: نحن نحتاج إلى مركوب وآلات ونفقات ولا يمكننا الخروج إلى هناك وهو مسيرة أيام... فخطا القوم خطوة ثم الثانية فإذا هم عند بئر بدر فعجبوا فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: اجعلوا البئر العلامة واذرعوا من عندها كذا ذراعاً فذرعوا فلما انتهوا إلى آخرها قال: هذا مصرع أبي جهل يجرحه فلان الأنصاري ويجهز عليه عبد الله بن مسعود ضعف أصحابي، ثم قال:

اذرعوا من البئر من جانب آخر ثم جانب آخر ثم جانب آخر كذا وكذا ذراعاً وذراعاً - وذكر أعداد الأذرع مختلفة - فلما انتهى كل عدد إلى آخره قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا مصرع عَتَبة، وذلك مصرع الوليد، وهذا مصرع شيبة، وسيُقتل فلان وفلان، إلى أن سمى تمام سبعين منهم بأسمائهم، وسيُؤسر فلان وفلان، إلى أن ذكر سبعين منهم بأسمائهم وأسماء آبائهم

= اللّهم أولانا بالنصر فانصره، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ...﴾ [الأنفال: ٩]

وقيل: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما نظر إلى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال: اللّهم..

(١) المغازي للواقدي ١: ٢٦ والسنن الكبرى للبيهقي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا بهذا الدعاء رافعاً يديه إلى السماء حين خرج بعدة البدر من المؤنئة.

وصفاتهم، ونسب المنسوبين إلى الآباء منهم، ونسب الموالي منهم إلى مواليهم، ثم قال رسول الله ﷺ: أوقفتم على ما أخبرتكم به؟ قالوا: بلى، قال: «إن ذلك لحق كائن بعد ثمانية وعشرين يوماً من اليوم التاسع والعشرين وعداً من الله مفعولاً وقضاء حتماً لازماً»(١).

(١) بحار الأنوار ١٩: ٢٦٥ م ج بالإسناد إلى أبي محمد العسكري عليه السلام قال: أرسل أبو جهل بعد الهجرة رسالة إلى النبي ﷺ وهي أن قال: يا محمد إن الخيوط التي في رأسك هي التي ضيقت عليك مكة ورمت بك إلى يثرب وإنها لا تزال بك حتى تنفرك، وتحثك على ما يفسدك ويتلفك إلى أن تفسدها على أهلها وتصليهم حر نار وتعدّيت طورك، وما أرى ذلك إلا وسيؤول إلى أن تثور عليك قريش ثورة رجل واحد لقصد آثارك ودفع ضررك وبلائك فتلقاهم بسفهائك المغترين بك ويساعدك على ذلك من هو كافر بك مبغض لك فيلجئه إلى مساعدتك ومظافرتك خوفه لأن يهلك بهلاكك ويعطب عياله بعطبك ويفتقر هو ومن يليه بفقرك وبفقر شيعتك إذ يعتقدون أن أعداءك إذا قهروك ودخلوا ديارهم عنوة لم يفرقوا بين من والاك وعاداك واصطلموهم باصطلامهم لك وأتوا على عيالاتهم وأموالهم بالسبي والنهب كما يأتون على أموالك وعيالك وقد أعذر من أنذر وبالغ من أوضح - فأديت هذه الرسالة إلى رسول الله ﷺ وهو بظاهر المدينة بحضرة كافة أصحابه وعامة الكفار من يهود بني إسرائيل وهكذا أمر الرسول ﷺ ليجّبن المؤمنين ويغري بالوثوب عليه سائر من هناك من الكافرين - فقال رسول الله ﷺ للرسول: قد أطريت مقالتك واستكملت رسالتك؟ قال: بلى. قال: فاسمع الجواب: إن أبا جهل بالمكاره والعطب يتهددني ورب العالمين بالنصر والظفر يعدني وخبر الله أصدق والقبول من الله أحق، لن يضر محمداً من خذله أو يغتصب عليه بعد أن ينصره الله ويتفضل بجوده وكرمه عليه، قل له: يا أبا جهل إنك راسلتني بما ألقاه في خلدك الشيطان، وأنا أجيبك بما ألقاه في خاطري الرحمن، إن الحرب بيننا وبينك كائنة إلى تسعة وعشرين وإن الله سيقتلك فيها بأضعف أصحابي وستلقى أنت وعتبة وشيبة والوليد وفلان وفلان - وذكر عدداً من قريش - في قليب بدر مقتلين، أقتل منكم سبعين وآسر منكم سبعين، أحملهم على الفداء الثقيل، ثم نادى جماعة من بحضرته من المؤمنين واليهود وسائر الأخلاط: ألا تحبون أن أريكم مصرع كلّ واحد من هؤلاء؟ قالوا: بلى، قال: هلموا إلى بدر فإن هناك الملتقى والمحشر فقال رسول الله ﷺ لسائر اليهود: فأنتم ماذا تقولون؟ قالوا: نحن نريد أن نستقر في بيوتنا ولا حاجة لنا في مشاهدة ما أنت في ادعائه محيل، فقال رسول الله ﷺ: لا نصب عليكم بالمصير إلى هناك، اخطوا خطوة واحدة فإن الله يطوي الأرض=

فهؤلاء القتلى السبعون والأسرى السبعون من المشركين الذين كانوا ألفاً أو يزيدون، وأما الشهداء من المؤمنين فأربعة عشر بين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً!(١).

وهذه هي الحرب الأولى بعد الهجرة بين الرسول ﷺ والمشركين، وقد كسرت سواعدهم وبترت عوائدهم، وذلك بعد مكاتبة بين أبي جهل والرسول ﷺ مما يدل على مدى تخوف آباء الجهالات بعد هجرة النبي ﷺ والمؤمنين، ومما أجابه الرسول ﷺ: «إن أبا جهل بالمكاره والعطب يتهددني ورب العالمين بالنصر والظفر يعدني».

ذلك، وإلى هامة المسارح لبدر حسب ما يقصه القرآن:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

إنها المعركة التي دارت بأمر الله، شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال هذه الآيات المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذي كان كأنه هو الآن، ولندرسها في كل زمان كأنها ماثلة بين أعيننا آنا بعد آن.

= لكم ويوصلكم في الخطوة الثانية إلى هناك، قال المؤمنون: صدق رسول الله فنتشرف بهذه الآية وقال الكافرون والمنافقون: سوف نمتحن هذا الكذاب ليقطع عذر محمد ويصير دعواه حجة واضحة عليه وفاضحة له في كذبه، قال: فخطى القوم خطوة.

(١) في مجمع البيان وكانت المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ والمهاجرين علي بن أبي طالب عليه السلام وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكانت الإبل في جيش رسول الله ﷺ سبعين بعيراً والخيل فرسين فرس للمقداد بن الأسود وفرس لمرثد بن أبي مرثد وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف وجمع من استشهد يومئذ أربعة عشر ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان المشركون ألفاً وخيلهم مائة فرس وكان حرب بدر أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ.

وعلّ الاستغاثة هنا من كلا الغوث والغيث، فأغاثهم بألف من الملائكة، وأغاثهم من السماء ماءً، فقد استغاثوا ربهم في حالة الخطر الناجم الهاجم، بهالة الإيمان القائم بما وعد الله، وكان الإمداد بألف من الملائكة مردفين، حيث يخيل إلى المشركين أن قد واجههم أكثر منهم عديداً ومديداً فخافوا على شوكتهم وشائكتهم ضد المؤمنين.

وهنا ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قد تعني - فيما عنت - إرداف الألف غيرهم من بقية الثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف المردفين في آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[١].

ذلك، وقد يلمح ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾[٢] إرداف ألف آخر فقط، فالجميع ألفان مع ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، والمجموع يُرى مثلي ألف المشركين[٣]، ولم تدل ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ أنه أنزل ثلاثة آلاف، ولا «يمددكم» أنه أنزل خمسة آلاف، لمكان الشرط الفاقد في ثانيهما إذ لم يأتوهم من فورهم هذا، وعدم البتِّ في الأول، وهنا البتّ في ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ حيث ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

ذلك، إضافة إلى أن قضية طليق الإرداف هي إرداف مماثل في العديد، وإذ لم يكن عديد المؤمنين ألفاً فليكن المُردَفون هم ألف من الملائكة آخرون.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣-١٢٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٣) في البحار ١٩: ٢٢٣ في حديث القمي وأبي حمزة في مردفين أي متبعين ألفاً آخر بعضهم في إثر بعض.

ولو أراد الله نصرهم دون هؤلاء الألف المردفين لفعل، ولكن ﴿بُشْرَىٰ﴾ لهم بحق النصر بظاهرٍ من أسبابه ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ على أية حال - بظاهر من معداته ودونه - ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وتراهم حاربوا المشركين مع المؤمنين؟ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ تنفيها، ثم ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ يثبت ذلك النفي، وكما الوارد في الآثار أن علياً عليه السلام قتل النصف أو الثلث من السبعين، وقتل الباقين سائر المؤمنين، ولم يذكر ولا مرة يتيمة أن أحداً من القتلى هو قتيل الملائكة المردَفين.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وليس - فقط - بعدَّة وعُدة الحرب والتكتيكات الحربية، فقد أراد الله يوم بدر أن تقيس الكتلة المؤمنة قوتها الحقيقية المستمدة من قوة الله إلى قوة أعدائها، فتعلم أنما النصر إنما هو قدر اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوّات العباد، تجربة واقعية تكون لهم نبراساً ومتراساً في كافة الحروب الإيمانية، تزوداً بهذه التجربة في الحرب الأولى الإسلامية لمستقبلاتها كلِّها، فـ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

وأول المستغيثين وأولاهم كان هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث رفع يديه وسأل ما سأل واستجيب فيما سأل وكان يقول: «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»[3].

---

(١) راجع آيات البدر في آل عمران تجد الملاءمة بين ألف ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] وثلاثة آلاف ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] و﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] فلا نعيد هنا.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٣) الدر المنثور ٣: ١٦٨ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في حديث =

ذلك ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ واستجاب لكم ونصركم بما يلي:

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾﴾:

هنا ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ - ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ - ﴿أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ تلقي ظلاً لطيفاً حفيفاً شفيفاً على المشهد، مما يطمئنهم عن كل بأس وبؤس.

فلقد نعسوا في المصاف ثم غشاهم الله النعاسَ وهي كامل النوم حيث يتم ويطم، فقد تنام العين ولا ينام الأذن والقلب، وإذا نام الأذن مع العين فقد نام القلب وهنا تغشية النعاس، إذاً فنوم العين نعاس ونوم الأذن أمارة لتغشية النعاس الباطنَ إلى الظاهر، وهي من الحديث الأصغر، فما لم يغشِ النعاس كل الحواس لم يكن حدثاً.

وفي المروي عن الإمام علي عليه السلام قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي تحت الشجرة حتى أصبح»[1].

وتلك التغشية كانت ربانية ﴿أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ تأمنكم من تعب النضال وخوف القتال، عُدةً لكم لإصباح الحرب، وهذه أمنة من الله حيث غشاكم النعاس، فضمير الغائب إذاً ذو مرجعين اثنين، وتغشية النعاس في جبهات الحرب، ولا سيما هذه الخطرة الضاربة، إنها من نصر الله، حيث المضطرب لا يأتيه النوم بطبيعة الحال، فهذه التغشية لم تكن إلا من الله ﴿أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾: من الله، من العدو حتى غشاهم النعاس.

ذلك والخطر ناجم والعطش هاجم، وتغلب المشركين على الحوض

= له طويل عن قصة بدر. وفيه «ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين.

(١) الدر المنثور ٣: ١٧١ - أخرج أبو يعلي والبيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه . . .

قائم، وتسويل الشيطان - إذاً - هائم، فالتوتر مداوم، فكيف - إذاً - النعاس فضلاً عن تغشيته، اللّهم إلّا بفضله ورحمته! ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ ولولا حدثية تغشية النعاس لم يكن في ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ هنا دور، إذ لم يسبق ذلك التطهيرَ نجاسةٌ خبثية، أم حدثية أخرى لكي «يطهركم به» ثم ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ منه حدث ثان، وطبعاً لبعض النائمين، وليس إلا الجنابة، حيث النوم لا يحمل إلا نفسه حدثاً أصغر ككل، أم ما قد تحصل فيه من جنابة وهي حدث أكبر.

والقول إن حدثية النوم ليست إلا لخروج الريح ضمنه حيث لا يملك النائم نفسه، مردود بعدم قاطعية ذلك الخروج، فهذا الإخراج لا يناسب حدثية تغشية النعاس، وأما حدثية الجنابة - وهي أحيانية في النوم - فهي مذكورة بنفسها ﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ دون الريح غير المذكورة إلا تغشية النعاس التي تضمنها أحياناً، ثم وإرسال ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ بعد ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ رَسلَ المسلمات، دليل باهر أن حدثية النوم في السنة كانت حينذاك من المسلمات، فاختلاف الفقهاء في حدثية النوم بشرط الاضطجاع وما أشبه أم دون شرط، معروض على طليق ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ الشاملة لحالتي النوم.

ذلك، ومن رجز الشيطان ما وسوس في صدورهم في تلك الحالة الحرجة المرجة من عطش بإعواز ماء الشرب، وأنهم كانوا مرمَّلين تغوص فيه الأرجل ويرتفع منه الغبار، فأذهب الله رجز الجنابة الجسمية ورجز الخوفة النفسية بذلك الماء.

ذلك، ثم ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ طَمأنةً بتلك الطهارة، وبرودة الهواء، وثلوجة الأكباد الحرَّى بشرب الماء، وإزالة الغبار، وتمكين الأرض لـ ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ في الرمال المبتلة وفي النضال[1].

(١) في نور الثقلين ٢: ١٢٧ في تفسير علي بن إبراهيم حيث يستمر في قصة بدر قوله: وبلغ=

فلقد كانوا في الرمل بعطشهم غير ثابتي الأقدام في الإقدام على الحرب نفسياً، وإقدام الأقدام رملياً، فثبتت أقدامهم، وبت إقدامهم.

ورجز آخر هو وسوسة الشيطان أن كيف - وأنتم على حق - يعطشكم ربكم ويروى أعداءكم، وثبتت أقدامهم مترباً، ويوهيها لكم مرملاً، فقد عكس المطر كل المحاسبات الشيطانية الدخيلة في صدور البعض من المؤمنين.

وهذه التغشية المطَمْئِنة بإنزال الماء من السماء كانت بعد ما سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كثيب رمل فأحدثوا نائمين بنوم ككلّ، وبجنابة بعضاً، فوسوس إليهم الشيطان أن عدوكم سبقكم الماء وأنتم محرومون عنه، فأمطر الله عليهم فتطهروا وتلبَّدت به أرضهم إيحالاً لأرض العدو وإيغالاً له في أوحال إذ لم يكونوا مُرمَلين.

= أصحاب رسول الله ﷺ كثرة القريش ففزعوا فزعاً شديداً وبكوا واستغاثوا فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ...﴾ [الأنفَال: ٩] فلما أمسى قابل رسول الله ﷺ وجنه الليل ألقى الله على أصحابه النعاس حتى ناموا وأنزل الله تبارك وتعالى عليهم السماء وكان نزول رسول الله ﷺ في موضع لا يثبت فيه القدم فأنزل عليهم السماء ولبد الأرض حتى ثبتت أقدامهم وهو قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ...﴾ [الأنفَال: ١١] وذلك أن بعض أصحاب النبي احتلم، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام وكان المطر على قريش مثل العزالى وكان على أصحاب رسول الله ﷺ رذاذاً بقدر ما لبد الأرض وخافت قريش خوفاً شديداً فأقبلوا يتحارسون يخافون البيات.

وفي الدر المنثور ٣: ١٧١ - أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريح عن ابن عباس أن المشركين غلبوا المسلمين في أوّل أمرهم على الماء فظمئ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين فكانت بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال: أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم وذهبت وسوسته.

وفيه أخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي تلك الليلة ليلة بدر ويقول: اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد وأصابهم تلك الليلة مطر شديد فذلك قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

ذلك، وأن غزوة بدر الكبرى بملابساتها الخطرة الوعرة مضت في تاريخ الإنسان مشرقة باهرة، ظاهرة قاهرة من مظاهر الإيمان على الكفر دون مكافحة ظاهرة، تقريراً قريراً لدستور النصر والهزيمة، وكشفاً عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة، كتاباً مفتوحاً تقرؤه الأجيال طول الزمان وعرض المكان، دون تبدل لدلالتها، ولا تغير بطبيعتها، فإنها من آيات الله الكبرى على مدار الزمن.

ولقد تمتد بدر بمداد الإيمان الصالح، تمتد متجاوزة الجزيرة العربية إلى سائر الأرض، وزمنَ الرسول إلى سائر الزمن، ما دامت شروطات النصر الإيماني مستمرة، وشريطات الملابسات بين المتحاربين مسموعة متسامعة.

ولأن حرب بدر الكبرى هي الأولى بعد الهجرة بردح قليل من الزمن، فقد كمنت تحدياً قوياً قويماً لجانب الكفر أن يحاسب حسابه بغير وجه العِدَّة والعُدَّة الظاهرة، وليفكر كيف أن فئة قليلة مهاجرة من العاصمة خوفةَ القضاء عليها برسولها، عائشة في غربة عن الوطن المألوف، فاقدةً لكل عِدة وعُدة لتلك الحرب غير المتكافئة، كيف تتغلب هذه الفئة القليلة على تلك الفئة الكثيرة، فتقتل منهم كثيراً وتأسر نفس العدد، ولا يُقتل منها إلّا أربعة عشر وهم خُمس قتلاهم، ولم يكونوا إلّا ثلثهم عدداً ومعشاراتهم في ظاهرة العُددَ! وهنا مثلث في تاريخ الإنسان من هذا العدد الكريم، فقبل الإسلام عديد جند طالوت حيث هم أمام جالوت القدّار الغدّار ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1].

ثم في بدر الكبرى بصورة أجلى وملابسات أعجب وأعلى، ومن قدسيتها: «أن رسول الله ﷺ سافر إلى بدر في رمضان وافتتح مكة في رمضان»[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٢) بحار الأنوار ١٩: ٢٧٣ عن الرضا عن آبائه عليهم السلام.

ومن ثم في دولة القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف حيث يتغلب بأصحاب ألويته - وهم نفس العدد - على كافة الكفار والمشاغبين!

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾:

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ...﴾ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ...﴾ ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ...﴾ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ...﴾ تحقيقاً لوعده سبحانه ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الألف المردفين ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ معية خاصة في مسرح بدر لتكونوا مع هؤلاء المؤمنين حضوراً كأنكم بَشَر أمثالهم محاربين ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أقدامهم على النضال، وإقدامهم على القتال أن تحدثوهم بذلك التثبيت حتى يثبتوا، فقد ثبَّتهم الله بما أنزل من السماء ماءً ووعدهم النصر، وزاد في تثبيتهم بما أوحي للملائكة المردفين أن ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وترى كيف ثبتهم الملائكة وهم لا يرونهم ولا يسمعونهم؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴿٣١﴾﴾[1].

ذلك، وبأحرى في مسرح بدر الذي هو مصرح الإيمان المنقطع النظير، فقد يكون تنزلهم عليهم يوم بدر متميزاً عن سائر تنزلهم على سائر المستقيمين من المؤمنين، أن تحولوا إلى صور الآدميين وتحدثوا معهم كما يحدث بعضهم بعضاً وهم عارفون أنهم من ملائكة الله المردَفين.

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.

وحين يلقي الشيطان بأوليائه في قلوب أوليائه الشياطين ما يضلهم، فبأحرى أن يلقي الرحمن بنفسه وبملائكته في قلوب أوليائه المؤمنين ما يهديهم.

ثم إن ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فطمأنة قلوب المؤمنين على قلتهم، وتمكن الرعب في قلوب الذين كفروا على كثرتهم، هما من الملابسات المعبِّدة لتغلُّب الأولين على الآخرين، وإذاً:

﴿فَاضْرِبُوا﴾ أنتم المؤمنين ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

ولماذا هنا ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ دون الرؤوس؟ علَّه لأنهم ما كانت لهم رؤوس إنسانية بما كفروا، فاستبدل بالرؤوس ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾، وعلّه يعني بما عناه من بـ ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فوق أعناق المشركين إذ لم يكونوا عنقاً واحداً، ففوق الأعناق هم الأعناق الفوقية بينهم، فهم رؤوس الكفر والضلال وكما قتل منهم كبار الأعناق بيد الرسول ﷺ وعلي عليه السلام والمؤمنين.

ثم ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قد تعني إلى بنان الأيدي والأرجل وما أشبه بنان مختلف الأيادي، أن اضربوا - بما تضربون فوق الأعناق - كل الأيادي والطاقات المجرمة والوسائل المعادية فيما بينهم وكما وعد الله:

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ حتى لا يقوم منهم - بعدُ - قائم ولا يحوم حوم الحرب منهم حائِم إلّا آثم.

لم يكن في بدر دور للألف المردفين من الملائكة إلّا حضوراً بأشخاصهم وتثبيتاً لقلوب المؤمنين، وأما ضرب فوق الأعناق وكل بنان فقد كان من المؤمنين[1].

---

(١) في الدر المنثور ٣: ١٧٢ عن ابن عباس في حديث بدر الكبرى ونفر النبي ﷺ بجميع المسلمين وهم يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وسيد المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة لكبر=

وهنا في الضفَّة المؤمنة نصر من الله وتثبيت من الملائكة لهم بإذن الله، ثم في الضفة الكافرة: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

فقد والله إنه الأمر الهائل، معية الله للمؤمنين بنفسه وبملائكته في المعركة، فهنا قلوب مطمئنة مؤمنة مرجفة، وهناك جوار الشيطان للكافرين فقلوب واجفة راجفة، وأهم الأسلحة في النضال هو سلاح طمأنة القلوب، وقد يروى عن الرسول ﷺ أنه ﷺ رمى كفاً من حصباء الوادي في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخريه منها شيءٌ، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وكانت تلك الرمية سبب

= سنه فقال عتبة: يا معشر قريش إني لكم ناصح وعليكم مشفق لا أدخر النصيحة لكم بعد اليوم وقد بلغتم الذي تريدون وقد نجا أبو سفيان فارجعوا وأنتم سالمون فإن يكن محمد صادقاً فأنتم أسعد الناس بصدقه وإن يك كاذباً فأنتم أحق من حقن دمه، فالتفت إليه أبو جهل فشتمه وفج وجهه وقال له: قد امتلأت أحشاؤك رعباً، فقال له عتبة: سيعلم اليوم من الجبان المفسد لقومه، فنزل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة حتى إذا كانوا أقرب أسنة المسلمين قالوا: ابعثوا إلينا عدتنا منكم نقاتلهم، فقام غلمة من بني الخزرج فأجلسهم النبي ﷺ ثم قال: يا بني هاشم أتبعثون إلى أخويكم والنبي منكم غلمة بني الخزرج فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث فمشوا إليهم في الحديدة فقال عتبة: تكلموا نعرفكم فإن تكونوا أكفاءنا نقاتلكم فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسول الله ﷺ فقال عتبة: كفؤ كريم فوثب إليه شيبة فاختلفا ضربتين فضربه حمزة فقتله ثم قام علي بن أبي طالب إلى الوليد بن عتبة، فاختلفا ضربتين فضربه علي عليه السلام فقتله ثم قام عبيدة فخرج إليه عتبة فاختلفا ضربتين فجرح كلّ واحد منهما صاحبه وكر حمزة على عتبة فقتله فقام النبي ﷺ فقال: اللهم ربنا نزلت عليَّ الكتاب وأمرتني بالقتال ووعدتني النصر ولا تخلف الميعاد فأتاه جبرئيل عليه السلام فأنزل عليه: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] فأوحى الله إلى الملائكة ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فقتل أبو جهل في تسعة وستين رجلاً وأسر عقبة بن معيط فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين وأسر سبعين».

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

هزيمتهم[١] وكما لمح الله تعالى ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ نرى أنهم ضربوا فوق الأعناق وهم كبار المشركين فقتل عليٌّ عليه السلام منهم شطر شطيراً والباقون الشطر الأخير وقتلى المحاربين معدودون بأسمائهم[٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

---

(١) في المجمع ذكر جماعة من المفسرين كابن عباس وغيره أن جبرائيل قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر: خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما التقى الجمعان لعلي عليه السلام: أعطني قبضة من حصا الوادي فناوله كفاً من حصا عليه تراب.
وفي المغازي للواقدي: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر بالقليب، أن تغور ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان مسمناً انتفخ من يومه فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: اتركوه فأقروه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيبه، ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً بئس القوم كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس.
فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتنادي قوماً قد ماتوا؟ فقال: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.
وفي الأمالي بإسناده عن ابن عباس قال: وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قتلى بدر فقال: جزاكم الله من عصابة شراً لقد كذبتموني صادقاً وخونتم أميناً، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال: إن هذا أعتى على الله من فرعون إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد الله وإن هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللّات والعزّى.

(٢) في الإرشاد أنه قد أثبتت رواة العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح فكان ممن سموه: الوليد ابن عتبة وكان شجاعاً جريّاً وقّاحاً فتاكاً تهابه الرجال، والعاص بن سعيد وكان هولا عظيماً تهابه الأبطال، وطعيمة بن عدي بن نوفل وكان من رؤوس أهل الضلال، ونوفل بن خويلد وكان من أشد المشركين عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطبعه ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حضوره بدراً سأل الله أن يكفيه أمره فقال: اللهم اكفني نوفل بن خويلد فقتله أمير المؤمنين عليه السلام -
وزمعة بن الأسود والحارث بن زمعة والنضر بن الحارث وعمير بن عثمان وعثمان ومالك ابنا عبيد الله أخوا طلحة بن عبيد الله ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة وقيس بن الفاكهة بن المغيرة =

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾:

«ذلك» الخزي لهم أولاء الكافرين و«ذلك» النصر لهؤلاء المؤمنين «بأنهم» أولاء المشاغبين ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ جعلوا أنفسهم في شق فذٍّ،

= وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو ابن مخزوم وأبو منذر بن أبي رفاعة ومنبّه بن الحجاج السهمي والعاص بن منبّه وعلقمة بن كلدة وأبو العاص بن قيس بن عدي ومعاوية بن المغيرة ولوذان بن ربيعة وعبد الله بن المنذر ومسعود بن أمية وحاجب بن السائب بن عويمر وسعيد بن وهب ومعاوية بن عبد القيس وعبد الله بن جميل والسائب بن مالك وأبو الحكم بن الأخنس وهشام بن أبي أمية بن المغيرة – فذلك خمسة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين عليه السلام فيه غيره وهم أكثر من شطر المقتولين.

وجعلوا الله ورسوله في شق آخر، فأخذوا يشاقون الله ورسوله، إذاً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

«ذلك» العقاب يوم الدنيا ﴿فَذُوقُوهُ﴾ وكضابطة شاملة «إن عليه السلام ثم الشهداء الأربعة عشر معروفون بأسمائهم[(١)].

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بدركاتهم ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ يوم القيامة، ولات حين فرار.

ذلك، وقتلى بدر السبعين قُتل شطر منهم كبير بيد أمير المؤمنين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾:

تكتيكات حربية إسلامية يذكر منها هنا شطرات هامة لمسارح الزحف، إذا طُبِّقت كانت من قضاياها الانتصار إلى جنب ما على المحاربين المسلمين من سائر الشروطات المسرودة في الكتاب والسنة.

و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب لعامة المؤمنين أياً كانوا وأيان، كما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعمهم كلهم دون اختصاص ببدر وسواها زمن الرسول ﷺ أم سواه.

---

(١) في البحار عن الواقدي قال: حدثني عبد الله بن جعفر قال سألت الزهري كم استشهد من المسلمين يبدر؟ قال: أربعة عشر: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار قال: فمن بني عبد المطلب عبيدة بن الحارث قتله عتبة أو شيبة فدفنه النبي ﷺ بالصفراء، ومن بني زهرة عمير ابن أبي وقاص قتله عمرو بن عبدود فارس الأحزاب وعمير بن عبد ود ذو الشمالين حليف لبني زهرة قتله أبو أسامة الجشمي، ومن بني عدي عاقل بن أبي البكير حليف لهم من بني سعد قتله مالك بن زهير، ومهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضرمي ومن بني الحارث ابن فهر صفوان بن بيضاء قتله طعيمة بن عدي - ومن الأنصار ثم من بني عمرو بن عوف، مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور وسعد بن خيثمة قتله عمرو بن عبد ود ويقال طعيمة بن عدي ومن بني عدي بن النجار حارثة بن سراقة رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فقتله، ومن بني مالك بن النجار عوف ومعوذ ابنا عفراء قتلهما أبو جهل، ومن بني سلمة عمير بن الحمام ابن الجموح قتله خالد بن الأعلم ومن بني زريق رافع بن المعلى قتله عكرمة بن أبي جهل، ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار.

وهنا اللقاء زحفاً هو موضوع لشديد النهي عن تولية الأدبار، وصحيح أن الضابطة الثابتة في لقاء العدو هي حرمة الفرار إلّا . . . ولكن اللقاء زحفاً هو أهم مواضيع الحكم.

والزحف هو الدنو رويداً على مَهَل، من الذين كفروا إلى الذين آمنوا أم منهم إليهم، أو الزّاحف منهما، ولأن اللقاء زحفاً ليس إلا بحساب من الزاحف وتحسُّب من المزحف إليه، تحاسُبٌ حسب الملابسات المحيطة بالطرفين، فالأصل فيه حرمة تولي الأدبار، وهو من السبع الموبقات(١).

ذلك، ولأنه دون مبرر منصوص مرصوص فتٌّ لعضد الإسلام وثلم لكرامته، و«لما فيه من الوهن في الدين والاستخفاف بالرسل والأئمة العادلة عليهم السلام وترك نصرتهم على الأعداء والعقوبة لهم على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل وترك الجور وإماتة الفساد، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين وما يكون من السبي والقتل وإبطال دين الله عزّ وجلّ وغيره من الفساد»(٢).

ذلك و«أن الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازرين على الضلال، إنه ضلال في الدين وسَلَب في الدنيا مع الذل والصغار، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف بحضرة القتال. . .»(٣).

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٢٨ في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل: وحرم الله تعالى الفرار من الزحف لما فيه. . .
وفيه في الخصال في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وتعدادها قال: وأما الثالثة والستون فإني لم أفر من الزحف قط ولم يبارزني أحد إلا سقيت الأرض من دمه، وفيه عن العياشي عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال قلت: الزبير شهد بدراً؟ قال: نعم ولكنه فر يوم الجمل، فإن كان قاتل المؤمنين فقد هلك بقتاله إياهم وإن كان قاتل كفاراً فقد باء بغضب من الله حين ولاهم دبره.

(٢) تفسير البرهان ٢: ٦٩ عن الكليني بسند متصل عن عقيل الخزاعي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال الله:

(٣) لقد تواردت الروايات حول اختصاص حرمة الفرار من الزحف ببدر وعدمه ومن الثاني وفقاً =

وهنا ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾ تضيق دائرة حرمة الفرار هذه، فحين يهاجم العدو، ولا مكافأة في البين، فقد يجوز أو يجب الفرار حفاظاً على نفوس محترمة محرَّمة أن تهدر دون سبب مبرَّر.

وهل تحدِّد آية التخفيف حرمة الفرار من الزحف بالمكافأة المضاعفة لجيش العدو؟: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1].

علَّها نعم، فإنها تحمل ضابطة للمكافأة؟ وعلّها لا، حيث إن حقل حرمة الفرار هو مسرح لقاء العدو زحفاً، فأما وجوب لقائه بما دون المكافأة، أم حرمة الفرار عند الهجمة المباغتة ولا مكافأة، فلا! وقد يأتي تفصيل البحث عند آية التخفيف.

وأما في اللقاء زحفاً منهما أو من إحداهما فالحكم كلمة واحدة حرمة الفرار إلّا.

ومن غريب الوفق عديداً في القرآن أن كلًّا من «الجهاد» و«المسلمين» بمختلف صيغهما هو (٤١) مرة، مما يلمح أن الإسلام لزامه الجهاد في سبيله.

= لطليق الآية في الدر المنثور ٣: ١٧٤، أخرج ابن مردويه عن أمامة مولاة النبي ﷺ قالت: كنت أوضئ النبي ﷺ أفرغ على يديه إذ دخل عليه رجل فقال: يا رسول الله أريد اللحوق بأهلي فأوصني بوصية أحفظها عنك قال: لا تفر يوم الزحف فإنه من فر يوم الزحف فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، وفيه عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية قال لنا رسول الله ﷺ: قاتلوا كما قال الله: وفيه أنه ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات السبع يقول: اللّهم إني أعوذ بك وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وروى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله ﷺ وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

ومن وصايا إمام المجاهدين علي أمير المؤمنين بشأن الحروب: «تزول الجبال ولا تزول، عضَّ على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تِدْ في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القوم وغضَّ بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه»(١).

معاشر المسلمين! استشعروا الخشية، وتجلببوا السكينة، وعضوا على النواجذ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، وأكملوا اللامة - الدرع - وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلِّها، والحظَوا الخزْر، واطعنوا الشزر، ونافخوا بالظُّبَا، وصِلوا السيوف بالخُطى، واعلموا أنكم بعين الله..

فعاودوا الكرَّ، واستحيوا من الفرِّ، فإنه عار في الأعقاب ونار يوم الحساب، وطيِّبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً سُجُحاً - سهلاً - فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم عمود الدين وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم(٢).

«فقدموا الدارع وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتووا في أطراف الرماح فإنه أموَر للأسنَّة، وغُضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل، ورايَتكم فلا تُميلوها ولا تخلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، والمانِعين الذِّمار منكم... وايم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة... إن في الفرار موجدةَ الله، والذلَّ اللّازم والعار الباقي، وإن الفار لغير مزيد في عمره، ولا محجوز بينه وبين يومه»(٣).

«وأي امرئ منكم أحس من نفسه رباطةَ جأشٍ عند اللقاء ورأى من أحد

(١) (الخطبة ١١).
(٢) (الخطبة ٦٤).
(٣) (الخطبة ١٢١).

من إخوانه فشَلاً فليذُبَّ عن أخيه بفضل نجدته التي فضِّل بها عليه كما يذب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله، إن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، ولا يُعجزه الهارب، إن أكرم الموت القتل، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش» ذلك:

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾:

فالتحرف لقتال والتحيز إلى فئة هما فرار للقرار فلا عار فيهما ولا بوار، فـ«لا» تشتدن عليكم فرَّة بعدها كرة ولا جولة بعدها حملة، ووطئوا للجيوب مصارعها، وإذ مروا أنفسكم على الطعن الدَّعسي - الشديد - والضرب الطلحفي - القوي -» (٢٥٥).

فتولي الدبر في المصاف الزاحف محظور كضابطة، وهو محبور كتصبره في مجالين اثنين: ١ - ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾: متطرداً يريد الكرة عليهم تحولاً إلى قتال أمكن وأقوى. ٢ - ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ من المؤمنين، متأخراً إلى أصحابه من غير هزيمة، ضماً لهم إليهم إلى المواجهة، أم وكل قوة يحصل عليها في ذلك التولي، فأما التولي فراراً، أم والتولي دون عائدة في الرجوع، فغير مسموح للمناضل بتّاً.

فـ«من انهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله»[١].

وهنا لمحة من الضمائر المفردة أن استثناء المنع عن تولي الدبر ليس يشمل توليه جميعاً، بل هو تولي الأفراد تحرفاً لقتال أو تحيزاً إلى فئة.

وترى هنا ﴿بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ليست

(١) في تفسير العياشي عن موسى بن جعفر عليه السلام في الآية وذكر هذه الجمل الثلاث المذكورة في المتن.

لتستثنى؟ ولقد عفى الله عنهم يوم أُحد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1] ويوم حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إذاً فالفرار من الزحف هو كسائر الكبائر من موارد المغفرة بالتوبة الصالحة[3].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

بعد هذه الخوارق لعادات الحرب وتكتيكاتها، في هذه الهزيمة العظيمة للمشركين الكثرة بالمؤمنين القلة، لم يكن عاملها وعامل هزيمتهم لا الرسول ولا المؤمنون ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في الحق بطاقاتكم البشرية العاديّة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾ بما نصركم في حلقات ظاهرة وباطنة.

﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ رمية الحرب وما أشبه ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ حيث هداك ونصرك وعبّد لك طريق النصر، هذه الشائكة الخطرة الملتوية،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٣) وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب، ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: من الفرارون؟ فقلنا: نحن الفرارون، قال: بل أنتم العكارون، أنا فئتكم وفئة المسلمين، قال: فأتيناه حتى قبلنا يده.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ - ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ - ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك القتل الرباني وليبلى ﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾ حتى يلمسوا نصر الله، تحقيقاً لوعد الله واستغاثتكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ذلك، ومع أنا لا نجد قتلات ورميات للرسول ﷺ في هذه المعركة، نجد الرمية - وكأنها هي الوحيدة - خاصة بالرسول ﷺ في هذه التصريحة اليتيمة، فما هي هذه الرمية البارزة بين كل رمية؟

إنه ليس الواجب الهام على قائد القوات المسلحة أن يتولى القتلة والرمية بنفسه، فإنما مهمته قيادته الحكيمة وخطته العاقلة في كل رمية وقتلة، وإذاً تصح نسبة كل المحاصيل الحربية إلى القائد نفسه، رغم عدم خوضه لأصل المعركة بنفسه، أم وعدم حضوره فيها، فضلاً عن الرسول ﷺ الخائض بنفسه هذه الحرب، مخططاً لها بنفسه منذ خروجه من المدينة حتى الانتصار الكامل.

وهنا اختصاص الرمية المنفية بالرسول ﷺ وتعميم القتلة المؤمنين معه، دليل اختصاص الرمية القيادية به، رمياً للقوات الإيمانية إلى صفوف المشركين بما رمى.

ففي نقطة الانطلاق نجد الرسول ﷺ هو البادئ والمحرض ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ثم قبل المواجهة ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾(١) وعند الاستغاثة غوثاً وغيثاً هو المستغيث أولاً: «اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف به ماداً يديه حتى سقط رداءه من منكبه فنزل» إذ تستغيثون.

ومن قبل هو الذي أراهم قبل الخروج والمواجهة مصارع القوم بما أراه

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

الله حتى رأوها بأم أعينهم، ثم هو الذي كان يثبتهم ويرشدهم ويخطط لهم خطوة خطوة حتى النهاية:

ولما أصبح رسول الله ﷺ يوم بدر عبأ أصحابه فكان في عسكره فرسان فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد بن الأسود وكان في عسكره سبعون جملاً يتعاقبون عليها، وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد يتعاقبون على جمل لمرثد فنظر رسول الله ﷺ إلى عبيدة ابن الحارث - وكان له يومئذٍ سبعون سنة - فقال: قم يا عبيدة، ونظر إلى حمزة فقال: قم يا حمزة ثم نظر إلى علي عليه السلام فقال: قم يا علي وكان أصغر القوم - فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفئ نور الله، وقال لحمزة: عليك بشيبة وقال لعلي عليه السلام: عليك بالوليد...

وهكذا نجده من خلال هذه الحرب يقودهم روحياً وحربياً خطوة خطوة دون أن تغيب عنه حركته، إذ كانت كافة الحركات والتكتيكات بقيادته الشخصية، ومن ناحية أخرى لما يرى العدو فاعلية القوات المسلحة - القوية الصارمة - بتلك القيادة الحكيمة، فهم يحسبون ألف حساب لقائد القوات ليسوا ليحسبوها لو أنه هو الداخل بنفسه في القتال، لذلك فأصل الرمي في هذه الحرب كان من أصل القيادة الرسولية، ثم الله ينفيه عنه - أيضاً - ناسباً له إلى نفسه - كما القتل العام -، إذ هو الذي أيدهم بنصره ما لولاه لكانوا خطف ساعة! إذاً فسلب القتل عنهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ سلبٌ واقع لا مرد له إذ لم يكونوا يَقتلون - بل يُقتلون - لولا الشروطات الإيجابية والسلبية الربانية لتلك القتلة الخارقة للعادة، فهم في أنفسهم صفر الأيدي عن تلك القتلة الغالبة المنقطعة النظير، فقد قتلهم بما طمأن الله قلوب المؤمنين، وأنزل عليهم من السماء ماءً فوطّد رملتهم أولاء وأوحل طينتهم هؤلاء ففشلوا في مواطئهم، وأنزل ألفاً من الملائكة مردفين

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾[١] ففشلوا ووهنوا في ذوات أنفسهم، ثم وألقى الرعب في قلوبهم، إذاً فمن هو الذي قتلهم إلّا الله، مهما ظهرت مظاهر المقاتل؟

ثم إثبات الرمي له ﷺ بعد سلبه لامحٌ إلى ميِّزة خاصة ودور متميِّز للرسول ﷺ قائداً للقوات المسلحة، حيث رمى ما رماه في قيادته الحربية بكل بسالة وشطارة، إضافة إلى الأهداف الواصلة هي إليها التي كانت هي الأخرى من النصرة الربانية في ذلك المَسْرح، مَصْرحاً لمدى الفاعلية والقابلية لقائد القوات المسلحة الرسولي.

فلأن القائد هنا له دوران اثنان فقد يصدق أنه ﴿رَمَىٰ﴾ حال أنه ما رمى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ولم يكن للمؤمنين إلّا دور واحد أنهم كانوا مقودين صالحين بتلك القيادة، فقد يصدق أنهم ما قتلوهم ولكن الله قتلهم.

وترى أن رسول الله ﷺ - فقط - رمى ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ولم يقتل؟ المهم لدوره كقائد القوات هو الرمي، لأنه يعني - بما عنت - رمي الحصباء إلى وجوه الكفار قائلاً: شاهت الوجود، فارتموا وارتبكوا حتى لم يكونوا ليروا واقع عديد المؤمنين القلة، ولم يروا إلّا قلتهم أنفسهم فهزيمتّهم، فلذلك فقدوا عزيمتهم وتناسوا عظيمتهم، وكل ذلك من الله، فإن مجرد رمي التراب لا يخلف تلك الهزيمة العظيمة، ومهما كانت صورة الرمية منك فسيرتها ومصيرتها هما من الله.

فكما في المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾[٢] إذ يسلب عنه واقع الإحياء إلى ظاهرة من فعله المأذون، حيث أذن الله في حياة الموتى قرناً لفعله عليه السلام غير الفاعل تلك الفعلة الربانية، كذلك أنت يا قائد القوات

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ رمية الغلبة هذه الخارقة للعادة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إياها، إيصالاً لكف من التراب إلى ألفي عين، وإيغالاً لأصحابها فيما أوغل، وكأن ذلك التراب غازات كيماوية تعمي العيون ثم وترعب القلوب.

ذلك، إلى سائر رميات الرسول ﷺ التكتيكية في بدر الكبرى، فقد انحصرت رمياته في مظاهر ثلاثة: رمية القتل، ورمية الحصى، وسائر الرمية الحربية بتكتيكاتها، ولكن الفاعلية الواقعية في هذه الرميات لم تكن إلّا من الله ما لولاه لم يحصل ما حصل لصالح المؤمنين.

ذلك، والرمية الأصلية هي رمية التراب حيث قال ﷺ: أمام معسكر العدو: اللّهم إنك أمرتني بالقتال، ووعدتني النصر ولا خلف لوعدك، وأخذ قبضة من حصى فرمى بها في وجوههم فانهزموا بإذن الله فذلك قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١) - «فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء»(٢)، «وما قتلتموهم» فلأنهم استغلوا عميان العيون بهذه الرمية فاغتالوهم(٣).

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٧٤ - أخرج ابن عساكر عن مكحول قال: لما كرّ عليّ وحمزة على شيبة بن ربيعة غضب المشركون وقالوا اثنان بواحد فاشتعل القتال فقال رسول الله ﷺ: وفيه عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال: شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ...﴾ [الأنفال: ١٧].

(٢) المصدر أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم فنزلت هذه الآية، وأخرجه مثله الحمويني بسنده المتصل عن ابن عباس عنه ﷺ (ملحقات إحقاق الحق ٣: ٥٤٥).

(٣) المصدر أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنى القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ...﴾ [الأنفال: ١٧].

ذلـك، فـحـقـاً ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيث العَدَد والعُدد للمشركين كانا أضعاف ما للمسلمين، فالعدد ثلاثة أضعاف، والخيل مائتا ضعف، والسيوف خمسمائة ضعف، والحالة السابقة للمشركين غَلَبُهُم عليهم حيث أخرجوهم قبل أشهر من العاصمة، ولم يكن من المسلمين إلّا رمية الحصباء من النبي ﷺ بدعاء النصر، فشملهم المؤمنون قتلاً وحصراً وأسراً فبطلت مكيدتهم، وسكنت أجراسهم، وخمدت أنفاسهم، فهم بين قتيل وجريح وأسير وحصير وفرير!: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في بدر، فلماذا - إذاً - تولي الأدبار![1].

ذلك، جبراً لكسرهم في هجرتهم الهاجرة، وإعلاءً لكلمة الحق إحقاقاً لها وإخفاقاً للباطل ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ تأكيداً لهم أن سيروا وعين الله يرعاكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ مقالهم ومقال أعدائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالهم وحال أعدائهم وما هو الصالح في ذلك المسرح الوطيد.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الله ربكم إن تنصروه ينصركم، و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الغلب الخارق لمألوف الحروب هو من بلائه الحسن ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كما أوهنه بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الرمية والقتلة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾:

---

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٥: ١٣٦ قال مجاهد: اختلفوا في بدر فقال هذا: أنا قتلت وقال الآخر: أنا قتلت فأنزل الله هذه الآية، وروي أنه لما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ: هذه قريش قد جاء بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك: اللّهم إني أسألك ما وعدتني، فنزل جبرئيل وقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي عليه السلام: أعطني قبضة من التراب من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال: شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا.

وهل المخاطَبون هنا هم المشركون حيث استفتح أبو جهلهم بقوله: «اللّهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم»؟ فقد جاءكم الفتح، حيث فتح عليكم للمؤمنين لأنهم أحب إليه وأرضى عنده.

جاءكم الفتح المرضي عند الله لصالح الأحب إلى الله والأرضى، فجعل الدائرة عليكم تحقيقاً لاستفتاحكم، فعليكم - إذاً - أن تنتهوا عن غيكم وجهلكم إلى رشدكم إيماناً بهذه الرسالة السامية، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وما أنتم عليه شرٌّ لكم.

﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ إلى غيكم ومحاربة المؤمنين ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصرهم وهزيمتكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ عِدَّة وعُدَّة ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ كما لم تغن عنكم يوم بدر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ على أية حال ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ما داموا معه، فالمعركة - إذاً - بين الفريقين غير مكافئة حيث المؤمنون - ومعهم الله - هم منتصرون دائماً، والكافرون منهزمون كذلك، معركة مقررة المصير، إلا عند تخلف المؤمنين عن المسير، إذاً فمصيرهم مصير من سواهم بسجال الحرب.

ذلك، وإلى واجهة أخرى علّها معنية مع الأولى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أنتم المؤمنين فتح الفتوح، رجوعاً إلى العاصمة الرسالية، وكما كانوا يستفتحون منذ الهجرة: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ هنا في بدر، كبادرة للفتح المبين وأنتم أذلة وقلة فـ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[2] وسوف يأتيكم

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

- بأحرى - بعد ردح إذا كنتم كما أنتم وبأحرى وأقوى، فقد تشمل ﴿جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الفتح المستقبل إلى الماضي قضية تحقق وقوعه بما وعد الله.

ثم تحول الخطاب إلى الفرق الآخر ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أم وقد يشمل المؤمنين ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عما لا يليق بالمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أو ﴿تَنتَهُوا۟﴾ عن استعجال الفتح المبين حيث يأتي الله لكم حتى حين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لهذه الحالة والهالة الإيمانية التي اقتضت غلبكم عليهم ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصركم، ولكن اعلموا أنه: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لو لا واقع الإيمان، كما لم تغن يوم أُحد حيث تركتم المواقع المقررة لكم طمعاً في الغنيمة، وعلى أية حال ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قدر إيمانهم.

وما أجمله جمعاً بين الخطابين بمثنى الاستفتاحين المتعاكسين، ثم ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أنتم المشركون عما أنتم عليه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ توبة إلى الله أم تركا لمحاربة المؤمنين بالله، ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى تلك المحاربة ﴿نَعُدْ﴾ إلى ذلك الاستفتاح، واعلم أن ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ عِدَّة وعُدَّة عن الله ﴿شَيْـًٔا﴾ ما دام الله مع المؤمنين ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ كما كثرت ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أم ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ أنتم المؤمنون عن القتال استفزازاً للكفار، أم عن الاستفتاح العاجل، أم عما لا يليق بالمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى صالح الإيمان ﴿نَعُدْ﴾ إلى الفتح لصالح الأمان، واعلموا أنه ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ إن كانت لكم فئة ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لو لم يكن الله ناصركم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فقد حملت الآية نذارة للكافرين وبشارة للمؤمنين دونما اختصاص في خطابها فريقاً دون آخرين، قضيةَ أدب اللفظ وحَدَب المعنى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)﴾:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما يأمركم وينهاكم ﴿وَرَسُولَهُ﴾ فيما يحمل إليكم من طاعة الله ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾: عن الله أصالة وعن رسوله رسالة، فإفراد الضمير قاصد إلى تلك الأصالة أن ليست طاعة الرسول مستقلة أو مشتغلَة عن طاعة

الله، ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أنباء ما قد سلف من المتولين عن الله ورسوله، والمطيعين الله ورسوله، و﴿تَسْمَعُونَ﴾ أوامر الله تترى في كتابه وعلى لسان رسوله.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالمنافقين ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ عقيدياً وعملياً، فإنما يسمعون سمع النفاق دون وفاق، وكالكفار المستهزئين بما يسمعون: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾(١) فهم ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(٢) كافرين أو منافقين ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٣) أم ومؤمنين متخلفين قدر ما هم يشابهونهما في عدم سمعهم لما يسمعون.

فقد تعني ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ جمعاً من المكيين الذين آمنوا أوَّل مرة ثم أخرجوا مع المشركين إلى بدر التحاقاً إلى الرسول ﷺ أم نَظِرة الالتحاق بالفرقة الغالبة، فلما رأوا قلة المسلمين قال نفر منهم ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾(٤) وأما الذين خرجوا إلى بدر مع الرسول ﷺ فهم خُلَّص ذو خلَّطٍ مهما كانوا درجات.

وحين تكون طاعة الرسول كطاعة الله مفروضة طليقة والتولي عنه كالتولي عن الله مرفوض طليق فما هو الجواب عن «حيلولة عمر بينه ﷺ وبين كتابة وصيته ﷺ في مرض وفاته»(٥)؟ والوصية حق لكل مسلم فضلاً

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الملك، الآية: ١٠.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٥) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٣ ب ٣٩ قاك ٥٨ ب ٦، ك ٦٤ ب ٨٣ك ٧٥ ب ١٧ ك ٩٦ ب ٢٦ مس - ك ٢٥ ب ٢٢ قد - ج ٢ ق ٢ ص ٣٦ و٣٢٤ و٣٣٦ قا حم - أوّل ص ٢٣٢ و٢٩٣ و٣٢٤ و٣٣٦ قا ٣٥٥ ثالث ص ٣٤٦.

عن النبي الذي يعني في وصيته تحويل هامة الأمور الرسالية إلى من يرضاه الله! و«لقد لُدَّ في مرضه وهو غير راض»[(١)].

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

إن الشرَّ المعني هنا ليس إلّا في حقل التكليف الإنساني ومن أشبه، فالتعبير هنا بـ: ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ دون «الناس» أو «الجنة والناس» تنديد بهؤلاء النسناس الذين هم في الحق دوابٌّ بل هم أضل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[(٢)].

فـ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ هنا طليعة تشمل خيرها وشرها، من حيوانها وإنسانها وغيرهما، والشر الطليق بينها ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شراً بين خير من الدواب أو شر بقصور أم تقصير.

فطالما البهائم لها آذان ولكنها ليست لتسمع سمع الإنسان، وهي مهتدية بفطرتها كما فطر الله ولكن هؤلاء الدواب الناس النسناس لهم آذان وألسنة وهم بسوء صنيعهم لا يسمعون إنسانياً ولا ينطقون، فقد قطعوا عن أنفسهم النفسية الإنسانية النفيسة إلى نفسية نحيسة بئيسة تعيسة جعلتهم ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ بصورة طليقة! حيث سدوا منافذ الإدراك ظاهراً على آذانهم، وإذاعتها على ألسنتهم، وباطناً على قلوبهم، وأهم الواردات المعرفية هي الواردة من الأسماع: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(٣)].

وشر الدواب هؤلاء الأنكاد لهم «الصورة صورة إنسان والقلب قلب

---

(١) المصدر - ك ٧٦ ب ٢١ مس - ك ٣٩ ح ٨٥ و٨٦ عد - ج ٢ ق ٢ ص ٣١ حم - أول ص ٢٠٩ سادس ص ٥٣ و١١٨ و٤٣٨ هش - ص ١٠٠٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٣) سورة الملك، الآية: ١٠.

حيوان وذلك ميِّت الأحياء» (٨٥ / ١٥٥) - أولئك «لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، والصخور القاسية» (١٠٦ و٤٠) - «منهوما باللذة، سَلِس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار، ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شيءٍ شبهاً بالأنعام السائمة» (١٤٧ ح/ ٥٩٥).

إن الله تعالى لم يخلق دابة شريرة في أصلها، فلم يخلق الشيطان شيطاناً وإنما جناً كسائر الجان، ثم هو الذي شيطن نفسه بسوء صنيعه، كما لم يخلق الكافر كافراً، وكذلك سائر الدواب الشريرة، اللّهم إلّا شراً قاصراً هو قضية كون الكائن مخلوقاً إذ لا يمكن أن يُخلق ما هو خير مطلق كما الله.

ذلك، فالدواب الشريرة في حقل ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ هي المقصرة في شرها فأين تقصير سائر الدواب وتقصير الصم البكم، فقضية خلق الإنسان في أحسن تقويم والشرعة التي تقومه أكثر صاعداً في المعارج، ألا يعمل شراً أم يعمل أقل من سائر الدواب، فأما إذا يعاكس الإنسان أمره ارتداداً إلى أسفل سافلين فهو ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ بصورة طليقة وكما يقول الله عنه ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] مهما كان حمل الأمانة خيانة من سائر الكائنات كثيرة، فهو بجنب حمل الإنسان ضئيل قليل.

والتعبير عن الصم البكم بالدواب تعبير لهم بارتجاعهم إلى كيان الدواب الشريرة وأضل سبيلاً، فلا يحق لهم اسم الإنسان أو الناس بل هم الدواب النسناس.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

هنا «لو» تحيل أن يعلم الله فيهم خيراً إذ لا خير فيهم حتى يُعلم، فهنا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

مساواة بين علم الله شيئاً وواقعه، وبين عدمه وعدم واقعه لأنه بكل شيء محيط.

فحين لا سمع لهم وهم صمٌّ بسوء فعالهم واختيارهم، فلا يحق إسماعهم الحق الذي هم عنه معرضون، إذاً - والحال هذه - «ولو أسمعهم - أسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم - لتولوا» عما أسمعوا ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الحق المُرام. فـ«إذا أراد الله بقوم خيراً أسمعهم ولو أسمع من لم يَسمع لولّى كأن لم يسمع»[1].

فليس ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وارداً مورد سمع القبول، وإلّا لاستحال التولي والإعراض، إنما هو مورد سمع التمُّنع لهؤلاء الدواب الصُّم البكم الذين لا يعقلون.

وقد قيل إنهم سألوا الرسول ﷺ أن يحيي لهم قصي بن كلاب وغيره من موتاهم ليخبروهم بصحة نبوته، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون قولهم هذا إلا تعنتاً وعناداً، فحتى لو أسمعهم كلام موتاهم تصديقاً لهذه الرسالة ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾:

﴿... اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وكيف «لما» دون «إلى ما»؟ علّه كما الصراط المستقيم حيث يُهداه أو يهدى له أو يهدي إليه، مثلث متدرجة الزوايا في حقل الهدى.

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٤١ في أصول الكافي بسند متصل عن سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه وعلم تغيير الزمان وحدثانه، إذا أراد الله ثم أمسك هنيئة ثم قال: ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا والله المستعان.

فهنا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لمحة إلى لزام الحياة لما يدعوكم بكل وصل: أصل دون أي فصل فاصل.

والحياة الموعودة هنا بالدعوة ليست - بطبيعة الحال - هي الحياة الحاصلة قبل الدعوة والاستجابة، كالحياة الحيوانية والإنسانية الفطرية والعقلية أماهيه من حياة معطاة قبل أي دعاء واستجابة.

ثم وليست هي حياة طليق الإيمان أيضاً حيث المخاطَبون هم المؤمنون، إذاً فهي فوق أصل الإيمان بدرجاته المتكاملة على ضوء الاستجابة في مختلف حقول الدعوة الربانية، كالحياة الحاصلة بالجهاد في سبيل الله وهي ﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[1] قاتلاً ومقتولاً فـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2] وهذه حياة متميزة عن سائر الحياة لأهل البرزخ.

هذا، ولكن لا تختص الحياة الموعودة بحياة الشهداء، كما لا تختص الدعوة لما يحييكم بالجهاد، بل هي الدعوة العامة القرآنية بكل حقولها.

ذلك والإحياء بهذه الحياة: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[3] - ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[4] - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5]: أطوار من الحياة بعد حياة الإيمان: تثبيتاً للإيمان ومزيداً له وتأييداً بروح منه وسائر الحياة الطيبة علماً ومعرفة وإيماناً، فـ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[6].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٦) سورة محمد، الآية: ١٧.

وبصيغة واحدة المجاهدة في سبيل الله هي التي تحييكم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾[١].

إذاً ف «استجيبوا... إذا دعاكم لما يحييكم» و«إذاً» هذه مستمرة على مدار الدعوات الربانية بالقرآن والسنة، فإنها تحييكم مهما اختلفت درجات إحيائها حسب درجات أحيائها وموادها، وقد شهد بحق هذه الحياة الرسولية والرسالية المحمدية من غير المسلمين كثير[٢].

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) يقول الشاعر الفرنسي (لامارتين) ١٧٩٠ - ١٨٦٩ وهو من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومنطيقية - يقول بحق هذا النبي العظيم: «إن حياة مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وشدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وإيمانه بالظفر، وإعلاء كلمته، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، إن كلّ ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعاً أو يعيش على باطل - فهو فيلسوف، وخطيب، ورسول، ومشرع، وهادي الإنسان، إلى العقل، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب، ومؤسس دين لا فرية فيه، ولا صور، ولا رقيات، ومنشئ عشرين دولة في الأرض، وفاتح دولة روحية في السماء وتمتلئ بها الأفئدة - فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ» (أخرجه المهندس زكريا هاشم زكريا: المستشرقون والإسلام ص ٢٧٢ - انظر كتاب أحمد السيد (محمد نبي الإنسانية) دار الشروق ص ٧٦.

ويقول ويل ديورانت - المؤلف الأمريكي، صاحب قصة الحضارة -: وإذا حكمنا للعظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الفرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كلّ ما كان يحلم به، واستطاع في جيل واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم. (قصة الحضارة - ترجمة محمد بدران - الجزء الثاني المجلد الرابع ص ٦).

وفي دائرة المعارف البريطانية تحت مادة «محمد»: محمد بن عبد الله مؤسس الدين الإسلامي - ولد في مكة عام ٥٧٠ ميلادية ومات عام ٦٣٢، وقليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الأثر العميق الدائم الذي أحدثه محمد، لقد أحدث أثراً دينياً عميقاً لا يزال منذ دعا =

ثم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ حيلولة صالحة لمن يستحقها بتلك الاستجابة الإيمانية، وطالحة جزاءً وفاقاً للذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ: «يحول بين المؤمن والكفر ويحول بين الكافر والهدى»[1] فلو أن قلب المؤمن حاول التقلب إلى الردى حال بينه وبينها، ويعاكس أمر الكافر إلى الردى.

= إليه حتى الآن هو الإيمان الحي، والشريعة المتبعة لأكبر من سبع سكان العالم. على أن أثره التاريخي يبدو بالأكثر عندما نذكر أنه في أقل من عشرين سنة منذ بدأ دعوته قوّض دعائم إمبراطوريتين عقيدتين وهما الإمبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية، مؤسساً على أنقاضهما حضارة جديدة - ولقد أرسى منذ جاء بدعوته - التي هي عقيدة وشريعة - قواعد بناء المجتمع الاجتماعية والسياسية، وقد أعقب موته أن سجل خلفائه الأحاديث التي رويت عنه، وأدق التصرفات والأفعال التي قام بها، فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراساً ومثلاً أعلى يحتذونه في حياتهم اليومية جيلاً بعد جيل (أحمد السيد: محمد نبي الإنسانية - دار الشروق ص ٧٢).

وجاء في كتاب (مختصر تاريخ الإنسانية) لمؤلفه هـ. ج. ويلز: كان يمكن لأي متنبئ تاريخي يستعرض حياة بشر في مستهل القرن السابع الميلادي، أن يتوقع بحق أنه لن تمضي بضعة قرون حتى تقع كلّ أوروبا وآسيا تحت سيادة المغول والتتار، فلم يكن في أوروبا الغربية أي إشارة تدل على إمكان قيام النظام فضلاً عن الوحدة، والإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية كانتا في طريقهما نحو الانحلال والدمار - ولكن هذا المتنبي كان سيخطئ في تقديره، فقد اشتعلت دنيا الصحراء والبدو بمائة عام من المجد عندما بسط العرب سلطانهم ومدوا حكمهم ولغتهم من اسبانيا إلى حدود الصين، مقدمين للعالم ثقافة جديدة، ومنشئين ديناً لا يزال حتى اليوم أحد القوى الحيوية في العالم - وكان محمد بن عبد الله هو الذي أشعل الجزيرة العربية ودفعها لتحقيق ذلك كله، والذي ظل حتى سن الأربعين لا يميز نفسه بشيء غير عادي عن بقية معاصريه، (أخرجه أحمد السيد في: محمد نبي الإنسانية، المصدر نفسه ص ٧٣).

(١) الدر المنثور ٣: ١٧٦ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: . . . ، وفيه عن ابن عباس في الآية قال: يحول بين المؤمن وبين معصيته التي يستوجب بها الهلكة فلا بد لابن آدم أن يصيب دون ذلك ولا يدخل على قلبه الموبقات التي يستوجب بها دار الفاسقين ويحول بين الكافر وطاعته فلا يصيب من طاعته ما يستوجب ما يصيب أولياءه من الخير شيئاً وكان ذلك في العلم السابق الذي ينتهي إليه أمر الله تعالى وتستقر عنده أعمال العباد.

ذلك، ومما يحييكم، الداخل في دعوة الله والرسول، ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام كما يروى[(١)].

وعلى أية حال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[(٢)] فالله أقرب إلى قلوبنا منا إليها:

يار نز ديكر از من بمن است وين عجب تر كه من أزوى دورم

ذلك، فـ «كلٌّ ميسر.. صاحب النار ميسَّر لعمل النار وصاحب الجنة ميسر لعمل الجنة»[(٣)]: إذ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[(٤)].

أجل، كلٌّ ميسر وليس مسيَّراً، وليست الحيلولة الربانية بين المرء وقلبه مؤمناً أو كافراً، إلا بما يختاره صاحبه تيسراً لما يهواه، دون ما يختاره الله له أو عليه تسييراً خلاف هواه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[(٥)].

فالحيلولة الربانية بين المرء وقلبه تحلق على كل مرءٍ بقلبه، ولأن

---

(١) وممن أورده وصححه الحافظ أبو بكر بن مردويه على ما في تفسير اللوامع وكشف الغمة (٩٥) روى بإسناده مرفوعاً إلى الإمام الباقر عليه السلام أن هذه الآية قد نزلت في ولاية علي بن أبي طالب، ومنهم الترمذي في مناقب مرتضوي (٥٦) نقلاً عن ابن مردويه في المناقب.

(٢) سورة ق، الآية: ١٦.

(٣) المصدر أخرج أبو الشيخ عن أبي غالب قال سألت ابن عباس عن هذه الآية قال: قد سبقت بها عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ وصف لهم عن القضاء فقال لعمرو غيره ممن سأله من أصحابه: اعمل فكل ميسر قال: وما ذلك التيسر؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم صاحب النار.

وفي نور الثقلين ٢: ١٤١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار وبين الكافر وبين طاعته أن يستكمل بها الإيمان واعلموا أن الأعمال بخواتيهما، وفيه عن كتاب التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ولا يستيقن القلب أن الباطل حق أبداً.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

القلوب هي أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء، فلا تفويض لعباد الله في أفعالهم كما لا جبر، ولله تعالى الدور الأصيل في تحويل القلوب عدلاً وفضلاً، حيلولة بين إمام الأئمة والمأمومين في مخمس الكيان الإنساني في هذا الحقل.

وليس ﴿ٱللَّهَ يَحُولُ﴾ يعني أنه بذاته يحول بين المرء وقلبه، فإنما هي علمه ومشيئته الحائلة بينهما، فصلاً بين المرء وبين قلبه، فإنه فصل بين قلبه كإمام الأئمة وبين المأمومين العقول والأفكار والحواس والأعضاء.

فحين يحنُّ قلب المؤمن خلاف هواه إلى شرٍّ أو يحن إلى ترك خير فـ ﴿ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ تقليباً له إلى خير أم ترك شر، ويعاكسه الكافر، قضيةَ الجزاء العدل.

فرغم أن القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء[١]، رغم ذلك لله المشية الحكيمة بين القلوب وسائر الخمسة تدبيراً صالحاً على ضوء ما يقدمه المرء من معدَّات وما يعنيه في أصل التصميم الصميم خيراً أو شراً، وصالح الحيلولة الإلهية هو حيلولة العلم فإنه أقرب إلينا منا، وحيلولة القيومية، فإنه أقوم لنا منا،

---

(١) وبنقل آخر في مستدرك نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء (مستدرك ١٧٦) ولكن الآية تؤيد ما ننقله في المتن كراراً، حيث المحاور الأصيلة هي القلوب، وحصائل العقول والأفكار والصدور لما تدخل في القلوب تغربل وتخلص.
وقد يوجه الوجهان توافقاً بينهما في وجهين، أن للعقول قوساً صعودياً وآخر نزولياً، فالصعودي أنها أسس الأفكار ثم الأفكار أسس القلوب ثم القلوب آمرة للحواس ثم الحواس آمرة للأعضاء.
والقوس النزولي أن القلوب تأمر العقول والعقول تأمر الأفكار والأفكار تأمر الحواس والحواس تأمر الأعضاء، فالآمرية الأخيرة إذاً هي للحواس حيث تأمر الأعضاء، ثم بداية الصعود من العقول، ثم نزول الأمر من القلوب إلى العقول إلى الأفكار. تأمل.

وحيلولة الإرادة إيجابياً أو سلبياً في صالحنا وطالحنا كما هو قضية العدل أو الفضل، توحيداً لربوبية التأثير، وحين يحول الله بين المرء وقلبه، فبأحرى له أن يحول بين المرء وكل قواته ومراداته، بين بصره ومبصره، بين سمعه ومسموعه، بين ذوقه ومذوقه، بين حسه ومحسوسه، وبين كل كيانه وما يهواه، وحيلولته بين المرء وقلبه هي حيلولة بينه وبين كل كيانه، وهو القائل ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1] منه إلى نفسه وحياته ككل، وهذه الحيلولة الشاملة هي من قضايا ملكه الطليق للكائنات كلها.

وليس يكفي للمرء أن يعقل صحيحاً، فكثير هؤلاء الذين يعقلون ثم لا تطمئن قلوبهم بما عقلوه لأن قلوبهم مقلوبة مطموسة مركوسة فلا تستجيب.

ذلك، وبوجه آخر تعني هذه الحيلولة أن الله لا يغيب عن أي قلب مهما تناكر وتجاهل، فقد يغيب عن القلب أي حاضر أو غائب ولا يغيب الله عنه قضية الفطرة المجبولة على معرفة الله، فلا عاذرة في عدم استجابة الله ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

فقد تعرفه القلوب، ويعرف هو القلوب وما في القلوب، وهو يقلبها كيف يشاء، فهو المرجع والملجأ في تقلب القلوب فالعقول فالأفكار فالحواس فالأعضاء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[2].

وهذا المقطع القاطع من آية الاستجابة هذه يحلّق على جذور المعارف الربانية، قاطعاً أعذار المتجاهلين المتكاسلين دعوة الله، قالعاً غِرة النفاق، وغرور الإيمان الوفاق، أن المؤمن - أياً كان - ليس ليستقل في إيمانه فتزول به نكبة الغُرور نكسة للغَرور، وهو عبارة أخرى عن ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[3].

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

ذلك، ومن حيلولته تعالى بين المرء وقلبه قربه إليه أقرب من نفسه إلى نفسه، فـ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1].

ومنها أن ينسيه ما ذكره أو يذكره ما نسيه، فإن القلب بين أصبعي الرحمان، ومنها أن يزيل عنه عقله وتميزه، حيلولة لإزالته، أم لتخفيفه، أم ولتثبيته، فلا فاعلية للقلب ولا عطلة إلا بإرادته تعالى حسب القابليات والفاعليات، وهكذا يحول بين قلب الكافر وبينه تجميداً لصميم قصده السيّئ الخطر، كما يحول بين قلب المؤمن وبين نفسه تأييداً له في فعل الخير وترك الشر تكويناً، كما ويحول تشريعاً بالأمر والنهي حيث الإيمان قيد الفتك.

وتلك الحيلولة المؤمنة تعني إمحاء ما يناحر الإيمان أو يُضعفه وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله تفسيراً لآية المحو والإثبات:

«يمحو الكفر ويثبت الإيمان، ويمحو النكرة ويثبت المعرفة، ويمحو الغفلة ويثبت الذكر، ويمحو البغض ويثبت المحبة، ويمحو الضعف ويثبت القوة، ويمحو الجهل ويثبت العلم، ويمحو الشك ويثبت اليقين، ويمحو الهوى ويثبت العقل على هذا النسق ودليله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2] محواً وإثباتاً»[3].

حيلولات ربانية تناسب ساحة قدسه تعالى قضية وحدانيته الوحيدة غير الوهيدة فيما يحصل من خلقه أم لا يحصل.

ولعمر إلّهي الحق إنها صورة رهيبة يتمثلها القلب بين أصبعي الرحمان - رحمة وغضباً - يقلبه كيف يشاء حسب المساعي صالحة وطالحة

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.
(٣) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٩٥ عنه عليه السلام.

لأصحاب القلوب.. صورة تستوجب اليقظة الدائمة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته، تحذراً من كل هاجسة فيه واجسة، تعلقاً دائماً بالله، واستجابة له ولرسوله مخافة تقلبه في سهوة أو غفلة أو دفعة، ففراراً إليه مما سواه.

ولقد كان رسول الله ﷺ على محتده القمة عند الله يكرِّر دعاءه: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فكيف بنا ونحن نحن المجاهيل الضعفاء الفالتون.

فـ «اللَّهم داحيَ المدحوات وداعم المسموكات، وجابل القلوب على خطريها: شقيها وسعيدها»[1] ثبت قلوبنا على دينك.

فقلوب المؤمنين المطمئنين بالله تتقلب إلى الرشد والنور، وقلوب مَن سواهم تتقلب إلى النار «قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها»[2] «فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان وذلك ميت الأحياء» (٨٥) -.

فـ «أين القلوب التي وُهبت لله، وعوقدت على طاعة الله» (١٤٢) -.

«فلو شغلتَ قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونَقة، لزهِقت نفسك شوقاً إليها، ولتحملتَ من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها، جعلنا الله وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته (١٦٣) - و«أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر» (١٧١) -.

«وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه،

---

(١) (الخطبة ٧٠).

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٨١ / ٢/ ١٤٣. وكذلك التي تتلوها بأرقامها.

وإن كان شراً واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له وماذا عليه، ولقد قال رسول الله ﷺ: لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (١٧٤) -.

«ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المَجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله، وأسباباً ذُلُلاً لعفوه، فالله الله في عاجل البغي، وآجل وَخامة الظلم، وسوء عاقبة الكِبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تُساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبداً، ولا تشوي أحداً، لا عالماً لِعلمه، ولا مُقِلاً في طمره، وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم» (١٩٠) -.

فـ «أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوِّه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلِّله بذكر الموت، قرره بالفناء، وبصِّره فجائع الدنيا، وحذِّره صولة الدهر وفُحشَ تقلُّب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين» (٢٧٠) -.

فيا لله من ذلك القلب المتقلب الذي احتل الإمامة الكبرى في كيان الإنسان ككل، فـ «لقد عُلِّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وذلك القلب - بضعة من روحه - وله موارد من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن مَلكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحَذَر، وإن اتسع له الأمن استلبته

الغِرَّة، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضَّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشَّبَع كظَّته البِطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد» (١٠٨ ح).

و«إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي» (١٩٣ ح) -.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾:

إنها فتنة شاملة الذين عدلوا إلى الذين ظلموا، أوَ ليس هذا ظلماً بالذين لم يظلموا أن يسوَّوا بالذين ظلموا في هذه الفتنة؟ أم كيف تُتقى وتقوى العدول هي خير وقاية، فإن كان هؤلاء غير متقين فهم من الذين ظلموا.

وإن كانوا متقين فكيف - إذاً - يتقون؟ إنها فتنة وليست - فقط - عذاباً حتى لا يشمل غير الذين ظلموا، فتنة شاملة واختبار هي للذين ظلموا شرٌّ ودمار، ولكنها لغير الظالمين فتنة عليهم أن يتقوها ويقوا أنفسهم منها حتى يتخلصوا عنها ناجحين، مهما هلكت فيها أبدانهم وَفنيت أموالهم.

فالفتن الربانية أنماط وأشكال يتعاكس الأمر فيها للذين اتقوا على الذين ظلموا، فقد تكون فتنة خير وسعة، وأخرى فتنة شر وضيق ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1] فالذين آمنوا واتقوا هم ناجحون والذين فسقوا وطغوا هم ساقطون: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[2].

فمن جملة الفتن التي ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ فتنة الخلافة

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

بعد الرسول ﷺ[١] وعن النبي ﷺ قال: أخبرت أنهم أصحاب الجمل[٢] وفتنتهم في ليلة القدر هل هي ماضية أم مستمرة[٣] وما أشبه من فتن صعبة ملتوية تجعل المتوسطين في الإيمان حيارى، فضلاً عن البسيطين كفتنة الرماة يوم أُحد، وهنالك مجالة حق التقوى حفاظاً على صالح الهدى.

ولقد تعترضكم فتن تزلزل فيها أركان الإيمان، ما ليس لها بُقية إلّا بكامل التقوى والإيمان: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٤].

فـ «يا أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة»[٥] - فإن الأمر ينزل

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٤٢ عن العياشي عن عبد الرحمن بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: أصابت الناس فتنة بعدما قبض الله نبيه حتى تركوا علياً وبايعوا غيره، وهي الفتنة التي فتنوا بها وقد أمرهم رسول الله ﷺ باتباع علي عليه السلام والأوصياء من آل محمد عليهم السلام.
وفي ملحقات إحقاق الحق ٣: ٥٤٦ عن النيشابوري تفسيره ٩: ١٣٤ بهامش تفسير الطبري.
وفيه ١٤: ٣٩٩ عن الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٢٠٦ بسند متصل عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: من ظلم علياً مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي، وعن الزبير بن العوام أنه قرأ هذه الآية فقال: ما شعرت أن هذه الآية نزلت فينا إلا اليوم، يعني يوم الجمل في محاربته علياً، وفيه عن ابن عباس في الآية قال: حذر الله أصحاب محمد ﷺ أن يقاتلوا علياً.

(٢) المصدر عن العياشي عن إسماعيل السدي عن النبي ﷺ: . . .، وفي تفسير الفخر الرازي ١٥: ١٤٩ عن السدي نزلت في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل وروي أن الزبير كان يساير النبي ﷺ يوماً إذ أقبل علي عليه السلام فضحك إليه الزبير فقال رسول الله ﷺ: كيف حبك لعلي؟ فقال: يا رسول الله أحبه كحبي لولدي أو أشد، فقال: كيف أنت إذا سرت تقاتله؟

(٣) المصدر في أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام عن علي بن الحسين عليهما السلام حديث طويل وفيه: ثم قال في كتابه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً. . .﴾ [الأنفال: ٢٥] في ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] يقول: إن محمداً ﷺ يموت يقول أهل الخلاف لأمر الله عز وجل: مضت ليلة القدر مع رسول الله ﷺ فهذه فتنة أصابتهم خاصة.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٥) (الخطبة ٥).

من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة - زيادة - في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة (خ ٢٣) -.

و«كن في الفتنة كابن اللبون - رضيع الناقة - لا ظهرٌ فيُركب ولا ضرع فيُحلب» (ح)

و«لا يقولن أحدكم: اللَّهم إني أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استفاد فليستفد من مضلات الفتن فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾» (٩٣ ح).

«أما بعد أيها الناس، فأنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترئ عليها غيري بعد أن ماج غيهبها، واشتد طَلَبها، فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئَة تهدي مائة وتُضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومُناخ رِكابها ومحط رحالها ومن يُقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً، ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائِه الأمور وحوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين، وذلك إذا قلَّصت حربكم، وشمرَّت عن ساقٍ، وكانت الدنيا عليكم ضيقاً تستطيلون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتَح الله لبقية الأبرار منكم -.

إن الفتن إذا أقبلت شبَّهت، وإذا أدبرت نبَّهت، يُنكرنَ مقبلات، ويُعرفن مُدبرات، يَحُمن حومَ الرياح، يصبن بلداً ويخطئن بلداً -

ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مُظلمة عمّت خُطَّتها، وخُصَّت بليَّتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها، وأيم الله لتجدُنَّ بني أمية لكم أرباب سُوءٍ بعدي كالناب الضروس، تَعذِم بغيها، وتخبِط بيدها، وتَزبِن برجلها، وتمنع دَرَّها، لا

يزالون بكم حتى لا يَتركوا منكم إلا نافعاً لهم، أو غير ضارٍ بهم، ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه، والصاحب من مستصحِبه، ترد عليكم فتنتهم شَوهاء مَخشيَّة، وقِطعاً جاهليةً، ليس فيها منَار هدى، ولا عَلَم يُرى، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة، ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عُنفاً، ويسقيهم بكأس مصبَّرة، لا يعطيهم إلّا السيف، ولا يُجلسهم إلا الخوف فعند ذلك تود قريشٌ بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً، ولو قدرَ جزْر جَزورٍ لأقبل منهم ما أطلُب اليومَ بعضَه فلا يعطونني[1].

«فاتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النَّقمة، وتثبتوا في قَتام العِشوة واعوجاجِ الفتنة، عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قطبها، ومَدار رحالها، تبدو في مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعة جلية، شِبابُها كشِباب الغلام، وآثارها كآثار السلام، تتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخِرهم، وآخِرهم مقتد بأولهم، يتنافسون في دنيا دنية، ويتكالبون على جيفة مريحة، وعن قليل يتبرأُ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللقاء، ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرَّجوف، والقاصمة الزَّحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، وتضِل رجاةٌ بعد سلامة، وتختلف الأهواء عند هجومها، وتلتبس الآراء عند نجومها، من أشرف لها قصمته، ومن سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحُمُر في العانة، قد اضطرب معقود الحبْل، وعمي وصية الأمر، تغيض فيها الحكمة، وتنطق فيها الظَّلمَة، وتدق أهلَ البدو بِمسحَلها، وترضُّهم بكلكلها، يضيع في غُبارها الوُحدان، ويهلك في طريقها الركبان، تردِ بمُرّ القضاء، وتحلُب

(١) (الخطبة ٩٢).

عبيط الدماء، وتثلم مَنار الدين، وتنقض عقد اليقين، تهرُب منها الأكياس، وتدبِّرها الأرجاس، مرعادٌ مِبراق، كاشفة عن ساق، تُقطع فيها الأرحام، ويفارَق عليها الإسلام، بريُّها سقيم، وظاعنها مقيم»[(١)].

ذلك، ومن واجهة أخرى لأن خطاب التحدير التحظير عام يعم كافة المؤمنين، إذاً ف «فتنة» عامة تشملهم أجمع بما ظلم ظالمهم، كفتنة التفرق والتمزق من المفرقين بين المسلمين، والاتقاء فيها درجات، منها التقوى عن الدخول في الفتنة مسايرة معها أم عملاً أو عمالة لها، ومنها الصد عنها نهياً عن نكيرها قدر المستطاع، ففتنة المنكر الجماعي تشمل غير الظالمين الذين ظلوا عنها ساكتين لا يقومون بواجب الأمر والنهي، وتشمل - شيئاً مَّا - القائمين بهما إذا لم يتمسكوا بكامل التقوى إمساكاً على إيمانهم، وكما تشمل القُصَّر العاجزين عن الأمر والنهي، والتقوى العامة المفروضة على الكل في هذه الفتن ألّا يسقطوا فيها، ثم المفروضة على الخاصة أن يزيلوها أو يقلِّلوها.

ففي فتنة السلطات غير الشرعية زمنية وروحية تتساقط الشعوب بين أيديها قدرَ تخاذلها أمامها، تسايراً معها، أم تركاً للمعارضة الممكنة ضدها، أم فسحاً لمجال ظهورها في مظاهرها، والتقوى العامة المفروضة على كل المؤمنين في هذه الفتن أن يتقوا السقوط فيها تجاوباً معها، حفاظاً على بقية الإيمان وبغيته، ومعارضتها قدر المستطاع.

وهنا ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نهي مؤكد بالثقيلة، لمحة إلى ثقل الفتنة الشاملة، وقد نفيت عن إصابة الظالمين خاصة، لأنها فتنة عامة تعني - بطبيعة حالها - المجموعة، والواجب في حقلها درجات من التقوى قدر المستطاع إزالة إياها أم - لأقل تقدير - عدم السقوط فيها.

---

(١) (الخطبة ١٥١).

ذلك، وبوجه عام واجب المؤمنين أمام الفتنة الظالمة عامة وخاصة أن يصدوا عنها بداية واستمرارية، أم - لأقل تقدير - ألّا يسايروها ويتماشوا معها أو يسقطوا فيها.

فالجماعة التي تسمح لفريق منها بظلم في أية صورة من صورها، أو تسكت متجاهلاً عنه، ولا تقف في وجهه، إنها جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين.

إذاً فـ ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ صدور فتنة، أم تزايدها، أم المزايدة فيها، أم السكوت عنها بعد ما حصلت، أم التأثر بها، فواجب التقوى أمام هذه الفتن العامة درجات حسب الإمكانيات، لا - فقط - الاتقاء عن التأثر بها.

﴿فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ لأنها فتنة عامة، أم شارك فيها غير الظالمين إلى الظالمين، فأصبحوا معهم من الظالمين المستحقين لها.

فهذه الفتن الجماهيرية هي مثلثة الجهات: الظالمين، والمقصرين أمامهم تركاً لواجب الردع عن الظلم، والقاصرين الذين لا صيت لهم في حقل الظلم ولا صوت، فهي لهم فتنة غفراً وارتفاع درجة، وللأولَين فتنة جزاءً لما ظلموا أصولاً وأتباعاً.

ذلك و«ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم، إن من صرَّحت له العَبَر عما بين يديه من المَثُلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات، ألا وإن بيتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم ﷺ والذي بعثه بالحق لتُبلبلن بليلة، ولتُغربُلنَّ غربلة، ولتُساطُن سَوط القدِر، حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وليسبقَنَّ سابقون كانوا قُصروا، وليقصُرَنَّ سبّاقون كانوا سبقوا، والله ما كتمت وَشمةً، ولا كذبتُ كِذبَةً، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم، ألا وإن الخطايا خيل شُمُس حُمِل عليها أهلُها، وخُلعِت لُجمُها فتقحمت

بهم في النار، ألا وإن التقوى مَطايا ذُلُل حُمِل عليها أهلها وأعطوا أزمَّتها فأوردتهم الجنة، حق وباطل، ولكلّ أهل، فلئن أمر الباطل لقديماً فعل، ولئن قل الحق فلربَّما ولعلَّ، ولقلما أدبر شيءٌ فأقبل»[1].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿وَاذْكُرُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كما في العهد المكي ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ النسناس نقمةَ إيمانكم وكفرهم ﴿فَآوَاكُمْ﴾ هجرةً إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ في حرب بدر وسواها ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هذا، وبصورة عامة قد يشمل الخطاب كافة الأميين قبل الإسلام حيث كانوا خطف الخاطفين من الروم والفرس[2]: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[3] فآواهم الله بالإسلام، ثم آوى المهاجرين إلى المأمن المدني[4] ومن أشد الاستضعاف لقبيل الإيمان ما حصل في العهد المكي بشعب أبي طالب حيث كانوا حاسرين عن كل متطلبات الحرية والحياة محصورين عن تحري الواجبات، وذلك مشهد من التربص الوجل الوحل، حتى لتكاد العين تبصر بالسمات الخائفة والأيدي الممتدة الخاطفة، والقلة المستضعفة المسلمة في ارتقاب وتوجُّس، ومن هذا المشهد الحرج

(١) (الخطبة ١٦).

(٢) الدر المنثور ٣: ١٧٧ - أخرج الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ في الآية قيل: يا رسول الله ﷺ ومن الناس؟ قال: أهل فارس.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.

(٤) المصدر أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿فَآوَاكُمْ﴾ قال: إلى الأنصار بالمدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ قال: يوم بدر.

المرج الهرج إلى مشهد الإيواء والتأييد والنصر ورزق الطيبات في ظل الضيافة والإضافة الربانية العطيفة الحفيفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

هنا ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ كأنها حال من ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ ف ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ الربانية تحلّق على الفطرية والعقلية وسائر الآيات الأمانات أنفسية وآفاقية وأهمها منشور ولاية الله وهو كتاب الله، ثم أمانة الرسالة والولاية[1] ثم ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ الرسولية والرسالية هي التي يأتمنكم الرسول إياها بأمر الله في سنته، فكما انفصلت طاعة الله عن طاعة الرسول في صيغة التعبير اعتباراً بالكتاب والسنة، كذلك خيانة الله والرسول في هاتين الأمانتين، إلى سائر الأمانات الربانية المعنية بآية الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2].

ذلك ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾[3] هي الأخرى الدالة على الأمانتين الربانية والرسالية.

ذلك، وجزم ﴿تَخُونُوٓاْ﴾ قد ينحّي احتمال حاليتها فإن قضيتها «وتخونون» فقد تعني الواو أصل العطف وعامل الجزم محذوف معروف من ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ حيث تعني «ولا تخونوا أماناتكم» كضابطة ناهية عن خيانة الأمانات

(١) في ملحقات إحقاق الحق ١٤ : ٥٦٤ عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٢٠٥ في العتيق روى عن يونس بن بكار عن أبيه عن جعفر بن محمد بن علي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ - في آل محمد - وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧١.

كلها، وهي - قضيةَ الإضافة - تضم الأمانات الربانية عندكم - كأصل - وأمانات بعضكم عند بعض، وقد يعني الجمع من العاطفة - كأصل - والحالية كفرع عليه، والجزم هو قضية الأصل.

ولقد حصلت خيانات من المنافقين[١] والبعض من بسطاء المؤمنين بحق الله والرسول، فعفى الله عمن استعفى كأبي لبابة[٢] ولم يكن ليعفوا عن المنافق قضيةَ عناده، فما خطاب الإيمان للمنافقين مع سائر المؤمنين إلّا

(١) الدر المنثور ٣: ١٧٥ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن محمداً ﷺ يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

(٢) المصدر أخرج سنيد وابن جرير عن الزهري في الآية قال: نزلت في أبي لبابة بعثة رسول الله ﷺ فأشار إلى حلقه أنه الذبح فقال أبو لبابة: لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب علي فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، قال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني فجاءه فحلّه بيده.

وفيه أخرج عبد بن حميد عن الكلبي أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفاً لهم فأومأ بيده أي الذبح فأنزل الله هذه الآية فقال رسول الله ﷺ لامرأة أبي لبابة: أيصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة؟ فقالت: إنه ليصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة فبعث إليه فأتاه فقال: يا رسول الله ﷺ والله إني لأصلي وأصوم وأغتسل من الجنابة وإنما نهت إلى النساء والصبيان فوقعت لهم ما زالت في قلبي حتى عرفت أني خنت الله ورسوله.

وفيه أخرج ابن مردويه عن عكرمة قال لما كان شأن بني قريظة بعث إليهم النبي ﷺ علياً ﵁ فيمن كان عنده من الناس فلما انتهى إليهم وقعوا في رسول الله ﷺ وجاء جبريل ﵇ إلى رسول الله ﷺ على فرس أبلق فقالت عائشة فلكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ مسح الغبار عن وجه جبريل ﵇ فقلت: هذا دحية يا رسول الله ﷺ؟ قال: هذا جبريل، فقال: يا رسول الله ﷺ ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم فقال رسول الله ﷺ فكيف لي بحصنهم؟ فقال جبريل ﵇: إني أدخل فرسي هذا عليهم فركب رسول الله ﷺ فرساً معروراً فلما رآه علي ﵁ قال: يا رسول الله ﷺ لا عليك أن لا تأتيهم فإنهم يشتمونك، فقال: كلّا إنها ستكون تحية فأتاهم النبي ﷺ فقال: يا إخوة القردة والخنازير، فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً، فقالوا: لا تنزل على حكم محمد ﷺ ولكننا ننزل على حكم =

بشامل الإقرار باللسان إيمان النفاق، وكما في التكاليف العامة للمقرين ككل حيث تشمل المنافقين إلى الموافقين.

ولأن أصل الخيانة ليس إلّا من منافق ثم من ضعفاء الإيمان قد شملها الخطاب.

هذا وخيانة الأمانة هي بصورة عامة محظورة، فحتى إذا كانت خيانة بديلة خيانة[(١)].

اللّهم إلّا إذا تجرد الاعتداء بالمثل عن ظاهرة الخيانة[(٢)].

فحين يخونك من ائتمنته على مال ليس لك أن تخونه فيما أئتمنك على مثله من مال، اللّهم إلّا أن تعلن له أن هذا بهذا أم تنويه، دون أن تنكر أمانته كما أنكر هو أمانتك.

فهنا مال بديل مال، إذا لم يردَّ عليك المؤتمن فلا ترد عليه ما ائتمنه عندك، وأما أن تنكر أمانته كما أنكر أمانتك بحلف وسواه، فلا يبرره شيء، إنما المبرَّر استنقاذ حقك المهدور قَدَر المقدور دون تعدٍ آخر عليه.

ذلك، وبنظرة أخرى إلى الآية قد تعني ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ إضافة إلى

= سعد بن معاذ فنزلوا فحكم فيهم أن تقتل مقاتليهم وتسبي ذراريهم، فقال رسول الله ﷺ: بذلك طرقني الملك سحراً فنزل فيهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] نزلت في أبي لبابة أشار إلى بني قريظة حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ: لا تفعلوا أمانة الذبح وأشار بيده إلى حلقه.

(١) نور الثقلين ٢: ١٤٤ عن الكافي عن سليمان بن خالد قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل وقع لي عنده مال وكابرني عليه وحلف ثم وقع له عندي مال فآخذه مكان مالي الذي أخذه وأجحده وأحلف عليه كما صنع؟ فقال: إن خانك فلا تخنه فلا تدخل فيما عبته عليه.

(٢) المصدر عن أبي بكر الحضرمي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجل كان له على رجل مال فجحده إياه وذهب به ثم صار بعد ذلك للرجل الذي ذهب بماله مال قبله أيأخذه منه مكان ماله الذي ذهب به منه ذلك الرجل؟ قال: نعم، ولكن لهذا كلام يقول: اللّهم إني آخذ هذا المال مكان مالي الذي أخذه مني وإني لم آخذ ما أخذت منه خيانة ولا ظلماً.

الحال - الماضية - و«أن تخونوا» اعتباراً بثالث ثلاثة من موارد النهي، خيانة الله والرسول وخياناتكم فيما بينكم، فخيانة الله الخاصة هي خيانة آياته التكوينية والتشريعية، وخيانة الرسول هي خيانته في سنته، وهما أيضاً من خياناتكم أنفسكم، ثم خيانة بعضكم بعضها أم خيانة أنفسكم وهما أيضاً من خيانة الله، ثم الخيانات التي تعود بأخطارها وأضرارها إلى المجموعة المؤمنة هي مثلث الخيانة.

ثم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها خيانات و﴿تَعْلَمُونَ﴾ أنها محرمات و﴿تَعْلَمُونَ﴾ آثارها السيئة بنكبات، و﴿تَعْلَمُونَ﴾ واجب الحفاظ على الأمانات فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾(١).

كما ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن خيانة الله والرسول هي خيانة أنفسكم كما وخيانة أنفسكم هي خيانة الله والرسول.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ﴾ في خيرهما وشرهما، بكثرتهما وقلتهما وعلى أية حال لهما «فتنة لكم وامتحان»، فقد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومخضهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضا والسُّخط بالمال والولد جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنى والاقتدار فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾(٢) فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم(٣).

ذلك ومن فتنة الخير الوُلد الصالحون، وقد كان رسول الله ﷺ يخطب

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.
(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.
(٣) (الخطبة ١٩٠).

على المنبر فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما على يديه ثم قال: صدق الله حيث قال: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾[1].

و﴿أَنَّمَآ﴾ قد تحصرهما في امتحان، وهما من الأمانات الربانية من أداها كما أمر وقرر فقد نجح، ومن خانها فقد سقط، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على الحسنات التي تقدمونها بأموالكم وأولادكم وسواهما، فلتكن الأموال والأولاد ذريعة لكم إلى يوم المعاد.

فـ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[2] - ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾[3] إلا ما تقدمونه في الله لأنفسكم، فـ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾[4] ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[5].

أجل «وإن المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام»[6] وجمعهما أن تعمل صالحاً فيهما.

«ولا حاجة لله فيمن ليس له في ماله ونفسه نصيب» (١٢٧ ح) فـ «يابن آدم كن وصي نفسك في مالك، واعمل فيه ما تؤثر أن يُعمل فيه من بعدك» (٢٥٤ ح/ ٦١٢) و«لكل امرئٍ في ماله شريكان الوارث والحوادث» (٣٣٥ ح).

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٤٥ في كتاب المناقب عن عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

(٥) سورة الصف، الآية: ١١.

(٦) (الخطبة ٢٣ / ٦٩).

و«لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة - لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ ومعنى ذلك أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقِسمه، وان كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يُستحق الثواب والعقاب، لأن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث وبعضهم يحب تثمير المال ويكره انثلام الحال[١].

فقد يُفتن الإنسان في ماله: أنى لك هذا؟ وأين صرفته؟ وإلى مَ وجهتك أموالك؟ ولِمَ ادخرتها؟ وكيف أنفقتها؟ وفيمَ صرفتها؟ أماهيه من فتن حول الأموال.

وكذلك الأولاد، كيف رضاك عن ذكور دون إناث؟ أم إناث دون ذكور؟ أم جمعاً بينهما وكيف ربيتهم؟ أم إلى مَ وجهتهم؟

فالأموال والأولاد أمانات ربانية يجب رعايتهما في سبيل الله دون التهاء بهما عما يرضاه الله، فإلى تقوى الله في كل ما منحكم الله إياه أموالاً وبنين وما أشبه فـ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾:

﴿. . . إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أموالكم وأولادكم الفتنة، وفي أنفسكم ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ بين الحق والباطل، والصالح والطالح، والفالح والكالح، نوراً تمشون به في ظلمات الأرض فتهتدون إلى خيرات، وإذا ما ابتليتم بسيئات فالتة أم خيرات فائتة ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

---

(١) (الحكمة ٩١).

«فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم، وقوموا بما عصبه بكم»[١].

أجل ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۝٣﴾[٢] فهنا على ضوء تقوى الله تقوى على إبصار الحق في خِضمٍّ الباطل حيث يجعل الله لك مخرجاً عن المضايق، وفرقاناً لمعرفة الحقائق: «ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً»[٣] وإلى الفلاح مبلجاً.

وهنا فرقانان بين الحق والباطل، فرقان بما نحاول كإتقان اللغة والأدب والبلاغة والفصاحة ثم التفكير والتدبر الصالح في القرآن، وما هو إلا كعصمة بشرية لا تُطلِق الإنسان إلى الصواب إلّا القدر المحدَّد المحدود بالطاقة البشرية.

وفرقان ثان نحصل عليه بتقوى الله بما يجعل الله: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ وهو المنضم إلى الفرقان الأول يُطلق صاحبه إلى الصواب الطليق في تفهم القرآن، فكما العصمة الربانية حين تنضم إلى العصمة البشرية تتم العصمة وتطم، كذلك الأمر في الفرقان الرباني المنضم إلى الفرقان البشري.

صحيح أنه ما لم يكن فرقان أوّل لا ينتج فرقان ثان النتيجة المطلوبة، اللّهم إلا عرفاناً بالله وزائد الإيقان، ولكنه هو المحور الأصيل الذي ليس عنه بديل في تكملة الفرقان الأوّل.

فلأن القرآن نور مطلق، فلا يوصل إلى عمقه إلا بنور من الله وفرقان،

---

(١) (الخطبة ٢٤).
(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.
(٣) (الخطبة ١٢٨).

فهنالك مجمع فرقانين، فرقان القرآن وفرقان الرحيم الرحمان لتفهُّم القرآن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[١].

ففي مربعِ السلب والإيجاب لمسرح فرقان وفرقان، نجد صاحب الفرقانين حاصلاً على البغية الصالحة، الخليصة غير الخليطة، ولصاحب الفرقان الأول قدر ما يتقن من وسيلة الوصول إلى الحق، ولصاحب الثاني وصول أقوى، ولفاقدهما خواءٌ وبواء، فطالما الفرقان الأول وسيلة غير طليقة ولكنما الثاني معه وصيلة طليقة كما وعد الله.

«واعلم أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم، ويخلِّده فيما اشتهت نفسه، ويُنزله منزل الكرامة عنده، في دار اصطنعها لنفسه»[٢] - «ألا فصونوها وتصَّونوا بها، وكونوا عن الدنيا نُزَّاهاً، وإلى الآخرة وُلّاهاً، ولا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا»[٣] -

«أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم، وإليه يكون معادكم، وبه نجاح طلبتكم، وإليه منتهى رغبتكم، ونحوَه قصدُ سبيلكم، وإليه مرامي مفزَعكم - فإن تقوى الله دواء داءِ قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطَهور دنس أنفسكم، وجلاء عَشَا أبصاركم، وأمنُ مَفزع جأشكم، وضياء سَواد ظلمتكم - فمن أخذ بالتقوى عَزَبت عنه الشدائد بعد دنوِّها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد انضبابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدَّبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النِّعَم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها»[٤] -

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٢) (الخطبة ١٨١).
(٣) (الخطبة ١٨٩).
(٤) (الخطبة ١٩٦).

أجل فالتقوى هي الزاد، عُدة للطريق الملتوية الصعبة، حيث تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والوقاية، كاشفة منحنيات الطريق ودروبه مدَّ البصر والبصيرة، دون غبْش للشبهات الحاجبة للرؤية.

وإنها فرقان في كل خليط، كاشفة منعرجات الطريق، فطالما الهوى ينشر الغبش وتُعمي المسالك وتُخفي الدروب، فالتقوى هي متراس ونبراس تنير الدرب على السالكين، مزيلة كل غبش.

«فاتقوا الله تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجِل فعمِل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذِّر فحذر، وزُجِر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى، وأُرِي فرأى، فأسرع طالباً، ونجا هارباً، فأفاد ذخيرةً، وأطاب سريرةً، وعمَّر معَاداً، واستظهر زاداً ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، وقدَّم أمامَه لدار مُقامه - فاتقوا الله عبادَ الله جَهةَ ما خلقكم له، واحذروا منه كنُه ما حذركم من نَفسه، واستحِقوا منه ما أعد لكم بالتنَّجز لصدق ميعاده، والحذرَ من هول معاده - فهل ينتظر أهل بَضاضة الشباب إلا حواني الهَرمَ، وأهل غضارة الصحة إلا نوازل السَّقَم، وأهل مدِة البقاء إلا آوِنة الفناء، مع قريب الزِّيال، وأزوف الانتقال، وعَلَز القلق، وألَم المَضَض، وغُصص الجَرَض، وتَلَفُّت الاستغاثة بنصرة الحَفَدة والأقرباء، والأعزة والقرناء، فهل دفعت الأقارب، أو نفعت النواحب، وقد غودر في محلة الأموات رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً، قد هتكت الهوام جلدته، وأبلت النواهك جِدَّته، وعفَّت العواصف آثارَه، ومحا الحَدَثانُ معالمَه، وصارت الأجساد شحِبة بعد بضتها، والعظام نَخِرة بعد قوتها، والأرواح مرتهنةً بثقل أعبائها، موقنة بغيب أنبائها، لا تُستزاد من صالح عملها، ولا تُستعتب من سيِّئ زلَلِها - أوَ لستم أبناءَ القوم والآباء وإخوانَهم والأقرباء؟ تحتذون أمثلتهم، وتركبون قِدَّتهم،

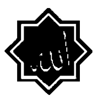
وتطأون جادَّتهم، فالقلوب قاسية عن خطها، لاهيةٌ عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعنيَّ سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها»[1].

ذلك، وليس ﴿فُرْقَانًا﴾ يختص بفرقان خاص، فإنه ككل ما يفرق بين الحق والباطل قرآناً ورسول القرآن وفاروق الأمة بعده وهو علي عليه السلام.

فكما أن تقوى الله تستجلب فرقان الله بكل ما يعنيه، كذلك تستجلب فاروقاً بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفرق بين الحق والباطل في مضطرب الأحوال وتشتت الحال، ولذلك سماه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما تواتر عنه «فاروقاً»[2] وهكذا «من فارق علياً عليه السلام فقد فارق الله»[3].

ومن غريب الوفق العددي بين «الفرقان» و«بني آدم» أن كلًّا مذكور سبع مرات في القرآن، فنعرف مدى الوفق بين بني آدم والفرقان شريطة تقوى الله، فكلما زادت التقوى زاد صاحبها فرقاناً من الله وبرهاناً مبيناً.

وليس يختص ﴿فُرْقَانًا﴾ لمن اتقى بحقل القرآن، بل هو فرقان في كافة الحقول وهذه ميزة ثانية لفرقان الله بطليق مفعوله، عن مصطلح الفرقان المختص بمعرفة معاني القرآن والسنة.



(١) (الخطبة ٨٢).

(٢) ملحقات إحقاق الحق ٤: ٢٦ - ٣١، ٣٤ - ٣٥، ٢٨٤، ٣٣١، ٣٤٥، ٣٦٩ - ٣٧٠، ٣٨٦ و٧: ٣٧٢ و١٥: ٢٨٣ - ٢٨٦، ٢٩٢ - ٢٩٤، ٣٠٥ - ٣٠٨، ٤٣١، ٣٤١ - ٣٤٥ و٢٠: ٢٥٩ - ٢٦١، ٢٦٣، ٢٩٨، ٣٣٣، ٤٥٩، ٤٦٦، ٤٧٢، ٥٠٩، ٥٤٦ - ٥٤٨.

(٣) المصدر ٤: ١٣٩ و٥: ٢٩١ و٦: ٣٩٥ - ٤٠٠ و١٦: ٦٠١ - ٦٠٥ و٢١: ٥٤٥ - ٥٤٩.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ
وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ
سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا
حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا
لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا
كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ
ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ
لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ
يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ
مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا
فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ
كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن
تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾:

ذلك في دار الندوة، مجلس الشورى لصناديد قريش حيث اجتمع فيه أربعون منهم أو يزيدون، تشاوراً في أمر الرسول ﷺ كيف يعالجون موقفه الدعائي، صداً عن دعاياته المستمرة المتخلخلة المتجلجلة بين الناس بتزايد بالغ يشكل خطراً حاسماً على قبيل الإشراك.

وحصيلة الآراء الأولى هي ثالوث ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾.

ثم توافقت على ﴿يَقْتُلُوكَ﴾ ثم النتيجة الحاسمة لذلك التصميم ﴿يُخْرِجُوكَ﴾ حيث نبهه الله بما مكروه من قتلهم إياه فخرج إلى غار الثور وبات علي عليه السلام على فراشه، ثم هاجر ﷺ بعد ثلاثة أيام إلى المدينة.

وتلك الهجرة الهاجرة هي منقطعة النظير بين كل بشير ونذير بما فيها من خوارق عادات، حيث خرج أمام المهاجمين، آخذاً بيده كفاً من تراب، رامياً إلى وجوههم بقوله: شاهت الوجوه، كما فعله في بدر الكبرى، متوجهاً إلى غار ثور، وحفاظاً عليه، قطعاً لاحتمال كونه فيه رغم ظاهر الأثر من أقدامه المباركة تؤمر العنكبوت أن يسدل ستاراً ضخماً على باب الغار ما يخيّل إلى الناظر أنه شغل سنين! وهكذا ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[١].

في ذلك المسرح المنقطع النظير - إلا ما كان بحق المسيح عليه السلام - نرى للرسول ﷺ صاحبين بين أصحابه، صاحب ينام على فراشه مضحياً

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

بنفسه نفس الرسول ﷺ بما اختاره ﷺ لتلك التضحية وهو الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وقد نزلت بشأنه آية الشراء: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ﴾[(١)] بصورة مستقلة.

وصاحب يصاحبه في الغار حالة الفرار من مكر الكفار، ولا تنزل بشأنه إلا ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[(٢)].

فلقد بات علي عليه السلام على فراش الرسول ﷺ والخطر هاجم، وصاحَبه أبو بكر إلى الغار والخطر ناجم، ثم نجد علياً عليه السلام مُقدِماً بكل بُدّ لتلك التضحية دونما تخوف، ولا نجد صاحبه في الغار إلّا متخوفاً ومعه الرسول ﷺ وقد يأتي نبأ الموقفين حين نأتي على تفسير آية الغار.

هنا الرسول ﷺ وعلي عليه السلام يتعانقان ولا يرضي علياً عليه السلام إلّا أن تَسْلم نفس الرسول ﷺ بهذه التضحية، وقد يروى عنه نظم في ذلك النظم:

«وقيت بنفسي خير من وطئ الحصا ... و من طاف بالبيت العتيق والحجر
محمد لما خاف أن يمكروا به ... فوقّاه ربي ذو الجلال من المكر
وبت أراعيهم متى ينشرونني ... وقد وطّنت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمناً ... هناك وفي حفظ الإله وفي ستر
أقام ثلاثاً ثم زمّت قائص ... قلايص يفرين الحصا أينما تفرى[(٣)]

ولقد ذاق الرسول ﷺ والذين معه في أخريات سنيّه بمكة أشد ألوان الأذى بحجر أبي طالب سنين أربع، ولما صمموا على قتله بدار الندوة بدأت الهجرة المباركة مزودة بتسليات لخاطره القريح وقلبه الجريح منذ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٣) قال عبيد الله بن أبي رافع وقد قال علي عليه السلام يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً وفي الدر المنثور بتفاوت يسير عن الحاكم عن علي بن الحسين عنه عليهما السلام.

دخوله الغار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[(١)] ومن ثم ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[(٢)] - ثم له وللذين هاجروا معه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾[(٣)].

ولكيلا يحزن على ذلك الهجران في هجرته الهاجرة ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾[(٤)] ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[(٥)].

لقد اجتمعت قريش في دار الندوة مرتين بين اجتماعاتهم اللعينة، هما ألعنها، مرة للمعاهدة على حصره ﷺ والذين معه في شعب أبي طالب[(٦)] وأخرى إلى إثباته أو قتله أو إخراجه ثم اجتمعوا على قتله.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٣.
(٣) سورة النحل، الآيتان: ٤١، ٤٢.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.
(٥) سورة المزمل، الآية: ١٠.
(٦) بحار الأنوار ١٩: ١ - ٤ ص: اجتمعت قريش في دار الندوة وكتبوا صحيفة بينهم ألا يواكلوا بني هاشم ولا يكلموهم ولا يبايعوهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا إليهم ولا يحضروا معهم حتى يدفعوا إليهم محمداً ﷺ فيقتلونه وإنهم يد واحدة على محمد يقتلونه غيلة أو صراحاً، فلما بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم ودخلوا الشعب وكانوا أربعين رجلاً فحلف لهم أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام إن شاكت محمداً شوكة لأثبتن عليكم يا بني هاشم وحصن الشعب وكان يحرسه بالليل والنهار فإذا جاء الليل يقوم بالسيف عليه ورسول الله ﷺ مضطجع ثم يقيمه ويضجعه في موضع آخر فلا يزال الليل كله هكذا ويوكّل ولده وولد أخيه به يحرسونه بالنهار فأصابهم الجهد وكان من دخل مكة من العرب لا يجسر أن يبيع من بني هاشم شيئاً ومن باع منهم شيئاً انتهبوا ماله، وكان أبو جهل والعاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكة من رأوه معه مرة نهوه أن يبيع من بني هاشم شيئاً ويحذرون إن باع شيئاً منهم أن ينهبوا ماله وكانت خديجة رضي الله عنها لها مال كثير فأنفقته على رسول الله ﷺ في الشعب، ولم يدخل في حلف =

. . . .

= الصحيفة مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد المطلب بن عبد مناف وقال: هذا ظلم وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كلّ رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلقوها في الكعبة وتابعهم على ذلك أبو لهب وكان رسول الله ﷺ يخرج في كلّ موسم فيدور على قبائل العرب فيقول لهم: تمنعون لي جانبي حتى أتلو عليكم كتاب ربكم وثوابكم الجنة على الله وأبو لهب في أثره فيقول: لا تقبلوا منه فإنه ابن أخي وهو كذاب ساحر، فلم يزل هذا حالهم وبقوا في الشعب أربع سنين لا يأمنون إلا من موسم إلى موسم ولا يشترون ولا يبايعون إلا في الموسم وكان يقوم بمكة موسمان في كلّ سنة: موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة فكان إذا اجتمعت المواسم تخرج بنو هاشم من الشعب فيشترون ويبيعون ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني وأصابهم الجهد وجاعوا وبعث قريش إلى أبي طالب قصيدته اللّامية فلما سمعوا هذه القصيدة أيسوا منه وكان أبو العاص بن الربيع - وهو ختن رسول الله ﷺ - يأتي بالعير بالليل عليها البر والتمر إلى باب الشعب ثم يصبح بها فتدخل الشعب فيأكله بنو هاشم وقد قال رسول الله ﷺ: لقد صاهرنا أبو العاص فأحمدنا صهره، لقد كان يعمد إلى العير ونحن في الحصار فيرسلها في الشعب ليلاً ولما أتى على رسول الله ﷺ في الشعب أربع سنين بعث الله على صحيفتهم القاطعة دابة الأرض فلحست جميع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت «باسمك اللّهم» ونزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأخبر رسول الله ﷺ أبا طالب فقام أبو طالب ولبس ثيابه ثم مشى حتى دخل المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه فلما أبصروه قالوا: قد ضجر أبو طالب وجاء الآن ليسلّم ابن أخيه فدنا منهم وسلم عليهم فقاموا إليه وعظّموه وقالوا: قد علمنا يا أبا طالب أنك أردت مواصلتنا والرجوع إلى جماعتنا وأن تسلّم ابن أخيك إلينا، قال: والله ما جئت لهذا ولكن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن الله تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابة الأرض فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم الله فابعثوا إلى صحيفتكم فإن كان حقاً فاتقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم وإن كان باطلاً دفعته إليكم فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم استحييتموه فبعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة وعليها أربعون خاتماً فلما أتوا بها نظر كلّ رجل منهم إلى خاتمه ثم فكّوها فإذا ليس فيها حرف واحد إلا «باسمك اللهم» فقال لهم أبو طالب: يا قوم اتقوا الله وكفوا عما أنتم عليه فتفرق القوم ولم يتكلم أحد ورجع أبو طالب إلى الشعب.

في بحار الأنوار ١٩: ٣٩ روي أنهم ضربوا علياً وحبسوه ساعة ثم تركوه وأورد الغزالي في إحياء العلوم أن ليلة بات علي بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ أوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل أني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بحياته؟ فاختار كلّ منهما الحياة وأحباها فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل =

ولقد باهى الله جبريل وميكائيل بتضحية علي عليه السلام ليلة المبيت في الأخوة المحمدية العلوية عليهما السلام (١) وقد يروى عنه عليه السلام قوله في قصة المبيت: فأسرعت إلى ذلك مطيعاً له مسروراً فالكتاب والسنة - كلمة واحدة

= علي بن أبي طالب عليه السلام آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل ينادي بخ بخ من مثلك يا بن أبي طالب؟ يباهي الله بك الملائكة فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

(١) وفيه ٤٦ ك قال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب اليهودي الذي سأل عما فيه من علامات الأوصياء فقال فيما قال: وأما الثانية يا أخا اليهود فإن قريشاً لم تزل تخيل الآراء وتعمل الحيل في قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى كان آخر ما اجتمعت في ذلك يوم الدار: دار الندوة، وإبليس الملعون حاضر في صورة أعور ثقيف فلم تزل تضرب أمرها ظهراً لبطن حتى اجتمعت آراءها على أن ينتدب من كلّ فخذ من قريش رجل ثم يأخذ كلّ رجل منهم سيفه ثم يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نائم على فراشه فيضربونه جميعاً بأسيافهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فإذا قتلوه منعت قريش رجالها ولم تسلمها فيمضي دمه هدراً، فهبط جبرئيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنبأه بذلك وأخبره بالليلة التي يجتمعون فيها والساعة التي يأتون فراشه فيها وأمره بالخروج في الوقت الذي خرج فيه إلى الغار فأخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخبر وأمرني أن أضطجع في مضجعه وأقيه بنفسي فأسرعت إلى ذلك مسروراً لنفسي بأن أقتل دونه فمضى صلى الله عليه وآله وسلم لوجهه واضطجعت في مضجعه وأقبلت رجالات قريش موقنة في أنفسها أن تقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما استوى بي وبهم البيت الذي أنا فيه ناهضتهم بسيفي فدفعتهم عن نفسي بما قد علمه الله والناس، ثم أقبل على أصحابه فقال: أليس كذلك؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

وفيه ٥٢ شيء عن زرارة ومحمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام أن قريشاً اجتمعت فخرج من كلّ بطن أناس ثم انطلقوا إلى دار الندوة ليشاوروا فيما يصنعون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هم بشيخ قائم على الباب وإذا ذهبوا إليه ليدخلوا قال: أدخلوني معكم قالوا: ومن أنت يا شيخ؟ قال: أنا شيخ من مضر ولي رأي أشير عليكم فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس وأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه فقال: ليس هذا لكم برأي. إن أخرجتموه أجلب عليكم الناس فقاتلوكم، قالوا: صدقت ما هذا برأي، ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يوثقوه قال: هذا ليس بالرأي إن فعلتم هذا ومحمد رجل حلو اللسان أفسد عليكم أبناءكم وخدمكم وما ينفعكم أحدكم إذا فارقه أخوه وابنه أو امرأته ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، يخرجون من كلّ بطن منهم بشاهر فيضربونه بأسيافهم جميعاً عند الكتفين ثم قرأ الآية ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. =

- متجاويان في أفضلية الموقف المشرّف لمبيت الإمام علي عليه السلام على موقف أبي بكر في الغار، حيث المدار ليس هو الصحبة في المكان، إنما هو التضحية في الحفاظ على الصاحب[1].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾:

هنا ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ تعني سمع الأذن دون القبول بسمع القلوب والعقول - رغم ما حققوه بـ ﴿قَدْ﴾ كأنهم واعون ما سمعوا - إنما هو سماع للهزء بما يسمعون كذريعة لقيلتهم الغيلة: ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ ولحصرهم آيات الله المتلوة عليهم بأساطير الأولين، وترفُّعِهم - بزعمهم - عن الأساطير، يُحيلون على

= وفيه في قصة المبيت قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: إن الروح هبط عليّ بهذه الآية آنفاً يخبرني أن قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي وأنه أوحي إلي عن ربي عز وجل أن أهجر دار قومي وأن أنطلق إلى غار ثور تحت ليلتي وأنه أمرني أن آمرك بالمبيت على ضجاعي - أو قال: - مضجعي لتخفي بمبيتك عليه أثري فما أنت قائل وصانع؟ فقال علي عليه السلام: أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبي الله؟ قال: نعم فتبسم عليّ ضاحكاً وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً لما أنبأه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سلامته فكان علي عليه السلام أوّل من سجد شكراً لله وأوّل من وضع جبهته على الأرض بعد سجدته من هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رفع رأسه قال له: امض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي ومرني بما شئت أكن فيه كمسرتك واقع منه بحيث مرادك وأن توفيقي إلا بالله وقال: وإن ألقي عليك شبه مني أو قال: شبهي، قال: إن يمنعني نعم، قال: فارقد على فراشي واشتمل ببردي الحضرمي ثم إني أخبرك يا علي أن الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه فأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل وقد امتحنك يابن أم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم عليه السلام والذبيح إسماعيل عليه السلام فصبر صبراً فإن رحمة الله قريب من المحسنين، ثم ضمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى صدره وبكى إليه وجداً به وبكى عليّ عليه السلام جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر وهند بن أبي هالة.

(١) المصدر ٥٥ ما جماعة عن أبي المفضل معنعناً عن مجاهد قال: فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الغار فقال عبد الله بن شداد بن الهاد: وأين أنت من علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قام في مكانه وهو يرى أنه يقتل؟ فسكتت ولم تحر جواباً.

أنفسهم أن يقولوا مثل هذا رغم إمكانيتهم ذاتياً لقوله كما يتقولون[١] وكأنهم يترفعون أن يعارضوا هذه الأساطير بأساطير أمثالها إذ لا يعتبرونها مما يعارَض لضالتها، وبعدهم عن الأساطير!

فـ «لو» هنا صدٌّ عن السؤال: قولوا مثل هذا، كما أن ﴿نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ هدم لصرح الربانية لهذه الآيات البينات، وما أنحسه مواجهة لآيات الله، وما أضله البسطاء الذين لا يعقلون! وهنا يبقى سؤال، هل إن إبطال هذه الآيات أحرى للعاقل في محكمة العقل كما تدَّعون، أو التورط فيما تستاؤون - زعَم أنه من الأساطير - لذلك الإبطال حتى تتخلصوا عن عبء هذه الدعوة المتلاحقة ويتخلص الآخرون؟ إذاً فهذه وتلك هي من الدعاوي الهاوية الخواء الغاوية البواء، وليست الدعوى بمجردها مهما كانت براقة، بالتي يواجه بها البرهان، فهي هيه من أساطير الأولين، دون آيات الله البينات التي تملك على صدقها من كافة البراهين، وإنما السكوت عن ردهم فيما ادعوا لظاهر بطلان دعواهم دونما نكير، حيث الدعوى المجردة ولا سيما هذه الطائلة الغائلة ليست بالتي ترد على آيات الله البينات التي هي بأنفسها أدلة لربانيتها مصدراً وصادراً.

ذلك، وقد وصل العناد من هؤلاء الأنكاد الأوغاد لحد تطلبوا لأنفسهم من الله الهلاك إن كان هذا هو الحق:

---

(١) في الدر المنثور ٣: ١٨٠ عن السدي قال: كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي ﷺ والقرآن فقال: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، وفيه عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله ﷺ: أسيري فقال رسول الله ﷺ: كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾:

دعاء غريب يصور حالة راسبة من العناد ضد الحق المُرام، إيثاراً للهلاك على الإذعان بالحق، حيث فسدت جبلتهم بالكبرياء الجامحة، وأخذتهم العزة بالإثم فحسبهم جهنم وبئس المهاد.

هنا ﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾ لا تختص بمشار إليه خاص، فقد تعني كافة المتعنتين القائلين هذا، الغائلين، سواء أكان في مسرح الآيات الربانية الإسلامية - ككل - أم سواها، أم في مسارح خاصة في حقل الإسلام كولاية الأمر بعد الرسول ﷺ، أنهم - ككل - ودون أيَّة هوادة يرجحون عذاب الله على تصديق آية من الله لا يهوونها، وهذه هي الخطوة الأخيرة الشيطانية التي يخطوهم بها الشيطان.

ذلك، وجواباً عن أمثال هذه الشطحات الزور والغُرور من أحابيل الغرور:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾:

فكون الرسول ﷺ فيهم - رغم أنهم ناكروه - إنه صيانة لهم عن عذاب الله مقترحاً وسواه، وصيانة أخرى على طول الخط - كان فيهم الرسول أم لم يكن فيهم - ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فـ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ محطٌّ لسلب محدَّد بـ ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ولكن ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ سلب طليق ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ سواء أكنت ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أم لم تكن.

فتلك هي الرحمة المحمدية العالمية أن الله لا يعذب الكافرين به ما هو فيهم، ثم يتوب عن ذلك ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فقد «كان في الأرض أمانان من عذاب الله سبحانه فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان

الذي رفع فهو رسول الله ﷺ وأما الأمان الباقي فالاستغفار»[(١)] فقد كان مماته إلى حياته خيراً لنا[(٢)] لهذين الأمانين.

وترى العذاب المنفي ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[(٣)] هو مطلق العذاب الشامل لقتلهم؟ وقد قتل جمع منهم في غزوات! إنه عذاب الاستئصال كما لم يعذبوا به ما كان ﷺ فيهم، ثم ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ تعم إلى عذاب القتال عذاب البرزخ والقيامة.

ذلك، فقد يعذبون بعد ارتحال النبي ﷺ عنهم وهم لا يستغفرون، بعذاب الاستئصال وما أشبه، الواقع على سالفة الأمم المتخلفة عن شرعة الله.

وليس عذاب القتال ينافي كونه ﷺ رحمة للعالمين، فإن فسح المجال للمكذبين الفاتنين ينافي أصل الرحمة الأصيلة المحمدية حيث يستأصل دعوته، وإنما هي الرحمة التي لا تشكل زحمة على الذين آمنوا.

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٥٣ وحكى أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: كان قال الله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ...﴾ [الأنفال: ٣٣].

(٢) المصدر ١٥١ في روضته الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: إن لكم في حياتي خيراً وفي مماتي خيراً، قال: فقيل يا رسول الله ﷺ أما حياتك فقد علمنا فما لنا في وفاتك؟ فقال: أما في حياتي فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وأما في مماتي فتعرض علي أعمالكم فاستغفر لكم.

وفي الدر المنثور ٣: ١٨١ - أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.

وفيه ١٨٢ - أخرج أحمد والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، وفيه عنه ﷺ قال: من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كلّ هم فرجاً ومن كلّ ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

أجل، إنها رحمة ربانية - إكراماً لمحمد ﷺ - تشملهم فتمهلهم فلا يأخذهم الله عجالة بعذاب الاستئصال الاستعجال، مهما يؤخذون بسائر العذاب قضية صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، فصدهم بقتال وسواه عما يصدون، فليس ليصدهم عن ذلك العذاب ما يدعونه من كونهم ورثة إبراهيم وسدنة البيت الحرام، أم لأنهم أولياء الله، فإنهم أعداء الله وأعداء البيت الحرام ومغتصبوه، وليس البيت الحرام ميراثاً حتى لو كان ميراثاً من إبراهيم، بل هو البيت العتيق عن كل اختصاص بوجه خاص، اللَّهم إلا لأولياء الله المتقين.

ذلك فقد يعذبهم الله دون هذين الشرطين دون عذاب الاستئصال ﴿وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾:

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

فليس - فقط - لأنهم أميون ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهم لا يتقون، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ولست أنت فيهم ولا هم يستغفرون الله ﴿وَهُمْ﴾ على كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ دونما حق يُحق لهم ذلك الصد.

ذلك! «و» الحال أنهم ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ الله، ولا كانوا أولياء المسجد الحرام من قبل الله ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾: الله، والمسجد الحرام ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فإنما لأولياء الله وأولياء المسجد الحرام من أولياء الله أن يصدوا من سواهم عن المسجد الحرام، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

فالصادُّون عن المسجد الحرام، المشركون بالله، هم أصول الفتنة ضد الموحدين وشرعة التوحيد، فلا يُسمح لهم بذلك الصدّ، بل ويعذبهم الله بأيدي المؤمنين حرباً كما يعذبهم بما يشاء كيف يشاء حفاظاً على العاصمة التوحيدية عن ذلك الصد الظالم الغاشم.

ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ و﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم معذبون و﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

أجل، «ألا إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، ودَرَكهم لها فوتاً، أعداءُ ما سالم الناس، وسِلمُ ما عادى الناس، بهم عُلم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجوّا فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون»[1].

ذلك، وحين يصد أعداء الله أولياءَه عن المسجد الحرام، فما هم فيه فاعلون؟

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾:

تلك اللعينة هي صِلاتهم بالله إشراكاً به، ويأهل الله صداً عن المسجد الحرام كفراً به، وهذه صَلاتهم عند البيت ﴿مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ تصغيراً وتصفيقاً[2] هما من اللهو واللغو المناسبين لمسارح الفسق والرقص، وفي

---

(١) (الحكمة ٤٢٢).

(٢) المصدر ١٨٣ - أخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عزّوجلّ : ﴿إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ [الأنفال: ٣٥] قال: المكاء صوت القنبرة والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة =

أقدس مكان من أمكنة الوحي والعبادة، وذلك ثالوث منحوس من مستحقات العذاب: تكذيب بآيات الله، وصدٌّ عند المسجد الحرام، ومكاء وتصدية فيه ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

وهذه طبيعة الحال النحسة لقبيل الكفر أنهم يصرفون كل طاقاتهم، و﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ صداً للمؤمنين بالله تضليلاً لهم، أم وصداً عن تطبيق أحكام الله كما يصدون عن المسجد الحرام، وصداً للمستضعفين المتحرين عن الحق، أو الحائرين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيانهم ككلٍّ هو الصد عن سبيل الله.

ذلك ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ فيما يهوون ويشتهون ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ في الدارين، لا فقط ﴿حَسْرَةً﴾ بل ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ غَلَباً بعد الحسرة وقلة بعد الكثرة، هنا وفي الآخرة، ثم مصيرهم إلى النار ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿... إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ مع بعضهم البعض متميزين عن أهل الجنة ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ في ذلك الحشر كما تميزوا يوم الدنيا عن الطيبين ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ظلمات بعضها فوق بعض -

---

= كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته.

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ في ذلك الحشر الحاشد، ثم ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، فذلك التعبير القرآني يجسم الخبيث كأنه كومة من الأقذار لهؤلاء الخبثاء الأقذار، وعندما يصل السياق إلى ذلك التقرير عن مصير الكفر، يتجه بخطاب إلى الرسول ﷺ ليقول لهم قولة الرحمة إن تابوا وانتهوا:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

ضابطة فقهية كلامية هي بصيغة السنة: «الإسلام يجب - يهدم - ما - كان - قبله»[١] و مهما كانت هذه الرواية ضعيفة السند ومحدودة الدلالة، فهذه الآية تجبر كسرها فيهما[٢].

هنا ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ طليقة تحلق على كل ألوان الكفر إلحاداً وإشراكاً وكتابياً، فـ ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ تعني الانتهاء عن الكفر أياً كان بكل مخلفاته، فهو الانتهاء المطلق دون مطلق الانتهاء، حيث المتعلق للانتهاء

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٨٤ - أخرج ابن أحمد ومسلم عن عمرو بن العاصي قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: أبسط يديك لأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي قال: ما لك؟ قلت أردت أن تشترط، قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله.

(٢) أذكر حينما كنت بالنجف الأشرف في هجرتي إلى الله من شر الطاغوت: الشاه عليه لعنة الله، وكنت أتردد إلى مجلس الاستفتاء للمرجع الديني الكبير السيد الخوئي، مشاورة في مختلف الفتيا، وأنا متكفل الجانب الفقهي القرآني إضافة إلى سواه، ذكر فيما كان يحققه في أسناد الروايات أنني وجدت حديث الجب غير مسنود فلا يصح أن يفتي به، فتلوت عليه هذه الآية قائلاً: إذا كان حديث الجب ضعيفاً فآية الجب قوية، فاستطار حيرة وقال: حقاً نحن بعيدون عن كتاب الله، نفتش بعد ردح بعيد من الزمن عن سند حديث الجب، غافلين أن هناك آية الجب هي أقوى دلالة وأظهر، ولقد كانت أمثال هذه النبرات القرآنية مما يغيظ جمعاً من الجاهلين بالقرآن، التاركين إياه إلى سواه.

هنا هو الكفر، فإن انتهى عن بعضه لم ينته عن كفره حيث الباقي أيضاً كفر إذاً فقد يعني الانتهاء عن الكفر بأسره وتمامه، انتهاء نهائياً عن أسره، ثم ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ تحلق الغفر على كل ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ كتشجيع على إيمان، وإمحاءً لصدود قد تمنع عن الإيمان، وهل إذا يغفر للكافر ما قد سلف فبأحرى المؤمن الفاسق إذ لا يحرم المؤمن عما يمنح الكافر ترغيباً إلى إيمان، ولكن كفارات المؤمنين مقررة مفصلة، ولا يقاس المؤمن بالكافر، فالواجبات التي تركها حال إيمانه عليه أن يأتي بها، ثم المحرمات أن يستغفر عنها، والتعديات المالية والعِرضية والنفسية أن يجبرها، حيث التوبة لها حدود محددة في الكتاب والسنة.

وترى ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ تشمل إلى حقوق الله حقوق الناس؟ والغفر عن حقوق الناس ظلم بحق الناس ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾! هذا الغفر ليس إلّا قضية الرحمة الواسعة الربانية، فقضيته ألا يشكِّل زحمة للناس، فقد يختص بما هو حق الله تعالى فحسب، أم ويشمل حقوقاً للناس لا سبيل للمنتهي عن كفره إلى إحقاقه، إذاً فالله هو الذي يغفر له إرضاء لصاحب الحق يوم الحساب»[1].

فالأصل القرآني في حقل الانتهاء عن الكفر هو الغفر دون شرط، اللّهم إلا ما فيه ظلم بالناس و﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2].

إذاً فـ ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ مخصصة بما يكون غفره ظلماً بحقوق

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٥٤ في تفسير العياشي عن علي بن دراج الأسدي قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت له: إني كنت عاملاً لبني أمية فأصبت مالاً كثيراً فظننت أن ذلك لا يحل لي، قال عليه السلام: فسألت عن ذلك غيري؟ قال: قلت قد سئلت فقيل لي: إن أهلك ومالك وكل شيء لك حرام، قال: ليس كما قالوا لك، قلت: جعلت فداك فلي توبة؟ قال: نعم توبتك في كتاب الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ . . .﴾ [الأنفال: ٣٨].

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

الناس، وليست غاية ترغيب الكفار إلى الإيمان مما يبرر الوسيلة الظالمة، اللَّهم إلا أن يحمَّل المؤمنون الغفر عما لحقهم من الكفار حالة كفرهم من ظلم، فلصالح الإيمان ترغيباً إليه يتحمل المؤمنون غفرهم؟

وهو محدَّد بما يدل عليه بصورة قاطعة وبينة، فإلى مظان هذه الأدلة ومقاطعها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾(١) وعلّ من إصلاح بالهم ما يتكفله الله من جبر نقصهم فيما قصروا في حقوق الناس إلى حقوق الله.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(٢) ولعل التكفير يختص بحقوق الله المتروكة، فقد كانوا مكلفين بالفروع كما الأصول، ولكن الإيمان يكفر كل تقصير في الفروع ما لم يكن ظلماً بحقوق الناس.

ومن ذلك التكفير ما وعد جمع من المؤمنين: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾(٣).

كما و﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾(٤)، فالذي يؤمن بعد كفره «يغفر له ما قد سلف» بصورة طليقة اللَّهم إلّا ما يكون غفره ظلماً بآخرين، وهكذا الذي يقتل في سبيل الله، ولكن الذي يجتنب كبائر المنهيات تكفر عنه - فقط - سيئاته، ثم هنا

(١) سورة محمد، الآية: ٢.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.

ما يكفر من السيئات دون كلها: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(1).

فمن الصالحات ما يكفر أسوء الأعمال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾(2).

ومنها ما يكفر كل السيئات كالإيمان وعمل الصالحات والتقوى والشهادة في سبيل الله: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾(3) ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾(4).

ذلك، ولكن تكفير السيئات عن المؤمن علَّ نطاقه أضيق من ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ للكافر، فالإيمان بعد الكفر يكفِّر كل ما قد سلف، اللهم إلا ما لا يغفر من حقوق الناس حتى يغفره صاحبه، أو يحمله الله على ذلك الغفر، والتقوى وترك كبائر المنهيات وفعل كبائر الحسنات والشهادة في نطاق الإيمان يغفر بها كل السيئات وهي الصغائر دون الكبائر، وأما ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ فـ ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ ثم ومن الحسنات ما تبدل السيئات حسنات وذلك فوق تكفيرها: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾(5).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

(٢) سورة الزمر، الآيات: ٣٣-٣٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٤) سورة التغابن، الآية: ٩.

(٥) سورة الفرقان، الآيتان: ٧٠، ٧١.

ذلك، وبصورة عامة لا يعني غفر ما سلف، وتكفير السيئات كلًّا أو بعضاً إلا غفر ما يجوز غفره بميزان العدل والرحمة دون ما لا يجوز كحقوق الناس اللَّهم إلّا ما يجبره تعالى كما يراه هنا أم في الأخرى وهذا بحاجة إلى قاطع الدليل فلا تكفيه عمومات أو إطلاقات الغفر عما سلف أم تكفير السيئات.

فالآيات بالنسبة للذين ينتهون عن كفرهم إلى إيمان، هي كلمة واحدة: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[1] وما أشبه، وأوسع من الكل ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ حيث تشمل كافة التقصيرات في ترك واجبات واقتراف محرمات، ما يرتبط بحقوق الله، لا وحقوق الناس حيث الغفر عنها دون رضاهم ظلم.

ثم بالنسبة للمؤمنين المتقين - الشهداء في سبيل الله - التاركين كبائر المنهيات - العاملين كبائر الواجبات، لهم تكفير السيئات.

ثم لكامل التوبة حيث يتلوها العمل الصالح الذي أصلح ما أفسده تبديل لسيئاتهم حسنات.

وفي إعطاء الصدقات تكفير لبعض السيئات دون كلها، وعلها السيئات المالية.

ذلك، ولأن الذين انتهوا عن كفرهم ما كان تكليفهم بالفروع كما على المؤمنين، ولكيلا يصدهم عن الإيمان عبءُ الإتيان بما سلف والجبران لما تخلف، فالصالح في الرحمة الربانية وسياسة الجذب إلى الإيمان أن ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ولكنه محدد بما ليس من حقوق الناس، وإن كان منها فبما يجبره الله حتى يرضي المهضومين في حقوقهم.

ثم وعلى كتلة الإيمان التنازل عن حقوقهم المهضومة فيما يؤمن الهاضمون إياها إكراماً للإيمان، وتنازلاً عن مصالحهم الشخصية للمصلحة الجماعية لكتلة الإيمان.

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

ذلك، وكضابطة في غفر الله أياً كان ولأيٍ كان، لا مجال له ككل إلا حقوق الله وأما حقوق الناس فلا إلا أن يدل دليل خاص عليه كأن الله يرضي المستحقين، أو أنه يريد منهم أن يرضوا، ولا نجد هذا أو ذاك بالنسبة لانتهاء الكفار عن كفرهم، فإنما يغفر لهم ما قد سلف من واجبات متروكة أو محرمات مفعولة في حقل حقوق الله فقط.

هذا، ومع كل ذلك فقد يحكم إطلاق ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ شمولاً لحقوق الناس، استسماحاً من الناس المؤمنين هنا وسماحاً من الله في الأخرى كما يصح ويرضى، فإن غفر حقوق الناس محظور إذا لم يكن إليه سبيل وإن محتملاً، وقد نجد مثله في مواضع كالتجهيز وولاية اليتامى، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما أشبه حيث المصلحة العامة العليا اقتضت هضم الحقوق المالية فيها رعاية للأهم الأعم، فقد يكون هكذا الأمر وبأحرى بالنسبة للذين ينتهون عن الكفر، فلا مقيد قاطعاً لحقوق الناس في غفر ما سلف للذين آمنوا.

وحين يعمل مثلث ﴿تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[1] تبديل سيئات المؤمنين حسنات، فبأحرى أن يغفر عن كل السيئات لمن انتهى عن كفره ترغيباً وتشويقاً، لا سيما وأن تكليف الكفار بالفروع أخف من تكليف المؤمنين بها، فلتغفر لهؤلاء ما سلف بأحرى منهم.

الحرب الخطوة الخطوة على مد الزمن حتى تنتهي إلى زمن صاحب الزمن حيث يخطو الخطوة الأخيرة من ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[2] إزالَة الفتنة أو إخماد نائرتها قدر المستطاع، قتالاً بارداً صداً عن الدعايات الكافرة، وآخر حاراً حينما لا تنفع الباردة أم لا تكفي ولا تكافئ فتنتهم.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

فذلك تقرير حاسم دائم للحركة الإسلامية السامية على مدار الزمن في مواجهة الفتنة أينما كانت وكيفما حصلت لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

فليس يكفي - فحسب - أن تكون أنت مسلماً والجو الفاسد بالدعايات المضللة يفتتن البسطاء عن الحق المُرام.

لأن الله لا يكلف نفساً إلّا وسعها، فلا تعني ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ إلا قدر المستطاع الصالح للكتلة المؤمنة.

فأما إذا فنوا أو ضعفوا بقتالهم، أم يزول الأهم لهم بذلك وما أشبه من محاظير القتال - إذاً - فلا قتال، وكما لم يكن في العهد المكي.

ذلك، فالمأمور بذلك القتال الحاسم الجاسم كل الكتلة المؤمنة على مدار الزمن الإسلامي حتى يأتي دور صاحب الأمر دائرة على يديه دولة الإسلام شاملة كل المعمورات.

ذلك، ولأن ضمير الغائب في ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ راجع إلى ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فالقتال المفروض قدر الصالح والمستطاع يعم الكفار كلهم، وهم غير المسلمين ككلّ.

ولأن القصد من مقاتلتهم هو استئصال الفتنة تحقيقاً حقيقاً لـ «لا» ذلك ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ دون عود ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ﴾ في العائدين إلى كفرهم ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فإنه ارتداد جاهر عن الدين، وله حكمه كما تقتضيه الحكمة العادلة الربانية.

ذلك، فعلى سواء أن يكون لحديث «الإسلام يجب ما قبله» سند صالح أم لا، حيث يؤخذ منه ما يوافق الآية ولأن أصل الجَبِّ هو احتزال السنام من أصله فكأنه ﷺ جعل الإسلام مستأصلاً لكل ذنب تقدم الإنسان قبله حتى لا يدع له جناية يحذر عاقبتها، ولا معرَّة يسوء الحديث عنها، بل تعفى

على ما تقدم من السوءات، وتحثو على ما ظهر من العورات، اللّهم إلّا ما يحتاج العفو عنه إلى مكفر زائد.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

إن القتال الإسلامي لا ينحو منحى تفتُّح البلاد توسعياً قضية القدرة الغالبة، والزهوة المتألبة، بل هو - فقط - دفاع سلباً لأيّة ﴿فِتْنَةٌ﴾ فإيجاباً لـ ﴿ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فلا يهدف - إذاً - إلا تحقيق كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ولأن «الفتنة» هي ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[2] و﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[3] فهي بأحرى منه سماحاً وفرضاً للقتال دفاعاً عن الفتنة إذا كانت فتنة عن الدين بمختلف حلقاته وحقوله.

ولا تعني «قاتلوهم» مقاتلين خصوصاً في زمان أو مكان خاص إذ لا يمكن إزالة الفتنة ككل وإيجاب الدين كله لله لجماعة خاصة من المسلمين، اللّهم إلّا ما سوف يحصل بقوات صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف، وأمر القتال هنا أمر الحال وإن شمل المستقبل، دون اختصاص بالاستقبال.

إذاً فذلك أمر باستمرارية القتال على مدار الزمن الإسلامي كسياسة «إلّه» ثم تثبيت دولة الحق تحقيقاً لـ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إذاً فلا تعني قتال الكفار إلا تحقيق كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بحقها.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

فالعَلَم الأحمر للقتال في سبيل الله لا يتبدل بالأخضر المصالحة التامة حتى يتحقق ﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

فأما إذا لم ينتج القتال إلّا مزيد الفتنة، أم لا فتنة ولا سلب فتنة، أم ﴿جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أما في هذه الموارد فمواصلة القتال لا تبرَّر بأيٍّ مبرر، وكما في كتاب الإمام علي لمالك الأشترّ: «ولا تدفعن صلحا دعاك الله عدوك ولله فيه رضىً، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتعقل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن».

ذلك ليرى أعداء الإسلام أنه ليس شرعة تفتح وتغلب، إنما هي شرعة رحمة وتطلب للحق، لينة الأريكة لمن استلان، وشديد المعركة على من يهاجم شرعة الله.

ثم القتال في سبيل الله إسلامياً غير مسموح إلا دفاعاً عن النفس أو العقيدة، فالفتنة النفسية، ثم العقيدية التي هي أشد وأكبر من القتل، هاتان الفتنتان هما اللتان يسمح فيهما بالقتال لزاماً، فلأن قتل من لا يقاتل ولا يفتتن عقيدياً هو اعتداء دون مقابل، أم بمقابل أقل منه، فضابطة ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[1] تحصر سماح القتال في حقله بما فيه اعتداءٌ بالمثل أم بأدنى كما في المقاتلين المفتتنين حيث «الفتنة أكبر - أشد من القتل».

إذاً ف ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا تعني كل فتنة، إنما هي فتنة إن القصد من قتالهم هو إزالة الفتنة آمنوا أم لم يؤمنوا «وإن تولوا» عن ترك الفتنة فإنما عليكم ما حمِّلتم قدر المقدور، ثم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

حيث يتولى أمركم أمام الفاتنين ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فلا تكلفوا أنفسكم فوق طاقاتكم إحراجاً.

نفسية أم عقيدية، ثم ولا مجال للقتال في الثانية إلا ألا يكون سبيل إلّا هيه، أن نرد عليهم فتنهم، ولكن الفتنة العقيدية آخذة مجالاتها في البسطاء الذين ما تعرق الإيمان المتقن في قلوبهم، وحتى المؤمنين الماكنين قد تأخذهم فتن عقيدية ماكرة حاكرة.

ذلك، وأما سائر الفتن التي هي دون النفس والعقيدة، فضلاً عن الكفار غير الفاتنين، فلا مبّر إسلامياً لقتالهم، حيث الحروب الإسلامية - ككل - هي كلها مصبوغة بصبغة الدفاع، ومسوقة بصيغة في سبيل الله، ولا تسمح سبيل الله والدفاع عنها بالقتال دون أي دفاع.

ثم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ لا تعني في أي زمان أو مكان ألا يطاع إلّا الله، فإن قسماً من اليهود والنصارى حسب آيتي «أغرينا وألقينا» مستمرون إلى زمن صاحب الأمر عليه السلام وإلى يوم القيامة الكبرى، فهل هم - بعد - دينهم دين الله؟

ثم ولا قتال الكتابيين - كما في آيتهم - إلّا المقاتلين منهم أو الفاتنين وقد اختصرت دركاتهم المسرودة في آيات البراءة بـ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1] فلكي تخمد نار الفتنة عنهم لكيلا يسطعوا على إطفاء نور الله بأفواههم، نور الإيمان ونور المؤمنين، نقاتلهم ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2] لم تبق لهم قوة لذلك الإطفاء بذلك الانطفاء، إذاً فقتالهم محدد لحد انطفائهم عن فتنتهم مهما لم يؤمنوا.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾:

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾:

في هذه الآية مسائل عدة في تساؤلات وإجابات كما يهدي إليها الكتاب والسنة، وطالما قصرت الأقلام حولها أم طالت، فقد يحق بنا حق التنقير حولها بحق التفسير كما نستطيع، ابتداء بالأسؤلة التالية:

١ - هل الغنيمة هي التي تفوز به من مال أو حق من غير مشقة؟[١] والغُنم هو إصابة الغَنَم واستعمل في كل مظفور به[٢] كما ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[٣] قد تعممها إلى مطلقها بمشقة أو دونها، حيث إن سماح الأكل

(١) كما في لسان العرب.
(٢) مفردات القرآن للراغب الأصبهاني.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٩.

مما فزت به بمشقة أحرى، فإن آية الأكل هذه آتية بعد آيات في القتال، وغنائم دار الحرب الحاصلة بمشقة أحرى بالحِل مما سواها! ولكن مشقة الحرب ليست للغنيمة، إلّا أن الغنيمة الحاصلة بها هي الحاصلة بمشقة، سواء أكانت هذه الغنيمة منوية أم لم تكن.

أم هي خاصة بغنائم دار الحرب لورود آية الخمس موردها؟ ومورد الحرب لنزولها في منزلها، حيث اللغة المستعملة في مورد من مواردها لا تتخصص به بذلك الاستعمال إلّا إذا حلَّق استعمالها على كل الموارد، ثم ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[1] تعمم الغنيمة إلى كل فائدة، فهي الفوز بفائدة في حرب وسواها، بمشقة وسواها، باكتساب وسواه، بعلم أم سواه، فهي كل ما حصل عليه الإنسان من حق أو مال بحق في أي حقل من الحقول. ذلك، وكما «مانح كل غنيمة وفضل»[2] ليست لتعني - فقط - غنيمة الحرب، ثم و﴿مِن شَيۡءٍ﴾ في استغراق الإيجاب تستغرق الغنيمة من كل شيءٍ دونما استثناء، وكذلك اللغة تشهد لطليق معناها في كل فائدة دونما اختصاص بحقل خاص.

فأصل الغُنم هو الزيادة والنماء وفاضل القيمة[3] كما وهو إصابة الغُنم والظفر به، ثم استعمل في كل إصابة وكل مظفور به من عدو وغيره[4].

إذاً ف «ما غَنِمْتُم مِنْ شَيْء» لا تختص الخمس بغنائم دار الحرب، بل هي كل غنيمة وفائدة محلَّلة تحصل عليها في أي محصل من النزول ليس ليخصص الآية بنفسه، والغنيمة لغوياً لا تختص بها من دار الحرب، فهل ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.
(٢) (الخطبة ٨٢).
(٣) كما في لسان العرب.
(٤) كما في مفردات القرآن للراغب الأصبهاني.

﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[(١)] تختص أيضاً بحقل القتال، ولا تعني ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾[(٢)] ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾[(٣)] [(٤)] و«تأخذونها» (١٩ و٢٠) مما تختص المغانم بخصوص المحاصيل، صناعة وزراعة وتجارة وهبة أو هدية أماهيه، إلّا أن يدل قاطع الدليل على استثناء يُتّبع.

وترى «ما غنمتم» تختص بما بقي من الفوائد بعد استثناء مصارف الحصول عليها ومؤنة السنة؟

استثناء المصارف الأولى هو طبيعة الحال من «ما غنمتم» حيث الغنيمة هي الفائدة الخالصة، وهنا نصدق المروي أن الخمس بعد المؤنة.

ثم في استثناء المصارف الأخرى نظر فإنها كالباقية مشمولة لـ «ما غنمتم» والرواية القائلة: «إن الخمس بعد المؤنة» لا تعني إلا مؤنة الحصول على الفائدة كما في الموارد الستة الأخرى التي يجب فيها الخمس، ولا نص على استثناء مؤنة السنة، ولو كان لم يكن يصلح لتقييد «ما غنمتم» بجزء ضئيل قليل منه، فحين تحصل على مائة ألف فائدة خالصة فتصرف تسعين ألفاً منها في مؤنتك ثم تخمس الباقي فيطلع ألفين، فكيف يناسب الألفان أن يعني بـ «ما غنمتم» وقد غنمت خمسين ضعفاً منه؟

إذاً فالأقوى أن الخمس كما الزكاة يتعلق بأصل الفائدة مع رعاية المؤنة المتعودة حتى لا يصبح بتخميس ماله فقيراً يحتاج إلى الخمس حيث ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[(٥)] ومنه الزيادة، وهي هنا الزيادة عن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٥.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٩.

(٤) ولكن ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠] هي نفس المغانم التي عند الله في ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤] إلا أن شمول ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ لـ ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠] لا تجعل المغانم الثانية نفس الأولى.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

المصارف المتعودة دون تبذير ولا إسراف، فلا خمس إذاً من أصل المؤنة إلَّا عفواً لا تحتاج فيه إلى شيء من الخمس.

فإذا كانت فوائده شهرية فليصبر حتى آخر الشهر فإذا بقي شيء يحاسب الخمس من أصل الفائدة، وإذا كانت سنوية أماهيه فليحاسب حسب الفائدة المراعاة فيها المؤنة.

٣ - هل ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ هي نصاب من أنصبة الزكاة فليس الخمس عَلَماً لصنف خاص من الضرائب الإسلامية، بل هو النصاب الأخير في واجب التأدية من كافة الغنائم، وقد نسخت الأنصبة المذكورة في السنة من ربع العشر إلى نصف العشر وإلى العشر، فهو الآن ضِعف العشر كضابطة وقانون شامل، ثم في الحاجات الضرورية لمصارف الزكاة يأتي دور الضريبة غير المستقيمة وهي كل زائدة عن الحاجة الضرورية المتعوَّدة بناءً على آية العفو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ كما في الخمس؟

أم إنه عَلَم لمصطلَح خاص لضريبة أخرى سوى الزكاة؟[1] وذلك غير معروف لغوياً ولا شرعياً - إلا عند المتشرعة قضية الفتاوى الشهيرة - وآية الخمس لا تصطلحه كضريبة خاصة لمكان ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾.

أجل، قد يوحي اختلاف موارد الخمس عن موارد الزكاة في آية الصدقات - النازلة بعدها بسنين عدة - باستقلاله عنها كضريبة سواه، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2] فإن الله ١ - والرسول، ٢ - وذي القربى، ٣ - واليتامى، ٤ - المذكورون هناك

---

(١) جامع الأحاديث ٨: ٥٢٦ قوله عليه السلام ما من ذي مال ذهب ولا فضة يمنع زكاة ماله أو خمسه إلا حبسه الله عزّ وجلّ بقاع قرقر وسلط عليه شجاع أقرع.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

غير مذكورين هنا، والعاملين ١ - عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب، ٣ - والغارمين، ٤ - وفي سبيل الله، ٥ - والفقراء، ٦ - هنا غير مذكورين هناك، فالمشترك بينهما ليس إلا المساكين وابن السبيل.

وقد يقال إن ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ تشمل - وبأحرى - ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا سيما وأن ﴿ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ هما - دون ريب - أصلان لسبيل الله، والمساكين تشمل الفقراء بطريق أولى حيث الفقير أسوء حالاً من المسكين، و﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ مشمولون للسبيل كفروع، و﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ غير المساكين منهم علهما زيادة على السالف ذكرهم في آية الصدقات، ولكنهما - أيضاً - داخلان في ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أو كما أن الأنصبة المقررة في السنة نسخت بآية الخمس، كذلك مواردها تحولت بها؟ ولكن لم يثبت نزول آية الخمس بعد آية الصدقات حتى يثبت تناسخ في البين، بل آية الصدقات نزلت بعدها حيث الأمر بأخذ الصدقات نزل في السنة التاسعة من الهجرة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[1] وآية الصدقات هي في نفس السورة، إذاً فهي بعد آية الخمس بست سنين، فنسخ آية الخمس بآية الصدقات أحرى - لو كان هناك نسخ - فإذاً تصبح أنصبة الصدقات هي أنصبة الخمس، ولكن دون إثباته خرط القتاد، إلا أن يقال آية الصدقات نسخت من موارد الخمس.

وهنالك في السنة لمحات صارحة أو تصريحات صارخة أن الخمس غير الزكاة ونموذجاً منها ما يروى عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «إن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسمه على مستحقيه، والخمس

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها» (٢٧٠ ح/ ٦٢٠) إلا أن تعني الصدقات ما هو أعم من ضريبة الخمس، فهي من ذكر العام بعد الخاص.

ومما يؤيد أو يؤكد أن الخمس ضريبة بحيال الزكاة انه كان عادة جاهلية قبل الإسلام، وآية الخمس هذه تقرر أصله وتصلح تقسيمه الذي كان جاهلياً غير عادل[1].

---

(١) جاء في التاريخ والسير كتاريخ قم (٢٩١) أن أبا مالك الأشتري قسم الخمس قبل نزول الآية، وفي (٢٧٨) منه أن مالك بن عامر المهاجري خمس قبل نزول الآية حيث غنم غنيمة في بعض الغزوات فقال له رسول الله ﷺ: اجعل منه نصيباً لله فقال مالك خمسه لله، وفي بعض التواريخ أن أوّل خمس أدي قبل بدر ما أداه عبد الله بن جحش في سريته، أداه للرسول ﷺ (تاريخ أبي الفداء للواقدي وابن خلدون واليعقوبي).

ويقول القرطبي في تفسيره (٨: ١٢) كانوا في الجاهلية يختصون ربع الغنيمة لقائد الجيش وكما يقول الشاعر الجاهلي:

لك المرباع منها والصفايا وحلمك والنشيطة والفضول

وفي سيرة ابن هشام (٤: ٢٢٤) عن ثابت بن قيس الشماس يذكر مفاخر قومه في الجاهلية قائلاً:

منا الملوك وفينا تقسم الربع وانا ابن الرابعين من آل عمرو

وفرسان المنابر من خباب

قول ابن هشام: كان من عاداتهم إذا غنموا أن يعطوا الرئيس ربع الغنيمة ويسمى المرباع، وفيه ص ٢٣٠ من أشعار زبرقان بن بدر أنه قال أمام الرسول ﷺ:

وإن لنا المرباع في كلّ غارة نفير بنجد أو بأرض الأعاجم

وفيه (٢٤٦) في قصة وفود عدي بن حاتم: وكنت أسير في قومي بالمرباع، وقال الأصمعي: ربع في الجاهلية وخمس في الإسلام وكان يأخذ بغير شرع ولا دين ربع الغنيمة، وفي مسالك الأفهام (٢: ٩٥) كان في الجاهلية أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون الغنيمة لأنهم أهل الرئاسة والدولة والغلبة.

ذلك، وقد قررت آية الخمس خلافاً للقرار الجاهلي ما قررت.

وذلك وللغنائم الحربية سوابق رسالية كما في تثنية التوراة (٢٠: ١٠٠٠) والتكوين (١٤: ٢٠) ورسالة بولس للعبرانيين (٧: ٤) وسفر الأعداد (٢١: ٩ و١١ و١٨ و٢٦ و٣١)، وفي أوّل تاريخ الأيام (٢٦: ٢٦ - ٢٧).

إذاً فالزكاة والخمس ضريبتان اثنتان مستقيمتان قد تكون أولاهما على كل الغنائم قبل المؤنة والخمس عليها بعد المؤنة إلا في أرباح التجارات وسواها، فالعوائد - إذاً - هي بين ضريبتين اثنتين مستقيمتين، ثم الضريبة غير المستقيمة هي للحالات الطارئة من الحاجات الضرورية فردية وجماعية للكتلة المسلمة.

وأما أنصبة الزكاة الشاملة لكافة الأموال، فالمقررة منها للبعض منها تقرَّر لأشباهها، فنصاب الغلات الأربع نصاب لكافة الغلات، ونصاب الأنعام الثلاثة نصاب لكافة الأنعام، ونصاب النقدين نصاب لسائر النقود والأموال، حيث المنصوص من هذه الأنصبة لم تذكر إلا لنماذج من مواردها.

ذلك، إلا أن يخص الخمس بغنائم دار الحرب ولا دليل عليه مهما قيل لإثباته قيلات، فنحن نتابع النص ما لم ينسخه نص آخر يوازيه.

فقد يقال إن آية الخمس نزلت في غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة، وقد نزلت بشأن الغنائم الحربية المختلف فيها بين المقاتلين، أو يقال إنها نزلت بشأن غزوة أخرى، ولكننا لسنا لنتابع شؤون النزول حيث الأصل هو أصل النص: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وهي أعم من الحرب، فلو كان القصد إلى خصوص الحرب لجيء بخصوصها كـ «في القتال» أماذا؟ لا سيما وأنها الآية الوحيدة الآمرة بأداء خمس الغنيمة أمام عشرات من آيات الصدقات.

ذلك، وهنا أربع من الضرائب المستقيمة على مختلف الأموال، فـ ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾(١).

والفيء وهو هو لمستحقي الخمس: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ

(١) سورة الأنفال، الآية: ١.

أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[1].

فمقسم الخمس والفيء متشارك إلا في أربعة أخماس، ومقسم الأنفال فقط الله والرسول، وقد يجوز للرسول بسند الرسالة أن يقسمه بين مستحقي الخمس، ومقسم الزكاة تلكم الثمانية، ولا اشتراك بينها وبين ست الخمس إلا في المساكين وابن السبيل، فتبقى ستة من مقسم الزكاة غير مذكورة في مقسم الخمس، كما وأن أربعة من الخمس غير مذكورة في الزكاة، فالمقاسم إذاً ثلاثة في هذه الضرائب الأربع، أو اثنان لدمج الفيء في الخمس[2] وقد يدخل الفيء والأنفال في ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ فإنهما من الغنائم الجماعية للمسلمين، واختصاص الأنفال بالله والرسول لا ينافي أن للأربعة الباقية أنصبة منها.

والقول باختصاص الخمس بغنائم الحرب قد يستدل له بما يلي:

١ - كون آية الخمس بين آيات القتال صراحة أو تلميحة أن «ما غنمتم» تعني في الحرب، وإن كانت الغنيمة لغوياً تشمل كل فائدة، كأن يقول صاحب الصيدلية ضمن كلامه حول الأدوية: كل ما حصلتم عليه فاجعلوه في مكان كذا، حيث لا يفهم منه إلا ما يناسب الصيدلية من الأدوية، فلا يدخل في فهم أو وهم أنه يشمل اللحوم والفواكه والأسرجة وما أشبه؟

ولكنه قياس فإن مَثَله تعالى في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ إنما هو مَثَل من يبيع أو يشتري كل شيء، فإذا كان يتحدث عن شيء خاص ثم قال

(١) سورة الحشر، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) للاطلاع على أبعاد الفيء والأنفال راجع الفرقان ٢٨: ٣٣٤ - ٢٤٠.

ما حصلتم عليه من شيءٍ فلا يعني الشيء الخاص، فلو عناه لخص اسمه بالذكر، وهكذا - وبأحرى - ما غنمتم من شيء، لا سيما و﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[1] تعمم الغنيمة، ومما يبرهن على عموم الغنيمة أن القيد هو الذي يحدد موقفها، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ﴾ يحولها إلى غير دار الحرب، و﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾[2] تختصها بدار الحرب، وآية الخمس طليقة فتعم ما لدار الحرب إلى غيرها.

٢ - عدم أخذ الخمس في أيام الخلافة والسلطة الإسلامية من قبل الخلفاء والسلاطين دليل اختصاصه بغنائم دار الحرب، فلو عمت لكانوا أحرص عليه ممن سواهم؟

ولكن عدم أخذهم الخمس هو تعامٍ عمليٌّ عن حق الخمس الخاص بأهل بيت الرسالة عليهم السلام، وقد نجد أوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم [3] والأئمة عليهم بالخمس بصورة طليقة دون اختصاص بغنائم دار الحرب، وأن هذه شيطنة مدروسة ضد الأئمة عليهم السلام أن يحرموا من خمسهم، شيطنة مزدوجة في السلطتين الروحية والزمنية.

٣ - الخمس لله دون اقتسام إلى ستة أقسام لقوله تعالى ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ ومهما أضيف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وغيره فإن الله لا يردف بخلقه في حق، ثم الروايات متواترة في صيغة «خمس الله»[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٥.

(٣) في كتابه صلى الله عليه وآله وسلم إلى شرحبيل «وأعطيتم من المغانم خمس الله، وإلى عمرو بن معبد الجهني واعط من المغانم الخمس، وإلى مالك بن أحمد» وأدوا الخمس من المغنم، وإلى عبد يغوث واعط خمس المغانم في الغزو، وإلى جنادة وقومه «واعط الخمس من المغانم خمس الله».
في كتبه صلى الله عليه وآله وسلم هذه إلى رؤساء القبائل والمشايخ والولاة نجد الأمر بالخمس من المغانم وليس الاختصاص بالغزو إلا في واحدة.

(٤) فمن طريق السنة ما أخرجه أسد الغابة ٤ : ١٧٥ والإصابة ٣: رقم ٦٩٦٠ وطبقات ابن سعد =

ذلك، ولكن لا يعني «الخمس لله» خلاف نص الآية، إنما يعني أنه يدفع في سبيل الله المقسمة في آية الخمس إلى ستة أقسام بأمر الله وجعلُ الله نفسه في عداد الستة لا يعني ردفَه بهم، فإنما ذكر اسمه أولاً كمحور لمصرف الخمس، ثم ذكر من يصرف الخمس وهم الرسول ﷺ وذوو القربى من عترة الرسول عليهم السلام، ومن يصرف فيهم غير ما يصرف في الدعايات المثلثة وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

أفليس صرف سهم من الخمس في سبيل تقوية الرسالة والخلافة لله، أو ليس صرف سهام أخرى في اليتامى والمساكين وابن السبيل، لله، إذاً فكله لله، بما أمر الله وصُرف فيما أمر الله.

ذلك وحين نقر بفرض الخمس للرسول ﷺ والأئمة من عترته عليهم السلام فهل نقر أيضاً به لليتامى والمساكين وابن السبيل للذرية؟ أم لهم ما لسائر

= ١: ٢٨٤ في كتابه ﷺ إلى فجيع بن عبد الله زتهل: وأعطى من المغنم خمس الله، وكذلك في نفس المصادر كتابه إلى جدين الطائيين نفس العبارة، وكذلك في كتابه ﷺ إلى أهل اليمن كما في رواية اليعقوبي ٢: ٦٤ في تاريخه وطبقات ابن سعد ١: ٢٦٤، وكذلك في كتابه إلى نهشل بن مالك الوائلي، وإلى جنادة الأزدي وقومه برواية ابن سعد في طبقاته ١: ٢٧٠ وكنز العمال ٥: ٣٢٠، وتاريخ الطبري ٢: ٣٨١ والبداية والنهاية لابن كثير ٥: ٧٥ وفتوح البلدان ص ٨٢ وسيرة ابن هشام ٤: ٢٥٨، وكذلك كتابه ﷺ إلى عمر بن حزم حسب رواية الطبري ٢: ٣٨٨ والبداية والنهاية ٥: ٧٦ وفتوح البلدان ص ٨١ وسيرة ابن هشام ٤٣: ٢٦٥ وكنز العمال ٣: ١٨٦ وصبح الأعشى ١٠: ١٠ والخراج لأبي يوسف ص ٧٢، وفي كتاب الأموال لقاسم بن سلام ص ١٩ كتابه إلى بني زهر بن حبش، وفي كتاب الأموال ٤٢٧ يجيب ﷺ عن السؤال حول الغنيمة: لله سهم ولهؤلاء أربعة.

وكذلك من طريق الشيعة في الفقيه كتاب الوصايا عن أمير المؤمنين عليه السلام الوصية بالخمس لأن الله عزّ وجلّ رضي لنفسه بالخمس، وفي المستدرك ١: ٥٥١ عن الجعفريات عنه عليه السلام أنه كان يستحب الوصية بالخمس ويقول: إن الله تبارك وتعالى رضي لنفسه عن القسمة بالخمس - وفي بصائر الدرجات عن الباقر عليه السلام قال: والله لقد يسر الله على المؤمنين أرزاقهم بخمسة دراهم جعلوا لربهم واحداً وأكلوا أربعة حلالاً، وفي الوسائل باب وجوب الخمس ح ١٢ عن علي عليه السلام في الآية فجعل لله خمس الغنائم.

المسلمين المحاويج؟ وجهان، ومما يدل على عدم اختصاص الذرية أحاديث تحليل الخمس للشيعة زمن الغيبة[١].

٤ - كيف تختص سهام ثلاثة من خمس غنائم دار الحرب بالثلاث من الذرية ويحرم غيرهم وليس يقابله من الزكاة شيء؟ ولا سيما على فرض اختصاص الزكاة بالتسعة على قيودها، فكيف يختص الخمس على كثرته حساباً ونصاباً بالذرية القليلة - ولا سيما المختصة بطريق الآباء - ثم الزكاة على قلتها حساباً ونصاباً تختص بغير الذرية؟

٥ - على فرض أن الخمس يتعلق بكل الفوائد، فالسهام الثلاثة الأول راجعة إلى تحكيم عرى الإسلام توحيداً ورسالة وخلافة، والثلاثة الأخرى طليقة بين يتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء سبيلهم دون اختصاص بذرية الرسول ﷺ فإن ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تعني ذريته، والاستحقاق في الثلاثة الأولى عام لصالح المسلمين، وفي الأخيرة خاص بالثلاثة، وتقسيم هذه الستة ليس على سواء بل حسب الحاجة الحاضرة.

لذلك اختصت الثلاثة الأولى باللّام ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٢] دليلاً على اختصاص خاص وهو الاختصاص بالكيان الإسلامي لا الاشتمال، فليس الله ليحتاج إلى نصيب ولا الرسول إلا لرسالته ولا ذوو القربى إلا لخلافتهم، والكل بأيدي رؤساء الدولة الإسلامية الصالحين.

---

(١) مما يدل على التحليل كما في جامع أحاديث الشيعة ٨: ٥٢٦ رواية ابن سنان قوله عليه السلام على كلّ امرئٍ غنم أو اكتسب الخمس مما أصاب لفاطمة عليها السلام إلى أن قال -: «إلا من أحللناه من شيعتنا لتطيب لهم به الولادة إنه ليس من شيء عند الله يوم القيامة أعظم من الزنا إنه ليقوم صاحب الخمس فيقول يا رب سل هؤلاء بما أبيحوا»

وفيه رواية سليم بن قيس من باب (١) أن الخمس لله وللرسول ما يدل أن الله تبارك وتعالى فرض الخمس إكراماً للرسول وأهل بيته عليهم السلام وفي رواية عمران قوله عليه السلام: يسر الله على المؤمنين أرزاقهم بخمسة دراهم جعلوا لربهم واحداً وأكلوا أربعة أحلاء.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

ومن الفارق بين مصاريف الخمس والزكاة، أن نصف الخمس راجع إلى الثلاثة الأولى، والنصف الآخر إلى الثلاثة الأخرى، اثنان منها من ثمانية الزكاة، فالزكاة إذاً هي الأصل الأصيل في الضرائب المستقيمة وقد أمر بأخذها وتقسيمها إلى ثمانيتها.

ذلك، والآية من ناحية الدلالة، «ما غنمتم» فيها، الحق أنها تشمل كل الفوائد والعوائد من مال أو حق، وإنما جاءت هنا ﴿غَنِمْتُم﴾ الظاهرة في غنائم الحرب مهما شملت غيرها من الغنائم، لأنها نزلت في حقل الحرب، فبهذه المناسبة ناسبت ﴿غَنِمْتُم﴾.

ثم ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ ليست اللام فيها لام الملكية العرضية فإن الله مالك ذاتياً، وإنما خوّلنا أموالاً دون إخراج عن مِلكه، فإنما تعني هنا اختصاصاً بصرفه في شؤون الألوهية، كما ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ في شؤون الرسالة ﴿وَلِذِى الْقُرْبَىٰ﴾ في شؤون الخلافة المعصومة، إن عنت ذا قربى الرسول، وإلّا فقد يكفي نصيب الرسالة للخلافة، ثم ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ تعم السادة وغيرهم، وحذف اللّام عنهم لعدم وجود الاختصاص، حيث قد يصرف مالهم في سائر سبل الله.

ثم هذه الأقسام ليست على حد سواء بل لكلّ قدر الحاجة.

وقد تلمح «ذي القربى» مفردة دون ﴿ذَوِى الْقُرْبَىٰ﴾ - وأنها وجاه جموع ثلاثة - أنهم ذي قربى الرسول ﷺ كما ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[1] و﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾[2] كما و﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾[3]، ومما يدل على اختصاص ﴿ذِى الْقُرْبَىٰ﴾

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٣٦.

بذي قربى الرسول آية الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] فإن ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ يخصص ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بذي قرباه، ثم المعطي هنا هو الرسول فكيف يُعنى من ذي القربى غير ذي قرباه، ثم الآية التالية لها تفسِّر الثلاثة الآخرين أنهم من عموم المسلمين ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ... وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[2] وتؤيده أحاديثنا[3].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) سورة الحشر، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) ففي تحف العقول ٣٤١ عن الصادق عليه السلام «في الغنائم» وأما قوله لله فكما يقول الإنسان هو لله ولك ولا يقسم لله منه شيء فخمّس رسول الله صلى الله عليه وآله الغنيمة التي قبض بخمسة أسهم فقبض منهم سهم الله لنفسه يحيي به ذكره ويورث بعده وسهماً لقرابته من بني عبد المطلب وأنفذ سهماً لأيتام المسلمين وسهماً لمساكينهم وسهماً لابن السبيل.

وفي روضة الكافي عن أبي حمزة عن الباقر عليه السلام أن الله جعل لنا أهل البيت سهاماً ثلاثة دون سهام اليتامى والمساكين وابن السبيل فإنها لغيرهم.

وفي الفقيه ١٥٨ والتهذيب ٤: ١٣٤ في آية الفيءِ عن الباقر عليه السلام فهذا بمنزلة المغنم كان أبي عليه السلام يقول ذلك وليس لنا فيه غير سهمين سهم الرسول وسهم القربى ثم نحن شركاء الناس فيما بقي.

وفي التهذيب ٤: ١٢٨ والاستبصار ٢: ٥٦ عن ربعي بن عبد الله بن الجارود في الصحيح عن الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أتاه المغنم أخذ صفوة وكان ذلك له ثم يقسم ما بقي خمسة أخماس ويأخذ خمسة ثم يقسم أربعة أخماس بين الناس الذين قاتلوا عليه ثم قسم الخمس الذي أخذه خمسة أخماس يأخذ خمس الله عز وجل لنفسه ثم يقسم الأربعة أخماس بين ذوي القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل يعطي كلّ واحد منهم حقاً وكذلك الإمام أخذ كما أخذ الرسول.

وفي مسند زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام ٣٥٦ بيروت باب الخمس والأنفال سألت زيد بن علي بن الحسين عن الخمس قال: هو لنا ما احتجنا فإذا استغنينا فلا حق لنا فيه ألم تر أن الله قرننا مع اليتامى والمساكين وابن السبيل فإذا بلغ اليتيم واستغنى المسكين وأبى ابن السبيل فلا حق لهم وكذلك نحن إذا استغنينا فلا حق لنا.

وفي ملحقات إحقاق الحق ١٤: ٦٥٤ عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١٤: ٦٥٣ بسند متصل عن علي عليه السلام في الآية قال: «لنا خاصة ولم يجعل لنا في الصدقة نصيباً كرامة أكرم الله تعالى نبيه وآله بها وأكرمنا عن أوساخ أيدي المسلمين». =

فهنا «ذي القربى» في الفيء ليس إلا ذي قربى الرسول ﷺ فإنه هي المعطي للفيء الذي يختص به وبالله، فلذي قربى الرسول من الخمس نصيب لا ميراثاً وإنما خلافة للرسول كان للرسول نصيب.

فإن الخلافة الإسلامية هي استمرارية للرسالة، وهكذا رؤساء دولة الإسلام وتقسم الأسهام قدر الحاجة، ثم هذه الجموع المُحلَّاة باللّام تدل على الاستغراق، دون اختصاص بالهاشميين منهم، وهم أقل بكثير من غيرهم، وهم عادمون زمن الرسول ﷺ.

وليست هنا روايات تدل على اختصاص نصف الخمس بالثلاثة من الذرية إلّا أحاديث ثلاثة[1] وذرية الرسول ﷺ تعم المنتسبين إليه من الأمهات إلى المنتسبين إليه من الآباء.

أجل، فلأن اختصاص الثلاثة الآخرين بالسادة ترجيح لهم على

= وفيه بسند متصل عن عكرمة عن فاطمة عليها السلام قالت: لما اجتمع علي والعباس وفاطمة وأسامة ابن زيد عند النبي ﷺ فقال: سلوني، فقال العباس: أسألك كذا وكذا من المال، قال: هو لك، وقالت فاطمة: أسألك مثل ما سأل عمي العباس، فقال: هو لك، وقال أسامة: أسألك أن ترد عليّ أرض كذا وكذا، أرضاً كان انتزعه منه، فقال: هو لك، فقال لعلي عليه السلام: سل، فقال: أسألك الخمس فقال: هو لك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فقال النبي ﷺ: قد نزلت في الخمس كذا وكذا، فقال علي عليه السلام: فذاك أوجب لحقي، فأخرج الرمح الصحيح والرمح المكسر والبيضة الصحيحة والبيضة المكسورة، فأخذ رسول الله ﷺ أربعة أخماس وترك في يده خمساً.

(١) الوسائل ٣٥٥: ١ و٣٥٦: ٢ و٣٥٨: ٨ فالثاني عن أحدهما عليهما السلام في الآية قال: خمس الله للإمام وخمس الرسول للإمام وخمس ذوي القربى لقرابة الرسول الإمام واليتامى يتامى الرسول والمساكين منهم وأبناء السبل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم.
والأول عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: فأما خمس الله عز وجل فللرسول ﷺ يضعه في سبيل الله وأما خمس الرسول فلأقاربه وخمس ذوي القربى فهم أقرباؤه وحدها واليتامى يتامى أهل بيته فجعل هذه الأربعة أسهم فيهم وأما المساكين وابن السبيل فقد عرفت أن لا نأكل الصدقة ولا تحل لنا فهي للمساكين وأبناء السبيل.

الآخرين بنصف الخمس وهم أقل منهم، وأن صفوة المال خاصة بالصفوة الطاهرة دون مطلق الذرية، وأنه لا دليل يعتمد عليه على ذلك الاختصاص فهم أعم من السادة وسواهم.

ولأن الزكاة المأمور بأخذها إنما أمر بها بعد ستة أعوام، فهل يعقل أن نصف الخمس يختص بالسادة وليس لغيرهم زكاة ولا خمس.

ولكن الزكاة كانت مفروضة قبل الخمس، والأمر بها كائن منذ تشريعها بصيغ أخرى هي أوغل في الفرض كـ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴿٧﴾﴾[1].

والقول إن ذي القربى تشمل كل الذرية يطرد القول أن الثلاثة الأخرى منهم، ثم القرابة لا تخصص نصيباً من مال الله لأشخاص خصوص بل هو نصيب المقام كما للرسول ﷺ، وكيف يصلح للرسول إلى العالمين أن يختص أموالاً عامة بذريته إلى يوم القيامة مصرحاً بذلك في أواسط عهده لما قويت شوكته ودولته في المدينة، لا سيما وأن غنائم دار الحرب لا تختص بالمحاربين من الذرية، بل لم يكونوا موجودين بعد زمن نزول الآية إلّا قلة قليلة.

وكيف يصح لرسول يقول ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أن يحمِّل الأمة مالاً لذريته الخصوص، فهل هو أجر؟ أم هو أكل وإيكال بالباطل! ولأنه لم يكن من ذرية الرسول ﷺ زمنه يتامى ومساكين وابن السبيل كان نصيبهم قبل أن يولدوا.

والحق أن «ذي القربى» هنا هم ذو القربى للرسول ﷺ دون من يؤتى الخمس وكما في آية الفيء الذي هو لله وللرسول ولذي القربى و. .

فإن كان ذو القربى في الخمس ذا قربى المسلمين أنفسهم فلذي القربى

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٦، ٧.

سهمان اثنان فيما إذا كان المؤتي والمؤتى ذا القربى مع بعضهم البعض فلهم سهمان اثنان.

ثم ذي القربى إذا كان فقيراً فداخل في المساكين، أو يتيماً ففي اليتامى أو ابن السبيل ففيهم وليس عنوان ذي القربى بنفسه مما يستحق به الخمس اللّهم إلا في الإيتاءات المستحبة أو الواجبة الأخرى ولذلك لا نراهم في الزكاة.

ذلك وكما أن ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾(١) يختص بذي قرباه ﷺ فإن ذي القربى للمسلمين يعمهم كلهم للقرابة بينهم كلهم.

وإليكم آيات ذي القربى:

الفيء للرسول كما في آيته - إذاً - فللّه وللرسول ولذي القربى:

آيات الحشر.

أولو القربى في كل موقف هم أولو قربى الواقع كحقل الإحسان:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٢) ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾(٣) فالمال المؤتى هنا غير الزكوة.

وأما ذوو القربى الخاص: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٤) لغير ذي قرباك لا ذا قربى المسلمين فإنه ليشملهم كلهم: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٥).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

فلأن في آية الفيء المؤتي هو الرسول فذو القربى هم ذو قربى الرسول، ثم الثلاثة الآخرون هم هنا كل المسلمين، وكذلك آية ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، حيث يدل على الحق الخاص لهم، والقربى عن الفُعلى أي ذا الصلة القربى، وهي هنا الصلة الروحية والنسبية المجموعتان في الثلاثة عشر فقط.

وأما أن الصدقة هي من أوساخ ما في أيدي الناس فلا تحل للذرية، دون الخمس ففيه:

١ - ألّا رجاحة لبني هاشم على غيرهم حتى يختص بهم الصفوة ثم الأوساخ لغيرهم، فكيف للرسول ﷺ المرسل إلى العالمين أجمعين أن يختص صفوة المال بذريته ثم يعمم الأوساخ لغيرهم من المحتاجين، وهذه كرامة خاصة لا تختص إلّا بالأتقى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فهل تحل الصدقة لأمثال سلمان وأبي ذر وأضرابهم وهي وسخ ولا يحل لهم الخمس، ثم يحل الخمس لسيد لا محل له من الإيمان والعلم والتقى؟

وليس فضل الرسول بالذي يرثه ولده إلّا أن يرثوا فضله واقعياً، ثم انتقال الفضل لا يسبب انتقال فضل المال، فهل يجوز أن يرث الوارث الأفضل أكثر من غيره وهما مسلمان؟! فالقرآن ينص في آيات بينات ألا أولوية بالرسول لأحد إلا الأولى برسالته.

فلا نجد لمحة في القرآن تفضل أحداً على أحد في الضرائب الإسلامية مهما كانت التفاضلات للفضائل الروحية أو القرابات النسبية أو السببية، وأما في المحاصيل الشخصية فلكلّ ما سعاه، وأما الميراث فهو حق طبيعي للأقربين بالنسب والقريبين بالسبب دون تفاضل فيه بين الفاضل والمفضول.

ذلك في الأموال العامة والخاصة، فكيف يعقل تقدم بني هاشم من طريق الآباء على سواهم رغم أنهم ليسوا على أكثر تقدير إلّا خمسة بالمائة من الفقراء وحقوقهم عشرة بالمائة من كل الإنتاجات.

ولكن لسواهم ٦/ ١٠٠ من تسعة أشياء فقط وهم ٩٥/ ١٠٠ من الفقراء، وبهذا القياس يصبح نصيب كل فقير غير هاشمي لا شيء، في حين أن نصيب كل هاشمي كل شيء.

فأين ٦/ ١٠٠ من حوالي ١٠/ ١٠٠ من الأموال لـ ٩٥/ ١٠٠ بالمائة لغير السادة و٢٠/ ١٠٠ من ١٠٠/ ١٠٠ من الأموال لـ ٥/ ١٠٠ من السادة؟ وحتى إذا أصلحنا فحاسبنا الزكاة من كل الأموال والسادة أعم من طريق الأم فكذلك الأمر مع تنزل، فهو ٦/ ١٠٠ من ١٠٠/ ١٠٠ من الأموال لحوالي ٣٠/ ١٠٠ من الفقراء مقابل ١٠/ ١٠٠ من ١٠٠/ ١٠٠ من الأموال لحوالي ٧٠/ ١٠٠ من الفقراء، فتزيد سهام الفقراء السادة عمن سواهم دائماً، فإذا وجب دفع الزائد إلى غيرهم فالتقسيم في أصله - لو كان - فاسد.

فالأصل حسب القرآن والسنة والواقع المُعاش المحتاج هو التقسيم بالسوية حسب الحاجة، فسهم الإمام يصرف في صالح الدعوة الإسلامية، ثم السهم الثاني المشهور بسهم السادة يُضم إلى الزكاة ويقسم بين كل الفقراء سادة وسواهم مع احتساب ١ - العاملين عليها، و٢ - الغارمين، و٣ - في الرقاب، و٤ - في سبيل الله، ٥ - وابن السبيل، ٦ - واليتامى، ٧ - والمؤلفة قلوبهم.

فحين لا معصوم بيننا ظاهراً حتى تحرم عليه الصدقة فهذا هو التقسيم الصالح.

ولأن الأحاديث متضاربة في اختصاص النصف الآخر ببني هاشم وسواهم فلتُعرض على القرآن النادي بعدم الاختصاص وهي الروايات الثلاث (٣٥٥: ١ و٣٥٦: ٢ و٣٥: ٥ و٣٥٨: ٨) من الوسائل أبواب الخمس، وفي الأخيرة وأما المنتسبون بالأمهات فقد قال الله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ

﴿لِآبَآئِهِمْ﴾ وهم الأدعياء دون أبناء البنات وإلا لأصبح الحسنان من أدعياء النبي ﷺ! فهذا الحديث وأحاديث الأوساخ هي أوساخ وأدعياء مقحمة في أحاديثنا، تفرِّق بين المسلمين بفوارق الجاهلية، أو لم يكن أئمة أهل البيت يشترون من هذه الأموال، وهذه الأحاديث هي ٣٥٦/ ٤ ٣٥٧/ ٧ ٣٦٠/ ١٠.

وأما حرمة الصدقة فهي في ٣٣٧/ ٢ وهي تختص بأهل البيت دون كل السادة.

ثم إذا كان النصف الآخر ملكاً للسادة فكيف وهب للشيعة منذ زمن الحضور إلى كل زمن الغيبة وكيف يحق للإمام أن ينسخ آية من القرآن اللهم إلا تأويلاً كما بيناه.

وليس (حقنا) المكرر في روايات من الخمس إلا النصف الأول الذي يصرف في الدعوة الإسلامية، وليس تحليله إلا في الموارد التي لا يمكن إيصاله إليهم فلا يجوز دفعه إلى ولات الجور.

الخمس زكاة:

ومما يدل على أن الخمس نصاب للزكاة ح ٥ ص ٣٤٣ عن محمد بن علي بن أبي عبد الله عن أبي الحسن عليه السلام قال سألته عما يخرج من البحر من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وعن معادن الذهب والفضة هل منها زكاة فقال: إذا بلغ قيمته ديناراً ففيه الخمس ورواه المفيد في المقنعة عن الصادق عليه السلام مرسلاً نحوه ورواه الكليني عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين ورواه الصدوق مرسلاً ورواه في المقنع أيضاً مرسلاً وترك ذكر المعادن.

ذلك ثم الرسول الذي لم يسأل على رسالته أجراً إلا المودة في القربى كيف يسأل نصيباً أكثر من كل أحد لبني هاشم؟

ولو أن الصدقة محرمة على أولاد النبيين فكيف تطلب أولاد يعقوب من يوسف ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾(١).

٢ - ولم يسبق للرسول ﷺ ولا لأحد من الأئمة من آل الرسول أن يختصوا من الخمس الهاشميين أو أن يزيدوهم من بيت المال بشيء، بل كان بيت المال فيه كافة الأموال المستحقة لكافة المستحقين تقسَّم بينهم بالسوية قدر الحاجة.

فقد كانت له من ولده فاطمة ولم يفضلها على غيرها من فقراء المسلمين فضلاً عن أن يختصها بنصف الخمس!، فعن علي أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً»(٢).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٨.

(٢) وفي شرح النهج لابن أبي الحديد عن علي بن محمد بن أبي الحيّف المدايني عن فضيل بن جعدة قال: آكد الأسباب كان في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال فإنه لم يكن يفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمي.

ومن كلامه عليه السلام في عرض برنامج حكمه ألا وأيما رجل استجاب الله ورسوله وصدَّق ملتنا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسّم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً وما عند الله خير للأبرار ومن كلامه في الفيء الخاص بالله وبالرسول ﷺ: وأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد أثرة فقد فرغ الله من تقسيمه وأنتم عباد الله المسلمون وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا.

وفيما اعترض عليه طلحة والزبير لماذا لم يفضلها على غيرهما يقول: والله لا أستأثر عليكما ولا عبداً مجدِعاً بدرهم فما دونه لا أنا ولا ولدي هذين الحسن والحسين.

وفي الخطبة (١٢٥) من النهج ومن كلام له عليه السلام لما عوتب على التسوية على العطاء: أتأمرونّي أن أطلب النصر بالجور فيمن وُلِّيت عليه، والله لا أطور به ما سمَّر سمير وما أمَّ نجم في السماء ولو أن المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله.

وفي روضة الكافي (٣٤ والوسائل ٢: ٣١) عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما وليّ علي عليه السلام صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني والله لا أزرؤكم من فيئكم هذا درهماً ما قام لي غدق بيثرب فلتصدقكم أنفسكم أفتروني مانعاً نفسي وأعطيكم؟ فقام إليه =

. . . .

= عقيل فقال: والله لتجعلني وأسود بالمدينة سواء؟ فقال: اجلس أما كان هاهنا أحد يتكلم غيرك وما فضلك عليه بسابقة أو تقوى.

وفي البحار (٨: ٣٩٣) خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة وإن الناس كلهم أحرار وليكن خول بعضكم بعضاً، فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمن به على الله جل وعزّ إلّا وقد حضر شيءٌ ونحن مسوّون فيه على الأسود والأحمر، فقال مروان لطلحة والزبير ما أراد بهذا غيركما، قال فأعطى كلّ واحد ثلاثة دنانير وأعطى رجلاً من الأنصار ثلاثة دنانير وجاء بعد غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير فقال الأنصاري: يا أمير المؤمنين عليه السلام هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني وإياه سواء فقال عليه السلام: إني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً.

وفي البحار (٨: ٣٦٧) ابن الأثير في كامل التواريخ في بيعته عليه السلام بعد مقتل عثمان: ولما أصبحوا يوم البيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس وجاء علي عليه السلام وصعد المنبر فقال: يا أيها الناس من ملأ وأذن إنّ أمركم هذا ليس لأحد حتى إلّا من أمَّرتم وليس لي أن آخذ درهماً دونكم فإن شئتم قعدت لكم وإلّا فلا أحد على أحد.

فقالوا نحن على ما فارقناك عليه بالأمس فقال: اللّهم اشهد.

ثم يذكر قصة طلحة والزبير أنهما قالا بشأن التسوية له عليه السلام: خلافك عمر بن الخطاب في القسم أنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا بخيلنا وظهرت عليه دعوتنا وأخذناه قسراً وقهراً ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً فقال عليه السلام: وأما القسم والأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء قد وجدتكما ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكم بذلك وكتاب الله ناطق به وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأما قولكما جعلت فيئنا وما أماذته بسيوفنا ورماحنا سواءً بيننا وبين غيرنا: فقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلا فضّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القسم ولا آثرهم بالسبق والله سبحانه موفٍّ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم فليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلّا بهذا.

وفي مناقب ابن شهر آشوب (٣: ١١١) في رواية عن أبي الهيثم بن التيهان وعبد الله بن رافع أن طلحة والزبير جاءا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقالا: ليس كذلك كان يعطينا عمر قال: فما كان يعطيكما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فسكتا، قال: أليس كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم بالسوية بين المسلمين؟ قالا: نعم، قال: فسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالاتباع عندكم أم سنة عمر؟

قالا: سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يا أمير المؤمنين لنا سابقة وعناءٌ وقرابة، قال: سابقتكما أقرب أم سابقتي؟ قالا: سابقتك قال: فقرابتكما أم قرابتي؟

قالا: قرابتك، قال: فعناؤكما أعظم من عنائي؟ قالا: عناؤك قال: فوالله ما أنا وأجيري هذا إلّا بمنزلة واحدة وأومأ بيده إلى الأجير. =

ذلك، وأما حرمة الصدقات على بني هاشم لأنها أوساخ ما في أيدي الناس فمما يستدل به لها:

في التهذيب (٤: ٥٨) عن الصادقين عليهما السلام أن الصدقة أوساخ ما في أيدي الناس وأن الله حرم علي منها ومن غيرها ما قد حرمه.

ولكنها خاصة بالمعصومين عليهم السلام كما في الفقيه والتهذيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أعطوا الزكاة بني هاشم من أرادها منهم فإنها تحل لهم وإنما تحرم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى الإمام الذي يكون بعده وعلى الأئمة.

وفي المحاسن (١: ١٤٥) عن عبد الله بن عجلان سألت أبا جعفر عن قول الله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] فقال: «هم الأئمة الذين لا يأكلون الصدقة لا تحل لهم».

هذه وأمثالها إنما تستثني أئمة أهل البيت عليهم السلام فقط من الصدقات وعلّها غير الزكوات فإنها كما الأخماس تخرج من مخرج واحد، وأما الصدقات غير المفروضة ففيها مهانة لا تناسب ساحة أهل البيت وسماحتهم.

وقد تظافر النقل عند إخواننا أن «آل محمد لا يأكلون الصدقة»[2].

= وفي نهج البلاغة (الخطبة ٢١٩): والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سوّدت وجوههم بالعظام وعاودني مؤكداً وكرّر عليّ القول مردّداً فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه أتئن من الأذى ولا تئن من لظى؟.

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٢) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن: بخ - ك ٢٤ ب ٥٧ و٦٩، ك ٣٤ ب ٧٤ ك ٤٥ ب ٦، ك ٥١ ب ٧، ك ٥٦ ب ١٨٨، ك ٦٨ ب ١٤ و١٧، مس - ك ١٢ ج ١٦١ - ١٦٧ بد - ك ٩ ب ٢٩، تر - ك ٥ ب ٢٥، نس - ك ٢٣ ب ٤ و٧ و٩٧ و٩٨، ك ٢٧ ب ٢٩، ك ٣٤ب ٥، مى - ك ٢ =

ذلك، فأين حرمان الذرية ككل من الزكوات حتى لو أريدت من الصدقات حيث النصوص تختص بهم دون سواهم؟

ذلك، وهم يختصون نصف الخمس ببني هاشم ويختصون بني هاشم بالمنسوب من قبل الأب دون الأم فقط وهم قليلون جداً فكيف لهم نصف الخمس ولسائر الناس الزكاة، والخمس عن كل العوائد والزكاة تخصها بالتسعة أشياء.

ولو اختصت ذرية النبي ﷺ بالمنتسبين إليه بالأب فلا ذرية - إذاً - للنبي ﷺ فإن ذريته كلهم من فاطمة عليها السلام، أو ليس الحسنان من ذرية النبي ﷺ لانتسابهما إليه ﷺ بالأم! ذلك، وحتى لو اختص بذريته ﷺ من فاطمة من علي فكل ولد فاطمة هم من علي، إذاً فلا ذرية لرسول الله أبداً، فقد يختص نصف الخمس - إذاً - بولد هاشم من ناحية الآباء! وهناك يظهر كالشمس في رابعة النهار أن اختصاص نصف الخمس بالسادة من طريق الآباء، إنه خطة جاهلية تسربت فينا بشعر جاهلي ورواية جاهلية لا يميز مختلقها بين الأدعياء وأولاد البنات، حيث يستند إلى آية الأدعياء، مما يبرهن أن مختلقها كان نفسه من الأدعياء الأشقياء، حيث ضم إلى نفسه أولاد البنات، ويعارض بذلك كتاب الله حيث ينسب المسيح عليه السلام إلى إبراهيم من مريم، وينسب الحسنين إلى رسول الله ﷺ في آية المباهلة، وقديماً كان الحوار بين أئمتنا والخلفاء الأمويين والعباسيين حيث كانوا يحتجون عليهم بهذه الآيات أنهم من ذرية الرسول ﷺ.

= ب ٢ و٤، ك ٣ ب ١٦ و٣ ما - ك ٢٩ ح ٢٥ ك ٥٨ ح ١٣، عد - ج ١ ق ٢ ص ١٠٦، ج ١ ق ٢ ص ١٠٦ ج ٤ ق ١ ص ٤٠ و٥٢ حم - أوّل ص ٧٨ و٨٨ و٩٤ و٢٠٠ و٢٠١ و٢٢٥ قا ٢٨١، ثان ص ١٨٣ و١٩٣ و٢٧٩ و٣٠٢ و٣٠٥ و٣١٧ و٣٣٨ و٢ ٤٠٦ و٤٠٩ و٤٤٤ و٤٦٧ و٤٩٢، ثالث ص ١١٩ و١٣٢ و١٨٤ و١٩٢ و٢٤١ و٢٥٨ و٢٩١ و٤٤٨ و٤٨٩ رابع ص ١٦٦ و١٨٦ و١٨٩ و٣٤٨ خامس ص ٢ و٤ و٥ و٣٥٤ و٤٣٩ و٤٤٣ سادس ص ٨ و١٠ و٣٩٠ ط - ح ٩٧٢ و١١٧٧ قا ١٣٣٦ و١٩٩٩ و٢٤٨٢ و٢٦٠٠.

وكذلك حرمة الزكاة على هؤلاء الهاشميين الخصوص لأنها أوساخ ما في أيدي الناس، رغم أن مصدر الخمس والزكاة واحد، فكيف اختصت الزكاة بأنها أوساخ والخمس طاهر، فحُرِم كل فقراء المسلمين عن سهم السادة إلا المنسوبين بالآباء إلى الرسول ﷺ وهو سهم غزير، كما حرم السادة عن الزكاة وهو شيءٌ زهيد، فالكثير الكثير لهم أولئك القلة القليلة لأنه طاهر، والقليل القليل للكثرة الكثيرة لأنه من أوساخ ما في أيدي الناس، قسمة ضيزى في بعدين اثنين! وهكذا الأمر في اختصاص الزكاة بالتسعة الشهيرة، وامتصاص الخمس كل الأموال، ولأنه الطاهر الخاص بالمطهرين دون الزكاة الوسخة فهي للوسخين!.

شطحات جاهلية رغم قول النبي ﷺ: «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي»[1] حيث يقصد إذلال أمر الجاهلية وحط أعلامها ونقض أحكامها، كما يُستذل الشيء الموطوء الذي تدوسه الأخامص الساعية، والأقدام الواطية، فلا يبقى منه مرفوع إلا وضع، ولا قائم إلا صرع.

لفتات هامة حول فلتات الخمس والزكاة:

١ - لو اختصت الزكاة بغير بني هاشم الخصوص واختص الخمس بهم، فلا يخلو من أن تكون الزكاة من كل الأموال وكذلك الخمس، أم الزكاة من التسعة والخمس من الغنائم، أو الزكاة من التسعة والخمس من الكل، أو الزكاة من الكل والخمس من الغنائم، أم هما ضريبة واحدة كيفما كانتا.

فاختصاص الزكاة - على أية حال - بغير بني هاشم واختصاص

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي.

الخمس بهم - على أية حال - حتى إذا لم تختلف الأنصبة هو تفرقة بين فريقي المسلمين دون سبب، أم بسبب أن الزكاة من أوساخ ما في أيدي الناس وهذا ظلم على غير بني هاشم.

ثم على فروض الاختلاف فهو ظلم على الناقص نصيبه هاشمياً وسواه.

فإن كان الخمس - فقط - من الغنائم والزكاة من التسعة، لقل نصيب بني هاشم حيث الحروب قلة، إلّا أن نشجع دوماً عليها لكيلا ينقص نصيبهم.

وإن كان الخمس من كل شيء والزكاة من التسعة أم ومن كل شيء لقل نصيب غير بني هاشم وهم الأكثرية الساحقة، ولا سيما إذا لم نحاسب المنسوب بالأم إليهم منهم.

فلا تخلو التفرقة بين فريقي المسلمين من الظلم على أية حال فكيف تفترى على الإسلام؟

ثم الرسول الذي كان يسوى في القسمة من ماله نفسه فكيف يفضل بني هاشم من أموال المسلمين؟

ولم يسبق وإن مرة يتيمة أن يقسم النبي أو أحد من الأئمة من دون تسوية، اللَّهم إلَّا أن يدفعوا من سهم أولي القربى لبعض السادة المحرومين عن حقوقهم.

ولقد نزلت آية أخذ الزكاة في السنة التاسعة من الهجرة[1] والخمس في الثالثة، ولكن الزكاة كانت مفروضة منذ العهد المكي، فهل كان بنو هاشم محرومين عن الزكاة حتى الثالثة من الهجرة ثم اختصوا به منذ نزول آيته فجبر نقصهم بمئات الأضعاف؟

---

(١) كما في السيرة لابن هشام ٤: ٢٧١ وتاريخ الطبري ٢: ٤٠٠ وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢: ١٩٩ وتاريخ اليعقوبي ٢: ٤٨ وناسخ التواريخ مجلدة الهجرة ٣٩٦.

ومما ظلم فيه بنو هاشم تحريم الزكاة عليهم كما تقوله الشيعة والسنة[١].

تلخيصة حول آية الخمس:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ اختصاص بالله كمحور في اتجاه الخمس مصرفياً، ولأن الله ليس يحتاج إليه فقد ذكر مصرفان اثنان تقوية لساعد الدين والديِّنين، مصرف أوّل تقوية القيادة الإسلامية رسولية ورسالية: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ ومصرف ثان مساعدة أصول المحاويج ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

ولأولي قربى الرسول وهم الأقربون إليه نسبياً وروحياً شأن هامّ في القرآن العظيم، فكما الله قرر الأنفال لله وللرسول وكذلك الفيء، كذلك وعلى ضوئه لخلفائه ﷺ من بعده.

فآية عدم سؤال الأجر ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[٢] من ناحية الودِّ لهم روحياً، فإنهم مدينة علم الرسول، ثم ذكر حقهم الشامل

---

(١) في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٦٢٣ عن مالك بن أنس، وفيه ٦٢٦ عن الشافعي أن من شروط أهل الزكاة عدم كونهم من بني هاشم، وهذه سياسة شيطانية لتضعيف ساعد بني هاشم من قبل الفريقين، أما أهل السنة فلأنهم لا يعتقدون في الخمس لكل الأموال، ولا أن خمس الغنائم لهم، وأما الشيعة فلأنهم يختصون بهم الخمس من كلّ الأموال تقوية زائدة لساعد بني هاشم، فهم بين إفراط وتفريط.

ولقد كان اختصاص ذلك الخمس بهم من ردود الفعل غلوّاً لهم حيث الحرمان المطلق المطبق كان على الهاشميين من قبل الحكومات الإسلامية، ففي كتاب الولاة والقضاة للكندي ١٩٨ يذكر من أوامر الخليفة: لا يقبل علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من فسطاط إلى طرف من أطرافها وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد وإن كان بين علوي وبين أحد من الناس خصومة فلا يقبل قول العلوي ويقبل قول خصمه بدون بينة (الإمام الصادق ١: ١٤٤).

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

للجانبين الروحية والمادية: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(١)] فهنا حق خاص من الرسول إلى ذي القربى وهو الذي يكون من لوازم قيادتهم الروحية والزمنية.

ذلك وكما نجد اليتامى والمساكين وابن السبيل أصول المحاويج الأصليين في آيات، فهنا أصلان اثنان يقتسم الخمس لهما على قدر الحاجة أو الكفاية.

فإفراد ذي القربى، وأنه ليس لهم ككل ذي قربى المسلمين نصيب من الخمس وهنا احتمالات ثلاثة في ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ١ - ذي القربى للمؤتي الخمس، ٢ - ذي القربى المخصوصين بالرسول ﷺ، ٣ - وذي القربى العامين للرسول، والأوسط هو الصحيح.

نصيب ذي قربى الرسول ﷺ وهم ذي الصلة القربى به كرسول روحياً، وكمحمد أبيهم وقريبهم نسبياً، ذلك النصيب هو قضية قيادتهم الرسالية خلافة عن القيادة الرسولية وكما في تفسير القمي: يخرج الخمس ويقسم ستة أقسام (ص ١/ ١٧).

ذلك وأما ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فليسوا هم فقط من الذرية ولا سيما المخصوصة بطريق الأب، حيث نراهم في كافة الحقول للإيتاءات واجبة ومستحبة أن لهم حقاً، فهم يشاركون الوالدين في الإحسان: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ...﴾[(٢)] ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾[(٣)] وكذلك في حقل الإيتاء ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ...﴾[(٤)].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

وفي الإنفاق: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ...﴾[1].

وفي القسمة: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ...﴾[2].

وفي الفيء: ﴿...وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[3].

ولا نجد ذوي القربى في الإيتاءات الواجبة زكاة وخمساً، فلأن هؤلاء الثلاثة يُذكرون جمعاً، فما الذي يخصصهم - بعد - بالذرية، ولا سيما التي هي بواسطة الأب؟!

رجعة أخرى إلى آية الخمس:

من مبعدات كون الخمس متعلقاً بكل الأموال أن له آية واحدة وللزكاة التي هي أكثر نطاقاً ولو تعلقت - فقط - بتسعة أشياء زهاء مائة آية بلفظ الزكاة والصدقات والإنفاقات والإيتاءات، وقد شملت آيات الزكاة العهدين منذ البداية إلى النهاية وآية الخمس نزلت ثالثة الهجرة.

فلو أن الخمس يعم كل الإفادات فهو أهم من الزكاة مورداً لاختصاص الزكاة - كما يقال - بالتسعة، وقدراً فإنه ٢٠/ ١٠٠ ولكن الزكاة من ٥، ٢ ٥ و١٠/ ١٠٠ والكسر المتوسط ٦/ ١٠٠.

ثم لو كان الخمس عاماً فلماذا ذكر بلفظ الغنيمة التي لم تأت في القرآن إلّا في حقل الحرب، وفي اللغة هو الإفادة من غير مشقة، فهو خاص بغنائم الحرب، وليست مشقة الحرب محسوبة على الغنيمة إلّا إذا كانت لهدف الغنيمة وإذاً ليست هي حرباً إسلامية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

ثم القرآن لم يذكر الغنيمة إلّا في نطاق الحرب مما يرجح - لأقل تقدير - كونها ظاهرة في غنائم دار الحرب، فلو كانت هي الأعم منها لبدلت إلى ما يفيده كـ«ما أفدتم - أو فزتم به أما أشبه» والآيات الخَمس التي فيها الغنيمة بصيغها تعني هي فيها غنائم دار الحرب.

ولم تأت الغنيمة في القرآن وإن مرة يتيمة لمطلق الفائدة وقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[١] علها أو أنها المعنية بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾[٢].

وإذا شملت الغنيمة كل الفوائد فما فزت به دون مشقة أحرى، فقد تشمل الهبة والصداق والهدية والميراث دون ريب! ثم لو كان الخمس مختصاً بالذرية لكان معزولاً حالَ أن بيت المال كان موحَداً يرزق منه كل المحاويج دون عزل لبني هاشم عن غيرهم.

وعلى فرض أن الخمس يعم كل الفوائد أم غنائم دار الحرب فقط فليس تقسيم الستة على السوية وإنما قدر الحاجة، والحاجة الأولى هي إدارة شؤون الدولة الإسلامية ثم شؤون اليتامى والمساكين وابن السبيل.

وهل الثلاثة الأولى ترجع زمن الغيبة الى مراجع الدين؟ طبعاً نعم حيث القيادة روحية وزمنية لا تختص بالمعصومين، عليهم السلام ففي فرض دولة موحدة إسلامية بقيادة واحدة فهي راجعة إليه، للمصالح، المصالح الجماهيرية، ثم ولا تختص بفقيه دون آخر.

فإنما يصرف النصف الأول في سبيل الدعوة الإسلامية، والآخر في صالح المحاويج الثلاثة سادة وسواهم.

ولأن الخمس ضريبة ثابتة فلا يتحول إلى أقل أم إلى العدم على أية

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٠.

حال، فالنواب العامون للإمام عليه السلام لهم أن يأخذوا حقهم ويصرفونه فيما يحق لهم، في الدعوة الإلهية والدعوة إلى الرسالة والخلافة المعصومة، وأما أن يصرفوه في الدعاية لمرجعيتهم فلا.

ومما لا بد منه أن يقتسم الخمس إلى هذه الست حسب الحاجة[١].

خلاصة البحث حول الخمس:

آية الخمس هي الآية الأولى النازلة في ذلك الكسر وموارد التقسيم والتسهيم، ورغم أن آيات الزكاة نزلت قبلها وبعدها، ولكنها لم يذكر فيها كسرها من الأموال التي يزكى منها.

وإنما أمهل المسلمون لحد الآن عن نصاب الزكاة فأهمل، حيث الأوضاع الاقتصادية ما كانت بحد تتحمل كسراً للزكاة متعيناً، ولا أمراً بأخذها، والمسلمون مهما كانت لهم أموال في مكة المكرمة فقد تركوها مهاجرين إلى المدينة، والمسلمون الأنصار كان عليهم مساعدتهم للحد الأقصى فلم يكن هناك دور لكسر خاص للزكاة وأخذها بصورة رسمية، مع أن الأنصار أيضاً كانوا في الأكثرية الساحقة من الفقراء، فأبو أيوب الأنصاري مضيف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن عنده إلّا بيت صغير فيه غرفتان فوق بعض، سكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الغرفة الفوقانية وهو وأمه في التحتانية ولم يكن للأنصار الأُخَر حالة مالية أحسن منه.

ولقد كانت جهازات المسلمين يوم بدر فرسان وسبعة سيوف وسبعة

---

(١) كما في الوسائل ٣٦٢: ١ وأحاديث الأوساخ أوساخ تخالف المحسوس والضوابط الإسلامية وما هي إلا ثلاث ٣٥٦/ ٤ و٣٥٧/ ٧ و٣٦٠/ ١٠.
وحرمة الصدقة والخمس بديلها ٣٣٧/ ٢ وأحاديث التحليل وهي ثلاثون مرفوضة إلا في دولة الباطل بالنسبة لسهم الإمام، وأما سهم الثلاث الآخرين فكيف يوهب؟.

آبال، وكان ﷺ يدعو يوم بدر: اللَّهم إنهم حفاة فاحملهم اللَّهم إنهم عراة فاكسهم اللَّهم إنهم جياع فأشبعهم.

وقد يلمح اختلاف التعبير هنا في آية الخمس بـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ وهناك في آيات الزكاة بـ ﴿ءَاتَوُاْ﴾ ثم ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أن ليس الخمس على حد الزكاة في مدى الفرض القاطع.

ذلك، ولأن الغنيمة قبل تقسيمها غير مملوكة لأحدٍ فإنها مشاعة بين المقاتلين، فإذا قسمت مُلكت.

وقد تلمح ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ إعلاماً لكسر الزكاة، والزكاة تشمل كل ما يزكى الدافع والمدفوع إليه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١) فالزكاة تزكي الدافع عن نفسية البخل والحرص، وتزكي المجتمع عن تضاد الطبقات، وتزكي الدولة عن التضيق الاقتصادي، وتزكي سائر المستحقين عن دنس الفقر والاستِجداء، أو ليس ذلك من فاعلية الخمس، بلى بل هو أزكى لأنه أكثر مالاً وأوسع مالاً.

فكل إنفاق وإيتاء وإحسان وزكاة له فاعلية التزكية، وليس الخمس إلّا ضريبة نهائية من ضرائب الزكاة.

وأما التعبير عن كل المنافع بالغنائم فلأنها تحصل نافعة للإنسان، ونفس إضافة الغنائم إلى دار الحرب تدل على أنها أعم منها، ولعل ذكر الغنيمة لكل تشمل غنائم دار الحرب، فلو قال: أفدتم، لخيِّل إلينا أنها الفوائد المتعددة فتفلت غنائم دار الحرب عن الدور، ذلك والأحوط الجمع بين سائر أنصبة الزكاة والخمس.

أو يقال: أن «ما غنمتم» تختص بما أفدته دون مشقة متعددة كالكنز

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

والمعدن والغوص والحرام المختلط بالحلال وغنائم دار الحرب، ثم تلحق بها أرباح التجارات بكل أشكالها.

ومهما استعملت لفظة الغنيمة في القرآن في خصوص غنائم دار الحرب[1] فليس هذا بالذي يصبح قرينة على أنها - فقط - معنى الغنيمة، فإن لفظة دار الحرب مما تقيِّدها بنفسها، ففي إطلاقها الشمول لكل ما أفدته دونما استثناء، ويتأيد ذلك بمتظافر السنة.

فقصة الزكاة قصة عملية على علم بنصابها، ولكن قصة الخمس علمية اطلاعاً على نصاب الزكاة الأخير، وبياناً لمستحقيه، ثم آية ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ تطوِّر المصرف إلى طور أوسع مما كان حيث تمركزت قواعد الدولة الإسلامية قبل ارتحال الرسول ﷺ بأشهر.

---

(١) وقد ذكر في الغنيمة اختصاصها بغنائم دار الحرب كما في التبيان ١: ٧٩٧ على ضوء آية الخمس: أقول: «الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال وهي هبة الله للمسلمين» وفي ٣: ٦٦٦ منه: الغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الإسلام وما لا يمكن نقله إلى دار الإسلام فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الامام ومصرف ارتفاعه إلى بيت المال لصالح المسلمين.

وفي المجمع ٤: ٥٤٣: الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال وهي هبة الله للمسلمين وهو المروي عن أئمتنا، وهكذا نرى هذا المعنى في زبدة البيان حيث نقله عن المجمع وارتضاه وكذلك في مسالك الأفهام أن الظاهر منها غنائم دار الحرب.

والمجلسي في مرآة العقول ١: ٤٤١ عن الأردبيلي أن المتبادر من الغنيمة ما هي لدار الحرب ويؤيد تفسير المفسرين.

وفي زبدة البيان ٢٠٩ والذي ينبغي أن يذكر هنا من مضمون الآية أنها تدل على وجوبه على غنائم دار الحرب إلى ما يصدق عليه شيء وأي شيء كان منقولاً أو غير منقول.

وأيضا يقول: إن شمول الخمس جميع الأشياء تكليف شاق وإلزام شخصي بإخراج خمس جميع ما يملكه بمثله يشكل والأصل والشريعة السمحاء ينفيان والرواية غير صحيحة وفي صراحتها أيضاً تأمل.

أقول وهي رواية كليم بن مؤذن عن كليم بن عابس قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام الآية قال: هما والله الإفادة يوماً بيوم.

ثم ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ تربط ذلك العلم بالإيمان، حيث كان من الصعب ارتقاء الزكاة من أنصبتها الثلاث التي متوسطتها ٦/ ١٠٠ إلى ٢٠/ ١٠٠ وهي ثلاثة أضعافها.

ذلك، ولأنه لم يثبت كون الخمس هو الزكاة نفسها اعتباراً بنسخ آياته كسور الزكاة، كما لم يثبت اختصاصه بغنائم دار الحرب.

ثم لئن اختص الثلاث الأخيرة بالذرية، وليست لتختص، فلا اختصاص بهم من قبل الآباء، حيث المنتسبين من قبل الأمهات هم ذرية كما هم على سواء، وإلّا لم يكن الحسنان عليهما السلام من ذرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثم لم تكن ذرية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم ليسوا إلا من فاطمة عليها السلام! فالحق هو إلحاق الخمس بالزكاة وتقسيمها حسب الحاجات الإسلامية بين المذكورين في آيتي الخمس والزكاة، وهم متلائمون مع بعضهم البعض، مهما كان تفصيل مستحقي الزكاة أوسع نطاقاً ورفاقاً من مستحقي الخمس.

ذلك، ولأن اللام متكررة في الثلاثة الأولى: «لله ولرسوله ولذي القربى» دون الأخرى: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ نتلمح بذلك الفارق بين الفريقين أن الأولين هم الأساس في هذه السهام، ومن ثم الآخرون.

ثم ﴿لِلَّهِ﴾ ليست لتعني الملك الذاتي، فإن كل شيء هو له ذاتياً دون جعل تكويني أو تشريعي، فقد تعني - إذاً - اختصاص نصيب من الخمس في سبيل الدعوة التوحيدية، ثم ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ دعوة لتحكيم عرى الرسالة الربانية، ومن ثم ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تحكيماً لعرى السلطة المستمرة العادلة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فهذه الأسهم الثلاثة - إذاً - تصرف في تحكيم عرى الولاية الربانية والرسولية والرسالية، فإنها أثافيُّ أصيلة للدعوات الإسلامية على طول الخط.

ثم الأسهم الثلاثة الأخيرة لكل اليتامى والمساكين وابن السبيل سادة وسواهم فضلاً عن المنتسبين بالأمهات إلى الرسول ﷺ، وتقسيم الخمس بين هذه الموارد الستة ليس إلّا حسب الحاجة والمصلحة الأخرى والأولى، دون أن يكون على السوية، كما أن الزكاة كذلك لا تقسم في مصارفها الثمانية بالسوية.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾:

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ...﴾ وهو يوم بدر حيث فرق الله به بخارقة غلبة المسلمين على قلتهم عَدداً وعُدداً ظاهرية على المشركين بكثرتهم فيهما، فرق الله بين الحق والباطل بصورة حسية ملموسة، ومتى؟

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ هي شفير الوادي وفيها الجدب والأرض الرخوة الخوارة ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ وهي علياه وفيها الماء والأرض الصلبة الفوارة ﴿وَالرَّكْبُ﴾: العير الذي كان عليه أبو سفيان ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وهو الأدنى من العدوة الدنيا، فقد كنتم محاصرين في العدوة الدنيا بين ركبهم الأسفل منكم وسائرهم الأعلى منكم، وأنتم في مثلث من هندسة الانهزام، ثالثه موقعكم من العدو، وقد تغلبتم عليهم بإذن الله.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم على هندسة الحرب، هذه التي تقضي بطبيعة الحال في التليكات الحربية عليكم ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ تجنباً عن السقطة الهائلة التي هي قضية طبيعية لهذه الحرب، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ذلك عملية قاصدة ربانية وأنتم غافلون ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ من غَلَبِكم عليهم ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ على أية حال، ولكن تحقيقاً ليوم الفرقان و﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ ملموسة كهذه التي يعرفها كل ذو بصر مهما لم تكن له بصيرة، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ

حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ كهذه الناصعة الناصحة لكتلة الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ مقالهم ومقالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالهم وحالكم.

فقد كانت المعركة شاخصة بمواقع فريقي الكفر والإيمان، شاهدة بالتدبير القاصد الخفي، فقد خرج جيش الإيمان من المدينة ونزل بضفّة الوادي القريبة منها، ونزل جيش الكفر بقيادة أبي جهل بالضفّة الأخرى البعيدة عنها، وبين الفريقين ربوة تفصلهما وأمّا قافلة العير فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيشين، موقع الجيشين كصدفة ولكنها قاصدة ربانية بتلك الدقة والضبط ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

لقد هلك جيش الكفر عن بينة وكما قالوا لحليفهم الذي أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون لوجه القتال: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا فيها القيان فإن بدراً موسم من مواسم العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بهذه الواقعة(١).

فحين يهلكون بهذه الذكرى بالكفر فقد هلكوا - إذاً - عن بينة، وهذه ضابطة ربانية أن كُلًّا من الهلاك والحياة الروحيين هما عن بينة من الله وكما قال الله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(٢) مرتفع الخير والشر بأعلامهما البينة الباهرة.

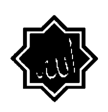
أجل ولم يدع الخلق في بُهم صُمّاً ولا عُمياً بُكماً، بل جعل لهم عقولاً

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٧٢ في قصة خروج المشركين من مكة لمقاتلة المسلمين: فلما وردوا الجحفة بعث الحقاف الكناني - وكان صديقاً لأبي جهل - إليه بهدايا مع ابن له فلما أتاه قال: إن أبي ينعمك صباحاً ويقول لك: إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت فقال أبو جهل: قل لأبيك جزاك الله والرحم خيراً إن كنا نقاتل الله كما يزعم.

(٢) سورة البلد، الآية: ١٠.

ما مازخت شواهدهم وتفرقت في هياكلهم، خفقها في نفوسهم واستعبد لها حواسهم، فقرر بها على أسماع، ونواظر أفكار، وخواطر ألزمهم بها حجته وأراهم بها محجته، وأنطقهم عما شهدته بألسن ذربة بما قام فيها من قدرته وحكمته وبين عندهم بها ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ شاهد خبير[1].



(١) نور الثقلين ٢: ١٦٠ في مصباح شيخ الطائفة الطوسي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام خطب بها يوم الغدير وفيها «ولم يدع».

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾:

هنا وبالتأتي سرد لإعدادات روحية نوماً ويقظة كسبب من أسباب هزيمة العدو العظيمة ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ﴾ على كثرتهم فانجر إلى

رؤيتهم في يقظتك قليلاً ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ كما هم كثير ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ في الأمر ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ في الأمر: أمر الحرب، لتثاقل الأقدام في الإقدام عليها قضيةَ التكتيكة الحربية الظاهرة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ﴾ لكم العدو، بما سلم لكم معدات الانتصار، فسلم لكم الغلبة الباهرة الخارقة للعادة فـ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

فحين أراهم الله في منامه قليلاً فهو ﷺ يخبر المؤمنين بما رآه تشجيعاً لهم على الخروج، فلو أراه إياهم كما هم فأخبرهم بما هم لفشلتم في التصميم ولتنازعتم في الصميم ولكن. .

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾:

وهنا قلتان، قلة واقعية لكم في أعينهم لكي يستهينوكم فلا يبالغوا في الاستعداد للمواجهة روحياً، وفي سائر القوات فيقدموا على نضالكم برخوة واستهانة دون أية جدية ثم وقلة في الرؤية لهم في أعينكم لكي تستهينوهم فتُقدموا على نضالهم دونما تخوف، وقد تعني ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ تقليل العدد عما هو فهو أقل من واقعه، أم وتقليل العُدد عما هو، فكذلك الأمر ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

وهلّا تناحر بين ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ هنا وبين ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ﴾[1] إن كانت تعني بدراً كما عنته الأولى؟ كلّا حيث التقليل هنا ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ وهو بداية الالتقاء، ثم ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ﴾ بعدها ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

فلقد كان في هذا التدبير الرباني ما حرَّض الفريقين بخوض المعركة،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

تشجيعاً للمؤمنين بكل قواتهم، وإغراءً للكافرين ألا يستعدوا لجدية قاطعة في المواجهة، فلقوة الروحية والتصميم عليها أثرها العظيم أمام ضعف الروحية والتصميم، ولقد رأى المسلمون الكفار قليلين في استمرارية المعركة ورآهم الكفار كثيرين ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كما قضاه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ولا سيما هذا الذي قدر وسلم.

ذلك، فليست الغلبة فقط بكثرة العَدد والعُدد، بل وأهم منهما نصر الله، والروحية القوية والتصميم في الصميم على لقاء العدو، وهكذا كان المؤمنون ينتصرون ما كانوا متوكلين على الله، مصممين على تحقيق أمر الله، غير مستكثرين طاقاتهم وإمكانياتهم الحربية، فأما إذا عكسوا الأمر كما في حُنين: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[1] فانهزامة عظيمة، ومن ثم لمّا رجع الأمر إلى موقعه الصالح فغلبة عظيمة، وهكذا يثبتنا الله تعالى في معارك الشرف والكرامة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

آيات عدة تأمر المؤمنين برعاية سلبيات وإيجابيات في الحروب ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفلجون أعداءكم:

فهنا ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ قضيَةَ الإيمان والمسؤولية الإيمانية حيث ترون لقاء العدو أمراً من الله ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ قراراً دون فرار، ثباتاً على إمضاء أمر الله، فهو الذي ينصركم كما يشاء ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في هذا اللقاء وسواه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فتفلجون عدوكم إن شاء الله.

وهل الأصل للمؤمنين لقاءَ العدو، أو العافية التي فيها الأمن والدعة؟

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

إنه ليس لقاءَ العدو إلا دفاعياً واضطرارياً وكما نسمع الرسول ﷺ يقول: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله كثيراً فإذا جلبوا وصيحوا فعليكم بالصمت»[(١)].

ولأن ذكر الله يُطمئِن القلوب، والمؤمن في مهاوي الأخطار بحاجة ماسة إلى اطمئنان حتى لا يتزعزع، لذلك افترض الله ذكره عند أشغل ما تكون عند الضراب بالسيوف.

وهل إن ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ ثابتة على أية حال؟ وآية التحرف لقتال أو التحيز إلى فئة تختصها بغيرها! ولكن الثبات لا ينافيه تولي الدبر لأشخاص من الجيش لإثبات أكثر مما كان، إشخاصاً لقوات إسلامية إلى أرض المعركة بأشخاص كأنهم يولون الدبر وهم في الحق مقبلون إلى حرب هي أقوى لهم وهي على العدو أنكى وأشجى.

وعلى أية حال فالثبات في اللقاء والإكثار من ذكر الله هما من مجالات الإفلاح ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

هنا بعد الأمر بالثبات عند اللقاء وذكر الله نؤمر بطاعة الله ورسوله، فليكن لقاء العدو بشكليته كأصله بطاعة الله ورسوله، دونما تخلف عن القيادة الحربية رسولية أو رسالية، حيث الطاعة الصالحة في الحرب هي من

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٨٩ - أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: وفيه أخرج عبد الرزاق عن يحيى بن كثير أن النبي ﷺ قال: لا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم ستبلون بهم واسألوا الله العافية فإذا جاؤوكم يبرقون ويرجفون ويصيحون بالأرض الأرض جلوساً ثم قولوا اللّهم ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت فإذا دنوا منكم فثوروا إليهم واعلموا أن الجنة تحت البارقة.

أسباب الفلاح ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾ في حرب وسواها، فالتنازع في الحرب تشتت في القوات المسلحة والتصميمات الحربية الصالحة وفشل فيها وذهاب ريح ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على كل حال حفاظاً على أمر الله ولا سيما في الحرب، هضماً لأنفسكم عن أي تشتت، وتبعثر، حيث الوحدة في القتال وهو بأمر الله وقيادة الرسول ﷺ إنها رمز الغلبة والعزة.

ذلك، ولقد خلف التخلف عن أمر قائد القوات المسلحة الرسولية يوم أحد، خلَّف انهزامة عظيمة في وسط المعركة، إذ لم يثبت الرماة على قواعدهم التي قررهم الرسول ﷺ فعصوا الله وعصوا الرسول وتنازعوا في ذلك التخلف فذهبت ريحهم وما صبروا على المسؤولية المقررة لهم.

وهنا ﴿رِيحُكُمْ﴾ هي ريح الإيمان ورُوحه ورَوحه، وهي عز الإيمان وسيادته، الريح التي تركم سحاب الرحمة وتمطر على المؤمنين، وتجمع سحاب العذاب والزحمة فتمطر على الكافرين.

وصحيح أن المحور الأصيل هنا لهذه الأوامر والنواهي هو حالة الحرب، ولكنها طليقة على أية حال، فالثبات في إمضاء أمر الله، وذكر الله كثيراً على كل حال، وطاعة الله والرسول في كل حل وترحال، وترك المنازعة بين المؤمنين، والصبر على النوائب في سبيل الله، وترك البطر ورئاء الناس والصد عن سبيل الله، هذه الثمانية أمراً ونهياً - عدد أبواب الجنة الثمانية - هي كلها من مفاتيح الرحمة والرضوان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

وهنا ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾ تحتل القمة الرئيسية بين زملائها، حيث التنازع والاختلاف بين المؤمنين يفصم طاقاتهم، وتُضعف قواتهم، وتجعلهم شذ

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

مذر، مواطئ لأقدام الكفار، ومجالات لإقدامهم على محقهم وسحقهم في كل أقدامهم.

والتنازع هو التفاعل في النزع وهو بين محظور ومحبور، فمحاولة كلّ أن ينزع ما عند صاحبه من خير تحويلاً له إلى نفسه أم إلى الفناء استئصالاً فيهما أم استقلالاً هو تنازع محظور.

ثم محاولة كلٍّ أن ينزع ما عند صاحبه من خير استغلالاً دونما استئصال محبور، فهما بين طرفي التضاد منهياً عنه أو مأموراً به، ومن التنازع المحبور التشاور في معضلات الأمور إفادةً واستفادةً، ومن المحظور التشاطر فيها أن يتبنَّى كلٌّ شخصه وشخصيته دون ابتغاء للحصول على الحق المُرام، فالحق ما يقوله هو مهما كان باطلاً، والباطل ما يقوله سواه مهما كان حقاً، وإن جرى الحق على لسانه هو فهو الحق، وإن سبقه غيره فيه فمحاولة لإبطاله، ومن مصاديق المحظور منازعة الرسول في الأمر: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾[1] ومن المحبور ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[2] استرواحاً بمزاح، ثم عوان بينهما هو التنازع الذي ليس عن عداء، بل هو طبيعة الحال لقصور في المعرفة، فليُردَّ - إذاً - إلى الله والرسول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[3].

وهنا بين الفشل والتنازع تفاعل التجاوب، فالتنازع هو من عوامل الفشل كما هنا، كما الفشل هو من عوامل التنازع: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾[4].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

فالفاشلون في العلم والمعرفة وصالح العقيدة هم المتنازعون، كما المتنازعون هم الفاشلون.

ولأن المنازعة بين المؤمنين محرمة فيما يؤول إلى البغضاء والعداء دون حصول على حق، فالمفروض - إذاً - التجنب عن أسبابها والاتجاه إلى أسباب التآلف والوحدة.

وهنا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ هما قمة الأسباب الرئيسية للوحدة والألفة، طالما الأصول الأخرى التي لا أصل لها في كتاب أو سنة، كالإجماع والشهرة والقياس والاستحسان والاستصلاح، ودليل العقل مستقلاً وجاه الكتاب والسنة، إنها كلها من أصول التنازعات.

فالارتكان على أدلة العقول في الفروع الأحكامية وما أشبهها غير الكتاب والسنة، إنه ارتكان إلى ركن سحيق محيق غير وثيق، يخلف مختلف التنازعات بين المعتمدين عليها، وهنا كلمة حاسمة لهذه التنازعات: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[١].

فالأصل الإيماني بين قبيل الإيمان ألا يتنازعوا على أية حال، فإذا تنازعوا لقصور في البال أم قضية الحال فإلى الله في كتابه، وإلى الرسول في سنته، فإذا بقيت بعدُ بقية من الخلافات حسب مختلف الاجتهادات والاستنتاجات فلا تنازع بعد بل هو الإقرار لكلّ والاستقرار على ما أدى إليه رأيه دونما تنازع وعداء، بعد تشاور وتحاور سليمين.

فالمحور الأول الذي يقضي على محور التنازع المحظور هو أن يطلب كلٌّ الحق المُرام مهما كان عند منازعه، وأن يرفض كلٌّ الباطل مهما كان عنده.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

ثم الثاني أن يُمَحور كلٌّ فطرته وعقليته السليمة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن ثم إذا بقيت خلافات فإلى شورى بينهم على ضوء هذين الأصلين الأصيلين، فقد لا تبقى إذاً خلافات إلا قليلة ضئيلة هي معفوة مغفورة لأنها من قضايا عدم العصمة العلمية والمعرفية.

ذلك، فليست وجهات النظر المختلفة هي السبب الرئيسي للخلافات، إنما هو حين تكون القيادة للأهواء والشهوات والإنيات والأنانيات، وإنما هو وضع الذات في كفة محادة لكفة الحق أم غير محايدة لها أم قابلة للحق إذا اتبع هواه.

فإذا استسلم الإنسان لسليم الفطرة والعقلية بقيادة الله في كتابه، ثم قيادة الرسول في سنته فقد انتفت الأسباب الرئيسية للتنازعات، وبقيت بقية قليلة هي بالنهاية حصيلة عدم العصمة فاختلاف وجهات النظر رغم وحدة الأصل الصالح ورفض الأصل الطالح.

فإن كنت عادلاً تتحرى عن الحق فلتكن عادلاً في الإقبال إلى الحق وقبوله، فحين ترى الحق عند منازعك فتقبله ولا تفتكر أنك - إذاً - مغلوب، بل أنت غالب على هواك في تقبُّل الحق عند من سواك، إنما المغلوب هو مغلوب الهوى، والغالب هو الغالب على الهوى.

فحين يكون الحق هو المحور المبتغى فأنت الغالب على أية حال، وحين تكون الهوى هي المحور المبتغى فأنت المغلوب على أية حال، فلا بد للسالك في سبيل الحق من التصبُّر والصمود أمام نزعات الهوى ونزعات الشيطان الذي يأمرها، فهو الزاد العظيم مع الإيمان بالله في هذه الرحلة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء وحرمانات الهوى.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾:

هنا المعنيون بهؤلاء هم المنافقون الذين خرجوا مع المؤمنين بظاهرة الجهاد في سبيل الله، ولكنهم خرجوا بثالوث منحوس من ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾! وهكذا المشركون الذين خرجوا في حرب المؤمنين «وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال يومئذٍ: اللَّهم إن قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك، اللَّهم إن قريشاً جاءت من مكة بأفلاذها»[١].

وهنا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مما يؤيد أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض هم من المعنيين مع المشركين الرسميين، حيث المشرك يخرج قضية مبدئه فلا رئاء لخروجه، وقد يعني مع المنافقين جماعة من الذين ظلوا بعد الهجرة في مكة رئاء الناس المشركين وكأنهم منهم، أم خرجوا معهم في قتال المؤمنين كأنهم معهم.

فـ ﴿بَطَرًا﴾ هو الطغيان في النعمة، فهو هنا بطر الخروج بكل رعونة وتفرُّح وتفرُّج تبديلاً لنعمة الله نَعمة ونقمةً: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾[٢] و﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ لكي يراهم الناس وهو شرك خفي مع جلية للمشركين والمنافقين، وخفي كما الجلي للذين في قلوبهم مرض من المؤمنين.

ثم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ صداً ظاهراً جاهرا كالمشركين، أم صداً منافقاً خفياً كغيرهم من هؤلاء الخارجين ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وهنا «بطراً و» لهؤلاء الأنكاد الأغباش تُقابل ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ و﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ هناك، ولا

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٩٠ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بغي وفخر وقد قيل لهم يومئذ ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم فقالوا: لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا وذكر لنا . . .

(٢) سورة الدخان، الآية: ٢٧.

يخلو الخروج للقتال من كونه في سبيل الله أم في سبيل اللهو، فثالوث ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ هو سبيل اللهو، ومثمَّن «فاثبتوا ولا تكذبوا» هو سبيل الله، وأين سبيل من سبيل؟

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾:

هنا مسرح للشيطان صارح وهو صارخ، قائلاً لجنده المشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وإنما قال ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ﴾ حيث ظهر بصورة سراقة ولكي يصدقوه فيما يقول[1] وذلك قبل أن تراءى الفئتان ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٩٠ - أخرج الواقدي وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما تواقف الناس أغمي على رسول الله ﷺ ساعة ثم سرى عنه فبشر الناس بجبرئيل عليه السلام في جند من الملائكة ميمنة الناس وميكائيل في جند آخر ميسرة وإسرافيل في جند آخر ألف وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن جعشم المدلجي يجير المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون فتشبث به الحارث وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال: يا رب موعدك الذي وعدتني.

وفيه أخرج الطبراني وأبو نعيم في الدلائل عن رفاعة بن رافع الأنصاري قال: لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر فرفع يديه فقال: اللّهم إني أسألك نظرتك إياي.

وفي نور الثقلين ٢: ١٦١ عن المجمع بعد ذكر القصة: فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم فقالوا: إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان - عن الكلبي وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

وعن تفسير العياشي عن عمرو بن أبي مقدام عن أبيه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: لما عطش القوم يوم بدر انطلق علي عليه السلام بالقربة يستقي وهو على القليب إذ جاءت ريح شديدة =

وهم جنود الملائكة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أن يعاقبني ويعجل في أجلي الموعود ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

فلقد ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ومنها إعمالهم كافة قدراتهم لمواجهة المؤمنين، زين بما ألقى في صدورهم ثم زوَّده بقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ خلافاً لما أري رسول الله ﷺ وقد يروى عنه ﷺ قوله: ما رئي إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر، قالوا: يا رسول الله ﷺ وما رأى يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة[١].

وقد تأبى نصوص من الآية أن يكون موقف الشيطان من المشركين في بدر كمواقفه الأخرى معهم بأن وسوس إليهم، لمكان: «وقال لا غالب لكم اليوم - وإني جار لكم - إني بريءٌ منكم - إني أخاف الله» حيث الوساوس الشيطانية عامة ليست فيها كهذه القالات الخاصة، ثم كيف ينكص الشيطان على عقبيه وهو غير ظاهر، فمم يخاف إذا حتى ينكص إلّا إذا كان ظاهراً في المسرح، ويكل مصرح من قالِه وفعاله.

وهل ترى للشيطان هذه القوة القاهرة أن يتصور بصورة الإنسان فيضلَّه ويُدلَّه؟ إذاً فله أن يجند جنوده كما الله يجند الملائكة فيهزَم المؤمنين! كلَّا، فإن الله لم يخوِّله من ذلك شيئاً ولن، وهنا تصوُّره بصورة الإنسان كان لطالح

= ثم مضت فلبث ما بدا له ثم جاءت ريح أخرى ثم مضت ثم جاءته أخرى كان أن يشغله وهو على القليب ثم جلس حتى مضى فلما رجع إلى رسول الله ﷺ أخبره بذلك فقال رسول الله ﷺ: أما الريح الأول فيها جبرئيل مع ألف من الملائكة والثانية فيها ميكائيل مع ألف من الملائكة والثالثة فيها إسرافيل مع ألف من الملائكة وقد سلموا عليك وهو مدد لنا وهم الذين رآهم إبليس فنكص على عقبيه يمشي القهقرى حين يقول: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ...﴾.

(١) رواه مالك في الموطأ بسند متصل عن طلحة بن عبيد الله بن كريز.

المشركين أن انغرُّوا به، ولصالح المسلمين أن تغلَّبوا عليهم، ثم هو حجة زائدة على المشركين حيث ظنوه سراقة ثم تبين أنه غيره ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(١).

ولقد كانت هنا مقارنة في ثالوث: الشيطان - المشركين - والمنافقين:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾:

هنا المقابلة بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض تعني ذكر العام بعد الخاص، فالآخرون - إذاً - هم المشركون، والمنافقون غير الرسميين من ضعفاء الإيمان، أم هؤلاء الذين أسلموا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم قائلين ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنين ﴿دِينُهُمْ﴾ إذ يقابلون على قلتهم عَدداً وعُدداً هؤلاء الكثرة القوية من المشركين، والجواب كلمة واحدة ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقد يَنصر هؤلاء القلة المؤمنة على هؤلاء الكثرة الكافرة كما فعل.

أجل والفئة الكثيرة غير المتوكلة على الله ليست لتتغلب على الفئة القليلة المتوكلة على الله، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ يعز المتوكلين عليه ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع النصرة مواضعها الصالحة، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم مع المشركين ليسوا ليدركوا أسباب الانتصار والهزيمة المستورة وراء الأستار، وإنما يرون مظاهر دون أن تهديهم بصيرة إلى مسايرها ومصايرها ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٢) فلا جرم - إذاً - يظنون المؤمنين في مسرح بدر وما أشبه مغرورين مخدوعين بالدين، واردين موارد الهلكة بتعرضهم لقتال المشركين.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا
بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ
وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ
سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ
لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ
يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا
تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ

جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾:

هنا ملائكة العذاب يتوفون الذين كفروا، وهناك ملائكة الرحمة يتوفون الذين آمنوا: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

ثم وملائكة العذاب والرحمة يرأسهم كلهم ملك الموت ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[2] ومن فوقهم كلهم هو الله، فـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[3].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[4].

وهنا ضرب الوجوه استقبال لهم بذوق من عذاب البرزخ، وضربُ أدبارهم استدبار بآخر منه، فهم بين الدنيا والبرزخ يُدفعون إلى الموت بضرب الأدبار، ويُستقبلون فيه بضرب الوجوه، فإنهم أدبروا عن الحياة الأخرى واتجهوا - فقط - إلى الحياة الدنيا، فيقال لهم بعد الضربتين:

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مما يدل - كما في عشرات من الآيات - على

(١) سورة النحل، الآية: ٣٢.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٤) سورة محمد، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

الحياة البرزخية، إذ لا مجال - إذاً - لـ ﴿ذُوقُواْ﴾ إلّا إذا كان عذاب الحريق حاضراً، و﴿ذَٰلِكَ﴾ الثالوث من عذاب الوجوه والأدبار وعذاب الحريق ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من مستحق العذاب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وهنا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كمصداق حاضر، هم المشركون في بدر حيث ضربتهم الملائكة فتوفتهم، وقد يروى أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضرب فندر - سقط - رأسه، فقال ﷺ: سبقك إليه الملائكة[1].

ولماذا ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ وهو ليس ظالماً أبداً؟ علّه لكي يستأصل خرافة الجبر، أم وزيادة العذاب على المستحق فإنه ظلّامية في التعذيب، ولأنه ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فليس بظالم كما ليس بظلام للعبيد.

وترى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ تمنياً لرؤيته ﷺ ذلك المرئى، أليس يجعل الله متمنياً والرسول غائباً عن ذلك المرئي؟ إن غياب الرسول عن ذلك المرئي كسائر الغيَّب ليس عليه عيباً حيث الضابطة له ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾[2] اللهم إلا ما يُظهره عليه ربه، ثم ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ من الله بيان لموقف التمني، أنه مكانه ومجاله أن يرى الرسول إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة دون واقعه من الله.

وهكذا يكون دور الذين كفروا في مصيرهم لمسيرهم بما قدمت أيديهم، فهم كما يصفهم:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾:

دأبان اثنان: دأبهم أنفسهم في الكفر فإضافة إلى الفاعل، ودأب الله في جزائهم الوفاق فإضافة إلى المفعول.

(١) نور الثقلين ٢: ١٦٢ عن مجمع البيان روى مجاهد أن رجلاً.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

الدأب هو العادة المتعود عليها والسنة السائرة، وهنا ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ دأب الذين كفروا ككل في أخذهم بذنوبهم، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم فرعون وأتباعه ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من فراعنة التاريخ ونماردته ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ آفاقية وأنفسية، تكوينية وتشريعية ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ هنا وفي الأخرى، برزخاً وأخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في موضع النكال والنقمة كما هو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة.

ومن إمام المتقين علي أمير المؤمنين عليه السلام: «سبحانك خالقاً ومعبوداً بحسن بلائك عند خلقك، خلقت داراً، وجعلت فيها مأدبة: مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصوراً وأنهاراً وزروعاً وثماراً - ثم أرسلت داعياً يدعو إليها، فلا الداعي أجابوا، ولا فيما رغَّبت إليه رغبوا، ولا إلى ما شوَّقت إليه اشتاقوا -

أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها، واصطلحوا على حبها، ومن عشق شيئاً أعمى بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقلَه، وأماتت الدنيا قلبه، وولّهت عليها نفسَه، فهو عبد لها ولما في يده شيءٌ منها، حيثما زال زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها، لا ينزجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين على الغرَّة - حيث لا إقالة لهم ولا رجعة - كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءتهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون - فغير موصوف ما نزل بهم، اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت، فَفرَّت لها أطرافهم، وتغيرت لها ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم وُلوجاً فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنه لبين أهله، ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله وبقاءٍ من لُبِّه، يفكر فيمَ أفنى عمرَه وفيمَ أذهب دهره، ويتذكر أموالاً جمعها، أغمض في مطالبها،

وأخذها من مصرّحاتها ومتشابهاتها، قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءَه يَنعمون فيها، فيكون المهنأُ لغيره والعبء على ظهره، والمرء قد غَلقت رهونه بها، فهو يعضُ يده ندامةً على ما أضحر له عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه، يبالغ في جسده حتى خالط لسانُه سمعَه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه، يردد طرْفَه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رَجع كلامهم، ثم ازداد الموت التياطاً، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله، قد أوحشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يُسعد باكياً، ولا يجيب داعياً، ثم حملوه إلى محط في الأرض فأسلموه فيه إلى عمله، وانقطعوا عن زَورته»[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[٢].

فحين يغيِّر المنعمون ما بأنفسهم وجاه الله ووجاه نعم الله، تبديلاً للنّعمة نَعمةً، فقد يغير الله تلك النعمة نقمة، فالنعمة ابتلاءٌ، إذا صرفت في مرضاة الله ازدادت ونمت، وإذا صرفت عن مرضاة الله فندت ونفت ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) (الخطبة ١٠٨).

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

ذلك وإن الله قضى قضاءً حتماً ألا ينعم على العبد فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة[(١)] «وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعم الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد»[(٢)] فـ «إياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس شيءٌ أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها»[(٣)].

وليس فقط أن الله يغير النِّعمة نقمة إذا غيروا ما بأنفسهم كفراناً لنعمة، بل ويغير النقمة نعمة إذا غيروا ما بأنفسهم شكراناً لنعمة أم جبراناً لكفران، وأين غيار من غيار، شرٌّ إلى خير جزاءً وفاقاً[(٤)].

فقد يملك الإنسان أن يستجلب نعمة الله لنفسه أو يستبقيها ويستزيدها إذا هو عرف وشكر، كما يملك أن يزيلها عن نفسه أو ينقصها إذا هو أنكر وبطر، وانحرفت نواياه فانجرفت خُطاه.

فهنا نعم أنفسية هي الفطرة والعقلية الإنسانية والحس السليم والقلب السليم كما خلق الله، فحين يغيِّر هذه النعم الأنفسية إلى عليين فالله يغيرها

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٦٣ في أصول الكافي عن أبي عمرو المدايني عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول:

(٢) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر عن الكافي عن الجزري قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله عز وجل بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه وأوحى إليه أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون...

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «ما دام العبد يعرف نعم الله عنده فإن الله لا ينزع منه نعمة حتى إذا جهل النعمة ولم يشكر الله عليها إذ ذاك حري أن ينزع منه» (مجلة الفرقان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٨٩).

إليه وأعلى مما يعنيه، ويزداده نعماً آفاقية تكوينية وتشريعية، وإذا كانت له نعم آفاقية فغيَّر ما بنفسه من نعمة ازداده الله فيها، ويعاكسه إذا غير ما بنفسه إلى سِفل فهو يسفله ويرذله كما فعل، ومن ذلك الختم على القلوب والغشاوة على السمع والأبصار ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(١).

وهذه سنة دائبة عادلة في التعامل بين الإنسان ونفسه وربه ونعمه، حيث تنعكس عليه بكل خير أو شر في الأولى ثم الأخرى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٢).

وتلك الضابطة الثابتة حقيقة كبيرة حقيقة بالتأمل التام في كافة الحقول الحيوية، جانب عظيم من التصور القرآني لحقيقة الإنسان، يبين تقديره عند العظيم القدير بذلك التدبير العادل الجدير، وكما يبين فاعلية الإنسان بقابليته في مصير نفسه ومصير الأحداث حيث يبدو الإنسان من خلال كل المساير والمصاير عنصراً إيجابياً في صياغة ذلك المصير بإذن الله وتقديره وتقريره لكل مسير ومصير من خلال حركته الصالحة والطالحة على ضوء نيته وشاكلته.

فقد تنتفي عنه بذلك تلك السلبية الذليلة المفروضة عليه من المذاهب المادية، حيث تتصوره وتصوره عنصراً سلبياً إزاء الحتميات الجبارة المتخيلة، كحتمية الاقتصاد والتاريخ والتطور وما أشبه من سائر الحتميات المختلقة التي ليس للإنسان إزاءها حول ولا قوة، فلا يملك أمامها إلا الخضوع الطليق كالرقيق، ضائعاً خائفاً ذليلاً ساقطاً إلى مهوى سحيق.

وهكذا نتعرف إلى الإنسان أنه هو الذي يصنع التاريخ دون جبر ولا تفويض، وإنما هو أمر بين أمرين أمرَّين ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ قالاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ حاجياتهم.

ذلك، ومن أنعم النعم الربانية نعمة القرآن العظيم والذكر الحكيم، فلما غيرنا ما بأنفسنا وجاه القرآن فنبذناه وراءنا ظهرياً، سلب عنا التوفيق في دراسته وحراسته فأصبحنا عنه بعيدين بعد الأرض من السماء، لحد خيل إلينا وإلى حوزاتنا بزعمائها وعلمائها أن ليس القرآن كتاب دراسة وتعلم، فقد زين لنا الشيطان أحوالنا وأعمالنا لحد حسبنا كل دراسة حوزية هي صالحة لتبني الحوزات الإسلامية وإصلاح المسلمين إلا دراسة القرآن.

فلا وخزة أخرى ولا أخذة أقضى من رفع القرآن من بيننا ونحن أمة القرآن، لذلك لا نجد نعمة المعرفة والإيمان بيننا الإ قلة قليلة لتلك القلة العليلة أمام القرآن حيث اتخذناه مهجوراً بكل مواضعه ومواضيعه اللّهم إلا قراءَة بأجرة ودونها على الأموات أم استخارة أم تيمناً وتبركاً في الأعراس والبيوت.

وقد تناسب هذه الآية القاصعة قصعة من الخطبة القاصعة تبيناً أميناً لقصصٍ من الأمم الماضية:

«واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حالَيهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وراحت الأعداد له عنهم، ومُدَّت العافية فيه عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة حبلَهُم، من الاجتناب للفُرقة، واللزوم للألفة، والتحاضِّ عليها، والتواصي بها، واجتنبوا كل أمر كسر فِقرتَهم، وأوهن مُنَّتهم، من تضاغُن القلوب، وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس، وتخاذل

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

الأيدي - وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلك كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً، اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب، وجرَّعوهم المُرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة، وقهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلاً إلى دفاع، حتى إذا رأى الله سبحانه جِدَّ الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضايق البلاء فَرَجاً، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، وأئمة أعلاماً، وقد بلغت الكَرامة من الله لهم، ما لم تذهب الآمال إليه بهم، فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة، - ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين؟

فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفُرقة، وتشتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غُضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم - فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل، فما أشد اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال، تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يختارونهم عن ريف الآفاق، وبحر العِراق، وخُضرة الدنيا إلى مَنابت السيح، ومهافي الريح. ونكْد المعاش، فتركوهم عالة مساكين، إخوان دَبَر ووَبَر، أذل الأمم داراً، وأجدبَهم قراراً، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على غرها، فالأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة، في بلاءِ أزْلٍ، وأطباقِ جهل،

من بنات موءودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة - فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً، فعقد بملته طاعتهم، وجَمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت جداول نعيمها، والتفَّت الملة بهم في عوائد بركتها، فأصبحوا في نعمتها غَرِقين، وفي خُضرة عيشها فكهين، قد تربعت الأمور بهم في ظل سلطان قاهر، وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب، وتعطفت الأمور عليهم في ذُرى مُلكٍ ثابت، فهم حكام على العالمين، وملوك في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويُمْضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم، لا تُغمز لهم قناة، ولا تُقرع لهم صَفاة - ألا وإنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، وإن الله سبحانه قد امتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنَفَها، بنعمة لا يَعرِف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر - واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلقون بالإسلام إلا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه، تقولون:

النار ولا العار، كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه، انتهاكاً لحريمه، ونقضاً لميثاقه الذي وضعه الله لكم حَرَماً في أرضه، وأمنا بين خلقه، وإنكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر، ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار ينصرونكم، إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم الله بينكم - وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه، وأيامه ووقائعِه، فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه، وتهاوناً ببطشه، ويأساً من بأسه، فإن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي، والحلماء لترك المناهي - ألا وقد قطعتم قيد الإسلام، وعطلتم حدوده، وأمّتم أحكامه».

«وأيم الله ما كان قوم قط في غضٍّ نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم، ووله من قلوبهم، لردَّ عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد» (١٧٦) - و«إن لله عباداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد فيقرها في أيديهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم» (٤٢٥ ح).

ومن ختام المسك هنا قوله ﷺ لبعض نسائه : «أحسني جوار نعم الله فإنها قلَّ ما نفرت عن قوم فكادت ترجع إليهم»[١].

أجل، والنعم المتفاضلة على الإنسان بمنزلة الضيف النازل والجار المجاور الذي يحب أن يعد قراه، ويُكرم مثواه، وتصفى مشاربه، وتؤمن مساربه، فإن أخيف سربه ورنق شربه وضيعت قواصيه واعتميت مقاربه كان خليقاً بأن ينتقل وجديراً بأن يُستبدل - فكذلك النعم إذا لم يجعل الشكر قرى نازلها، والحمد مهاد منزلها، كانت وشيكة بالانتقال، وخليقة بالزيال.

ذلك، وفي خبر آخر عنه ﷺ : «أحسنوا جوار نعم الله فإنها وحشية»[٢]، وهنا يشبّه النعم بأوابد الوحش التي تقيم مع الإيناس، وتنفر مع الإيحاس، ويصعب رجوع شاردها إذا شرد، ودنوّ ناخرها إذا بعد.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ :

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (١٣٩).
(٢) المصدر.

ترى كيف يتكرر ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بفاصل آية واحدة والمضمون نفس المضمون باختلاف يسير في تلحيقة التعبير؟

من مبررات ذلك التكرار اختلاف الموقفين كما تتكرر آية واحدة في «الرحمن» لمختلف المواقف، فـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في الأولى تنظير لهم بـ «الذين كفروا» و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] حيث ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾[2] وفي الثانية بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾[3] مع اختلاف يسير في التعبير قضية اختلاف في الموقف يسير.

ففي الأولى ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قضيةَ أصل الألوهية، وفي الثانية، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ قضيةَ ما غيروا بأنفسهم وجاه النعم الربانية، ثم العذاب في الأولى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ قضية نفس الألوهية، وفي الثانية: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ قضيةَ ربوبيات منه إليهم في نِعَمه، اقتضت إهلاكهم، بصيغة المتكلم مع الغير حيث تعني جمعية صفات الجلال المقتضية لجمعية الإهلاك، ثم في الأولى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بنفس القضية، عقاباً شاملاً للذين من قبلهم آل فرعون، وفي الثانية ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ تصريحاً بنوعية العقاب لخصوص آل فرعون.

وأخيراً هنا ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ هؤلاء الذين كفروا بهذه الرسالة، وآل فرعون والذين من قبلهم.

فهذه الثانية تأكيدة مع تفصيلة للأولى مع اختلاف الموقع وهامة الموضوع حيث يقتضي بنفسه التكرار فضلاً عما بيناه وما أشبه من مبررات التكرار.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

وترى كيف تتفرع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على ﴿كَفَرُواْ﴾ وهما سيان في عناية عدم الإيمان؟

﴿كَفَرُواْ﴾ تعني: ستروا، كما ستروا الحق عن أنفسهم وكما يقول ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾[1] فقد يعني ﴿كَفَرُواْ﴾ الطليقة - هنا عن أي متعلّق - ثالوث الكفر، إذ: كفروا أنفسهم عن درك الحق، وكفروا الحق عن أن يدرك، وكفروا بالله.

ذلك، وقد تترجم هذه الآية آية أخرى هي: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] إذا فقد ﴿كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث السد لمنافذ الإيمان صد عن الإيمان فهم بطبيعة الحال ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما ختموا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فختم الله عليها.

وهنا يُعرف أن القصد من الكفر هو الكفر المطلق دون مطلقه، فقد يؤمن الكافر إذا لم يتعرق الكفر في نفسه، فالكافر المتحير غير المعاند للحق - فضلاً عن متحريه - قد يؤمن حين تصله دلائله، ولكن المعاند المتعمد المتجرئ على الحق لا يرجى خيره، فالواجب إزالته حفاظاً على كرامة الإيمان عن أن ينصدم بضلاله وإضلاله لمكان الفتنة التي هي أكبر وأشد من القتل.

فمن الدواب ما هي شِرِّيرة خلقة وقصوراً، ومنها ما هي شريرة تقصيراً دون أن يحلِّق الشر عليها فقد يرجى أن تبوء إلى خير، ولكن الدابة المقصِّرة التي حلّق الشر العاند العامد على كيانه ككل، فهذه هي ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) سورة هود، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

ليس هؤلاء متجردين عن الخصيصة الفطرية الإنسانية فحسب، بل وعن الفطرة البهيمية أيضاً، فالبهيمة تنطلق على بهمها لولا القيود المفروضة عليها وهم منطلقون رغم كل قيد وعهد:

﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

فليس - فقط - إنهم لا يؤمنون بالله، بل ولا يؤمنون بعهودهم التي عاهدوها معكم حيث ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ - ﴿عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ ألا يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بسوء ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾: أيّة تخلفة، وانطلاقة عن أية عهود وقيود، فلا يربطهم عن شماسهم أي رباط منكم ولا منهم أنفسهم في عهودهم، فلا علاج عن بأسهم إلا نقض عهودهم هذه التي هم ينقضونها في كل مرة، وإلا قتالهم واستئصالهم حتى يخلوا جو الإنسانية من بأسهم وتعسهم.

فإنما العهد الملتزَم هو المستقيم الذي يُطمئِن، دون المنزلق المنحلق ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾[1] معاملةً معهم بالمثل، فإن لم يستقيموا لكم فلا تستقيموا لهم، حيث الاستقامة مع غير المستقيم اعوجاج، وانخداع فانخلاع عن الأمنة إلى شفا جرف الهلكات.

وهنا قواعد حربية مستفادة من آيات عدة نحن أمامها، نعد منها عشراً:

١ - الكفار الذين يعاهدون المعسكر الإسلامي معاهدات ثم تنقضون عهدهم في كل مرة، إذا:

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

فملاحقتهم على حذق إذاً مفروضة لمقاتلتهم حيث الثقف فضلاً عن

(١) سورة التوبة، الآية: ٧.

أكيدة التثقيف هو الملاحقة اليقظة الحاذقة اللازقة دون فتور فظفر وإدراك بسرعة وحذق ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ بعد تشريدهم أنفسهم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ فحين تشردهم قوياً صارماً دفعاً عن أخطارهم قتلاً لهم أم نفياً إياهم إلى البعيد، فقد شردت بهم مَن خلفهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ألا مجال لاختلاق الدوائر ضد المجموعة المؤمنة.

وهنا «تثقفن» تأكيد لواجب تثقيف العدو وتضييق كل المجالات عليه.

فهؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم، إنما جزاؤهم هنا هو حرمانهم من كل ما حرموا غيرهم من الأمن، فتخويفهم وتشريدهم والضرب على أيديهم لحد يرهب معهم مَن خلفهم من المتسامعين بهم.

وإنها الضربة المروعة المرهبة للهروب والشرود اتقاءً عن أذاهم، كأقل ما يعامل معهم، ومن ثم قتالهم وقتلهم باستئصالهم عن بكرتهم.

٢ - خوف الخيانة من المعاهد الذي تكررت منه حلّ المعاهدة فلا التزام بها بعد:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

وهنا ﴿تَخَافَنَّ﴾ تأكيد للخوف، أن الخوف المتأكد المرتقب أكيداً من هؤلاء الخَونَة الناقضين عهودهم، ذلك الخوف يحل عُقدَ معاهدتهم، فكما نبذوا إليكم عهدهم فتخافنهم، كذلك ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ نبذاً كنبذهم دونما تعدٍّ طوره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ فكيف يصح لكتلة الإيمان أن تأتمنهم في عهدهم المنقوض كل مرة؟.

أجل ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم إلقاء إليهم بإعلام الإلغاء، فإن في اجتماع نقض العهد في كل مرة وتخوُّف الخيانة من جرّائه خطراً حاسماً جاسماً على المؤمنين، فلينبذ إليهم عهدهم كما نبذوا، إعلاناً جاهراً بالقتال.

ذلك، فلا يجوز نقض عهدهم ما لم ينقضوا ولا تخافن منهم خيانة ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾[(١)] وكما أن نقضهم عهدهم خيانة، كذلك نقضكم عهدهم قبل نقضهم، أم نقضكم ولمّا ينقضوا، وهم دائبون في النقض على تخوفٍ من خيانتهم، إلّا أن تنبذ إليهم على سواء، فنقض عهدهم دون نبذ وإعلام بالنقض خيانة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ كفاراً كانوا أم مؤمنين.

وقد نزلت الآية في بني قريظة حيث خوفته ﷺ خيانتهم وهم ينقضون عهدهم في كل مرة[(٢)] وقد عاهدوا رسول الله ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ، وهنالك حقل ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ بعد نقضٍ منافقٍ للعهد، وأما النقض الجاهر فقد يترقب به نقض جاهر مثله، فلا مورد إذا للإعلام بنقضه، إنما المحتاج إليه ما لم ينقض جاهراً، وقد قاتل رسول الله ﷺ أهل مكة لما نقضوا عهدهم جاهراً بقتل خزاعة وهم من ذمة النبي ﷺ.

وهنا ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ برهان قاطع لا مرد له أن النبذ إليهم ليس إلّا بعد نبذهم وتخوّف خيانتهم، فلكل نبذ نبذٌ مثله على سواء، دون أن يبرّر نبذ ولمّا يَنبذ العدو مهما كان ينبذ في كل مرة، فانظر إلى السماحة الإسلامية

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ١٩١ - أخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم فأخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة وأنزل فيهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ...﴾ [الأنفال: ٥٨] وفيه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: لا تقاتل عدوك حتى تنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين، وفيه أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن سليم بن عامر قال: كان بين معاوية وبين الروم عهده وكان يسير حتى يكون قريباً من أرضهم فإذا انقضت المدة أغار عليهم فجاءه عمرو بن عنبسة فقال: الله أكبر وفاء لا غدر سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقده ولا يحلها حتى ينقضي أمرها أو ينبذ إليهم على سواء.

السامية ألا تسمح للمؤمنين نقضاً عملياً لعهد الناقض عهدهم، إلّا بإلقاء الإلغاء، دونما حيلة وغيلة ومباغتة، اللَّهم إلا حيلة بحيلة وغيلة بغيلة.

وهنا نسمع علياً أمير المؤمنين عليه السلام يقول في حديث له طويل: فقدمت البصرة وقد اتسقت إليّ الوجوه كلها إلا الشام فأحببت أن أتخذ الحجة وأقضي العذر وأخذت بقول الله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ فبعثت جرير بن عبد الله إلى معاوية معذراً إليه، متخذاً للحجة عليه، فرد كتابي، وجحد حقي في دفع بيعتي[١].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

ليس الكفر ليسبق الإيمان ولا الكافرون ليسبقوا المؤمنين في ميادين السباق الحيوية، اللَّهم إلا بظاهرٍ من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، و﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ الله ولا رسل الله ولا المؤمنين بالله، فليس الباطل أياً كان ليعجز الحق مهما كان له جولة، فإن للحق دولة: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢] فمهما نجوا من القتل في حرب وسواها متخلفين عن شرعة الله، فليس سبقاً لهم فـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٣] فهل تراهم - إذاً - سابقين في ذلك الميدان الميدان؟

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[٤]! فقد خسروا السباق بكل الرفاق، والله هو السابق وعباده الصالحون.

فلا هم سابقون مشيئة الله في التكوين مهما تخلفوا عنها في التشريع إذ

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٦٤ في كشف المحجة لابن طاوس عنه عليه السلام.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.

لن يضروا الله شيئاً، ولا هم سابقوه في أي سباق آخر إعجازاً له وإحجازاً إياه عما يشاء.

٣ - إنه يجب على المؤمنين إعداد المستطاع من كافة القوات والإمكانيات أمام أعدائهم:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿وَأَعِدُّواْ﴾ خطاب هام عام موجَّه إلى المؤمنين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي على مدار الزمن الرسالي الإسلامي، كما و﴿لَهُم﴾ تعني ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهم الكفرة الناقضون لعهودهم - إن كانت لهم عهود - الذين تخافن منهم خيانة على الهيكل الإسلامي السامي.

وقد تعني ﴿لَهُم﴾ - دون عليهم - أصل المواجهة، أن اعدوا لمواجهتهم، بما أن في هذه القوات الحربية صالحهم حيث تصدهم عن مهاجمة المؤمنين فلا يقتلون ولا يستحقون عظيم النكال أم هم يؤمنون.

ثم ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ خطراً وخيانة، أو معرفة بهم فيهما ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فالأصل هو الحصول على القوة الرهيبة الإرهابية العادلة في كافة الميادين الحيوية، ثقافية وعقيدية واقتصادية وسياسية وحربية أماهيه من قوات يحاول أعداؤنا أن يسبقونا فيها سناداً لسيادتهم وسيطرتهم علينا.

فـ ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ تحلق على كافة القوات، مهما أشارت ﴿رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وفسرت الروايات[1] تلك القوة بقوات الحرب ولا سيما السابقة، حيث المدار هو طليق ﴿قُوَّةٍ﴾ تعم كافة القوات الإيمانية.

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٩٢ عن عقبة بن عامر الجهني قال سمعت النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ألا إن القوة الرمي، قالها ثلاثاً عنه قال: =

وقد يروى عن النبي ﷺ قوله في القوات الحربية: من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني[(١)] و«من تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جحدها»[(٢)].

ومهما كان الرمي يومئذٍ بالنبال قضيةَ الظروف والإمكانيات، فهو اليوم - وبعد توسع الأسلحة - يعم كل رمي بري وبحري وجوي بمختلف وسائله المستطاعة أتوماتيكية وسواها، حيث القصد هو رمي العدو إرهاباً وقضاء عليه، فكيف يكتفى برميه بما هو مجهز بأقواه فإنه أغواه! ولأن الأكثرية الساحقة أو المطلقة من البشرية سائرة سيراً كالساً فالساً معاكساً لشرعة الله، فهم - إذاً - يعارضونها جهلاً أو تجاهلاً وعداءً بمختلف أساليب المعارضة كيلا يقعوا في ذلك الفخ أم لا يصطدموا به، لذلك فعلى المجموعة المؤمنة إعداد قوات إرهابية ولا سيما الحربية المكافحة للحفاظ على كيانها وكونها، وكيف تختص ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ بقوة الأسلحة الحربية والحاجة إلى سائر القوات أكثر حيث الفتنة أشد من القتل وأكبر، فهل يؤمر المسلمون بإعداد القوة الحربية دون الأخرى منها والأهم حفاظاً على كيان الإسلام في المسلمين؟، ومجرد وقوع الآية بين الآيات الحربية لا يحصر آية القوة الطليقة فقط بتلك

= سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير والذي يجهز به في سبيل الله والذي يرمي به في سبيل الله، وقال: ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا، وقال: كلّ شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة: رميه عن قوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها.

وفيه أن رسول الله ﷺ مر على ناس ينتضلون فقال: حسن اللهم مرتين أو ثلاثاً ارموا وأنا مع ابن الأدرع فأمسك القوم قال: ارموا وأنا معكم جميعاً فلقد رموا عامة يومهم ذلك ثم تفرقوا على السواء ما يضل بعضهم بعضاً.

(١) وفيه أخرج القراب عن عقبة بن عامر قال: لا أترك الرمي أبداً ولو كانت يدي مقطوعة بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول: من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني.

(٢) وفيه أخرج البزاز عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: -

القوة مهما كانت هي البارزة منها في المظهر، ولكن غيرها ولا سيما العقيدية هي البارزة في المحضر، المفروضة للحفاظ على الكيان الإسلامي.

ومن مخلفات هذه القوة الإرهابية العادلة - الأصيلة - أمام الإرهابات الباطلة إرهاب عدو الله وعدوكم، فلا يجرؤون على الميل إليكم والنيل منكم، ولا إعانة سائر الكفار عليكم حيث يعيشون يأساً من الغَلَب عليكم فتعيشون أنتم على رغد الأمن والكرامة.

وكما ترهبون به الأعداء الرسميين المعروفين، كذلك ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ من منافقين أم سائر الكافرين.

فإعداد ما في الطوق من الطاقات الذاتية وسواها فريضة دائبة على كل المجموعة المؤمنة، طمأنة للذين يدخلون في دين الله، وترغيباً لمن يحيدون عنه، وترهيباً لمن يتربصون به الدوائر، فلا يفكروا يوماً في الوقوف في وجه المدِّ الإسلامي، ولكي ينطلق لتحرير الإنسان عن عبودية العباد إلى عبودية خالق العباد.

ذلك، وكما على المؤمنين برسالة السماء أن يُعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل حفاظاً على الثغور والأقطار الإسلامية، كذلك وبأحرى عليهم أن يعدوا ما استطاعوا من قوة الثقافة الحيوية والعقيدة الإيمانية والأخلاق الحميدة والسياسة الصالحة والاقتصاد الصالح والحضارة السليمة، حتى لا ينغرَّ جاهلون بما عند الكفار من مظاهر، فليجدوا في المؤمنين قوات من كل الحيويات مكافحة صالحة للسيطرة على ما عند الكافرين.

فأعداء المسلمين بكل الطاقات الحيوية المكافحة فرض جماهيري، سداً لكافة المنافذ التي ينفذ منها الكفار، تسرباً إلى المجموعة المسلمة فترسباً فيها فتحويلاً لها عن الحيوية الإسلامية إلى غيرها.

أجل إن القوة المكافأة ضرورة لا محيد عنها للمسلمين، ولكن القوة المكافحة هي التي تجعلهم سادة الأمم وقادتها، بيدهم أزمة أمورهم وأمور الناس وكما يفعله الإمام المهدي عليه السلام.

إذاً فهذه الآية ترسم مسيراً حيّاً للحياة الإسلامية تضم في خضمِّه كافة الصالحات، التي هي رسوم صالحة لصالحة الحياة في كل النشآت، فرضاً لما يصلحها ويفلحهم فيها، ورفضاً لطالحها التي تفلجهم فيها.

وهنا ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ له عوان هو عدو محمد وعترته المعصومين عليهم السلام وكما يروى متواتراً عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «عدوي عدو الله»[١] و«عدوه عدوي»[٢] و«من عاداه فقد عادى الله»[٣] «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[٤].

ولأن أعداء الطاقات المكافحة بحاجة إلى أموال وما أشبه كما هي بحاجة إلى سائر الاستعدادات، فليكن المؤمنون على نُبهة ويَقظة دائمة أن الإنفاق في هذه السبيل مفروض قدر الحاجة المكافحة، وهو يوفَّى إليهم عاجلاً هنا وآجلاً في الأخرى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أياً كان ذلك الشيءُ، من شيء المال والثقافة والعقلية الإيمانية أماهيه ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ فمادة الإنفاق - إذاً - أيّاً كان هي منكم وإليكم على أية حال.

ذلك إعلان المحاربة من الضفة الإيمانية إلى الضفة الكافرة بكامل الإعدادات إن هوجموا نفسياً أو عقيدياً، فالحرب الإسلامية - إذاً - ليست إلا وقائية دفاعية ولذلك:

(١) ملحقات إحقاق الحق ٤: ٤٩ و٦: ٤٠٦ و١٦: ٦١٣ - ٦١٤ و٢٠: ٢٢٦.
(٢) المصدر ٤: ٤٩ - ٢٩٥ - ٢٩٧ و٦: ٤٠٦ - ٤١٧ و١٦: ٦١٣ - ٦١٤ و٢٠: ٢٢٦.
(٣) المصدر ٥: ٤١.
(٤) المصدر ٢: ٤٢٦ - ٤٦٥ و٣: ٣٢٢ - ٣٢٧ و٦: ٢٢٥ - ٣٠٤ و٧: ٥٣ - ٥٦ و١٦: ٥٥٩ - ٥٨٧.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾:

فإذا جنح فريق من الكفار إلى مسالمة المعسكر الإسلامي وموادعته فإن على القيادة الإسلامية أن تجنح لها:

أجل «ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوٌّك ولله فيه رضىً فإن في الصلح دَعةً لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوٌّك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفَّل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن، وإن عقدتَ بينك وبين عدوك عُقدة أو ألبسته منك ذمة فحُطْ عهدك بالوفاء، وارعَ ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنَّة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيءٌ الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود»[١].

والجنوح هو الميل، والسَّلم هو الصلح السليم و﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾ هؤلاء الكفار الخَونَة ﴿لِلسَّلْمِ﴾ معكم، تركاً للصِّدام نفسياً وعقيدياً، وتركاً لأية فتنة ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ كما جنحوا دونما تعلل وتخلخل وتململ بما هو طبيعة الحال من مخابئ الخيانات للكافرين الذين ليس لهم مبدأٌ سليم يسندون إليه، وهم ينقضون عهودهم في كل مرة، مجرّبون في نقض العهد، فحقل الاعتداء والسلم لا يعامَل فيها إلّا بالمثل.

وإن خطر لك خاطر من هذا القبيل من كذبهم ونقضهم فـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في تطبيق أمر الله، ولكي يعرف العدو ويعرف معه آخرون أن ليس الأصل في كتلة الإيمان المقاتلة والاستئصال لأعداء الدين، إنما هو الدفاع عن النواميس والحفاظ على كيان الإيمان ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ قالات الأعداء

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٩٢ فيما أمر به أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر النخعي لما ولاه مصر.

وقالاتكم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل الحالات، فإن لم تجنحوا للسّلم عند ما جنحوا فقد تتطاول ألسنتهم عليكم أنكم تؤججون نيران الحروب التوسعية ولا تريدون سلماً إضافة إلى ظاهرة التخلف عن الاعتداء بالمثل، فإن رفض الجناح للسَّلم رغم جناحهم للسَّلم نقض لقاعدة الاعتداء! أجل، والصبغة الإسلامية وصيغتها السليمة هما السَّلم ما سلم المسلمون عن كيد الكفار وميدهم، فليس لهم إلا الدفاع عن نواميسهم الخمسة دون أي هجوم بدائي لتفتُّح البلدان، اللَّهم إلَّا تفتحاً للقلوب بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهم بالتي هي أحسن، ثم إذا شكَّلوا خطراً على الضفَّة المؤمنة فالدفاع الذي هو حق لكل حي عن حياته وحيويته.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ﴾ لأسوء الاحتمالات في جنوحهم للسَّلم فجنوحك لها ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ وليس هو قوتك واستمرارك للحرب دون تقبُّل للسَّلم المتوقَّع، ﴿حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ الذي يأمرك بذلك الجنوح فـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ دون سبب ظاهر في بدر وحنين وسواهما ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الصامدين مثل علي أمير المؤمنين عليه السلام [1] ومن أشبه، وهم

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٩٩ - أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: مكتوب على العرش: لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي وذلك قوله: هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين.

وفي ملحقات إحقاق الحق ٣: ١٩٤ الگنجي في كفاية المطالب (١١٠) بسند متصل عن أبي هريرة مثله، وفيه عنه روى أبو نعيم الحافظ بسنده عن أبي هريرة عن أبي صالح عن ابن عباس عن جعفر الصادق عليه السلام في هذه الآية قالوا: نزلت في علي عليه السلام وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: وروى مثله، وفيه عنه روى في كتاب الشفا روى ابن قانع القاضي عن أبي الحمراء مثله، وفيه =

من السبب الظاهر، نصر حاضر ملموس «بالمؤمنين» ونصر غائب بملائكة أم دونهم، كما ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾(١) و﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ في ذلك التأليف الأليف ﴿مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ حيث القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء لما يشاء، فطالما النعمة تكفَّر والرحم يُقطع، ولكن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيءٌ، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾(٢) ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ فيما يفعل ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يغفل ولا يجهل.

ذلك، وهذا التأليف الأليف كان بالرسول ﷺ مهما لم يكن من الرسول ﷺ فحين تؤلف قلوب بنصيب من الزكاة للمؤلفة قلوبهم فبأحرى منها النبي ﷺ أن يؤلف الله به القلوب:

فقد «بلغ رسالات ربه فلّم به الصَّدْع ورتق به الفتق وألف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور، والضغائن القادحة في القلوب»(٣).

فـ «المؤمن غر كريم والفاجر خبث لئيم وخير المؤمنين من كان تألُّفه للمؤمنين ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»(٤).

= ١٤ : ٥٨٥ ورواه الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٢٢٣ بعدة طرق عن أنس وجابر وأبي الحمراء عنه ﷺ.

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) نهج البلاغة قال عليه السلام: «وبلغ رسالات ربه».

(٤) نور الثقلين ٢: ١٦٦ في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: المؤمن غرّ كريم، قال عليه السلام: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: شرار الناس من يبغض المؤمنين وتبغضه قلوبهم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للناس العيب أولئك لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم يوم القيامة ثم تلا ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ذلك، ولأن الدار هي دار التزاحم، ولكلٍّ طموحات غير محدودة تقتضي التحسد على أصحاب النعم التي هو يفقدها، فلا يمكن إزالة البغضاء والعداء اللذين هما الخلفية الطبيعية، أن تزال بما في الأرض من نفس هذه النعم، اللَّهم إلَّا بعناية ربانية على ضوء الإيمان بالله مهما كانت بسبب أرضى كالأموال، أم سماوي كالرسول ﷺ.

فطالما حاول كثير من أولي النعمة أن يؤلفوا قلوب المعدمين بأموال فازدادوا بغضاء وعداءً، إذ لا صلة لهذه العطيات بمرضاة الله وعناياته الخاصة، فالرحمة الربانية هي الأصيلة في أية وسيلة هي وصيلة للتأليف: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾﴾[1].

فهنا تأييدان اثنان ربانيان: ١ - ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ الخاص دون أسباب ظاهرة، سواءٌ أكان بالملائكة أم دون أي سبب خلقي، ٢ - ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم من الأسباب الظاهرة ولكن شرطَ تأليف قلوبهم، وليس هو أيضاً إلا من الله، إذاً فالنصر واحد هو من عند الله دون فارق في أصله أنه من عند الله.

فلقد وقعت المعجزة الربانية التي لا يقدر عليها إلّا الله، أن استحالت هذه القلوب النافرة المستنفرة، وهذه الطباع الشَّموس المستنكرة، استحالت إلى هذه الكتلة المتراصَّة المتآخية الذَّلول، المتحاثَّة بعضها بعضاً في تحكيم الألفة والمحبة بذلك المستوى المنقطع النظير في تاريخ أي بشير ونذير.

إنها بالفعل عجيبة أن تستحيل قلوب متنافرة إلى مزاج عريق من الحب والألفة الإيمانية التي تليِّن جاسيها، وترقق حواشيها، وتندي جفافها، فإذا نظرة العين ولمسة اليد ونطق اللسان وخفقة القلب، هي ترانيم من التعارف

(١) سورة هود، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

والتعاطف الوطيد العتيد والسماحة والهوادة، التي لا يعرف سرها إلا الذي ألف بينها.

ولمثل هذه القلوب يقول الرسول ﷺ: إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى، قيل: يا رسول الله ﷺ تخبرنا مَن هم؟ قال: هم قوم تحابوا برَوح الله بينهم على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس[(١)].

وترى حين لا يتمكن رسول الهدى ﷺ أن يؤلف بين قلوبهم وهم مؤمنون ولو بأن ينفق ما في الأرض جميعاً، فما هو دور المؤلفة قلوبهم في حقل الزكاة؟

الجمع هنا أن ليس الإنفاق بالذي يؤلف بين القلوب إن لم يشأ الله، ثم الله يؤلف بين القلوب بمؤلفات ومنها الزكاة.

ثم هنا التأليف بين قلوب المؤمنين وهناك تأليف قلوب الكافرين إلى الإيمان، فالمؤلفة قلوبهم إلى الإيمان هم الذين تكمكت الدعوة الصالحة لهم إلى الإيمان، ثم تُزوِّد جاذبية الدعوة بذلك الإنفاق فيؤلَّفون إلى الإيمان بإذن الله.

فـ ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾[(٢)] إلى الإيمان هم الذين ألفت قلوبهم قبل الإنفاق، ثم يكمل للدخول في ربع الإيمان بالإنفاق.

وأما المؤمنون المختلفون فقد يؤلف بين قلوبهم بما يريد الله ويصالح الدعوة الرسالية.

---

(١) أخرجه أبو داود عنه ﷺ.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ
حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟
مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ
فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟
أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ
أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن
يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ
مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ
بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ۚ
وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم
مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ
إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أصلاً في كل حسْب وحساب، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأمر الله ونصره لهم، فهم أيضاً من حسْب الله حسب أمر الله وتقديره، وحساب الله وتدبيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

تكتيك عَددي حربي إلى عُددَ لها عرفناها من ذي قبل: ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ وهو أمر مرحلي في ظروف حاسمة خطرة تقتضي مواجهة الواحد من المؤمنين بعشرة من الكافرين، قضيةَ كثرتهم أولاء وقلتهم هؤلاء و﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أولاء ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

فقد أمر المؤمنون القلة أمام الكافرين الكثرة أن يقاتلوهم ويغلبوهم وهم معشارهم: ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ - و - ﴿مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾.

وترى إذا كان القصد من العشرين أمام مائتين واجبُ تحمل المِعشار من المؤمنين أمام عشرة أضعافهم من الكافرين، فلماذا - إذاً - البداية بـ«عشرين»؟

لأن المعشار غير مفروض فيما دون العشرين وقد كانت سرايا

الرسول ﷺ لأقل تقدير العشرين، ولأكثرها قد تكون مائة فلذلك إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً، تأكيداً لواجب المعشار وتبيناً للحالة الحاضرة، كما وقد ابتدأ في الآية الثانية بالمائة مما يلمح أن المائة حينذاك كان أقل تقدير في أكثرية الأحيان ثم الألف.

لأن الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب والكفار لا يعلمون غائب الكون بحاضره لا مبدأً ولا معاداً ولا ما بين المبدأ والمعاد، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(١) فهم لا يبصرون بالدنيا ما وراءَها وإنما يبصرون إليها كأصل وختام للحياة، فهم - إذاً - حريصون على الحياة الدنيا، والمؤمنون حريصون على الآخرة، فهم أولاء يضحون في سبيل الله ولا يبالون أن يُقتلوا فيها، والكافرون حريصون على الدنيا حائطون عليها بكل حائطة، وطبيعة الحال بين هؤلاء وهؤلاء، الصابرين في سبيل الله والذين لا يفقهون إلا اللهو، أن يغلب الأولون على الآخرين، اللَّهم إلّا إذا تخلف فريق عما شُرط له أو عليه.

ذلك، فالمؤمن الفقيه الصابر إنما يقدم في الجهاد قضية إيمانه الفقيه الصابر، وهو هو القوة التي لا قوة فوقها يساميها أم مثلها فيساويها، فالشجاعة والجرأة والاستقامة والطمأنينة والثقة بالله وأنه يتربص إحدى الحسنيين، هي التي تعدل - لأقل تقدير - عشراً من القوات الكافرة الخاوية عن تلكم القوات الإيمانية.

فحينما المؤمن يطير ويستطير بهذه القوى، ليس الكافر ليطير إلا بالهوى، فما اتفق الكافر وغايته الغاوية الهاوية وهي الحفاظ على الحياة الدنيا وزينتها، فهو مقدام عليه دون أية هوادة، فأما أن يموت في سبيل هذه

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

الحياة فلا، ولكن المؤمن يموت في سبيل حياة هي أحيى وأبقى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(١).

فالصبر والفقاهة المستصحبان للإيمان هما رمز الغلبة على أصحاب الفشل والسفاهة المستصحبان للّاإيمان، وهذه سنة مستمرة بين المتناحرين، أن الأقوى منهم روحية وتصميماً وغاية هو الأقوى في النضال على أية حال.

فمعشار المؤمن من الكفار مغوار يقتل عشرة منهم بطبيعة الحال، فـ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٢) تقرر أقل تقدير لفاعلية الحسنة، فلأن الجهاد حسنة فمجاهد واحد بجهاده في سبيل الله له عشر أمثاله من قبيل الكفر أن يغتالهم أو يقتلهم أو يغلبهم دونما تزعزع وفتور.

ثم ﴿يَغْلِبُوا۟﴾ مرتين في النص هي بصورة الجزاء خبراً عن الشرط ولكنه أمر لأمور عدة: منها أن في كونها خبراً كذباً حيث غُلبوا ويغلبون مراراً وتكراراً، ومنها أن التخفيف لا مجال له في الخبر إلا كذباً و﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ تخفيف من المعشار المغوار إلى ضِعف في واجب القرار ومحرم الفرار.

ذلك ولكن الإخبار هنا معني بضمن الإنشاء وبينهما فارق تحليق عناية الإنشاء على كافة الموارد كضابطة، ولكن صدق الإخبار يكفيه حصول المخبر به بطبيعة الحال، ومهما تخلف أحياناً فإنه لملابسات مضادة لشروط الغلبة.

وهنا ﴿يَغْلِبُوا۟﴾ دون يقاتلوا دليل واجب الغلبة بواجب المعشار فضلاً عما فوقه، ولأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فإذا فلت فالت دون تقصير من معشار المؤمنين فلا بأس به.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

فإيجابية العدد المعشار في المؤمنين هي لأمور منها أنهم ﴿صَـٰبِرُونَ﴾ وسلبية القوة للكافرين بأضعافهم العشرة ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فما هي الصلة بين عدم الفقه وأنهم يغلبون؟

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

ترى ولماذا يعبر هنا عن المعشار والنصف بهذه الطائلة المفصلة، وما هو اختصاص «عشرون ومائة وألف وألفان»؟

علّه كما أسلفناه - لأن سراياه ما كانت تقل عن عشرين ولا هي أكثر من مائة[1] فقضية واقع الحال أن يعبر عما هو، فقد فرض عليها الاصطبار حتى الغلبة في نطاق معشار المؤمنين من الكفار، ثم ولم يكن المعشار إلا في نطاق العشرين وما زاد، فلا يجري الحكم في الأقل من العشرين، كما لا يجري في الأقل من المائتين في الحكم الثاني[2].

---

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٩٤ روي أنه ﷺ كان يبعث العشرة إلى وجه المائة بعث حمزة في ثلاثين راكباً قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب وأرادوا قتالهم فمنعهم حمزة ويعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذلي وكان في جماعة فابتدر عبد الله وقال: يا رسول الله ﷺ صفه لي فقال: إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان ووجدت لذلك قشعريرة وقد بلغني أنه جمع لي فاخرج إليه واقتله، قال: فخرجت نحوه فلما دنوت منه وجدت القشعريرة فقال لي: من دخل؟ قلت له: من العرب سمعت بك ويجمعك ومشيت معه حتى إذا تمكنت منه قتلته بالسيف وأسرعت إلى الرسول ﷺ وذكرت أني قتلته فأعطاني عصاً وقال: أمسكها فإنها آية بيني وبينك يوم القيامة.

(٢) نور الثقلين ٢ : ١٦٦ في تفسير العياشي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول في آخره: وقد أكره علي بيعة أبي بكر مغضباً اللّهم إنك تعلم أن النبي ﷺ قد قال لي: إن تموا عشرين فجاهدهم وهو قولك في كتابك: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ وسمعته يقول: اللّهم فإنهم لم يتموا عشرين حتى قالها ثلاثاً ثم انصرف، أقول: استدلاله عليه السلام بالآية مما يدل على أنها غير منسوخة بالثانية نسخاً رسمياً، إنما هو نسخ أحياناً حسب مختلف الإعدادات والاستعدادات الإيمانية والملابسات الحربية.

ذلك، ولمّا شق على المؤمنين ذلك التكليف قلة في اصطبارهم وعلة في قرارهم ضعفاً في كثير منهم مهما صمد القليل، خفف الله عنهم المعشار إلى الضعف[1] قضيةَ الضَّعف.

وترى ذلك الضعف هو في العِدة والعُدة الحربية؟ ولا يسبب هذا الضعف تخفيفاً عن التكليف حيث الفرض فيه واقع ذلك الضَّعف! إنه ضَعف في الفقه والاصطبار أمام العِدة والعُدة الزائدة للعدو، وهو قضية الحال وطبيعتها حين يكثر المؤمنون والصادقون فيهم - بالطبع - قلة، وفي الكثرة علة، وهذا مما تعنيه: ﴿فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ دون أنتم ضعفاء، إنما فيكم، في ظرف الكثرة العددية يكون لأكثركم، ضعفاً في الإيمان بفقهه وصبره.

وهنا «علم» بين علم حاضر لحضور وحدوث معلومه أن حدث فيهم ذلك الضعف، وبين علم سابق معه بسابق ضعفهم وأنهم سوف لا يتحملون ذلك التكليف العضال.

فـ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ وهو بطبيعة الحال بعد ردح من زمن التكليف الأول وتطبيعه فيه ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ غور المعشار «و» حال أنه «علم» بأحد الوجهين أم كليهما ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ لا يجبر لضعف الفقه والصبر في الأكثر.

فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾[2] وحينما الأكثر في الأكثر ليس لهم ذلك الصبر والصمود الذي كان في القلة المؤمنة الصابرة، إذاً فليخفف في التكليف.

ذلك ولا حاجة إلى تأويل العلم هنا بما تعوده المتأولون من خلاف

---

(١) قال عطاء عن ابن عباس: لما نزل التكليف الأول ضج المهاجرون وقالوا: يا رب نحن جياع وعدونا شباع ونحن في غربة وعدونا في أهليهم ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وأولادنا وعدونا ليس كذلك. وقال الأنصار: شغلنا بعدونا وواسينا إخواننا فنزل التخفيف، وقال عكرمة: إنما أمر الرجل أن يصبر لعشرة والعشرة لمائة حال ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الظاهر الباهر، إنما هو العلم بما هو حاصل من المعلوم بعد تحويل القلة إلى الكثرة، فقد كان يعلم من القلة الصابرة القوة فكلفهم كما يستطيعون، ثم كان يعلم من الكثرة غير الصابرة ضعفاً في الصمود والثبات المقدام فخفف المعشار إلى النصف.

أجل وإن الله تعالى عالم السر من ضمائر المضمِرين ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظنون، وعُقَد عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الجفون، وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخِ الأسماع، ومصايف الذرِّ، ومشاتي الهوامِّ، ورجْع الحنين من المُولَهات، وهمْس الأقدام، ومنفَسح الثمرة من ولائج غُلُف الأكمام، ومنقَمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها، ومختبأِ البَعوض بين سوق الأشجار وألحيتها، ومغرز الأوراق من الأفنان، ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب، وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قَطر السحاب في تراكمها، وما تسقي الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعَوْم بَنات الأرض في كُثبان الرمال، ومستَقر ذوات الأجنحة بذُرى شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، وما أوعبته الأصداف وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشيته سُدْفة ليلٍ، أو ذرَّ عليه شارق نهار، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور، وأثر كل خطوة، وحس كل حركة، ورجع كل كلمة، وتحريك كل شفةٍ، ومستقر كل نَسَمة، ومُثقال كل ذرة، وهَماهم كل نفس هامَّة، وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرار نطفة، أو نُقاعة دمٍ ومضغةٍ، أو ناشئة خلق وسُلالةٍ، لم يلحقه في ذلك كُلفة، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة، بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم أعدَلُهُ، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله[1].

(١) (الخطبة ٨٩).

ذلك ولقد خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات، (١٠٦) -.

«كل سر عنده علانية، وكل غيب عنده شهادة» (١٠٧).

وترى أنها تنسخ الأولى لمكان ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ﴾؟ والحكمان تابعان لموضوعيها وهما القوة والضعف في الإيمان، فلا نسخ - إذاً - وإنما هو التخفيف الأحيائي حين يفقد الموضوع الثاني شرط الأول، ولضعف الإيمان - بعد - مرزأته ومسؤوليته[1].

فالمسؤولية العامة الهامة أولاً وأخيراً هي ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2] حيث تعني إلى جانب القوات الحربية الظاهرة، قوات التصبُّر والإيمان والفقه الباهرة، ولكي تتحقق - لأقل تقدير - المكافحة: لا غالب ولا مغلوب، ولكنه كفرض دائب: غالب ولا مغلوب، اللّهم إلّا إذا خرج عن المستطاع ف ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

والأصل في النسبة هنا يتراوح بين عُشر ونصف في قبيل الإيمان[3] رعاية لمختلف حالات الضعف والقوة في مختلف المجالات، ثم الأصل الثابت الضابط في هذا البين واجب إعداد القوة قدر المستطاع فرادى

---

(١) راجع إلى حاشية (٢) من ص (٣٠٤).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٣) نور الثقلين ٢: ١٦٧ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: أما علمتم أن الله عز وجل قد فرض على المؤمنين في أول الأمر أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولي وجهه عنهم ومن ولاهم يومئذ دبره فقد تبوأ مقعده من النار ثم حولهم رحمة منه لهم فصار الرجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عز وجل للمؤمنين فنسخ الرجلان العشرة.

وفي تفسير العياشي عن الحسين بن صالح قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كان علي عليه السلام يقول: من فر من رجلين في القتال من الزحف فقد فر من الزحف ومن فر من ثلاثة رجال في القتال من الزحف فلم يفر.

وجماعات، ولكي يترجح كفة الإيمان وضفته على ضفة الكفر بكفته، تترجح ولا تتأرجح، رغم الأقلية الدائمة لقبيل الإيمان، والأقلية الفقهية الصابرة فيهم أنفسهم.

فآية العشرين - إذاً - برزخ بين كونها منسوخة وثابتة، فليست منسوخة بمعنى النسخ المصطلح حيث قد تفرض الملابسات الحربية والإعدادات والاستعدادات الإيمانية واجب غلبة المعشار من المؤمنين على الكافرين، ولا ثابتة على أية حال حيث سمح للنقلة إلى الصف حين يضعف المؤمنون في إيمانهم وصبرهم وفقههم رغم واجب الاستمرار في مثلث: الإيمان الفقيه الصابر.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿مَا كَانَ﴾ هنا كما فيما أشبه تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ يأسرهم ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إغلاظاً على العدو وسيطرة عليه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾[1].

فليس التكليف إذاً رسولياً - فحسب - بل هو رسالي موجَّه إلى كافة القيادات الحربية والقوات المسلحة الإسلامية، ألا يأسروا من عدوهم حتى يثخنوا في أرض المعركة، ويذلوا العدو، فهنا لهم أن يكون لهم أسرى، فالأسر قبل الغلبة ممنوع بأسره، وهو بعدها أسر بحصر علامَة الغلبة، وتقليلا من قوات العدو، ولكنه قبلها اشتغال عن أصل الحرب فاشتغال للعدو وأكثر بها.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٤.

ذلك، فأما الذين يريدون عَرَض الدنيا العارض المعترض، فهم عاجلون في الآجل، فيأسرون استرقاقاً وغُنماً قبل وصوله أجله، وفيه فت لعضد الحرب وثُلَّم في صميم التصميم عليها، اشتغالاً بأسرى وغنائم قد يُنحي إلى أسرهم أنفسهم بحصرهم وغَلَبهم بعد ما غَلبوا شيئاً يسيراً دونما إثخان للعدو في أرض المعركة.

﴿تُرِيدُونَ﴾ أنتم المستعجلون لأخذ الأسرى قبل أوانه، ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فالأصل في الحرب هو الغلبة، وليس الأسر والغنم إلا بعدها وإلا فسوف تغلبون وكما حصل في أحد لما ترك الرماة قواعدهم ناحين منحى الغنائم ولمّا يحنْ حينها.

وهنا يبرز أن جماعة من المسلمين تطلبوا إلى الرسول ﷺ أن يكون له أسرى وغُنم قبل أن يثخن في الأرض بغية الحياة الدنيا، فاستأصلت هذه الآية تلك البغية الباغية عن كل الرسل والرسالات، فاتهام النبي ﷺ نفسه بتلك البغية اقتحام عليه بالتخلف عن السنة الرسالية الثابتة كضابطة، ثم:

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾:

فـ ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ نص على أن جمعاً منهم أخذوا أسرى وغنيمة قبل الإثخان في الأرض وكما حصل في أحد، وهنا ﴿كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ دليل على أنهم كانوا لولا كتاب من الله «لمسهم عذاب عظيم».

وهكذا نعلم أن أخذ الأسرى قبل الإثخان في أرض المعركة هو من كبائر المنهيات في شرائع الله كلها، حيث إن «ما كان - و - عذاب عظيم» شاهدان اثنان على أمية ذلك الحكم الحاسم في حقل الحروب.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾:

﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ ليست لتختص بغنائم دار الحرب، مهما كان الدور هنا

دورها، فـ«الحلال ما لا يُعصى الله فيه، والطيب ما لا يُنسى الله فيه»(١).

ثم وهذه الخاصة هي الغنيمة المحلَّلة الخاصة بما بعد الإثخان في الأرض، وأما الغنيمة قبل الإثخان فمحظورة غير محلَّلة ومن الغنيمة غير المحظورة إضافةً إلى سائر غنائم الحرب أخذ الفداء من الأسرى وكما خيِّر النبي ﷺ في آية محمد ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾(٢) وليس قتل الأسرى وارداً في شرعة الله، بل هم داخلون بعد الأسر في مدرسة داخلية إسلامية هي بيوت المسلمين، يعامَلون فيها كما يعامل سائر الأهلين ليلمسوا الخُلُق الإسلامية المجيدة فينجذبوا إليه، فرواية التخيُّر في قتلهم أو فدائهم لا تصدَّق، لا سيما وأنها تخالف التخير بين المن والفداء، إذاً فالله ورسوله من أمثال هذه الروايات براء! ذلك، ومما يشهد صراحاً لحظر قتل الأسرى الخطاب التالي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾:

فـ ﴿ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ هنا كل أسرى الحرب من كافة الكفار مشركين وأهل كتاب، قل لهم: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ وهو نور الهدى الفطرية غير المستورة بعد، القابلة للاهتداء إلى الحق في هذه المدرسة الداخلية الإسلامية السليمة، مما يدل أن خيراً في قلوب الأسرى الكفار يبشرهم بخير من الله فكيف - إذاً - يُقتلون.

فـ ﴿خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ هو الهدى والمال، فقد أخذت منهم أموال فيؤتيهم الله أموالاً بعد إيمانهم هنا وفي الأخرى، وأخذت منهم حريتهم

(١) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد ٦١ ص ٣٨٩ عن الصادق عليه السلام.
(٢) سورة محمد، الآية: ٤.

الكافرة فيؤتيهم الله بعد إيمانهم حرية مؤمنة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ذلك، ومن أدنى الخير في قلوبهم ألّا يحاربوا المسلمين بعدُ، فهم ضيوفهم في بيوتهم على كفرهم، فقد أوتوا خيراً مما أخذ منهم فلا يبتلَون بعد بمزيد الكفر والإثم بمحاربتهم.

فهم بعد أسرهم آمنوا أم لم يؤمنوا قد أوتوا خيراً مما أخذ منهم من أموال وحريات، وهذه طمأنة لهؤلاء الأسرى تخفيفاً لهم عن عبء الأسر والعسر إلى راحة ويسر مهما ظلوا كافرين.

وهنا ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ تعني إن كان في قلوبكم خير، فإن علم الله والواقع هما سيان لا يتخلف أحدهما عن الآخر، فإنه بكل شيء عليم، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو أوسع من الواقع في كل حال حيث كان يعلم قبل حصوله كما يعلمه بعد زواله.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ٢٠٤ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في العباس وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث. كان العباس أُسِرَ يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر فلم تبلغه التوبة حتى أسر فقال العباس: كنت مسلماً إلا أنهم أكرهوني فقال ﷺ: إن يكن ما تذكره حقاً فالله يجزيك فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، قال العباس: فكلمت رسول الله ﷺ أن يرد ذلك الذهب علي فقال: أما شيءٌ خرجت لتستعين به علينا فلا، قال: وكلفني رسول الله ﷺ فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية وفداء نوفل بن الحارث فقال العباس: تركتني يا محمد أتكفف قريشاً فقال رسول الله ﷺ: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لا أدري ما يصيبني فإن حدث بي حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل، قال العباس: وما يدريك؟

قال: أخبرني به ربي قال العباس: فأنا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلّا الله وأنك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل ولقد كنت مرقاباً في أمرك فأما إذا أخبرتني بذلك فلا ريب، قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، لي الآن عشرون عبداً وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا انتظر المغفرة من ربي.

فهذه لمسة لقلوب الأسرى المنكسرة تحيي فيها الرجاء، وتطلق فيها الأمل، وتشيع فيها النور تعليقاً بمستقبل هو خير مما مضى، انفتاحاً لنور الإيمان بعد نير الإثخان، رحمة إسلامية سامية منقطعة النظير في تاريخ الإحسان بالإنسان في حالة الحصر والأسر.

فلا يعني استبقاء الأسرى بأيدي المسلمين في شرعة الإسلام تسخيرهم استغلالاً واستذلالاً لهم انتقاماً، وإنما يعني ليلمس قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح فالإصلاح، وليوقظ في فطرهم أجهزة الاستقبال للهدى في مدرسته الداخلية العالية.

وهنا ﴿ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ لا تختص بآسرة القرابة مهما نزلت بشأن بعض منهم[1]، حيث النص ليس ليختص ببعضه، إنما هو ﴿ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الشاملة لكل أسرى الحرب الإسلامية على مدار الزمن الإسلامي إلى يوم الدين.

هنا، وعلى ضوء الآيتين (٧٠ - ٧١) ينقسم الأسرى إلى من يعلم الله فيهم خيراً ومن يريدون الخيانة، والأسر للأولين خيرٌ لهم إذ ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ فقد أخذت عنهم الحرية في الكفر وغنائم، وخير منهما الحرية في الإيمان وأموالٌ تؤتى لهم في حقل الإيمان، على ضوء التربية المتواصلة في المدارس الداخلية الإسلامية.

ثم الأسر للآخرين صدٌّ عن مواصلتهم في محاربة المسلمين ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ أسرهم ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ والإمكان منهم في أسرهم أمكن منه قبل أسرهم.

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٦٨ في قرب الإسناد للحميري عن أبي جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: أتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمال فقال للعباس ابسط رداءك وخذ من هذا المال طرفاً فبسط رداءه فأخذ منه طائفة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا من الذين قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ...﴾ [الأنفال: ٧٠].

وهكذا يعامل الإسلام مع الأسرى رعاية لمصلحة الجانبين، حتى بالنسبة لمن يريدون الخيانة حيث يصد عليهم سبيل الخيانة الجاهرة، ويُمكن منهم حين تظهر منهم الخيانة، ومن الطبيعي أن الخيانة على هذه الرقابة المحلّقة البيتية، وعلى ضوء التربية الإسلامية المتواصلة، هي أقل بكثير من الخيانة في حرية الكفر بجوه وعند أهليه.

وهنا إجابة عن سؤال: كيف يسمح الإسلام أو يفرض استرقاق الأحرار مهما كانوا من الكفار فضلاً عن المسلمين؟

نقول: لا يعني الاسترقاق إسلامياً إلّا الاسترقاق للطرفين، لهم أنفسهم لكيلا يستمروا في حربهم إذا ظلوا في أمة الكفر، وللمسترقين، علَّهم في الحياة المنزلية الإسلامية ينتبهوا فيصبحوا مسلمين، أم يقل ضلالهم عما كان بما قرر من حسن المعاملة معهم.

وهنا نسأل ما هو قضية العدل والفضل من قبل الجيش الغالب لمن غُلبوا؟ هل يتركهم كما هم دون نيل من أنفسهم وأموالهم وقواتهم فيرجعوا لجديد الحرب وعلّها أقوى مما كان وأغوى؟

أم يأخذوا منهم أسرى رجالاً ونساءً ثم يبيدوهم، أو يسجنوهم، أو يعطوهم كمال الحرية الطليقة في الوسط الإسلامي، وهذا ثالوث لا يرضاه العدل الإسلامي ومصلحية الحفاظ على الأصلح، فالإبادة مع رجاء الإصلاح ظلم، والسجن تعطيل للطاقات دونما مصلحة، إلا ثقلاً وحِملاً على بيت مال المسلمين، وضغطاً على الأسرى فيرجعون إلى كفر أقوى وعداءٍ أعدى وأغوى، وإعطاء الحرية لهم سماح للإفساد في الوسط الإسلامي وهو أخطر من بقائهم بين أهليهم.

وهنا طريقة خامسة هي المثلى، والصالحة للأسرى والوسط الإسلامي، هي فرض الثقافة الصالحة في المدارس الداخلية الإسلامية وهي بيوت

المسلمين الذين يسترقون هؤلاء الكفار، ففيها يغربلون فيقتسمون إلى مؤمنين أم قريبين للإيمان: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، أم يظلوا كفاراً معاندين - لأقل تقدير -: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾.

ففي العشرة الإسلامية السليمة، الخليقة البارعة، إن فيها لتأثيراً عظيماً في الأكثرية الساحقة من الكفار الأسرى، حيث يعامَلون في هذه المدارس الداخلية كما يعامَل مع سائر الأهلين بكل حنان ومحبة، في رعاية ورقابة كاملة شاملة.

ذلك، ولما تخرجوا مثقفين بالخلق والعقيدة والأعمال الإسلامية فهنا يأتي دور تحريرهم فرضاً أو ندباً حسب مختلف المناسبات والملابسات، ومنها فرض الزكاة وسائر الإنفاقات ويجمعها النص: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وكذلك في ديات وكفارات.

فلا يعني الاسترقاق في النظام الإسلامي عبودية إنسان لإنسان، وإنما هو النظام الإجباري الثقافي الصالح في هذه المدارس الداخلية الصالحة، سرداً للثقافات وطرداً للجهالات، ولذلك لا يسمح لأي حرٍّ أن يبيع نفسه، وإنما يسمح لاسترقاق أسرى الحرب استرفاقاً بهم وبأنفسهم، صداً عن الشر والضر، وحملاً إلى الخير والبر.

ولأن للمالكين حقوقاً على هؤلاء الرقيق أولاً وأخيراً، فلهم من الناحية الاقتصادية حق الإبقاء عليهم دون تحرير وإن تحولوا مسلمين، اللّهم إلا فرضاً أو ندباً في مواردهما المسرودة في الكتاب والسنة.

ذلك، ومن المساحة الإسلامية التسوية في الحاجيات المعيشية بين الرقيق وسائر الأهلين، ففي حقل الإحسان: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

ثم إذا آمنوا يرغب في زواجهم: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. كما وينهى عن ظلمهم فيما يروى عن الرسول ﷺ: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه».

ويخاطب صاحباً له عيَّر مسلماً بأنه ابن أمه: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم - عبيدكم - جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوة تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يفلُّهم فإن كلفتموهم فأعينوهم».

ويسأله ﷺ عبد الله بن عمر قائلاً: يا رسول الله ﷺ كم نعفو عن الخادم إذا أساء؟ فصمت برهة ثم قال: أعفو عن الخادم كل يوم سبعين مرة.

وقال ﷺ: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعام فليجلسه وليأكل معه، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فلا تعني شرعة الرق في الإسلام إلا التثقيف إجبارياً للأسرى الكفرة في بيوت المسلمين، وإلا التجنب عن الفوضى السياسية والدينية إن ظلوا أحراراً فأضلوا كما ضلوا.

ذلك، فالاستعباد في النظام الإسلامي لا يعني الاستبداد والملكية الظالمة وسلب الحرية الصالحة، إنما يعني تحرير الإنسان الكافر من عبودية الأصنام والطواغيت، كما أن المدارس الداخلية التي تسلب حرّية ليست بَحريّة للإنسان لتعطيه حُرية هي له حَريَّة أن يتعرف إلى ما يصلح له ويصلحه.

أجل، وإن الرقية في الإسلام استعباد لله خروجاً عن عبودية العباد، وأحسن به حُرية حريَّة بالإنسان أن يخرج من ظلمات الجهالات والرجعيات فيعيش عيشة عالمة عارفة حَرِيَّة في التدرج إلى مدارج الإنسانية العالية الغالية.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٢.

ذلك، في حين نرى من هؤلاء الناقدين على الاسترقاق في الإسلام، أنهم يسترقون ويستعبدون جماهير الضعفاء والمستضعفين أمماً بأجمعهم، مسيطرين عليهم في كل نواميسهم بكل الأبواب السبع الجهنمية: استكباراً واستعماراً واستثماراً واستحماراً، واستبداداً، استضعافاً واستخفافاً، إفضاء للمستضعفين عن كافة الميزات الإنسانية بل والحيوانية دون أية إفاضة، بين إبادة لهم وتشريد وإجاعة وسائر ألوان الظلم الساحق الماحق.

ذلك، وهنا حل وسط لمشكلة الأسرى تحلها آية محمد: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾(١).

فمثلث الملابسات الحربية، المركَّز على ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ يقتضي إحدى هذه الزوايا الثلاث، فأول الأدواء لداء الكفر في الأسرى هو المنّ، أن تمنوا على جنود الكفر فتحرروا أسرى منهم علَّهم يفيقوا عن غفوتهم، وينتبهوا عن غفلتهم بما يرون فيكم من هذه السماحة المنقطعة النظير، وذلك إذا لم يشكِّل تحريرهم خطراً على الجماعة المؤمنة، وكما حصل في فتح مكة المكرمة بما قاله الرسول ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» بل ولم يأسرهم أو يحصرهم بعد الفتح المبين الأمين، لأنه محمد الأمين.

وثانيها هو الفداء، أن تحرروهم بفدية نفسية من أسراكم عندهم، أم فدية مالية، رعايةً لنفس الحائطة.

وثالثها الاستمرار في أسرهم حين لا سبيل أصلح منه، سداً لكل ثغور الخطر، وتثقيفاً لهم في المدارس الداخلية المنزلية.

ذلك، ففي مسبع الطرق عند إثخان العدو، هذه الثلاث هي المحبورة

(١) سورة محمد، الآية: ٤.

حسب الترتيب المصلحي، المركز على إصلاحهم وسد الإفساد منهم، وتلك الأربع محظورة إذا لا تأتي بخير إلا شراً وفساداً.

ذلك، ولكي يأمن خيانة جمع من الأسرى فلا يبادر ببادرة عاجلة فيهم ف :

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾:

فالأسرى الخَونَة لا يفلحون أو يفلجون حيث يُمكِّن الله منهم فيُمكِّن من النقمة منهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم، ومن علمه وحكمته أمر النصح بشأن الأسرى، باحتمال التأثير فيهم وفتح منفذ من الهدى إليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾:

هنا الولاية المتقابلة مفروضة بين المؤمنين المهاجرين بإيمانهم المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وكذلك المؤدين والمناصرين لهم بإحسان، وهي في نفس الوقت غير مفروضة ككلّ بينهم أولاء وبين المؤمنين غير المهاجرين حتى يهاجروا، وهذه المهاجرة بطبيعة الحال هي المستطاعة غير المحرجة، فالمؤمنون الذين لا يهاجرون بإيمانهم في سبيل الله، تفضيلاً لراحة الوطن والشغل والمال والعيال على صالح الإيمان ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ ولكن مع الوصف ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ حيث الانتصار للدين فرض المؤمنين على أية حال، ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ لهم أولاء اللّهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ فلا

تنصروا هؤلاء المؤمنين غير المهاجرين عليهم فيما فيه نقض ميثاق اللّهم إلا ما فيه نقض إيمان أو نقصه، إذ لا يصح ميثاق بين المؤمنين والكفار فيه نقض أو نقص للإيمان ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

ذلك، فلا استنصار لهم فيه واجب النصر فيما يخالف صالح الميثاق كأن يستنصروهم في حرب بادئة من المستنصرين، وأما الحرب المعتدية المفروضة عليهم من الكفار فليست النصرة فيها مما يخالف الميثاق، إذ إن ميثاق متاركة الحرب وعدم المهاجمة طليقة بالنسبة لكل المسلمين، ولا يحق لجماعة من المسلمين أن يعاهدوا محاربهم في متاركة حرب خاصة بينهم، حتى إذا حاربوا سائر المسلمين كانت نصرتهم باستنصاركم مخالفة لذلك الميثاق.

فالاستنصار في الدين يفرض النصرة على أية حال، وقد يصح القول - إذاً - إن الاستثناء في ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ﴾ منقطع عن المستثنى منه ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ فإذا كان الاستنصار في الدين فالنصرة محتمة على أية حال، وإذا لم يكن في الدين فلا نصرة فيما يخالف الميثاق.

ذلك، وليست المهاجرة المأمور بها في القرآن لتختص بزمن الرسول ﷺ فإن كل الزمن هي زمن الرسول في تحقيق رسالاته كلها.

أفترى ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾(١) رداً على ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾(٢) تختص بالمهاجرة زمن الرسول؟

والآية تندد بكافة المستضعفين المقصرين في ترك المهاجرة بإيمانهم.

فلا يتبلور الإيمان بشروطه وظروفه ومعداته إلا بالحركة المهاجرية، أن يهاجر المؤمن بإيمانه، حفاظاً عليه، أم دعوة أوسع مما فيه إليه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.

وترى ما هي هذه الولاية المثبتة بالمهاجرة الإيمانية، المنفية في غير مهاجرة؟ هل هي ولاية المحبة والإيمان ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1]! أم ولاية النصرة والأمان؟ ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾! إنها بعد ما لم تكن من هاتين، هي ولاية الوراثة إذ كانت قبل الهجرة بالإيمان، وبعدها بالهجرة والإيمان، ومن ثم ثبتت بأولي الأرحام في حقل الإيمان كما فصلناها في آيات الميراث.

فقد اختصت ولاية الميراث هذه بالمهاجرة ترغيباً فيها وترعيباً عن تركها ومن ثم تركزت وثبتت في أولي الأرحام كما هنا وفي آية النساء[2] وذلك بعد فتح مكة إذ لم تبق للمهاجرة دور حتى تدور معها الوراثة.

ذلك، والاستنصار في الدين كما المحبة فيه لهما دور ثابت جلي في حقل الإيمان وإن لم يهاجر المؤمن، اللّهم إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق فليس هنا على المؤمنين المهاجرين أن ينصروا المؤمنين غير المهاجرين في مال وما أشبه، وأما في الدين فهو ثابت لا مردّ له، حيث النصرة الدينية لا ينقضها أو ينقصها ميثاق، بل ولا يعقد ميثاق يناحر واجب النصرة في

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٠٥ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ آخى بين المسلمين من المهاجرين والأنصار فآخى بين حمزة بن عبد المطلب وبين زيد بن حارثة وبين عمر بن الخطاب ومعاذ بن غراء وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وبين أبي بكر وطلحة بن عبيد الله وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وقال لسائر أصحابه: تآخوا وهذا أخي يعني علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فأقام المسلمون على ذلك حتى نزلت سورة الأنفال وكان مما شدد الله به عقد نبيه ﷺ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ فأحكم الله تعالى بهذه الآيات العقد الذي عقد رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار يتوارثون الذين تآخوا دون من كان مقيماً بمكة من ذوي الأرحام والقرابات فمكث الناس على ذلك العقد ما شاء الله ثم أنزل الله الآية الأخرى فنسخت ما كان قبلها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟﴾ ورجع كلّ رجل إلى نسبه ورحمه وانقطعت تلك الوراثة.

الدين، حيث الدين ليس لينقض نفسه أو ينقص من نفسه بإقرار قرار يعارضه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

هنا موالاة الكافرين وهناك موالاة المؤمنين وبينهما برزخ الموالاة بين المؤمنين المهاجرين وغير المهاجرين، وكل ذلك حسب العقيدة والعملية الطالحة أو الصالحة أو العوان بينهما، وهنا ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ في كل هذه ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ إذ يخرج عن الإسلام غير المهاجرين الذين هم من المسلمين مهما قصروا في الهجرة، وهذه فتنة وفساد كبير، كما «وإن لم تفعلوا» في ولاية الميراث ما أمرتم به ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ لمكانة المهاجرة الهامة قبل الفتح، مهما اختلف فساد عن فساد قضية مختلف التخلفات عن هذه الفروض.

هذا، فضمير الغائب في ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ راجع إلى كل ما مضى من أمر أو نهي في حقل الولاية والميثاق والنصرة، ولا سيما استنصار المؤمنين غير المهاجرين في الدين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾:

فالذين لم يهاجروا من المؤمنين أو لم يأووا وينصروا فما أولئك بالمؤمنين حقاً مهما كانوا من المؤمنين، ثم:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾:

فالإيمان والمهاجرة والمجاهدة في سبيل الله هي الإيمان حقاً من قبل ومن بعد، ثم ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ من هؤلاء المؤمنين حقاً ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ - ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾[1].

فهنا وفي النساء نسخت آية «أُولُوا الْأَرْحامِ» آيات الميراث بالأخوة والمهاجرة الإيمانية، فقد كان الميراث قبل الهجرة بالأخوة الإيمانية، ثم بدل بعد الهجرة بالمهاجرة مع الإيمان، ثم بعد فتح مكة بدل بالأرحام مهما بقيت الأخوة الإيمانية في الوارث على حالها ولكن شرط أن تكون في حقل الأرحام الأقرب فالأقرب إلى الميت[2]، وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: «لا هجرة بعد الفتح» إذ أصبحت مكة المكرمة بعد الفتح دار الإسلام، ولكن بقيت الهجرة - على طول الخط - من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام لها أحكامها إلّا ما يستثنى.

وهنا بعد استقرار الوجود الفعلي للإسلام وبعد فتح مكة المكرمة يعود الميراث إلى أولوية أولي الأرحام داخل النطاق الإسلامي العام، إلغاءِ شرط المهاجرة إذ لم يبق لها دور أم مضى دوره الهام، وكذلك شرط المجاهدة في سبيل الله، حيث يلبي تركيز الميراث على الأرحام جانباً فطرياً عريقاً عريفاً في كل الحقول والعقول، فما دامت لا تُعارض تلبية الفطرة أهم منها من تكاليف الكيان الإسلامي، فالفطرة تلبّى دون معارض.

ذلك، وفي واجهة أخرى لآية «أُولُوا الْأَرْحامِ» وهي ولاية الأمر كما فصلناها على ضوء آية النساء نجد هذه الولاية ناصة خاصة في الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٠٧ - أخرج الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ...﴾ [الأنفال: ٧٥] فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

ومن ذلك قوله ﷺ: «ولاية أمير المؤمنين ؈ حصن الله»[١] و«هو الصراط المستقيم»[٢] ومن القول الثابت ولاية علي ؈ [٣] وإن الناس لا يضلون ولا يهلكون وهم في ولاية علي ؈ [٤] و«من لم يوال علياً لم يشم رائحة الجنة»[٥] «فليتمسك بولاية علي ؈ »[٦] و«أوصي من آمن بي وصدقني من جميع الناس بولاية علي بن أبي طالب ؈ »[٧] و«ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله»[٨] و«تمام دين الله ولاية علي ؈ بعدي»[٩] و«من لقي الله وهو جاحد لولاية علي لا يقبل الله من أعماله شيئاً»[١٠] وهو «إمام أوليائي»[١١] و«إمام أولياء ربي»[١٢] فـ «علي ولي الله»[١٣] و«ولي رسول الله»[١٤]و«ولي كل مؤمن»[١٥] و«من

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ٧: ١٢٣ و١٤: ٥٢٢.
(٢) المصدر ٧: ١٢٥ و١٤: ٤٨٧.
(٣) المصدر ١٤: ٤٠٢.
(٤) المصدر ١٦: ٤٣٩.
(٥) المصدر ٧: ١٧٧ - ١٧٨ و١٧: ١٨٣ و٢١: ٣٦١ - ٣٦٢.
(٦) المصدر ٤: ٣٣١ و٥: ١٠٨ - ١١١ و٧: ٣٨٦.
(٧) المصدر ٦: ٤٣٥ - ٤٣٦ و١٦: ٦١٩ - ٦٢٠ و٢١: ٣١٣ - ٣١٤.
(٨) المصدر ٢: ٣٣٥ و٦: ٤٣٦ و١٧: ٩٦ - ٩٧، ٣٢٢ و٧: ١٢٢ و١٦: ٦١٩ و٢١: ٣٦٠.
(٩) المصدر ٥: ٣٥.
(١٠) المصدر ٦: ٤٠٩.
(١١) المصدر ٢٠: ٢٤٦، ٣٤٣ - ٣٤٤ و١٥: ٨١ - ٨٣، ٨٥، ٨٦ - ٨٧، ١٩٠.
(١٢) المصدر ٢٠: ٣٢٠، ٣٤١، ٣٤٤.
(١٣) المصدر ٤: ١٢٨ - ١٢٩، ١٣٠، ١٤٤ - ١٤٨، ٢٨٧، ٢٨١، ٣٥٧، ٤٨٩ و٥: ٤ و٦: ٤٤٢ و٧: ٣٨٥ و١٥: ٨٨ - ٩٢ و٢٠: ٢٥٠ - ٢٥١، ٣٢٨، ٣٩١، ٤٣٥ - ٤٣٦.
(١٤) المصدر ٤: ٦٤ - ٦٥، ١٣١، ١٣٤، ٣٣٠، ٣٥٧ و١٥: ١١٤، ١٢٣ و١٧: ٣٠٧ و٢٠: ٣٤٥ - ٣٤٧.
(١٥) المصدر ٤: ٧٩، ٩٩، ١٢١، ١٣٥ - ١٣٩، ٢٣٠، ٢٧٧، ٣٣٠ - ٣٣١، ٣٥٨ - ٣٥٩، ٣٨٧ و٥: ٣٥، ٣٧، ٤١ - ٤٢، ٥٨، ٩٨، ٢٨٨، ٣٠٤، ٣٠٩، ١٥: ٩٢ - ١١٤ و١٦: ١٥١ - ١٥٢، ١٦٥ و٢٠: ٣٤٨، ٣٦٢، ٥٥٣، ٤٩٤.

كنت وليه فعلي وليه»[١] «من كنت نبيه فعلي وليه»[٢] «فهو أولى الناس بكم بعدي»[٣] و«من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه»[٤] و«من آمن بي فليتول علياً وذريته»[٥] و«من كنت مولاه فعلي مولاه»[٦].



(١) المصدر ٤ : ٤٣٧ و٦: ٣٦٩ - ٣٨٠ و١٧: ٣٢٥ و١٦ : ٥٧٧ - ٥٧٨، ٥٨٤ و٢٠: ٣٥٣، ٣٥٦ و٢١: ٣٩٨.

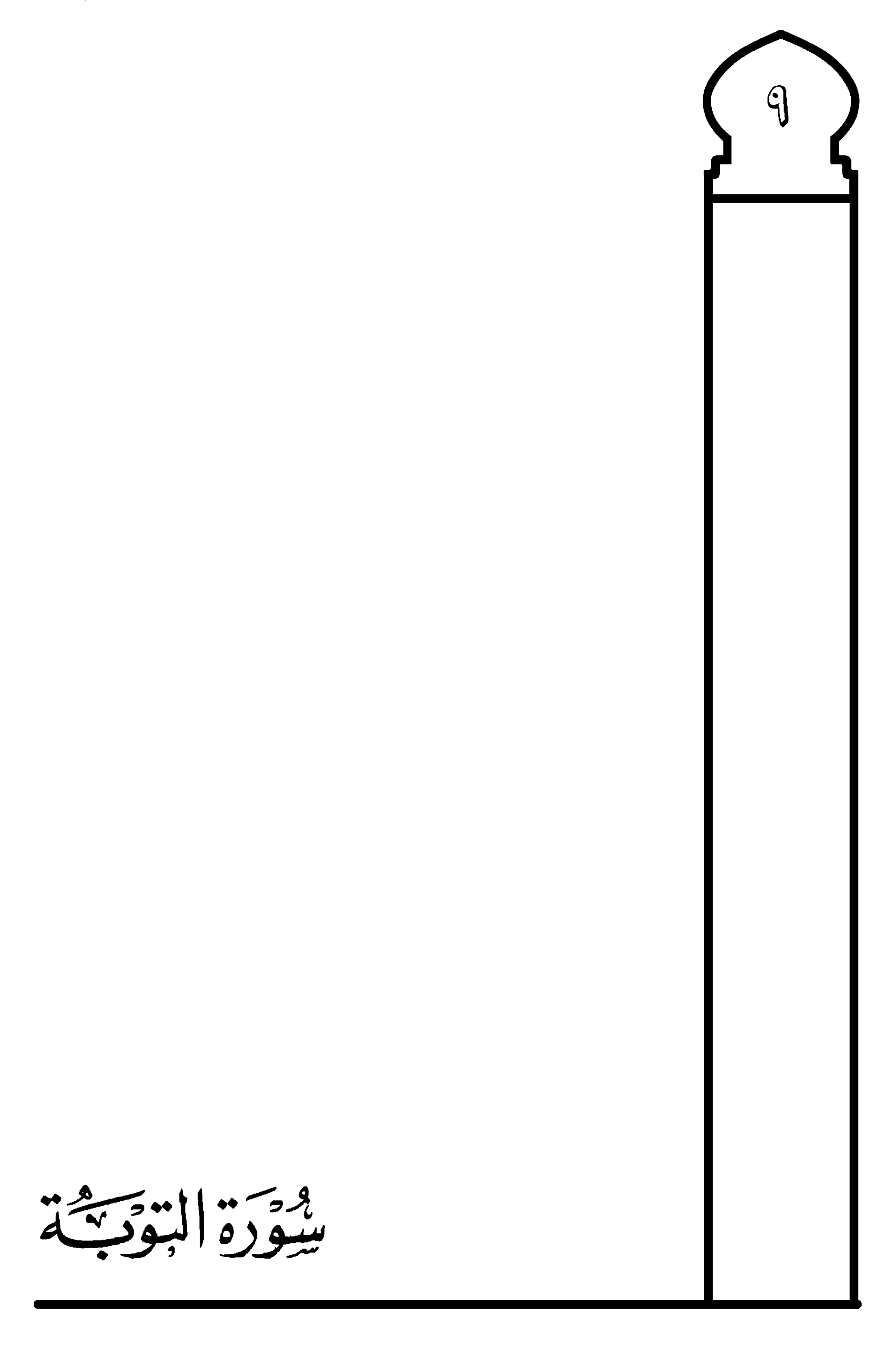
(٢) المصدر ٦ : ٣٨٠.

(٣) المصدر ١٥: ١٢٤ - ١٢٥ و٤ : ٣٨٨.

(٤) المصدر ٢ : ٣٦١.

(٥) المصدر ٦ : ٤٣٦ و١٧ : ٩٦ - ٩٧، ٣٢٢ و٢١: ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٦) المصدر ٢ : ٤٢٦ - ٤٦٥ و٣: ٣٢٢ - ٣٢٧ و٤: ٤٠٨ ٢٩٢ - ٤١٠، ٤٣٧ - ٤٤٣، ٤٤٧ - ٤٥٠ و٥: ٤٣، ٦٠، ٧٢، ٧٧، ٨٠، ٨٩، و٦: ٢٢٥ - ٣٠٤ و٩ ٥٥٩ ١٦ - ٥٨٧ و٢١: ١ - ٩٣.


٩
سُورَةُ التَّوْبَةِ



مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٢﴾ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ
مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ
أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا
ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ
وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ
ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ
لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ
عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ

وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَـٰهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

إنها «سورة التوبة» والبراءة، براءَة ببازغة البراءة فيها ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وتوبة أمراً لهم ولأضرابهم بها، وتقبُّلاً - بشروطها - لها، ولأن البراءَة قد تبوء إلى التوبة، دون التوبة الصالحة حيث لا تبوء إلى براءَة، فقد سميت بالتوبة تغليباً لها على البراءَة، مهما بزغت تأليباً بالبراءَة، ولذلك نراها تبدأ دون بسملة، فإنها لكل أمر ذي بال ولا بال للبراءَة إلا إذا آلت إلى توبة، وقضية الأمر بين أمرين ترك البسملة وأن تسمى بالتوبة وقد فُعل.

نزلت تاسعة الهجرة بعد الفتح وبعد ما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك إنذاراً للمشركين حتى يحسبوا كل حساباتهم بعد طائل هذه الهجرة الهاجرة وبعد عمرة الجعرانة.

والتشكيك في أنها والأنفال سورتان أم واحدة لا مجال له، وقد جاءت فذّة بعد الأنفال في كافة القرائين(١)، إضافة إلى العديد الجديد للآيات، وهو دليل سديد على استقلالها عن الأنفال، وهكذا تواتر الروايات عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام بصيغة «سورة التوبة» أو «البراءة»(٢) ولا تسمى شطر سورة سورة.

وقد أصفق الفريقان(٣) دون اختلاف على نقل وتصديق رواية البراءة

---

(١) في الدر المنثور ٣: ٢٠٨ عن عسعس بن سلامة قال قلت لعثمان: يا أمير المؤمنين ما بال الأنفال وبراءة ليس بينهما ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: ١]؟ قال: كانت تنزل السور فلا تزال تكتب حتى تنزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فإذا جاءت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كتبت سورة أخرى فنزلت التوبة ولم تكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وفيه عن أبي عطية الهمداني قال كتب عمر بن الخطاب تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور.

(٢) المصدر أخرج الطبراني في الأوسط عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: المنافق لا يحفظ سور هود وبراءة ويس والدخان وعم يتساءلون.

(٣) قد أخرج حديث البراءة فيمن أخرج - أن علياً عليه السلام هو المبعوث بأذان البراءة - ثلاثة وسبعون من أئمة الحديث وحفاظه بعدة طرق ذكرهم العلامة الأميني في الغدير كما يلي: ثم وآخرون ذكرهم في ملحقات إحقاق الحق (٥: ٣٦٨ - ٤٦٨) و(١٦: ٢٢١ - ٢٣٦ و٢: ٦٢ و٣: ٤٢٧ و١٤: ٦٤٤) مما يبلغهم إلى نيف ومائة:
١ - أبو محمد إسماعيل السدي الكوفي المتوفى (١٢٨) ٢ - ابن هشام البصري (٢١٨) ٣ - محمد بن سعد الزهري (٢٣٠) ٤ - الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة العبسي الكوفي (٢٣٥) ٥ - الحافظ أبو الحسن بن أبي شيبة العبسي (٢٣٩) ٦ - الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١) ٧ - الدارمي صاحب السنن (٢٥٥) ٨ - ابن ماجة صاحب السنن (٢٧٣) ٩ - الترمذي صاحب الصحيح (٢٧٩) ١٠ - ابن أبي عاصم الشيباني (٢٨٧) ١١ - النسائي صاحب السنن (٣٠٣) ١٢ - محمد بن جرير الطبري (٣١٠) ١٣ - ابن خزيمة النيسابوري (٣١١) ١٤ - النيسابوري صاحب المسند (٣١٦) ١٥ - البغوي صاحب المصابيح (٣١٧) =

حيث يبعث رسول الله ﷺ بالعشر الأولى من آي البراءة مع أبي بكر أذاناً من الله تعالى ومنه ﷺ إلى أهل مكة بما فيها من الأحكام المحدَّدة إياهم، المهددة لهم، ألّا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا،

فلما غادر أبو بكر المدينة إلى مكة دعى ﷺ علياً فقال: أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه ورجع أبو بكر فقال: يا رسول الله ﷺ نزل فيَّ شيءٌ؟ قال: لا، ولكن جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك[1] -

---

= ١٦ - أبو حاتم التميمي (٣٢٧) ١٧ - ابن حبان التميمي (٣٥٤) ١٨ - الطبراني (٣٦٠) ١٩ - أبو الشيخ (٣٦٩) ٢٠ - الدارقطني (٣٨٥) ٢١ - الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك (٤٠٥) ٢٢ - ابن مردويه (٤١٦) ٢٣ - أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠) ٢٤ - البيهقي صاحب السنن (٤٥٨) ٢٥ - ابن المغازلي (٤٨٣) ٢٦ - البغوي (٥١٦) ٢٧ - النسفي السمرقندي (٥٣٧) ٢٨ - جار الله الزمخشري (٥٣٨) ٢٩ - القرطبي صاحب التفسير (٥٦٧) ٣٠ - موفق ابن أحمد الخوارزمي (٥٦٨) ٣١ - ابن عساكر (٥٧١) ٣٢ - الأندلسي (٥٨١) ٣٣ - الإمام الرازي (٦٠٦) ٣٤ - أبو السعادات ابن الأثير الشيباني (٦٠٦) ٣٥ - أبو الحسن ابن الأثير الشيباني (٦٣٠) ٣٦ - ضياء الدين المقدسي (٦٤٣) ٣٧ - النصيبي (٦٥٢) ٣٨ - ابن الجوزي (٦٥٤) ٣٩ - ابن أبي الحديد (٦٥٥) ٤٠ - الكنجي (٦٥٨) ٤١ - البيضاوي (٦٨٥) ٤٢ - محب الدين الطبري (٦٩٤) ٤٣ - إبراهيم الحموي (٧٢٢) ٤٤ - التبريزي صاحب مشكاة المصابيح (٧٣٧) ٤٥ - علي بن محمد الخازن صاحب تفسير الخازن (٧٤١) ٤٦ - أبو حبان الأندلسي صاحب التفسير (٧٤٥) ٤٧ - الذهبي (٧٤٨) ٤٨ - النيسابوري صاحب التفسير (٧٤٨) ٤٩ - ابن كثير الدمشقي (٧٧٤) ٥٠ - الهيتمي (٨٠٧) المقريزي (٨٤٥) ٥٢ - العسقلاني (٨٥٢) ٥٣ - الصباغ المكي (٨٥٥) ٥٤ - العيني (٨٥٥) ٥٥ - السخاوي (٩٠٢) ٥٦ - جلال الدين السيوطي (٩١١) ٥٧ - القسطلاني (٩٢٣) ٥٨ - الشيباني (٩٤٤) الديار بكري صاحب تاريخ الخميس (٩٦٦) ٦٠ - ابن حجر الهيثمي (٩٧٤) ٦١ - القرشي الهندي (٩٧٥) ٦٢ - المناوي (١٠٣١) ٦٣ - العيدروس الحسيني (١٠٤١) ٦٤ - أبو كثير المكي (١٠٤٧) ٦٥ - الزرقاني (١١٢٢) ٦٦ - البدخشي (١١٢٢) ٦٧ - الصنعاني (١١٨٢) ٦٨ - محمد بن الصبان (١٢٠٦) ٦٩ - الشوكاني (١٢٥٠) ٧٠ - الآلوسي صاحب التفسير (١٢٧٠) ٧١ - القندوزي (١٢٩٣) ٧٢ - أحمد زيني دحلان (١٣٠٤) ٧٣ - السيد مؤمن الشبلنجي صاحب نور الأبصار (١٣٠٤).

(١) المصدر أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عن=

أجل - فلما غادر أبو بكر المدينة إلى مكة جاء جبرائيل الأمين إلى الرسول الأمين ﷺ قائلاً: «إن العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول لك يا محمد!: لا يؤدي عنه إلا أنت أو رجل منك - فابعث علياً عليه السلام ليتناول الآيات فيكون هو الذي يقرأ الآيات، يا محمد! ما أمرك ربك بدفعها إلى علي ونزعها من أبي بكر سهواً ولا شكاً ولا استدراكاً على نفسه غلطاً، ولكن أراد أن يبين لضعفاء المسلمين: أن المقام الذي يقومه أخوك علي لن يقومه غيره سواك يا محمد، وإن جلت في عيون هؤلاء الضعفاء مرتبته من أمتك»[١].

«فلما رجع أبو بكر إلى النبي ﷺ جزع - يبكي -[٢]» وقال يا رسول الله ﷺ: إنك أهّلتني لأمر طالت الأعناق فيه فلما توجهت رددتني عنه؟ فقال ﷺ: الأمين هبط إلي عن الله عز وجل أنه «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك وعلي مني ولا يؤدي عني إلا علي»[٣].

وجملة المروي عن الرسول ﷺ في سبب عزله أبي بكر عن هذه المهمة التي تمد إليها الأعناق جواباً عن سؤاله: هل نزل في شيء؟ أنه: «لن تؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك»[٤].

= علي عليه السلام قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعى أبا بكر ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال لي: أدرك أبا بكر... ورواه أنس وسعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وابن عمر وأبو سعيد الخدري وأبو رافع وابن عباس وجابر وعروة.

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام البحار ٣٥: ٢٩٧ ح ٢١ ولقد أخرج حديث البراءة (٧٣) من الحفاظ وأئمة الحديث كما في الغدير (٦: ٣٣٨ - ٣٥٥).

(٢) أخرجه ابن عساكر بإسناده عن الحارث بن مالك.

(٣) رواه الطبري والبلاذري والترمذي والواقدي والشعبي والسدي والثعلبي والواحدي والقرطبي والقشيري والسمعاني وأحمد بن حنبل وابن بطة ومحمد بن إسحاق وأبو يعلى الموصلي والأعمش وسماك بن حرب في كتبهم عن عروة بن الزبير وأبي هريرة وأنس بن أبي رافع وزيد ابن نقيع وابن عمر وابن عباس.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والحافظ أبو الشيخ وابن مردويه والسيوطي في الدر المنثور ٣: ٢٠٩ وكنز العمال ١: ٢٤٧ والشوكاني في تفسيره ٢: ٣١٩ والرياض =

«ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي»[(١)].

«إنه لا يبلغه إلا أنا أو رجل مني»[(٢)].

«إنه لا ينبغي أن يبلغ عني إلا رجل من أهلي»[(٣)] «من أهل بيتي»[(٤)].

«إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني»[(٥)].

«إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو علي»[(٦)].

«لا يذهب بها إلا رجل هو مني وأنا منه»[(٧)] - «علي مني وأنا من علي

= النضرة ٢: ١٤٧ وذخائر العقبى ٦٩ وتاريخ ابن كثير ٥: ٣٨ ومناقب الخوارزمي ٩٩ وفرائد السمطين للحمويني ومجمع الزوائد ٧: ٢٩ وشرح صحيح البخاري للعيني ٨: ٦٣٧ ووسيلة المآل لابن كثير وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ٣: ٩١ وتفسير المنار ١٠: ١٥٧ - أخرجوه عن علي عليه السلام عن طريق زيد بن يشيع.

(١) تفسير الطبري ١٠: ٤٦ وتفسير ابن كثير ٢: ٣٣٣ وخصائص النسائي ٢ والأموال لأبي عبيد ١٦٥.

(٢) مسند أحمد ١: ٣ وابن خزيمة وابن عوانة والدارقطني في الأفراد كما في كنز العمال ١: ٢٤٦ والكنجي في الكفاية ١٢٥ نقلاً عن أحمد وأبي نعيم وابن عساكر وابن كثير في تاريخه ٧: ٣٥٧.

(٣) الترمذي في جامعه ٢: ١٣٥ والبيهقي في سننه ٩: ٢٢٤ والخوارزمي في مناقبه ٩٩ وابن طلحة في مطالب السؤول ١٧ والشوكاني في تفسيره ٢: ٣١٩ وابن أبي حاتم والحكم وابن مردويه والبيهقي، وابن حجر في فتح الباري ٨: ٢٥٦.

(٤) رواه أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري بسند متصل عن أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأحمد بن حنبل من طرق جماعة منها عن أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي عليه السلام وجماعة آخرين.

(٥) رواه محمد بن جرير الطبري بسند متصل إلى حارث بن مالك وأبو الصباح الكناني عن الصادق عليه السلام والحارث بن مغيرة النصري عنه وحريز عنه عليه السلام وأحمد بن حنبل في مسنده مرفوعاً إلى أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والثعلبي في تفسيره وابن مردويه عن أبي رافع عنه صلى الله عليه وآله وسلم وابن أبي حاتم عن حكيم بن حميد عن علي بن الحسين عليهما السلام وابن مردويه وابن حبان عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

(٦) لقد تواتر النقل فيما يؤدي هذا المعنى أخرجه أرباب الصحاح والسنن، راجع (محمد وعلي وبنوه الأوصياء) لنجم الدين الشريف العسكري رحمه الله.

(٧) رواه ابن عباس وأخرجه كثير من أئمة الحديث وحفاظه في المسانيد بإسناد صحيح رجاله كلهم ثقاة.

ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي»[١].

ذلك، وفي حوار بينه وبين الرسول ﷺ في سبب عزله وانتصاب علي عليه السلام يقول ﷺ: «كيف تؤديها وأنت صاحبي في الغار»[٢] لا! أنت صاحبي في الغار ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي، مما يحث على التساؤل كيف أخره صحبته مع الرسول ﷺ في الغار! وأصحابه ينادونه «صاحب الغار» كفضيلة كبرى وافتخار.

فهناك يختص الرسول ﷺ جدارة هذه الرسالة بنفسه أو عليٌّ لأنه منه، وهنا يقتسم صحبة بين الغار وبين أمثال هذه الرسالة التي لا يحملها إلا الرسول نفسه أمَن هو منه، أفلا يدل ذلك على خلافته الرسالية بعده ﷺ بعد ما هو خليفته معه؟! ذلك الأمر المؤكد لعلي عليه السلام أن يركب ناقته العضباء ويلحق أبا بكر بسرعة فيجده في العرج أو في ذي الحليفة أو ضجنان أو جحفة، وحين يرجع أبو بكر غضبان أسفاً يسمع الجواب كلمة واحدة: «لا يؤدي عني إلا أنا أو علي» وما أشبه، وأخرى «كيف تؤدي عني وأنت صاحبي في الغار»؟ ثم وحين يعزل أبو بكر عن هذه الرسالة فمن هو أبو هريرة في روايته اليتيمة حتى يبلغ ذلك البلاغ؟! هذه وتلك مع هذه الملابسة الهامة هي ذات الدلالة العامة على محتد الإمام علي عليه السلام من الرسول ﷺ أنه هو - فقط - المبلغ عنه بعده في حياته، أفلا يكون مبلغاً عنه - إذاً - بعد مماته؟! وترى ما هو القصد من قوله ﷺ: «كيف تؤدي

---

(١) مطالب السؤول ١٨.

(٢) رواه حسن بن أشناس في كتابه بسند متصل عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام (البحار ٣٥: ٢٨٧)، وأخرجه الطبري كما في فتح الباري للعسقلاني ٨: ٢٥٦ ويدل عليه من الروايات المتواترة ما ورد في حديث البراءة من قول الرسول ﷺ: أنت صاحبي في الغار، ورواه أكثر من روى حديث البراءة ونص الحديث هكذا، يا رسول الله ﷺ ما كنت ترى أني مؤدٍ عنك هذه الرسالة؟ أبى الله أن يؤديها إلا علي بن أبي طالب، كيف ذلك يا رسول الله ﷺ؟ كيف تؤديها وأنت صاحبي في الغار؟

عني وأنت صاحبي في الغار» ألأن صحبته في الغار افتخار؟ فليؤد عنه لذلك! أم إنه عار؟ فلا يؤدي عنه.

وهل الجمع بين المنصبين محظور عدلاً في التقسيم؟ فكيف جمع لعلي عليه السلام رسالة الأداء عنه إلى مُقامه ليلة المبيت مقامه صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعلى محتداً لصحبة الغار وكما يقول الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1] فالذي يضحي بنفسه إيَّاه صلى الله عليه وآله وسلم دونما تخوف، هو أحرى أن يؤدي عنه من صاحبه في الغار فراراً أم أنساً للغار على تخوُّفه، ولا سيما في هذه الهامة العظيمة التي هي بحاجة إلى قوة في القلب وقمة في الإيمان، فصاحب المبيت لم يخف عن الخطر الهاجم، وصاحب الغار خاف عن الخطر الناجم، وهو يرى كيف سدل ستار العنكبوت على باب الغار، وقد نهاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حزنه: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾[2] ثم «أنزل سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» لا عليهما! وصاحبه كان أحوج إلى السكينة، وقد ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أو لم يكن صاحبه في الغار مؤمناً فتشمله السكينة النازلة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾[4]؟ أم لم يكن بتلك الدرجة من الإيمان حتى يقرن بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم في تلقي السكينة، إذاً فليفرد بسكينة بعد الرسول كما قد أفرد المؤمنون بعد ما جمعوا معه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾[5] - ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٦) سورة الفتح، الآية: ١٨.

إذاً فـ «كيف تؤدي عنه وأنت صاحبي في الغار»؟ «إنما يؤدي عني أنا أو رجل مني» «رجل هو مني وأنا منه» - وكما تواتر عنه ﷺ : «علي مني وأنا منه»[(١)].

ولا يعني «رجل مني» فقط نسبة النسب أو السبب، فإن مكانة الرسالة الربانية لا تعرف نسباً ولا سبباً ولا حسباً وما أشبه، فإنما «مني» هو من عقيلتي الرسالية حتى يؤدي عني ما أنا مؤديه كرسول، ومما يشهد له «وأنا منه» وصحبة الغار - ولا سيما مع ذلك العار - ليست لتصحب معها الأداء عنه ﷺ ، فمجرد «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني - أو علي - فإنه مني»

---

(١) لقد تواتر عن النبي ﷺ هذا الحديث بألفاظ عدة منها : «علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا وعلي» رواه حبشي بن جنادة وأخرجه عنه تسعة وثلاثين من أعاظم المحدثين.
والثاني حديث جابر رواه عنه جماعة من الأعاظم، والثالث حديث أبي رافع عن عشرة ونصه قال: لما قتل عليّ أصحاب الألوية يوم أحد قال جبرئيل: يا رسول الله ﷺ إن هذه لهي المواساة فقال له النبي ﷺ : إنه مني وأنا منه فقال جبرئيل: وأنا منكما يا رسول الله - أخرجه أحمد في المناقب، والرابع حديث بريدة رواه عنه خمسة عشر من الأعاظم، قال فيه ﷺ : لا تقع في علي فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي، والخامس حديث عمران بن حصين عن إحدى وأربعين وفيه ما لهم ولعلي إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كلّ مؤمن بعدي، والسادس حديث زيد عن ستة وفيه قال ﷺ لعلي عليه السلام : أما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنا منك وأنت مني، والسابع حديث هبيرة بن بريم عن علي عليه السلام عن ثمانية وفيه: وأما أنت يا علي فمني وأنا منك والثامن حديث حسن بن علي عن ثلاثة وفيه: أما أنت يا علي فمني وأنا منك وأنت ولي كلّ مؤمن بعدي، والتاسع حديث عمر بن الخطاب عن ثلاثة وفيه قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام : أنت مني وأنا منك، وقال عمر: توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، والعاشر حديث البراء عن تسعة وعشرين، ثم وحديث أبي ذر وأم سلمة وابن عباس وغيرهم رواه عنهم جماعة.
ذلك وقد تواتر أيضاً هذا الحديث ضمن حديث الأداء ومنه حديث حبشي بن جنادة والبراء بن عازب وعمران بن حصين وأسامة بن زيد وأبي رافع وبريدة وعلي عليه السلام وجابر وأنس ورافع ابن أبي خديج ويتحد الكل في معنى (علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي) أم بإسقاط ذيله، والقسم الأول ذكره المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي في ملحقات إحقاق الحق ٥ : ٢٧ - ٣١٧، والقسم الثاني ذكره في ١٦ : ١٣٧ - ١٦٧، والمجموع ٧٣ صفحة فيها أسماء المخرجين والرواة والكتب ومتون الحديث المتقاربة المعنى.

يكفي في أفضليته على أبي بكر ومن سواه، فأما «كيف تؤدي عني وأنت صاحبي في الغار» فعلى كافة الاحتمالات تدل على عدم جدارته لذلك البلاغ[1].

---

(١) فهنا احتمالات تالية: ١ - ألا يحق الجمع بين منصبين اثنين لصحابي واحد؟ والإمام جمع هنا بين هذا الأداء وأفضل من صحبة في الغار!. ٢ - أن صحبة في النار هي أفضل من هذا الأداء؟ و«لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل من أهلي» يفضل ذلك الأداء على كلّ المناصب. ٣ - إن هذه الصحبة وهذا الأداء سيان؟ فلماذا يحرم بعد نصبه عن منصب هو مثل صحبته في الغار! ٤ - فلم يبق أن هذه الصحبة سلبت عنه تلك الجدارة، أو ليس الأجدر بالرسول في مثل تلك الرسالة في حياته أجدر به باستمرارية رسالته بعد مماته؟! أقول: ولا يعبأ باختلاف الروايات في أن المؤدي - بالأخير - كان هو أبو بكر أم وأبو هريرة بأمره، أم وحتى علي عليه السلام كان يؤدي تحت قيادته، حيث المتواتر الذي لا شك فيه عزل أبي بكر، فكيف يأمر المعزول أبا هريرة أم علياً الذي هو المأمور بأخذ البراءة عنه؟
ولقد تشوشت الروايات قصداً أم إهمالاً حتى يضل الحق في هذا البين، ففي عدد الآيات المبعوثة بين تسع وعشر وست عشرة وثلاثين وثلاثاً وثلاثين وسبعاً وثلاثين وأربعين وتمام البراءة، اختلافاً سداسياً فيها في عدد الآيات المبعوثة ثم في قصة بعث البراءة منها المتواترة أنه عزل واسترجع أبا بكر وبعث علياً مكانه فتساءل لماذا عزلتني؟ فقال: «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني - أو علي - كيف تؤدي عني وأنت صاحبي في النار»، ومنها اليتيمة الدالة على أن أبا بكر ذهب لوجهه أميراً على الحاج، فأمر علياً وأبا هريرة أن يأذنا بما أرسل! خلافاً للتواتر الأول! أجل، وكيف يُبعث أبو بكر في هذه المهمة وهو صاحب الغار حيث هو المختار له في الأخطار، وكما تظافر النقل أن أبا بكر وعمر فرّا من بعض الغزوات كما عن تسعة من فطاحل العامة، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اختار أبا بكر وأعطاه الراية يوم خيبر فرجع منهزماً، وفي أخرى أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعد فراره اختار عمر وهو اختار الفرار على القرار حتى فتح الله على يد الحيدر الكرار وقد صرح بمثل ذلك جماعة من الأعلام مثل أبو داود الطيالسي في مسنده (٨: ٢٦٤) ينقل فرار عمر وعثمان، والطبري في تفسيره (٢: ١٩٩) ينقل فرار عمر في غزوة أحد والهيتمي في مجمع الزوائد (٩: ١٢٣) ينقل فرار أبي بكر وعمر وأن عمر كان يجبن أصحابه، وشارح المواقف (٢: ٤٧٥) ينقل فرارهما في غزوة حنين، وابن قتيبة في كتاب المعارف (٥٤) والكاشفي في المعارج الركن الرابع (٣٧٠) والترمذي في المناقب المرتضوية (٤١٠) والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش مسند أحمد بن حنبل (٤٤) ينقل فرارهما في غزوة خندق، والطبري يحكي فرار عثمان في تفسيره (٢: ٢٠٣) وفرار عمر في غزوة خندق (٢: ٣٠٠).

وجواباً عن السؤال: كيف بعث أبا بكر أولاً ثم عزله بعلي وهو ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾(١)؟ نقول: كان بعثه إياه وعزله كلاهما بوحي من الله، تدليلاً على أنه لا يصلح مؤدياً عنه بعد مماته حين لا يصلح أن يؤدي عنه في حياته، تذكاراً للغافلين الذين سوف يرتأون خلافته لكونه صاحبه في الغار أم لكبر سنه وما أشبه من حجج داحضة.

وقيلة البعض من المتعصبين لأبي بكر أن عادة العرب جارية في مثل هذه المواقف أن يبعثوا من أهليهم دون الغرباء، هي غيلة على الرسول ﷺ أنه ترك أولاً هذه العادة ثم عاد يحققها، وفيه تزييف لموقف الرسول وأبي بكر معاً، تخطئة للرسول كيف بدأ بالغريب، ولأبي بكر كيف عزله بعد نصبه، ثم ولم تكن للعادات الجاهلية موقف في هذه الرسالة السامية حتى يوقف رسالة أبي بكر لها عن قصة البراءة، وقد كان ينسخ يومياً العادات الجاهلية وكما قال يوم فتح مكة عند الكعبة المباركة: «ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم ولو كانت هي عادة عربية صالحة الاتباع في هذه الرسالة فلماذا تناساها ثم ذكرها وفيه فضح أبي بكر على رؤوس الأشهاد، ولما يتساءل النبي ﷺ لا يسمع جواباً أمثال هذه المختلقات المتعصبة، بل هو كلمة واحدة «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني».

ذلك، ولأن المخرجين قصة حديث البراءة هم فوق التواتر طول القرون الإسلامية، والمخرج عنهم منهم علي عليه السلام وأبو بكر وابن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري(٢) وأنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وأبو رافع وسعد

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٢) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي ﷺ حين رجع من عمرة الجعرانة بعث أبا بكر على الحج فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج ثوب بالصبح فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف =

بن أبي وقاص وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وحبشي بن جنادة وعمران بن حصين وأبو ذر الغفاري، في المسانيد، وعشرات أضعافهم في المراسيل، فلا محيد - إذاً - عن تصديقه وتقبّل معناه ومغزاه ولو كره الفاسقون.

ولقد ناشد الإمام علي عليه السلام - فيما ناشد - القوم حجاجاً لإمرته بحديث البراءة دون نكير، وفي حديث ابن عباس(١) وأضرابه تصديقه، وكما تواتر - أيضاً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام حديث المناشدة يوم الشورى وسواه، فذلك إطباق من أئمة الإسلام ومعظم الرواة والمصنفين والمفسرين على قصة حديث البراءة، فهم براءٌ كلهم ممن تبرأ من مضمونه.

وذلك كله دليل على الهامة المتميزة لرسالة البراءَة إلى المشركين، فما كانت هي رسالة يصح أو يسمح لحملها غير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو مَن هو منه، فمادة رسالة البراءَة كانت أحكاماً جديدة جادة لمّا تبلّغ إلى من يجب تبليغها إليه، وهذه تختلف عن الدعوة العامة إلى الإسلام، أو الكتابات المرسلة إلى الملوك والرؤساء، فالفارق بينهما أن رسالة البراءَة رسالة أصيلة غير مسبوقة بإعلام فهي من اختصاصات الرسول أو من هو منه، وتلك وما أشبه هي رسالات عامة يحملها كل من يصلح لحمل الرسالات العامة المسبوقة

= ظهره فوقف عن التكبير فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله الجدعاء لقد بدا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحج فلعله أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنصلي معه فإذا علي عليه السلام فقال له أبو بكر: أمير أم رسول؟ قال: لا بل رسول أرسلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببراءة أقرأها على الناس في مواقف الحج أخرجه جماعة ذكرناهم فيما سبق من الهوامش.

(١) أخرج ابن عساكر بإسناده من طريق الحافظ عبد الرزاق عن ابن عباس قال: مشيت وعمر بن الخطاب في بعض أزقة المدينة فقال: يا بن عباس أظن القوم استصغروا صاحبكم إذ لم يولده أموركم، فقلت: والله ما استصغره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ اختاره لسورة براءة يقرأها على أهل مكة، فقال لي: الصواب تقول والله لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي بن أبي طالب: من أحبك أحب الله ومن أحب الله أدخله الجنة مدلاً (كنز العمال ٦: ٣٩١ وشرح ابن أبي الحديد ٣: ١٠٥).

بالإعلام، ولقد كفت «لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني» دلالة على ميزة رسالة البراءَة هذه، ولا ينكرها إلا نكير عقله وضميره.

على أية حال لقد أدى الإمام علي عليه السلام هذه الرسالة الهامة يوم الحج الأكبر، بازغاً بـ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أذاناً من الله ورسوله يوم الحج الأكبر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ مهدداً إياهم بالعتل بعد الأشهر الحرم ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ. . .﴾[(١)].

ومن ذا الذي يجرؤ على أداء هذه الرسالة في وسط من الإشراك - مهما فتحت مكة - دونما تخوف ومجاراة إلّا الذي بات على فراش الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في وسط المشركين المهاجمين، دون الذي صاحبه في الغار عُدة للفرار وهو مع ذلك خائف لحد يستحق النهي! تنزل هذه السورة قبل المائدة وبعد الفتح، معدةً للمشركين أن يستعدوا للإسلام أو الاستسلام، بما تتضمن أحكاماً نهائية في صلات وعلاقات بين كتلتي الإيمان والكفر، كما تضمنت تصنيف كلّ من الضَّفتين.

فالسورة - إذاً - ذات أهمية في بيان المنهج الحركي للإسلام، والتكتيكي لارتجاع عاصمة الإسلام كاملة بعد ما فتحت وبعد تأسيس دولته بعيداً عن العاصمة، وذلك بكل حسم ومرونة، حسماً في مجاله ومرونة في مجالته.

وهذه السورة بطبيعة حالها بعد الكل وقبل الأخيرة، هي في عرض الأحكام بين مرحلية ونهائية، مرحلية هي نهائية للمرحليات السابقة، وبدائية طليقة للمائدة.

نجد مقاطع ستة للسورة في دراسة عنها خاطفة، هي في الحق عرض لأخطر المواقف للدولة الإسلامية أمام أهليها بمختلف مَن فيها وما فيها من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.

أوساط حرجة مرجة لتخلخل جموع من مختلف الطوائف في هذا الدين الجديد، جادِّين أم منافقين أم عوان بينهما.

في المقطع الأول - وهو ثمانية وعشرون من آيها - عرض لتحديد العلاقات النهائية والوقائية بين المعسكر الإسلامي وجموع المشركين، فإنها قوية التحضيض والتأليب على قتالهم، لما في المرونة معهم عرونة للهيكل الإسلامي السامي.

والمقطع الثاني يضمن تحديداً وتجديداً للعلاقات النهائية بين المسلمين وأهل الكتاب بصورة عامة، من ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ - إلى - فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾[1].

فهي في مواجهة أهل الكتاب لما كان في نفوس مؤمنة من تهيُّب وتردُّد، ولا سيما الروم بما فيه من بأس وبؤس وسمعة تاريخية عريقة بين أهل الجزيرة.

وفي المقطع الثالث وهو من الآية (٣٦) إلى آية الغار (٤٠) والنفر (٤١) يبدأ بالتنديد بالمتثاقلين المتكاسلين في الغزو، المتعاضلين عن واجب الدفاع والنضال بُقية على الحوزة الإسلامية.

وفي المقطع الرابع - وهي أطول مقاطعها - المستغرق زهاء نصفها، إلى ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[2] عرض عريض لفضح المنافقين المتغلغلين في الصف الإسلامي بمختلف محاولاتهم وحيلهم المنافقة، تعريضاً عريضاً عليهم وتحريضاً للمؤمنين أن يأخذوا حذرهم منهم، صوناً عن تلاشي الهيكل الإسلامي بعد الفتح حيث عاد النفاق بعده بصورة أخرى متلفقة متلاحقة للأولى، فأصبح ركاماً خطراً على الجماعة المسلمة.

وفي المقطع الخامس تصنيف للجماعة المسلمة إلى درجاتها، مؤمنة

(١) سورة التوبة، الآيات: ٢٩-٣٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٥.

مخلصة، إلى بسيطة، وإلى مسلمة غير مؤمنة مفلسة وإلى منافقة كالسة، وذلك إلى آية الضرار والتقوى (١٠٨).

والمقطع السادس والأخير يقرر طبيعة البيعة الإسلامية جهاداً في سبيل الله، وواجب اتباع رسول الله ﷺ، قائداً رسولياً للقوات المسلحة، وواجب المفاصلة مع المشركين والمنافقين.

ذلك، والأحكام التي وردت في هذه السورة لحقل الجهاد والسياسة الإسلامية تجاه الأعداء، هي - بوصفها آخر ما نزل من هذه الأحكام - تمثل قمة الخط الحركي للمنهج الإسلامي.

فللحركة القرآنية ككلّ سماتٌ وبصماتٌ، ١ - كالواقعية الجديدة في منهجها، ٢ - والواقعية الحركية ذات المرحلية حسب مؤاتية الظروف والملابسات، ٣ - وأن هذه الحركة ذات البركة الدائبة، بوسائلها ومسائلها المتجددة الجادة، ليست لتخرج هذه الشرعة عن قواعدها الأساسية المحدّدة لها، وعن أهدافها المستمرة الثابتة المرسومة المرسولة فيها، ٤ - ومن ثم الضبط التشريعي الدقيق لكل العلاقات في مختلف الحقول بين الكتلة المسلمة وسائر الكتل.

فهذه قواعد أربع لصرح الإسلام، صارحة صارخة في كافة الميادين، وثابتة لا تتزعزع.

ذلك، وفي تقدمة ذلك الأذان البراءة إلى المشركين بعد الفتح وقبل حجة الوداع تعبيد لسبيل طهارة البلد الأمين عن هؤلاء المشركين، لكيلا يراهم المسلمون يؤدون المناسك الدخيلة الجاهلية مع المناسك الأصيلة الإسلامية، تخليصاً لمناسك الإسلام بأصحابه، وتقليصاً لمناسك الكفر وأصحابه، وكما يروى عنه ﷺ قوله: «إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك»[1].

(١) تفسير في ظلال القرآن ٤: ١١٨.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾:

هذه ﴿بَرَآءَةٌ﴾ صارخة أيها المؤمنون ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إخباراً ومن ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾ إخباراً إلى إنشاء يعني أنها براءَة مفروضة على الرسول، حاصلة بفرضها عليه قضيةَ العصمة الرسالية، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أم ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدئة موصوفة بـ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وخبرها ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ وتنوين التنكير تهويل في هذه البراءة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ حيث نقضوا عهودهم وظاهروا عليكم، فليست البراءَة هذه فوضى ومن دون مبرر، إنما هي لنقضهم فنقصوا إذاً من أصل المعاهدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] وقد روي أن النبي ﷺ لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلّف المنافقون وأرجفوا بالأراجيف جعل المشركون ينقضون العهد فنبذ رسول الله ﷺ العهد إليهم[2].

ذلك، وهذه البراءة التي من قضاياها ملاحقتهم وقتالهم أينما كانوا وأيان، ليست إلا بعد أربعة أشهر.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾:

سماح بعد البراءَة أن يأخذوا حريتهم في مكة المكرمة وسواها خلال أربعة أشهر - فقط - وعلّها ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾[3]، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة - محرم، فإنها الأربعة الحرم المعروفة الثابتة، مما قد يدل على أن هذه الآيات نزلت قبل شوال.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢١١ عن الزهري في الآية قال: نزلت في شوال فهي الأربعة أشهر شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.
(٢) تفسير الفخر الرازي ١٦: ٢١٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥.

ولأن ذلك الأذان كان ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فقد تكون هذه الأربعة بادئة من يوم الحج الأكبر: الأضحى أم عرفة فعشرون من ذي الحجة، وتمام المحرم وصفر وربيع الأول وعشرة من ربيع الثاني، فهذه أربعة أشهر؟[1]

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٨٢ عن تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن الفضل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرني عن الله أن لا يطوف بالبيت عريان ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد هذا العام وقرأ عليهم «براءة» فأجل الله المشركين الذين حجوا تلك السنة أربعة أشهر حتى يرجعوا إلى مأمنهم ثم يقتلون حيث وجدوا، وفيه روى عاصم بن حميد عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب علي عليه السلام واخترط سيفه فقال: لا يطوفن بالبيت عريان ولا يحجن البيت مشرك ومن كانت له مدة فهو إلى مدته ومن لم تكن له مدة فمدته أربعة أشهر وكان خطيب يوم النحر فكان عشرون من ذي الحجة ومحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، وفيه عن العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام مثله، وعنه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت هذه الآية بعدما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة، قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة لم يمنع المشركين الحج في تلك السنة وكانت سنة من العرب في الحج أنه من دخل مكة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحل له إمساكها وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يرده ومن لم يجده عارية ولا كرى ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عرياناً، فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوباً عارية أو كرى فلم تجده فقالوا لها: إن طفت في ثيابك احتجت أن تتصدقي بها فقالت: كيف أتصدق وليس لي غيرها؟ فطافت بالبيت عريانة وأشرف لها الناس فوضعت إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها وقالت شعراً:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

وكانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول سورة براءة أن لا يقابل إلا من قد قاتله ولا يحارب إلا من حاربه وأراده وقد كان أنزل عليه في ذلك ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقاتل أحداً قد تنحى عنه ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة إلى مدة منهم صفوان بن أمية وسهيل ابن عمرو فقال الله عزّ وجلّ: ﴿بَرَآءَةٌ . . . أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ١-٢] ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد هذه أشهر السياحة عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر، فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلا رجل منك. . .

إلا أن الأشهر الحرم المعروفة علّها هي المعنية بطبيعة الحال، ثم ولا يعبر عن أضغاث أيام من أشهر بأشهر! وليس ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو بداية الإعلان، إنما هو استمرارية البيان على رؤوس الأشهاد حتى لا تبقى أية حجة.

فقد يجوز أن آية ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ المحددة سيحهم المهددة إياهم قرأت عليهم قبل شوال أم أوله ليأخذوا عُدَّتهم إما إيماناً فأماناً أم سواه فسواه.

ثم قرأت آية الأذان يوم الحج الأكبر وهو على الأظهر يوم الأضحى أو عرفة.

وقد تقتضي قضية الحال في ذلك الإعلام والأذان العام أن يكون يوم الحج الأكبر، حيث يجتمع فيه المشركون مع المسلمين من كل أنحاء الجزيرة - أم وسواها - دون أوّل رجب أم قبله، ولتتم الحجة على المشركين، فهذه الأربعة الحرم - إذاً - هي غير الأربعة الشهيرة حيث يحرم فيها القتال، وقد يؤيده ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أولاً منكرة، ثم وظاهرها التتابع ولا تتابع بين الأربعة الشهيرة، وإن لحقتها ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ حيث تعنيها منذ يوم الحج الأكبر.

ولأن «الشهر» هي حسب المتعود ثلاثون يوماً، فالأربعة الحرم هنا مائة وعشرون يوماً منذ عرفة أو الأضحى إلى العاشرة أو الحادية عشرة من ربيع الثاني.

ثم الأربعة الحرم المعروفة لها حكمها على طول الخط لكافة المكلفين، دون هذه الأربعة الخاصة بذلك الموقف المخصوص بذلك الأذان.

إذاً فالأرجح - على الأشبه - هو الأربعة الحرم البادئة - هنا - من يوم الحج الأكبر، دون الحُرُم العامة وهي «رجب - شوال - ذو القعدة - ذو الحجة».

ف «رجب» خاصة لخاصة العمرة والثلاثة الباقية للحج، أم «المحرم» بديلاً عن «شوال» ولكل رواية وعلى أية حال ف «تلك أربعة حرم» ظاهرة في المتواصلة وهي الأربعة الأخيرة.

فهذه الأربعة الحرم، أمان على طول الخط، اللّهم إلا للذين حاربوا فيها فواجب الدفاع قدَره، وتلك أمان مؤقت لتلك الأربعة في تلك السنة الخاصة.

﴿فَسِيحُواْ﴾ أيها المشركون الناقضون للمعاهدة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

العاصمة وسواها حرماً وسواه ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ فيها أم في سواها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث لا يفلت عنه قالت ولا يفوت عنه فائت.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾:

تلك البراءة كانت موجهة - فقط - إلى المشركين الناقضين، وهذا الأذان إعلام عام ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ موحدين ومشركين لكي يعرف كلٌّ واجبَه ويحسب حسابه.

فما هو ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾؟ ﴿ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ علّه هو الذي بعد العمرة احتساباً لها بالحج الأصغر، وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: العمرة الحج الصغرى[1]، أم ولأن في ذلك الحج اشترك لمرة أخيرة المسلمون والمشركون معاً[2]، ثم اختص الحج بالمسلمين على طول الخط.

---

(١) آيات الأحكام للجصاص ٣: ٩٩.

(٢) نور الثقلين ٢: ١٨٥ في العلل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: كنت أنا الأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر. . =

ولأن الحج لم يسمَّ بالأكبر إلَّا هنا، ثم هو ﴿ٱلْحَجِّ﴾ مع العمرة في ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾[1] مهما كان ﴿حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾[2] وما أشبه حيث تأتي دون عمرة تشملها معه.

إذاً فالحج الأكبر قد يعني ذلك الحج المشترَك بما فيه من موقف خاص وملابسات هامة قد تنجر إلى حرب بين الفريقين، ويومه - ككل - يوم عرفة أو الأضحى[3] ولكن من البعيد جداً أن يوصف الحج بالأكبر لمشاركة المشركين فيه، إذاً ففي منعهم بعد عامهم هذا يصبح الحج هو الأصغر، فالحج الأكبر هو الذي يقابل العمرة، ويومه البارز هو بين عرفة ويوم النحر، ولأن «الحج عرفة» ومن فاتته فقد فاته الحج دون يوم النحر، فالأشبه أن ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو عرفة.

هذا وقد سمي الإمام علي عليه السلام - بين أسمائه - بالأذان لأنه كان حامل ذلك الأذان كما في روايات عدة.

= وإنما سمي الأكبر لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون والمشركون ولم يحج المشركون بعد تلك السنة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٣) المصدر (١٨٥) عن معاني الأخبار عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: الحج الأكبر يوم النحر. وفي مفتاح كنوز السنة عنه صلى الله عليه وآله وسلم نقلاً عن بخ - ك ٥٨ ب ١٦، مس - ك ١٥ ح ٤٣٥، بد - ك ١١ ب ٦، تر - ك ٧ ب ١١٠، ك ٤٤ سورة ٩ ح ٣ و٤، عد - ج ٢ ق ١ ص ١٣٢، حم - ثالث ص ٤٧٣.

وفي تفسير الفخر الرازي ١٥ : ٢٢١ يوم الحج الأكبر يوم عرفة وهو قول الشعبي والنخعي والسدي وإحدى الروايتين عن علي وقول المغيرة بن شعبة وسعيد بن جبير، وعن علي عليه السلام أن رجلاً أخذ بلجام دابته فقال: ما الحج الأكبر؟ قال: يومك هذا وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: هذا يوم الحج الأكبر، وعن المسور بن مخرمة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشية عرفة فقال: أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر.

وفي ملحقات إحقاق الحق ٤٢٧ - ٤٣٩ - أخرج حديث الأذان لعلي عليه السلام عن ستة وأربعين من إخواننا السنة فراجعه.

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ عن الإشراك بالله توحيداً لله ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ يقابل شراً لكم ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن التوبة ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ بإشراككم ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إشراكاً وسواه ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، وإذا كانت هذه بشارةً لهم فما هو - إذاً - إنذارهم؟

وترى لماذا «رسوله» رفعا وهو معطوف على «الله» المنصوب بـ «أن»؟

لأن «رسوله» جائز الوجهين أدبياً عطفاً على المحل فرفعاً أو اللفظ فنصباً، والرفع أولى معنوياً رفعاً لساحة الربوبية في تلك البراءة، وجعلاً لبراءَة «رسوله» على الهامش وكما فصل «رسوله» عن الله بالخبر وظرفه، لذلك فالأرجح هنا كما هو رفع «رسوله». فلا بد - إذاً - من الاستكفاء بالقرآن: و«من استكفى بالله من القرآن من المشرق إلى المغرب كُفي إذا كان بيقين»(١).

ذلك، وحين يُسأل رسول الله ﷺ: حدثنا بما لنا فيه نفع، يقول: «إن أردتم عيش السعداء، وموت الشهداء، والنجاة يوم الحشر، والظل يوم الحَرور، والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن، وحرز من الشيطان، ورجحان في الميزان»(٢).

و«يقول القرآن - يوم القيامة لأهله ـ: أنا الذي أسهرتُ ليلك وأنصبت عيشك، سمعت الأذى ورُجمت بالقول فيَّ، ألا وإن كل تاجر قد استوفى تجارته وأنا وراءَك اليوم»(٣).

و«حملة القرآن، المخصوصون برحمة الله، الملبسون نور الله،

---

(١) مشكلات الأخبار (٢: ٢٦٠) عن أبي إبراهيم عليه السلام.

(٢) المصدر (٩) عن معاذ بن جبل قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلت: حدثنا.

(٣) المصدر (١٠) عن الكافي ٢: ٤٣٦ عن أبي جعفر عليه السلام قال: تعلموا القرآن فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف، ثمانون ألف صف أمة محمد ﷺ وأربعون صف من سائر الأمم.

المعلِّمون كلام الله، المقربون عند الله، من والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد عادى الله...»[(١)].

و«إن أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين ما خلا النبيين والمرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم بأن لهم من الله لمكاناً علياً»[(٢)] و«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[(٣)].

وآيات القرآن خزائن العلم فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها[(٤)].

ذلك هو القرآن الذي نؤمر باتباعه على مدار الزمن، وما أظلمه وأجهله من يفتري عليه التحريف والتجديف، وإليكم رواية عن عالمين علمين ينقلان قِصَة رثَّة مزرءة عمن ألف كتاباً حول تحريف القرآن وعوذاً منه ومن أضرابه بالله ما أجهلهم وأغفلهم عن ناموس الإسلام وعصمته[(٥)].

---

(١) المصدر (٢٥) الوسائل ٤: ٨٣١ - الإمام الحسن العسكري عليه السلام في تفسيره عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:...

(٢) المصدر (٢٥) عن الكافي ٢: ٤٤١ عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:...

(٣) المصدر (٢٧) المستدرك ١: ٢٨٨ عن شهر بن حوشب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:...

(٤) المصدر (٦٤) عن الكافي ٢: ٤٤٦ عن حفص بن غياث عن الزهري قال سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: وفيه (٦٦) عن الشهيد الثاني في أسرار الصلاة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابن مسعود: اقرأ علي، ففتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] رأيت عيناه تذرفان من الدمع فقال لي: حسبك الآن وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت عليه جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرأونه».

(٥) أحدهما المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دام ظله، قال لي: إن المرحوم حيدر قلي خان المعروف بـ«سردار كابلي» وهو من أعاظم العلماء الجامعين بين الدراسات الإسلامية والعصرية، طلب منه المغفور له المرجع الأعظم السيد البروجردي أن يأتي إلى قم ليستفاد منه في الحوزة حول العلوم العصرية والكتب السماوية وما أشبه فأجابه، وفي يوم من أيامه الأولى أتى إلى بيتي، ولأنه كان من تلامذة الحاج ميرزا حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل، بهذه المناسبة سألته، ماذا حمل أستاذكم على تأليف كتابه: (فصل الخطاب في=

. . . .

= تحريف كتاب رب الأرباب) الذي هو مزرءة مخجلة بالكتاب العزيز، وذريعة للنقد والتهجم عليه من قبل المعاندين؟ فمكث هنيئة يبكي، فقلت له: هل أسأت الأدب في سؤالي هذا؟ قال: لا، ولكن خطر ببالي خاطرة خطيرة مزعجة عن سبب تأليف هذا الكتاب، وهي أنني كنت ممن يساعد الشيخ في جمع المسانيد لكتابه: مستدرك الوسائل، فإذ حضر سيد معمم هندي وسلم عليه وقال: أيها الشيخ الجليل هل كان اسم إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن؟ قال: نعم ولكنهم حذفوه عنه، قال: أفهكذا يُظلم إمامنا وأنتم ساكتون؟ أترجّى منكم بكل إصرار أن تكتبوا لي كلّ يوم صفحة مما جرى على ضوء رواياتنا حول ما نقص عن القرآن حتى تثلج صدورنا بما كان فيه من فضائله عليه السلام ونزداد له حباً، فأجابه الشيخ وكان يأتيه كلّ يوم ويأخذ صفحة مما كان يجمع الشيخ من موارد التحريف ويستنسخها ويرد الأصل إليه حتى تم الكتاب باسم «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» ثم غاب ولم يرجع، واتفق لي أنني راجعت السفارة البريطانية في بغداد لأخذ تأشيرة السفر إذ كانت العراق يومذاك تحت السلطة البريطانية، فرأيت واحداً من أعضاء السفارة ينظر إلي نظرة قاصدة متكررة، فأصبحت أنظر إليه وتلمَّحت أنني رأيته من ذي قبل، فسلَّم علي وقال لي: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا السيد الهندي الذي كنت آتي بيت الشيخ وآخذ منه يومياً صفحة من كتاب «فَصْلَ الْخِطابِ» قلت: كيف غيرت زيَّك وملابسك، قال: أنا بريطاني أشتغل في السفارة البريطانية كما تراني وقد كنت مأموراً بما حصلت عليه من الشيخ فحصل المقصود تماماً، يقول السردار كابلي: ولما انتشر خبر هذا الكتاب - وقد أخذه الشيخ رضا المكتبي المسجد شاهي في سفرته إلى النجف ليطبعه - أخذت الهجمات تتوارد على الشيخ بكل تشنيع وتقبيح من علماء العراق وإيران، وقد طبع الكتاب وقتئذٍ، فاضطر الشيخ أن يطلب من رئيس الوزارة الإيرانية وقتذاك «أتابك» أن يمنع عن نشره وفور وصول الخبر أمر أتابك أن تحبس نسخ الكتاب في غرفة وتسكّر حتى يفنيها عن آخرها، فصادف بعد أيام أن قتل أتابك ثم اغتنم الشيخ رضا الكتبي الفرصة ففتح الغرفة بِحيَل ورُشىً فنشرها، حرصاً على متعة الحياة الدنيا.

وثانيهما المغفور له صاحب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» الشيخ آغا بزرگ الطهراني وهو من أكابر العلماء المحدثين، سألته يوماً ما - حيث كنت أراجعه في بيته لاستعارة كتب حول التفسير وغيره عندما نزلت النجف الأشرف بعدما تخلصت عن السجن المكي عام ١٣٤ - فقلت ماذا حمل أستاذكم على تأليف كتاب «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» وكان مما استعرته منه نفس الكتاب بخط الشيخ النوري؟ قال: وأنا ممن سألته عن ذلك فأجاب: رأيت روايات أهل البيت عليهم السلام منتشرة في مختلف الكتب فأحببت أن أجمعها في مؤلف واحد رغم أنني لا أتأكد تحريف الكتاب، قلت: كيف يجمع الشيخ ما لا يتأكد من صحته؟، فهل كان يسمح الشيخ لنفسه أن لو انتشرت بين الناس فرية على زوجته أن يجمعها =

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾:

تلكم البراءَة الربانية والرسولية خاصة بالذين نقضوا عهدهم من المشركين، أما القائمون بعهدهم إلى مدتهم، غير الناقضين له ولا المظاهرين عليكم عدواً ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ومن التقوى أن يُتقى نقض عهد غير منقوض مع المشركين فضلاً عمن سواهم! إذاً فمن الطغوى نقض العهد أو نقصه، فالعهد الصالح أياً كان لا يُنقض ولا يُنقص من قبل المؤمنين مهما بلغ الأمر فيه، ما لا ينقضه أو ينقصه المعاهَد: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾ فمن الخيال الخاوي والاستهواء الواهي سماحُ نقض العهد منّا مع المسلمين لصالح الدولة الإسلامية! فهل من صالح الإسلام أن يُنقض حكم من أحكامه وفيه انقضاض ظهره وانفضاض المدعوين إليه عنه؟! فالعهد الإسلامي محترم على أية حال مع غير المسلمين فضلاً عن المسلمين، وهو مخترم مع الذين

= في مؤلف يطبع وهو لا يتأكد، بل ويتأكد من أن هذه الفرية؟! ثم قلت: إنه كرس شطراً من عمره في جمع هذه الأحاديث من مثل بستان المذاهب وسواه من المختلقات الزور، واجتهد في نقل متونها بأسانيدها والكتب المنقولة هي عنها، ولكنه لا يستدل بآية الذكر رداً على من يستدل بها بصيانة القرآن عن التحريف يكتبها هكذا ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ثم يقول: من الذكر المنْزل الرسول لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق: ١٠-١١] رغم أن الآية هي ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] تأكيدات تسع حول الحفاظ على الذكر المنزّل - لا المنزل - إذ إن «نزلنا» تعني تدريجية النزول فلا تعني الرسول ﷺ نفسه بل هو القرآن حيث تدرج نزوله عليه؟ قال: نعم، ولكنه لم تكن له فرصة تتيح له أن يراجع القرآن، قلت: أجل كانت فُرصة متاحة لجمع هذه الأساطير نقضاً لعصمة القرآن، فلم تبق له فرصة لمراجعة القرآن حتى ينقل الآية التي يعني نقض دلالتها على صيانة القرآن كما هي في القرآن!!! قال صاحب الذريعة فهو على أية حال ما كان قائلاً بتحريف القرآن وقد كتب كُتيِّباً حول صيانة القرآن عن التحريف وذكر فيه أنني ما أرضى أن يطالع «فَصْلَ الْخِطابِ» قبل إلا أن يطالع رده، فقلت له: وافضيحتاه من أعذار الشيخ وأفاعيله!.

ينقضون عهدهم فـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وكل عهدٍ على ضوء شرعة الله هو عهد الله ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾[1] - ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾[2].

ولأن ذلك الاستثناء راجع إلى «براءَة» - أوّلاً - المستثنى منه، إذاً فلا براءَة إلى المعاهَدين غير الناقضين ولا غير المظاهرين علينا عدواً، وأما غير المعاهَد فتشمله البراءَة مهما كانت أخف من المعاهَد الناقض، والنص هذا يختص البراءَة هذه - الخاصة - بـ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ إعلاناً جاهراً بحرب ضارية لا مردَّ عنها.

وقد يعم ذلك الاستثناء كلًّا من «براءة - فسيحوا - واعلموا - وأذان» فالمشرك المعاهَد المتعهد خارج عن كل هذه الأربعة، فلا براءَة من الله إليه، ولا سَيْحَ محدوداً في الأرض أربعة أشهر عليه، ولا تنديد به ولا إخافة وإنذارَ، وإنما ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ و﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ﴾.

ثم و﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يختص بناقضي العهد المظاهرين، أم ويعم غير المعاهَدين أيضاً إذا أصروا على مواصلة الكفر الضاري المفتتن.

وترى النقض المستنكرَ المهددَّ به هنا يختص بنقض الصلح أن

(١) سورة النحل، الآيتان: ٩١، ٩٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.

يحاربوهم صراحاً؟ و«شيئاً» بعد «عاهدتم» تستغرق التهديد بأي نقض لأي جزءٍ من العهد، حرباً أم تخلفاً آخر كدعاية ضد الإسلام وهي أنقض النقض، واستمرار لتطبيق سنن الجاهلية في البيت الحرام.

ومظاهرة عدو كنقض عهد تشمل كافة ألوان المظاهرات، حربية ودعائية أماهيه من مظاهرات تُضعف ساعد الإسلام أو مساعده.

إذاً فقد يُنقض العهد بنقضٍ أو نقصِ شيءٍ منه مما قل منه أو كثر، حيث يدل على عدم الالتزام بالهدنة المقررة.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾:

هناك ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ تحدد سلبية البراءة للمعاهَدين، فمن مدتهم ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ المقررة لهم، كما منها المُدَد الأخرى التي علّها كانت مقررة لهم، ولكن ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ تختص المدة المقررة بالأشهر الحرم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهم أعم من المعاهَدين إلى مدة ناقضين وغير ناقضين، ومن غير المعاهَدين، حيث ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ هي المدة المقررة لهم أجمع، ولأنهم كانوا ملزَمين منذ الفتح بالإسلام استسلاماً وسواه، إذاً فبارز الإشراك بالله بعد الفتح محظور يهدد صاحبه بالقتل بعد انسلاخ الأشهر الحرم.

وهنا حصار مربع عليهم في حقل التضييق عليهم لا لفتة عنها ولا فلتة منها: ١ - ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحرم وسواه مهما كان كونهم في الحرم أحرم.

٢ - ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ حين يفلّون عن الآمخذ، ثم ٣ - ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ في المحاصر لكي تقتلوهم، وأخيراً ٤ - ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ تضييقاً عليهم كافة مجالات الحرية ولا سيما في البلد الحرام، وكل ذلك إلزاماً

عليهم بما التزموا به منذ الفتح من إسلامهم ثم نقضوه، ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن إشراكهم بالله وإن في ظاهر الحال، ثم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ كقمة من الصِلات مع الله قضيةَ ظاهرة التوحيد، ﴿وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ صلةً مع أهل الله في الصدقات، إذا ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ دونما نقمة عليهم لما سبق منهم، ف ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، حيث القصد من هذه التضييقات هو توبتهم إلى الله وقد حصلت، مهما كانت توبة إسلام الاستسلام نفاقاً، أم لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، فضلاً عن داخل الإيمان، حيث إن سبيل الإيمان هي الخطوة الخطوة.

ذلك، ولقد هددهم رسول الله ﷺ حيث «افتتح مكة ثم انصرف إلى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة ثم ارتحل غُدوة وروحة ثم نزل ثم هجر ثم قال: أيها الناس إني فرط لكم وإني أوصيكم بعترتي خيراً موعدكم الحوض والذي نفسي بيده لتقيمُنَّ الصلاة ولتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلاً مني أو كنفسي فليضربن أعناق مقاتلهم وليسبين ذراريهم فرأى الناس أنه يعني أبا بكر وعمر فأخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: هذا»(١).

إذاً فإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هما أصلان أصيلان من فروع الدين، بعد أصوله الأصيلة، فكما لا يخلى سبيل المشرك عن ضابطة «اقتلوا و»: كذلك تارك الصلاة أو الزكاة، فقد «حرمت هذه دماء أهل القبلة»(٢) وقد يأتي نبأه الفصل بعد حين.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢١٣ - أخرج الحاكم وصححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه قال: افتتح رسول الله ﷺ مكة وفيه أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن الربيع الظفري وكانت له صحبة قال: بعث رسول الله ﷺ إلى رجل من أشجع تؤخذ صدقته فجاءه الرسول فرده فقال رسول الله ﷺ: اذهب إليه فإن لم يعط صدقته فاضرب عنقه.

(٢) المصدر أخرج أبو الشيخ عن الحسن ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥] قال: حرمت وفيه أخرج أبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: فإنما الناس ثلاثة نفر، مسلم عليه الزكاة ومشرك عليه الجزية وصاحب حرب يأتمن بتجارته إذا أعطى عشر ماله.

هنا ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ...﴾ وهناك ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾(١) تحكمان بأن هنا للإسلام سيفاً «شاهرة لا تغمد حتى تضع الحرب أوزارها ولن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها أمن الناس كلهم في ذلك اليوم...»(٢).

أجل «اقتلوا» حين لا علاج لهؤلاء المفتتنين إلّا القتل، فآخر الدواء الكي، قتلاً عاقلاً عادلاً للحفاظ على الأهم في قسطاس الحق بين الجماهير، و«حيث» هنا تعم قتلهم إلى كل مكان حتى الحرم، وكل زمان حتى الأشهر الحرم المعروفة.

ذلك، وفي الحق لا يعني القتال في حقل الإسلام إلا الدفاع عن الحق والوقاية له، رعاية لعادلة السنة الإسلامية في القتال، فقد «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يبعث سَرِّية دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله ﷺ لا تغلوا ولا تُمثِّلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليها وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٢) نور الثقلين ٢: ١٨٧ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأل رجل أبي عن حروب أمير المؤمنين عليه السلام - وكان السائل من محبينا - فقال له أبي: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بخمسة أسياف ثلاثة منها جاهرة لا تغمد إلى: يومئذٍ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وسيف منها ملفوف وسيف منها مغمود سلّه إلى غيرنا وحكمه إلينا، فأما السيوف الثلاثة الشاهرة فسيف على مشركين العرب قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ... فَإِن تَابُوا۟...﴾ [التوبة: ٥] يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين، فهؤلاء لا يقبل منهم إلّا السيف والقتل أو الدخول في الإسلام، وما لهم في ذراريهم سبي على ما أمر رسول الله ﷺ فإنه سبى وعفا، وقبل الغداء.

من المشركين فهو جار يسمع كلام الله فإن تبعكم فأخوكم في الدين وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله عليه»[١].

ثم وليس قتال المشركين إلّا بعد الدعوة الظاهرة الجاهرة المقنعة لحدّ تقطع الأعذار، فإن تمنّعوا عن قبول الدين الحق فهم - إذاً - معاندون مفتتنون، فهنالك الدفاع عن الحق ذوداً عن الفتنة المعاندة.

وليست الحروب الإسلامية - على أية حال - لتعني تفتُّح البلاد، أو حمل أهليها إكراهاً على الدين، إذ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[٢] هي ضابطةٌ عامة لا تستثنى، وإنما تعني تفتُّح القلوب، أو الذود عن فتنة المؤمنين بالله أو المستضعفين، «والفتنة أكبر - أشد - من القتل» فالفتنة التي هي أشد وأكبر من القتل هي من حقوق الدفاع، ويأحرى من فتنة القتل.

ومن وصايا الإمام علي عليه السلام في سنة الحرب: «لا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم»[٣] و«لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم» (٢٥٣) - ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، (٤٣) - «فوالله ما دفعتُ الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضَوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها» (٥٥).

ويقول لابنه الحسن عليه السلام: «لا تدعونَّ إلى مبارزة، وإن دُعيت إليها

---

(١) المصدر في الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار قال: أظنه عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان نور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: . . .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٣) (الخطبة ٢٥١).

فأجب، فإن الداعي باغ والباغي مصروع» (٢٣٣ ح)[١].

ذلك، وهنا ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ مشروط بمثلث التوبة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، إذاً فهلا نخلِّي سبيلهم عن القتال إن تابوا ولم يصلوا أم لم يزكوا؟ وقتال تارك الصلاة أو الزكاة غير وارد في الإسلام على المسلمين.

قد تكون الصلاة والزكاة - وهما ركنان ركينان بين فروع الدين - أمارتين لصادق الإيمان، حيث القصد من التوبة هو صالحها وواقعها دون الإقرار - فقط - بالشهادتين.

إذاً فهل نخلِّي سبيل التائب التارك لهما حين نتأكد التوبة؟ وهذا خلاف النص المقيِّد تخلية سبيلهم بكل هذه الثلاثة! أم نقاتله؟ وهو غير وارد إسلامياً! وقد يقال إن ملاحقة التائب التارك لهما أو لأحدهما هي قضية مفهوم الشرط ولا حجة فيه؟ ولكنه - أولاً - إذا كان مفهوماً فهو حجة لكونه مفهوماً من وجه الخطاب، ثم «اقتلوا» لم تستثن إلا في وجه ذلك المثلث، فهو إذاً تمسكٌ بالعموم لا المفهوم.

ولكن ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ تضيِّق نطاق القتل بحالة الإشراك، فإذا تابوا عنه فلا إشراك حتى يعمه «اقتلوا»، إذا ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ بعد الشرطين الأخيرين هي التخلية الكاملة، ألا تتعرضوا لهم بشيءٍ، فهي دونهما تقتسم

(١) ويكتب إلى أهل الأمصار إعذاراً لقتال في صفين: «وكان بدء أمرنا أنا التقينا والقوم من أهل الشام، والظاهر أن ربنا واحد ونبينا واحد ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، الأمر واحد إلّا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براءٌ، فقلنا: تعالوا نداوِ ما لا يُدرك اليوم بإطفاء الثائرة وتسكين العامة حتى يشتد الأمر ويستجمع، فنقوى على وضع الحق مواضعه، فقالوا: بل نداويه بالمكابرة، فأبوا حتى جنحت الحروب وركَدَت، ووقدت نيرانها وحمست، فلما ضرَّستنا وإياهم ووضعت مخالبها فينا وفيهم أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهم إليه فأجبناهم إلى ما دعوا، وسارعناهم إلى ما طلبوا، حتى استبانت عليهم الحجة وانقطعت منهم المعذرة» (٢٩٧).

حسب انقسام الثلاثة، تخلية عن قتلهم بالتوبة عن إشراكهم، ثم تخلية عن سائر التعرض لهم إن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾.

فقد نلاحقهم لا فقط لإشراكهم، بل ولتركهم هامة الفروع، فلنخل سبيلهم عند التوبة في ملاحقة القتل، ثم سائر السبيل عند إقام الصلاة وإيتاء الزكاة في سائر الملاحقات المحلّقة على تاركي المفروضات وفاعلي المرفوضات.

فقد انقسمت تخلية سبيلهم حسب أقسام التوبة، تخلية لسبيل الحياة بالتوبة، وتخلية لسائر الحرية فيها بالأخيرين، فإنْ تركوا الأخيرين أو أحدهما تبقى الملاحقة لغرض الحمل عليهما باقياً، فهذه الثلاث بالنسبة لمن ظل مشركاً ملاحقة للقتل، ثم لمن تاب وهو تارك للعمودين ملاحقة لسائر المضايقات حملاً عليهما من باب الأمر بالمعروف المفروض بمراتبه.

ثم وقتل المسلم لتركه الصلاة أو الزكاة يحتاج إلى قاطع الدليل(١)

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢١٣ - أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن الربيع الظفري وكانت له صحبة قال: بعث رسول الله ﷺ إلى رجل من أشجع تؤخذ صدقته فجاءه الرسول فرده فقال رسول الله ﷺ: اذهب إليه فإن لم يعط صدقته فاضرب عنقه، وفي آيات الأحكام للجصاص ٣: ١٠١ روى معمر عن الزهري عن أنس قال: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب كافة فقال عمر يا أبا بكر أتريد أن تقاتل العرب كافة؟، فقال أبو بكر: إنما قال رسول الله ﷺ إذا شهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة منعوني دماءهم وأموالهم، والله لو منعوني عقالاً مما كانوا يعطون إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، وفيه روى مبارك بن فضالة عن الحسن قال: لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب عن الإسلام إلا أهل المدينة فنصب أبو بكر لهم الحرب فقالوا: نشهد أن لا إله إلّا الله ونصلي ولا نزكي، فمشى عمر والبدريون إلى أبي بكر وقالوا: دعهم فإنهم إذا استقر الإسلام في قلوبهم وثبت أدوا، فقال: والله لو منعوني عقالاً مما أخذ رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه وقاتل رسول الله ﷺ على ثلاث: شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] والله لا أسأل فوقهن ولا أقصر دونهن، فقالوا له: يا أبا بكر نحن نزكي ولا ندفعها إليك، فقال: لا والله حتى آخذها كما =

وليس، وقد يبعده - إضافة إلى ذلك - أن أهل الكتاب غير داخلين في «اقتلوا» وهم تاركو الصلاة والزكاة وكل الواجبات الإسلامية؟ فكيف يقتل المسلم لتركه إياهما؟

ولكن المرجو من المسلم غير المرجو من غيره كتابياً وسواه، إلا أنا نجدد السؤال بالنسبة لمن هو مسلم يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ثم يتركهما فهل يقتل بذلك؟ ودون إثباته خرط القتاد! ذلك، وقد يعني ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ بعد أن ﴿تَابُوا﴾ الاعتقاد بوجوب الصلاة والزكاة، ثم وتطبيقهما دليل ذلك الاعتقاد، فالذي يتوب عن الإشراك ثم لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة، لا يُعلم منه أنه - حقاً - تاب، إذ ليست لفظة التوبة هي التوبة، إنما هي الرجوع عن عقيدة الإشراك، ثم يُعلم ذلك الرجوع بامارة هامة لتلك العقيدة هي إقام الصلاة وإيتاء الزكاة كرأسين أصليين لزوايا الإيمان عملياً.

فقصارى المستفاد من الآية وجوب قتال المشركين، ومن تاب عن إشراكه هو خارج عن ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ فلا قتل إياه، ثم ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ المشروط «بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» لا يختص بالتخلية من قتلهم، بل وسائر المذكورات معه كـ ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ فهذه الثلاثة الأخيرة هي أعم في التائب التارك للصلاة والزكاة، من القتل،

= أخذ رسول الله ﷺ وأضعها مواضعها، وروى حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين مثله، وفيه روى الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن أبي هريرة قال: لما قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر وارتد من ارتد من العرب بعث أبو بكر لقتال من ارتد عن الإسلام فقال له عمر: يا أبا بكر ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله؟ فقال: لو منعوني عقالاً مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه - وفيه ١٣ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فارقها والله عنه راض.

فيستثنى القتل لخروجه عن الإشراك، ويبقى الباقي لترك العمودين، حيث المفروض أخذ تاركهما بكل مأخذ وحصره وقعود كل مرصد له حتى يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، فإنّ ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ تعني تحريرهم عن كل ما ذكر، فلم يقل «لا تقتلوهم» حتى تختص التخلية بترك قتلهم، إنما هو تحريرهم طليقاً، وليس يحرّر طليقاً تارك الصلاة والزكاة أياً كان.

ثم وهذا النص قصاراه أنه كان يواجه واقعاً متميزاً في مشركي الجزيرة يومذاك، فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإيمان بالإسلام كله، إذاً فالتارك لهذين العمودين - حينذاك - مع ظاهرة التوبة، لم يك يعرف منه صالح التوبة، فقد يكون نفاقاً أم وفاقاً غير صالح.

إذاً فالأشبه أن ترك الصلاة والزكاة دون هذه الملابسات التي تدل على نكرانهما لا يبرِّر قتل تاركهما على أية حال، وما يروى من قتال تاركي الصلاة والزكاة محمول على مواضع النكران لهما، دون تركهما على إيمان وتصديق تساهلاً فيهما وتكاهلاً.

ذلك، ثم المشركون الأفراد الذين لا يجمعهم تجمع جاهلي تصدياً للإسلام وتعرضاً بأهله قتلاً أم إضلالاً، لا يتصدى لهم الإسلام حرب إبادة، بل ويكفل لهم الأمن ترغيباً لهم ليسمعوا كلام الله ثم يُبلغوا مأمنهم تروِّياً يمنعهم عن التردي، وكما يأمر الله سبحانه رسوله بمثل الأمر التالي:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)﴾:

هنا استجارة المشرك المرفوع عنه الأمان عند الملاحقة للقتال هي موضوع لواجب الإجارة، لا فحسب، بل و﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ حيث الاستجارة قد تلمح بأنه متجرٌّ عن الحق المُرام، ولا فحسب أيضاً بل ﴿ثُمَّ

﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ عند أهليه ورَبعه، وطبعاً في غير المعسكر المعادي فإنه ليس مأمناً، و﴿ذَٰلِكَ﴾ المثلث من الرحمة الرحيمة للمشركين المستجيرين ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فعن جهل هم مشركون وإن كان جهلاً مقصِّراً، والجهل القاصر المطلق لا يتصور في الإشراك بالله ولذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١) ثم الجهالة العامدة ممن ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٢) غير مغفور هناك ولا معذور هنا فلا يشمله ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ حيث الإجارة هنا إجارة لعاند عامد لا يرجى منه خير، اللَّهم إلّا إذا احتمل خيره أم - ولأقل تقدير - دفع شره، فهو أيضاً داخل في الإجارة.

وحين تجب إجارة أحد من المشركين عند استجارته، فبأحرى استجارة المجموعة الشركية، ولأن ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طليقة، فكذلك «أجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه ما منه».

فلا تفتكر أنه قد يخدعك باستجارتك كاذباً فلا تأجره، بل تأسره، اللَّهم إلَّا بأكيد الكيد الخطِر اللعين المكين، حيث يعني خطراً على الصف المسلم، فالأصل - إذاً - هو الإجارة بالاستجارة، إلا فيما يستثنى حفاظاً على الأهم من صالح المجموعة المسلمة.

ولكن ﴿أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أياً كان، وهو في إجارة قيادة القوات المسلحة، لا يخشى منه خطرٌ على فرد فضلاً عن المجموعة، فلكي تكون حجة الحق هي العليا قد نجيره لـمَّا يستجير، آمنين عن كيده وميده، ثم ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ حيث الموضوع هو طليق الاستجارة فله طليق الإجارة وإبلاغ المأمن.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

ذلك، فاحتمال أن أحداً من المشركين يستجير لكي يستنير يمنع عن ملاحقته، حيث القصد منها دفع نائرة الفتنة القاطعة، فحين يرجى زوالها جراً إلى الإيمان والرحمة فلماذا بعد استمرار الملاحقة[1]، بل وإذا لا نحتمل فعلَّ الواقع الخارج عن الاحتمال يحتمل تحرِّيه أو تنبُّهه، بل وإذا نتأكد ألَّا خير فيه ولا شرَّ.

وهنا ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قد تفسر المعني من هذه الاستجارة أنها تقصد التحري عن الحق المُرام، ولكن ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ﴾ ليس جزاءً للشرط، إنما هو من الغايات الصالحة للجزاء.

ثم إذا يسمع كلام الله لا ينتظر منه فورُ الإيمان، بل ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ليجيد التفكر ويعيد النظر إجالة له دون عُجالة حتى يرتكن الإيمان في قلبه، وهذه العناية الأدبية هي غاية ما يمكن رعايته منها، تحرياً عن مواضع الاسترشاد فالرشاد، دون رفض للمستجير زعم أنه كاذب أو محتال، فالأصل - على حائطة - صدق المستجير، ما فيه محتَمله ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

وهل هذه الإجارة تختص بالرسول ﷺ؟ أم ومن يخلفه في القيادة الحربية؟ أم تعم كل المؤمنين المحاربين حين تكون الإجارة صالحة لا تحمل خطراً على جيش الإسلام.

«أجره» بعد خطابات جامعة تصلح خطاباً لكل فرد فرد من المؤمنين وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «من استجاركم فأجيروه»[2] و«يجير على

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٥ : ٢٢٦ نقل عن ابن عباس أنه قال: إن رجلاً من المشركين قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: إن أردنا أن نأتي الرسول ﷺ بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي عليه السلام: لا - إن الله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ. . .﴾ [التوبة: ٦].

(٢) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن حم - ثان ص ٩٩.

المسلمين أدناهم»[١] حتى «النساء والعبيد»[٢].

وهنا ﴿كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ الطليق في صيغته، لا يعني طليقاً منه في محتواه، إنما هو ﴿كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ الذي يهديه هدياً صالحاً إلى الله، فتلاوة آيات الطلاق والعدة وما أشبه ليست لتنفع المشرك، إنما هي الآيات المبرهنة لتوحيد الله وصدق هذه الرسالة، حاملة الحكمة والموعظة الحسنة، فإن لكلٍّ مجال مقالاً ولكل مقالٍ مجالٌ.

فقد خصصت هذه الآية - آية: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وخصتها بالمعاندين الذين ليسوا ليسمعوا كلام الله تحرياً عن الحق، فإنما هم فاتنون ضالون مضللون صادُّون عن سبيل الله حيث يبغونها عوجاً، ولأن الفتنة أكبر وأشد من القتل فـ ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[٣] وعلى ضوء هذه الآية تعرف الحقائق التالية:

١ - السمع الصالح لكلام الله للتحري عن الحق يكفي حجة للحق، مما يدل على حجة القرآن البالغة، الدالة على ربانية آياته، وأنها دون أي مساعد آخر يُرشد السالكين المتحرين عن الحق إليه، فقيلة أن القرآن لا يُفهم إلّا بدلالة وتفسير السنة كأصل، إنها غيلة وحيلة على القرآن الذي هو بيان للناس، ولأن المعدات والقابليات مختلفة فعلى القيادة الحربية إسماعه كلام الله لحدّ يُقنعه تماماً دون أي خفاء لكيلا يبقى له عذر في رفض الحق.

٢ - الاستجارة لسمع الحق تفرض على أهله عندها الإجارة الصالحة له، وإتاحة الفرصة بعده حتى يتروى فيما سمع - كما تشير له «ثم» المراخية

(١) المصدر عن حم - ثان ص ٢١٥ و٣٦٥، رابع ص ١٩٧، خامس ص ٢٥٠، هش - ص ٤٦٩، قد - ص ٣٣٩.

(٢) المصدر بعنوان «إجارة النساء والعبيد» عن بخ - ك ٥٨ ب ٩، بد - ك ١٥ ب ١٥٥، تر - ك ١٩ ب ٢٦، مى - ك ١٧ ب ٥٨، عد - ج ٨ ص ٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

لإبلاغه مأمنه - مما يبرهن على أن معرفة أصول الدين ليست إلّا بالاجتهاد قدر الجهد والإمكانية الذاتية، ثم الاستعانة الاستجارة بمن يعرف الحق بصورة مقنعة، فلا تعني الاستجارة هنا فقط فسح المجال بين المستجير وبين سماع كلام الله لمكان القصور الذاتي أو الحالي للبعض من المستجيرين، فعلى أهل الله أن يبينوا كلام الله قدر ما يقنع المستجير.

٣ - وبطبيعة الحال لا تعني ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ مجرد السماع لمجرد الكلام وإن لم يفهم معناه ومغزاه كالذي لا يعرف لغة القرآن، أو يعرفها ولكنه لا يعرف مغازي الكلام لحد تنتجه صالح النتيجة.

٤ - ولأن هذه الآية تحمل فرضاً فطرياً عقلياً صالحاً للدعوة الربانية الصالحة التي لا مرد لها ولا حِوَل عنها، لذلك فلا تتحمل النسخ حيث ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾[1] ولا ملاحقة قبل بيان الحجة وتمامها، فليست أمثال ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾[2] مما تنسخ هذه الآية.

٥ - ولأن الخطاب هنا يخص الرسول ﷺ في ﴿ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ فقد نتلمح قرن البيان الرسولي إلى بيان القرآن، الرسالي، ولمكان ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[3] مما يفرض المحاولة الصالحة المقنعة لكامل السمع لكلام الله، دون مجرد الكلام أيّاً كان ومن أيّ كان مهما يحمل كل القرآن، إنما هو ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[4] يبلغ إلى شغاف أنفسهم، فعلى قيادة الجيش الإسلامي هذه الرعاية الشاملة الكاملة الكافلة لإسماع حجة الحق على ضوء كلام الله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.
(٣) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٣.

٦ - ولأن ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ تفرض السماح لسماع كلام الله، فكذلك في بدء القتال والملاحقة من المفروض الدعاء الحق قبله بما يُقْنِع ثم القتال، فـ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين لم يسمعوا إلى كلام الله، أم سمعوا والتهوا، أم على أية حال لم يقتنعوا أم تمنَّعوا عن سماعه ثم استجاروا ﴿فَأَجِرْهُ﴾ حيث القصد من القتال توجيههم إلى الله بداية أم نهاية وعلى أية حال، فـ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[1].

ذلك، فمجرد احتمال أن المشرك في طريق التحري، ليس فقط ليحرم ملاحقته قتلاً أو حصراً، بل ويسمح للاستغفار له وكما فعله إبراهيم لما سمع آزر يقول: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ فاستفاد من ذلك أنه يعني مهلة للتفكير فاستغفر له، فـ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ﴾[2].

ذلك، وهل تختص هذه الاستجارة بما تعني سماع كلام الله لمكان ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾؟ طليق ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ يطلقها إلى غير هذا المعنى، فقد يعني ذلك الإطلاق اغتنام الفرصة في هذا المجال لإسماعه كلام الله، حيث الاضطرار يحمل الناكر للحق أياً كان ليسمع كلام الله حفاظاً على صالحه المقصود من استجارته، فإذا سمع كلام الله سمع التدبر لا الإدبار ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ إذ لا يُعنى من ﴿يَسْمَعَ﴾ إلّا سمع التفكر والاهتداء دون سواه من سمع لا يغني سامعه شيئاً حيث لا يعني الاستنارة به.

فالمشرك المستجير عند الملاحقة يُجار على أية حال ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

﴿ٱللَّهِ﴾ سواءٌ أكانت استجارته لذلك أم لسواه، فإنما القصد هنا اغتنام هذه الفرصة المتيحة لنا لنسمعه كلام الله، فإن سمع مؤمناً فإلى جيش الإسلام، وإن سمع متردداً مترويًا فـ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ وإن سمع غير سامع فلم تحصل - إذاً - الغاية المعنية من إجارته وهي ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فلا إبلاغ إلى مأمنه، بل هو كسائر المشركين غير المستجيرين، اللَّهم إلا إذا لا يشكل خطراً على الصف الإسلامي، فمجرد استجارته يفرض إجارته.

فالحملة الإسلامية على المشركين ليست حملة إبادة، بل هي حملة هداية ما وجدت إليها سبيلاً، أم إيقافاً لفتنة المشركين.

ذلك، فقد تشمل ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ المستجير الذي سمع كلام الله ولم يؤمن، ولكنه لا ينوي محاربة المسلمين على أية حال، فهذا أيضاً ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ فإنما هنا مسرح واحد لقتالهم هو قتالهم أو اغتيالهم أو تضليلهم المسلمين، وإلّا فلا ملاحقة إلا لاهتدائهم إلى الحق، وإلا فلا سلب - إذاً - معهم ولا إيجاب، حيث القتال إنما يعني إزالة الفتنة، نفسية ودعائية، ولو عني من الاستجارة الاستهداء أم مجال التحري لجيء بلفظه الخاص، دون الاستجارة العامة، فمجرد الاستجارة لأي هدف كان إلا الحيلة الخطرة على المسلمين، إنه موضوع واجب الإجارة ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

فيا لهذه الإجارة الرحيمة من قمة عالية وهمة غالية، حراسة على المشرك لحد إبلاغه إلى مأمنه وهو بعدُ مشرك، ما لم يشكِّل خطراً على كيان الإسلام والمسلمين، سواءً سمع كلام الله سمعَ قبول فإيمان، أو سمع التحري والتروي، أو سمع الخوف دون تقبل وتروٍّ، ولكنه بهذه الاستجارة يعني ابتعاده عن كافة الحزازات ضد الحوزة الإسلامية، وكل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فالعالمون حق الإسلام المعارضون إياه لا إجارة لهم.

ثم مبدأ الإشراك من قضاياه ورزاياه عدم الالتزام بالعهد، فعلى

المسلمين أن يأخذوا حذرهم منهم حالة الصلح كما في حالة الحرب حتى لا يؤخذوا على غِرَّة.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ عليكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ دون أن تعاهدوهم، وليس لهم مبدأً صالح يُلزمهم على عهد صالح لصالح المسلمين، اللّهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ حاسبين حسابكم في معاهدتهم، وهنا ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ في تلك المعاهدة ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ معاملة بالمثل عادلة، قضية تطبيق المعاهدة الإسلامية السليمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إياه عن أية تخلفة في معاهدة وسواها، فلا يحب - إذاً - الناقضين عهودهم وإن مع المشركين القائمين بشروطات المعاهدة، المستقيمين لكم فيها.

فحين يعهد المشركون لكم عهداً أنتم غير قابليه فلا عهد لهم عند الله وعند رسوله، فضلاً عما لا يعهدون، وأما إذا عاهدتموهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أم سواه، فاستقيموا لهم ما استقاموا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهنا ضمير الجمع راجع إلى «المشركين» دون خصوص ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأن ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ ضابطة لا تنحصر في الآخرين، وأن الأولين هم ركن الكلام.

وغير صحيح أن غيرهم إذا استقاموا لم تجب الاستقامة لهم لأن معاهدتكم إياهم ليست عند المسجد الحرام، فلا أن صالح المعاهدة يختص بالمسجد الحرام، ولا أن رعاية العدالة خاصة بهؤلاء المعاهدين في ذلك المكان الخاص، وهنا المقصود صلح الحديبية فقد عنى المسجد الحرام كله.

ذلك ومن قبل ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يسلب الاستقامة لعهدهم حين لا يستقيمون، ثم يفرضها حين يستقيمون كالذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فالعهد المستقيم لزامه الاستقامة قدرها دون حِوَل عنها أياً كان ومن أيٍ كان.

وترى ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا﴾ تتجزأ في أقدار الاستقامة بأجزائها؟ ففيما يستقيمون فاستقيموا وفيما ينقضون فانقضوا إذا كان للمعاهدة بنود.

ولكن ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ قد تنافي التجزؤ، اللّهم إلّا أن «أتموا» وجاه ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ جمع قبال جمع، فإذا أتموا أتِموا، ثم ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ كما وأنه قضية العدالة والمقابلة بالمثل، ثم قد تعمم ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا﴾ فرض ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ وإن بعد موتهم، حيث الأصل لسماح أو فرض قتالهم هو فتنتهم، فحين يستقيمون بعهد ودون عهد فواجب الاستقامة لهم قائم، بل وبأحرى بعد تمام مدتهم، حيث إن الالتزام بالمعاهدة بعد تمام مدتها أدل على سلمهم طيلة المدة.

إذاً ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ قد تعني إلى مدة عهدهم مدةَ الالتزام بالمعاهدة، أم لا مفهوم له أن قاتِلوهم بعد تمام المدة وإن كانوا ملتزمين بما التزموه في نفس المدة.

وهنا «ما» في ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا﴾ إما شرطية مضمَّنةَ الزمان وهي الأشبه، أم زمانية، وعلى أية حال ف «ما» تطلِق شرط الاستقامة بجزائها إلى مدتهم بعد موتهم.

ثم ترى بعد ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ حصر للوفاء بالمعاهدة فيهم؟ ولا حصر واقعياً فيهم! ذلك حصر فيمن يستقيمون، وهؤلاء كانوا مثالاً للاستقامة لمكان ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ فليس للمسجد الحرام

والذين عاهدوكم عنده ميِّزة في ذلك الاستثناء إلّا مصداقية بارزة لهم دون حصر، فما هذا الاستثناء استثناءً بموضوع يفيد الحصر، بل بمصداق بيِّن منه كما في الإيمان عند رؤية الناس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

ثم وضابطة ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ محكّمة لكل هؤلاء الذين يستقيمون في عهودهم، سواء أكانوا من المعاهدين عند المسجد الحرام أم سواه.

فالمبدأ الأول للمشركين أنه ليس لهم عهد عند الله وعند رسوله، فإنهم ناقضوا عهد الله بإشراكهم به، وناقضوا عهد رسول الله بنكرانهم له، فكيف يكون - إذاً - لهم عهد عند الله وعند رسوله للجماعة المؤمنة بالله وبرسوله، فذلك استفهام إنكاري يوقظ المسلمين بأن الأصل فيهم أولاء الأنكاد الأنكاث هو نقض العهود فلا يوثق بهم أبداً، فعليهم اليقظة الدائمة أمامهم حياطة على النقض المرتقب منهم دائماً.

ذلك لأنهم كأصل يكمنون لكم العداء العارم دون رغبة فيكم ولا رقابة عليكم، فالأصل في معاهدة المسلم المحارب عدم النقض فإذا نقض انتقض، ثم الأصل في معاهدة المشرك المحارب النقض، فإذا لم ينقض لم ينتقض، فلا تجوز بدار النقض منا لعهد المشرك قبل نقضه، فإنه - إذاً - حجة علينا واعتداء بغير مثل.

وهكذا يُلزمنا الإسلام بالوفاء بالعهود مع المشركين فضلاً عن المسلمين، ولكن علينا أن نحتاط أمام المشركين المعاهدين إذ ليس لهم عند الله ولا عند رسوله عهد.

وإذا كانت الاستقامة للمعاهدات الإسلامية مع المشركين بهذه المثابة

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.

فماذا ترى في المعاهدات الإسلامية مع بعضهم البعض، فهل يجوز نقضها من طرف واحد بأي سناد؟ كلّا وحتى الرسول ﷺ ليس له ذلك النقض فضلاً عمن سواه مهما بلغ به الأمر.

فلا يبرِّر نقض العهد إلّا نقضه قدره، دون أي مبرر آخر دونما استثناء.

وهنا ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قد يعني إلى صلح الفتح بمكة صلحَ الحديبية إذ لم يسبق لهم معاهدة قبل الفتح إلا فيها مما يوسع نطاق المسجد الحرام إلى الحرم كله، و﴿عِندَ﴾ هنا لأن الحديبية هي على أشراف الحرم وشفيره فإن بعضها في الحرم وبعضها في الحل.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾:

﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهد وهم لا يراعون عهداً عاطفياً إنسانياً بقرابة وما أشبه فلا يرقبون ﴿فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً بمعاهدة، فهم خلو عن كل عهد ﴿إِلًّا﴾ بقرابة و﴿ذِمَّةً﴾ بقرار، فكيف يوثق بهم وهم لا عهد لهم من هذا وذاك؟.

فالإل هو كل ما يقابل الذمة مما تجب رعايته ورقابته من ١ - تحديد فطري أو عقلي أو عرفي، ٢ - أم صفاء ولمع إنساني، أم ٣ - جوار أم ٤ - قرابة نسب أو سبب، فقد جاء الإل بمعاني عدة لا تناسب هنا إلا هذه الأربعة، وأما العهد فهو المعني بـ ﴿ذِمَّةً﴾ ثم «الله» ليس ليعبر عنه بالإل، وأما ﴿ذِمَّةً﴾ فهي العهد الذي يُذم على نقضه، فهو العهد اللزام المذموم نقضه.

إذاً فـ ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ حراسة ورقابة ﴿فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ قرابة أم صفاءً ولمعاً إنسانياً، أم فطرة أو عقلية أو عرفية أماهيه من رقابات أصيلة هي قضية أصل الإنسانية، ثم ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ بمعاهدة وذمام، فهو - إذاً - خواء عن أية مراقبة

لمؤمن فكيف يكون لهم عهد؟! فقد فسدت إنسانيتهم وكسدت حيث حُجبت فِطَرهم وعقولهم وحلومهم وعلومهم عن لمس الحقائق فهم إذاً شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون.

﴿يُرْضُونَكُم﴾ في إلٍ أو ذمةٍ ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ مداهنة لا مهادنة حيث ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ عن أية رقابة لأي إلّ أو ذمة، وعلى الجملة كأصل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متخلفون عن كل وثاق ووثيقة، مهما كان لأقلهم إلٌّ أو ذمة كالذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

ف ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هنا لا يعني مطلق الفسوق فإن كلهم فاسقون عن طاعة الله وشرعته، فإنما حكم الأكثرية هنا يختص بحقل رقابة إلّ أو ذمة.

فهؤلاء لا يسالمونكم أو يعاهدون إلا مضطرين ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ غَلَباً في المعركة أم في القوة «لا يرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمة وأكثرهم فاسقون» خارجون عن أي إل أو ذمة.

فهم - إذاً - لا يقفون في التنكيل بكم لحد حتى المتعارَف في أية بيئة إنسانية، متجاوزين كافة الحدود والأعراف، وهم أولاء الأنكاد الأغباش:

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩)﴾:

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أنفسية وآفاقية، رسولية ورسالية، هذه الآيات المرئية لهم المعروضة عليهم، اشتروا بها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من متعة الحياة الدنيا، وكل ثمن أمام آيات الله قليل.

وبالنتيجة ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أنفسَهم وسواهم، فأصبحوا في قالهم وحالهم وفعالهم صداً عن سبيل الله على أية حال، في كل حلّ وترحال، فهم يحملون أصول الفتن وأثافي المحن والفتنة أكبر وأشد من القتل، فقاتلوهم يعذبهم الله ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هناك «لا يرقبون فيكم» اللامحة لخصوص المؤمنين الحضور، وهنا «في مؤمن» طليقة تشمل كل مؤمن على مد الزمن إلى يوم الدين، انتقالاً عن خاص إلى عام كيلا يخيَّل إلينا أن هذه العداوة خاصة بجماعة خصوص من المؤمنين.

هنا ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ وأمثالها لها نطاق واسع يعم إلى الذين ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كل هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله، وأفضل سبل الله هو القرآن وعلى ضوئه رسول القرآن.

فقد يُصد عن القرآن تكذيباً له وتزييفاً لموقفه، وهذا هو الكفر الجاهر المستهتر، أم يُصد عنه بطرق ملتوية تنقباً بنقاب الحفاظ على حرمة القرآن، والحياد عن المسّ من كرامة القرآن كالقيلات الغيلات التالية:

١ - القرآن ظني الدلالة وقطعي السند، والحديث قطعي الدلالة وظني السند.

٢ - في أن ظواهر القرآن حجة أم لا اختلاف بين العلماء، فكيف يستدل بما فيه خلاف.

٣ - آيات القرآن مجملات هي بحاجة إلى تبيان بالحديث، فالأصل هو الحديث حيث يفسر القرآن! ذلك وما أشبه من هرطقات تعني أن القرآن ليس بياناً ولا تبياناً، بالرغم من أنه في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة، فهو يحمل أبين بيان وأفضل تبيان، فـ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١) - ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾(٢).

أو ليس نكران أن القرآن بيان للناس، وجعله في بوتقة النسيان، وإبعاده

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٧.

عن أمته وحوزته، أليس ذلك صدفاً عنه أن يجعل في زاوية منعزلة عن ناسه بأساسه.

ثم وكتمان أن القرآن بيان للناس وتبيان يستجر لعنة ربانية على الكاتمين فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[١].

فليس يختص كتمان الآيات البينات أن تكتم عن بكرتها، بل وكتمان أنها بينات بدعايات كالتي سلفت وما أشبه، إنه كتمان كسائر الكتمان مهما اختلفت دركاته.

فالقرآن بنفسه بينة قضية قمة الفصاحة والبلاغة البيانية، المنقطعة النظير، ثم ويصرح في آيات أنه بينة من الله كافية ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٢].

فكما أن الكفر بهذه الآيات فسق كافر، كذلك الكفر بكونها بينات مع الاعتراف بكونها آيات، إنه كما هو فسق فاسق، مهما اختلف فسق عن فسق، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾[٣] ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ...﴾[٥].

إذاً فهؤلاء الذين يفصلون بين القرآن وبين حوزته وأمته، أنهم ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٩.
(٣) سورة الحج، الآية: ١٦.
(٤) سورة النور، الآية: ٤٦.
(٥) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[١] وهم ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ والصادون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، وهم الظالمون: فـ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۝١٩﴾[٢] وهم أولاء في ضلال بعيد: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[٣] ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾[٤].

أجل، إن كتمان أن القرآن بيان كتمان للقرآن، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾[٥].

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ١ - الذين ليس لهم عهد عند الله ورسوله، ٢ - ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟﴾ ٣ - ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ٤ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، ٥ - ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، ٦ - ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾، ٧ - ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾.

هؤلاء الأنكاد البعاد عن كل شؤون الإنسانية، الحاصلون على هذه الدركات السبع الجهنمية، كأنهم ﴿هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ فقط لا سواهم، حيث ركزت فيهم جذور الاعتداء، واستأصلت جذور الاهتداء، فكيف يكون - إذاً - لهم عهد عند الله وعند رسوله؟

وهم على هذه الأوصاف النكدة علّهم لهم منفذ إلى رحمة الله حيث تستقبلهم بشارة الله:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة هود، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾:

فطالما الأخوة في الدين هي التي بين المؤمنين، فقد تشمل هؤلاء المشركين شريطة التوبة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما فصلناها من ذي قبل، وهي الأخرى بين المؤمنين وأدعيائهم غير المعروف آبائهم: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ... ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾[1] ثم لا رابع إلّا اليتامى، ولكنهم لأنهم صغار غير مكلفين لم يصرح لهم بالأخوة في الدين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ﴾[2] ولكن نسبتهم إلى المؤمنين في الأخوة قد تجعلهم إخوة في الدين، ما تتطلبه هذه الأخوة وراء التكاليف الخاصة بالمكلفين، فعليهم أن يراعوهم بأخوة في الدين، وليس عليهم أولاء لصغرهم فرض في حقل الأخوة الدينية، اللّهم إلّا ما يفرض على أوليائهم من تأديبهم وتدريبهم على الدين.

وحين تثبت الأخوة في الدين بين المؤمنين ككل[3] وحتى بالنسبة للقاصرين فهلّا تثبت بين فريقي المسلمين شيعةً وسنةً أماهيه من الفرق، وهم ككل حاصلون على هذه الثلاثة، وحتى التاركين منهم للصلاة والزكاة، المصدقين لهما، هم غير خارجين عن هذه الأخوة الشاملةَ ربع الإيمان، فقد تثبت حرمة اغتيابهم بعضهم بعضاً بنص آية الحجرات منضمة إلى هذه الآيــات ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٞ﴾[4] و﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤، ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

(٣) في تفسير العياشي جابر عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ [التوبة: ٥] يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[١].

فقيلة حلية اغتياب أهل السنة غيلة على وحدة الأخوة الإسلامية، وحيلة لوهْدتها أعاذنا الله من سوء الفهم والعصبية الجاهلة العمياء!، فإنما ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

فحين يصبح المؤمنون الجُدَد - على سوابقهم المزرية - ثم الأدعياء غير المعروف آباؤهم، حين يصبح هؤلاء وهؤلاء ومعهم يتاماهم إخواناً لهم في الدين، أفلا يكون سائر المسلمين إخواناً لنا نحن الشيعة الإمامية، زعم أن الإيمان فالأخوة الإيمانية تختص بنا، ويكأن آيات الإسلام والإيمان والأخوة الإيمانية تخاطبنا فحسب دون سوانا؟! وهكذا الغلطة المغلَّظة بين جمع من إخواننا السنة حيث يرفضون أخوتنا الإيمانية، أم ويفضلون اليهود والنصارى علينا! وهكذا نزغ شيطان الاستعمار والاستحمار بيننا لحد جعلنا شذر مذر، تاركين لوحدة الاعتصام بحبل الله هابطين لوهدة الانقسام عن حبل الله، عاملين على بث الخلافات وحثِّها فيما بيننا، وهذه هي بغية أعدائنا لكي يكونوا علينا - المتفرقين المفترقين - ظاهرين قاهرين! والقول إن إخواننا فاسقون في عقيدة الدين متجاهرين، فهم ممن يحل اغتيابهم؟ غول من القول، حيث الفسق المتجاهر به في حقل حلّ الاغتياب هو الذي يعترف صاحبه بأنه فسق، ثم لا يبرِّر سائر الفسق المستور أن يغتاب فاسد العقيدة فيه، والأكثرية المطلقة من إخواننا قاصرون وإن كان عن تقصير، فليسوا هم يعاندون الحق فينكرونه لعنادهم، بل هم حسب بيئتهم وملابساتهم ظلوا في تلكم العقائد، وعلى الدعاة إلى الله أن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن.

ولو حلت الغيبة بين فرق المسلمين لفرقت بينهم أكثر مما هم متفرقون،

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

وهم مأمورون بالوحدة قدر المستطاع، اعتصاماً بحبل الله جميعاً دون تفرق وتمزق، فكيف يجوز اغتيابهم فيما هم غير متجاهرين من فسوق، أم هم غير مقتنعين أنه فسوق، فمن شروط الأمر والنهي ثم جواز الاغتياب، أن يكون الواجب والمحرم واضحين للمأمور والمنهي وضح النهار، فإن تخلف بعد فأمر أو نهي، ثم إن أصر وجاهر فإصرار في الحمل على شرعة الله وجهار في عرض مآسيه عله ينتهي.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾:

هنا نكث اليمين والطعن في الدين يُردفان عطفاً مما يدل على أن ذلك العهد المؤكد باليمين كان على المحايدة تجاه الدين، ألا يحارِبوا المؤمنين في الدين، ولا يطعنوا طعنة أخرى في الدين كالدعاية ضده أو مظاهرة عدو على المؤمنين، فعند نكثهم وطعنهم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ الناكثين الطاعنين، ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ قاتلوهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ عن كفرهم، أم - لأقل تقدير - عن نكثهم وطعنهم.

وهنا تبرز من ملامح الحرب الإسلامية أنها فقط حرب دفاعية أمام الهجمة الكافرة على نفوس المؤمنين أم على عقائدهم وسائر نواميسهم، فحين ينتهون عن الطعن في الدين فلا قتال، كما لا قتال حين لا يقاتلونكم.

ولأن الأصل في نكث اليمين والطعن في الدين بين جموع الكافرين، هو من أئمة الكفر دون المأمومين لهم، لذلك ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ وطبعاً بمن يساندهم من هؤلاء الأتباع الأغباش ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ والقصد الأصيل في ذلك القتال ليس هو الانتقام، بل الانتهاء عن النكث والطعن في الدين، ثم علياه هي الانتهاء عن الكفر.

وقد تشمل ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ - جرياً - كل من يحمل راية الضلالة

والمتاهة كأصحاب الجمل ومن أشبه حيث يشكِّلون على الإسلام خطراً علَّه أخطر ممن سواهم من الكفار الرسميين[(١)].

ذلك، ففرض قتال أئِمة الكفر طليق على أية حال، فإنهم بطبيعة حالهم الشريرة يؤمُّون الكفر بكل بنوده السلبية للإيمان والإيجابية لنفسه، قتلاً للأنفس وطعناً في الدين بكل ما يملكونه أو يُمَّلكون من طاقات وإمكانيات في مؤاتية المجالات.

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٨٨ في قرب الإسناد للحميري عن حنان بن سدير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم: كانوا من أئمة الكفر، إن علياً عليه السلام يوم البصرة لما صف الجمل قال لأصحابه: لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة هل تجدون علي جوراً في حكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفاً في قسم؟ قالوا: لا، قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فأقمت فيكم الحدود وعطلتها في غيركم؟ قالوا: لا، قال: فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث، إني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف، ثم ثنى إلى أصحابه فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة واصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت، ورواه العياشي عن حنان بن سدير عنه عليه السلام أقول: مغتصبو الخلافة هم من أهل هذه الآية ولكن الملابسات منعت الإمام عن القيام بالسيف أمامهم.

وفي أمالي المفيد بإسناده عن أبي عثمان مؤذن بني قصي قال سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله: عذرني الله من طلحة والزبير، بايعاني طائعين غير مكرَهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثم تلا هذه الآية، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن وفي حديثه قال بكير: فسألت عنها أبا جعفر عليه السلام فقال: صدق الشيخ هكذا قال علي هكذا كان وفيه عن العياشي عن الحسن البصري قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه السلام على هذا المنبر وذلك بعدما فرغ من أمر طلحة والزبير وعائشة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: يا أيها الناس والله ما قاتلت هؤلاء إلا بآية تركتها في كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم . . .﴾ [التوبة: ١٢] أما والله لقد عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا علي لتقاتلن الفئة الباغية والفئة الناكثة والفئة المارقة.

فالقادة الأئمة هم بين أئمة الإيمان وأئمة الكفر، فلا بد لأئمة الإيمان برَبْعهم أن يقاتلوا أئمة الكفر بربعه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] فـ ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هنا ظاهرة بديل ضمير: «فقاتلوهم» عبارة قاصدة لموضوعية إمامة الكفر لفرض القتال مهما لم يكن نكث لأيمان وسواها.

وهنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ تعني - لأقل تقدير - الانتهاء عن إمامة الكفر فتنة وإفساداً على المؤمنين وسائر المستضعفين، ثم انتهاءً عن أصل الكفر، وإذاً فهم إخوانكم في الدين.

ثم ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ بعد ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾ تعبير قاصد إلى أن أيمانهم لم تكن أيماناً قاصدة صادقة، فإن طبيعة حال الأيمان هي الوفاء دون النكث، فالأيمان المنكوثة ليست في الحق بأيمان، وإنما هي قالتها دون حالتها وفعالتها، وصرف القالة في اليمين قالة غائلة.

هؤلاء أئمة الكفر وهم دركات، كما وأئمة الإيمان درجات علياها الأئمة من آل الرسول ﷺ، الأعزة عند الرسول وعلى حد تعبيره ﷺ: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش»[٢] و«الأئمة من المهاجرين»[٣].

وترى ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ تختص واجب قتال أئمة الكفر - فقط - بما إذا نكثوا وطعنوا، فغير المعاهد الطاعن لا يقاتل؟ ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ موضوعاً لـ﴿قَٰتِلُوٓاْ﴾ تكفي دليلاً أن لها الموضوعية التامة الطامة في حكم واجب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) مفتاح كنوز السنة بخ - ك ٩٣ ب ٥١ ومس - ك ٣٣ ح ٥ - ١٠ وتر - ك ٣١ ب ٤٦ وحم أول ص ٣٩٨ قا ٤٠٦، خامس ص ٨٦ و٨٧ و٩٣ و٩٤ و٩٥ و٩٦ و٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ و١٠١ و١٠٦ و١٠٧ و١٠٨ وط - ح ٧٦٧ و١٢٧٨.

(٣) المصدر ط - ح ٩٢٦ و٢١٣٣.

القتال، فسواءٌ في ذلك المعاهَد الناكث وغير المعاهَد ما دام الطعن في الدين بإمامة الكفر قائماً، فذلك - إذاً - حكم يحلق على كافة أئمة الكفر الطاعنين في الدين للطول التأريخي والعرض الجغرافي.

ذلك، ومن أبرز النكث للإيمان فالطعن في الدين هو نكث يمين الإيمان المدعى ارتداداً عنه جاهراً، مما يفت عضد الدين ويضعف ساعد اليقين حيث يخيَّل إلى بسطاء المؤمنين أنهم ارتدوا عنه بما وجدوا فيه من خلل فجحدوه لهذه العلل وما نجدوا، وهو طعن في الدين وقلوب الديِّنين، طعناً عملياً يعمل في إضلال البسطاء سراعاً، ودليلاً باهراً على الشمول إضافةً إلى ظاهرة العموم، أن ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ هنا بعد ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ فهو في الأصل نكث بعد التوبة، ثم يشمل كل نكث، ثم كل إمامة للكفر، وقد سبق ذلك النكث ما يعممه تماماً، فسابق ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ مع «إن تابوا» مرتين، دليل باهر لذلك التعميم.

فلا تختص ﴿أَيِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ بمن يطعنون في الدين وهم كفار جاهرين، بل وأنحس وأنكى منهم كبراء بزعم الناس، يُظهرون الإيمان مضمرين الكفر ثم يرتدون، وذلك كاف في زعزعة إيمان البسطاء المستضعفين.

إذاً فنكث الأيمان يشمل نكث الإيمان - وبأحرى - لأنه أيضاً يمين من الأيمان، بل وأحرى مما سواه من أيمان، فقضية طليق ﴿أَيِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ بنقض الأيمان والطعن في الدين هي وجوب قتال كل من يحمل مشعل الضلالة والطعن في الدين، ملحداً أو مشركاً أو كتابياً أم ومسلماً يحمل ما يحملون بل هو أخطر وأنكى، فأصحاب البدع الجاهرة، الذين يُبدعون خلاف الضرورة من شرعة الحق هم من أئمة الكفر، وترى إذا انتهى المرتد عما فعل وأبرز الإيمان، فهل يثبت قتاله بعدُ أم لا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ حيث

تُنهي قتالهم لغاية انتهائهم، دليل نفيه عندئذٍ، اللَّهم إلَّا أن يدل قاطع الدليل على استثناء المرتدين.

وهل للكافر يمين لمكان ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ حيث النكث لها دليل واقعها؟ أم لا - لـ ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾؟ إن لهم يميناً ما لم ينكثوا، فحين نسمع منه يميناً لا نتأكد كذبه فقد نعامله معاملة صادق اليمين على حذر لأنهم - كأصل - لا أيمان لهم، إذ لا مولى لهم به يحلفون.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾:

هذه الآية بما بعدها تواجه ما حاك في نفوس ضعيفة لم يتعرق الإيمان بعد فيها، من تردد وتهيُّب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة الجاسمة القاصمة، ومن تعلل ورغبة وتَعلّة في أن يفيء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل، ومن خوف على نفوسهم ومصالحهم، ركوناً إلى أيسر وسائلهم في مسائلهم.

فالقرآن يواجه هذه المشاعر بملابساتها الملبَّسة على أصحابها، والتعِلَّات والمخاوف المحلقة عليها، استجاشة لقلوب المؤمنين بذكريات وأحداث ورغبات صالحة، تذكرة بنقض المشركين عهودهم بعد إبرامها وسائر ما افتعلوه بحق الرسول ﷺ والذين معه.

وهنا سرد مختصر غير محتصر لثالوث أئمة الكفر: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ - ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ وكل واحدة من هذه الثلاثة تكفي في فرض قتالهم فضلاً عن الثالوث كله.

و﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ استفهام إنكاري ممن يتهاون ولا يتعاون في قتال هؤلاء الناكثين البادئين في الحرب وقد ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ مما يدل على مدى تعرق الكفر في نفوسهم النحيسة البئيسة.

١ - ﴿نَكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ مع الرسول - كما هو شيمتهم الشنيعة -: نقضاً لعهد الحديبية فـ «إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً. . . فقاتلوهم للضغن على رسول الله ﷺ. . . »[1] وكان ﷺ قد قبل من شروطهم ما حسبه الخليفة عمر قبولاً للدنية! ثم وفى لهم أحسن الوفاء وأدقَّه، ولكنهم نقضوا عهده ﷺ وخاسوا به بعد عامين لأول فرصة سانحة.

٢ - ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ مرات عدة، يوم الندوة، ويوم

(١) الدر المنثور ٣: ٢١٥ - أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا: كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش أن من شاء أن يدخل في عقد النبي ﷺ وعهده دخل فيه ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا: ندخل في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: ندخل في عقد قريش وعهدهم فمكثوا في تلك المداهنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً بماء لهم يقال له الوتير قريب مكة فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد ﷺ وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ وركب عمر وابن سالم عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات أنشده:

اللّهم إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه ألا تلدا
كنا والداً وكنت ولداً ... ثمت أسلمنا ولم نزع يدا
فانصر رسول الله نصراً اعتدا ... وادعوا عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن شئتم حسناً فوجهه بدر بدا
في فيلق كالبحر يجري مزبداً ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وزعموا أن ليس تدعو أحدا
فهم أذل وأقل عدداً ... قد جعلوا لي بكداء رصدا
هم بيتوا لنا لهجير هجداً ... وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم فما برح حتى مرت غمامة في السماء فقال رسول الله ﷺ: إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد وكتمهم مخرجه وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم.

الشعب، وليلة الفراش التي انتهت إلى الهجرة، ثم وكل أيامهم كانت تحمل هماً بالغاً قالاً وحالاً وفعالاً لإخراج الرسول ﷺ عن عاصمة الدعوة، وذلك أنحس وأنكى ما حصل منهم طول همومهم بخصوصهم وعمومهم، ثم ولم يكونوا يكتفون إخراجَه بإخراجِه عن مكة، بل وهموا بإخراجه أيضاً عن المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والاجتماع على قصده بالقتل، فهمهم لإحراجه في المدينة همٌّ لهم لإخراجه عنها كما أخرجوه عن مكة المكرمة.

٣ - ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدءاً بالقتال والنكال منذ بزوغ الدعوة، ومن ثم بعد الهجرة خلال بضعة أشهر، في حرب بدر التي أصبحت - خلاف قصدهم - بادرة القوة الإسلامية ضدَّهم.

فلقد بيتوا عليه في بيت الله الذي يأمن فيه القاتل والسارق، فمحمد ﷺ لا أمان له في ذلك البيت الأمين لأنه يدعو إلى الهدى، ويردهم عن الردى، بيتوا عليه على حريته وعلى دمه دونما تحرُّج ولا تذمم، وبكل تهرُّج، حتى أخرجوه عن مكة بعد كل ما أحرجوه، ثم أصروا على إبادته في مهجره بقيادة أبي جهل في بدر، ثم قاتلوهم بادئين في أحد والخندق، ثم جمعوا لهم في حنين ولا يزالون وكما قال الله:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[1] مما يبين الطبيعة الشركية النكدة اللئيمة.

وكما هم بدؤوكم في قصة خزاعة، والبادئ بالقتال يحق قتاله على أية حال.

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾ هؤلاء الأنكاد البعاد؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أنتم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فأتمروا بأمره ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ به ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

و«من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»، فلا يُخاف في سبيل الله أيُّ مخيف إلا الله الذي يأمرنا أن نسلك سبيله دون خوف ممن سواه.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾:

هنا ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ دون «صدوركم» أو «صدور المؤمنين» ككل، مما يلمح بنزول الآية بشأن ناقضي عهد الحديبية حيث إن بني بكر وثبوا على خزاعة الداخلين في عقد رسول الله ﷺ وأثخنوهم قتلاً وجرحاً وتشريداً.

أجل ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أولاء الناقضين، وبالنتيجة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ القوية بالإيمان، وقلوبكم الندية بالإيمان ثم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ كما أخزوا فريقاً من المؤمنين ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ بصورة قاطعة لا قِبَل لهم بها، ثم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ مظلومين مهضومين ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ الغائظة على تلك الحالة المخزية المزرية ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ منكم مقاتلين ومن هؤلاء المظلومين المقتص لهم، ثم ومن الناقضين الذين قد يتوبون إلى الله عما نقضوا وأبغضوا الله ورسوله حين يرون نصراً كمؤمنين، إحساساً لهم أنهم منصورون بغير ظاهرة القوة الحربية، فتفتح بصيرتهم على الهدى.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل ما حصل ويحصل وما هو صالح أم طالح لكم ولمن سواكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بالعواقب المخبوءة وراء هذه التقدمات، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يأمر وينهى ويقضي ويقدر، ﴿حَكِيمٌ﴾ يقدر نتائج الأعمال والحركات والنيات.

ذلك، فطبيعة الحال تقضي بأن المؤمنين تغيظ قلوبهم بما يلمسون من مثل ذلك الكبت الشديد والنقض العنيد، فذلك العذاب بأيديكم المؤمنة

والخزي للناقضين ونصرتكم عليهم، إن فيها لشفاءً لصدورهم عما جرحت وضيقت وحرجت، وإذهاباً - بالنتيجة - لغيظ قلوبهم.

ولقد تجري هذه الآية فيمن يدعي الإسلام، وهو ناقض لعهده مفض يديه منه حيث يعامل المسلمين كما يعامَل الكافرون»(١).

وترى ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ لا تنافي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾(٢) وإن الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل؟

العذاب المسلوب كما قدمناه هو عذاب استئصال وما أشبه بيد القدرة الربانية دون سيط الإنسان، ثم العذاب هنا ليس حسب الحساب المخصوص بالأخرى، إنما هو شطر ضئيل منها تتقدم هنا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والقتل والحصر والتشريد وما أشبه، كما الحدود والتعزيرات، هي عذابات مأمور بها بأيدي المؤمنين على المتخلفين عن شرعة الله تأديباً لهم وتأنيباً وردعاً وتقليلاً للفساد.

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٩٠ عن تفسير العياشي عن علي بن عقبة عن أبيه قال: دخلت أنا والمعلى على أبي عبد الله عليه السلام فقال: ابشروا أنكم على أحدي الحسنيين شفى الله صدوركم وأذهب غيظ قلوبكم وأنا لكم على عدوكم وهو قول الله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وإن مضيتم قبل أن يروا ذلك مضيتم على دين الله الذي رضيه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ولعلي عليه السلام، وفيه عنه أبي الأغر اليمني قال: إني لواقف يوصفني إذا نظرت إلى العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شاكٍ في السلاح على رأسه مغفر وبيده صفيحة يمانية وهو على فرس أدهم إذ هتف به هاتف من أهل الشام يقال له عرار بن أدهم: يا عباس هلم إلى البراز، قال: ثم تكافى بسيفهما ملياً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته إلى أن لاحظ العباس وهياً في درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي وخرّ الشامي صريعاً بخده وأمّ في الناس وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض فسمعت قائلاً يقول: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ﴾ [التوبة: ١٤] الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

ذلك «وقاتلوهم» هذا قد يمتد أمره إلى فتح مكة التي تجمع كل هذه المواصفات، فسائر الحروب الفاتحة لم تكن تحمل منها إلا يسيراً قصيراً، وإنما فتح مكة هو الذي حمل كل هذه المواصفات لقبيل الإيمان.

وهنا ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ في إذهابه رحمة عليهم خروجاً لقلوبهم عن التغيظ التضيق بما أصيبوا من مكائد الكفار، فهي رحمة صالحة لهم، وهناك غيظ آخر في ذهابه رحمة عليهم وعلى الآخرين الذين يجب كظم الغيظ عنهم لكونهم مؤمنين، وهذا مجال قول النبي ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ في الله»[1].

والقصد من جرعة الغيظ هنا الصبر عند الاهتياج، واللطم عند الانزعاج، وترك اتباع نوازع النفس إلى ما تدعوا إليه في تلك الحال من شفاءِ غيظ، أو تنفيس كربٍ، أو إطلاق عقال، أو فعل مراقبة لله سبحانه تنجزا لثوابه، واحتجازا عن عقابه، فشبه ﷺ تلك الحال بالجرعة، كأن الإنسان بالكظم لها والصبر عليها قد ضاق بها مرارة، وأساغ منها حرارة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[3] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[4].

---

(١) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (٩٦).
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ لحالكم دونما ابتلاء وامتحان وتمحيص ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾(١) عَلْماً وعلامة بواقع الجهاد الذي هو علامة النجاح، كما أن تركه علامة السقوط، فلهذه المجاهدات المفروضة أبعاده، منها تميُّز المجاهدين الواقعيين عن المدعين الجهاد «يقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد».

و﴿جَاهَدُوا﴾ الطليقة هنا تعم الجهاد الأنفسي إلى الآفاقي والآفاقي إلى الأنفسي، وجهاد النفس هو أعظم، وهو أتم مهاد لجهاد سائر الأعداء، ولا يعني جهاد النفس قتل النفس الأمارة بالسوء، إنما هو جعلها سليمة أمام العقلية الإيمانية، خارجة عن طيشها وعيشها المتخلف عن شرعة الله، فتفسير جهاد النفس بقتل النفس غلط رائج دارج لا يعبأ به! ﴿جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ أية وليجة تلج في صفوفكم وصنوفهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ فالوليجة الربانية هي المعرفة التقية، والتقوى المعرفية أماهيه، الوالجة في قلوبهم والحاكمة في صفوفهم، ثم من الوليجة الرسولية تقبُّل قيادته العليا من الله، ومن ثم الوليجة الإيمانية ولوج المؤمنين بعضهم في بعض، مندغمين مع بعضهم البعض صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وليس ذلك الامتحان ليعلم الله الذين جاهدوا منكم إلّا عَلماً لا عِلماً ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فـ «يا معشر الأحداث اتقوا الله ولا تأتوا الرؤساء، دعوهم حتى يصيروا أذناباً، لا تتخذوا الرجال ولائج من دون الله أنا والله خير لكم»(٢) و«إياكم والولايج فإن كل وليجة دوننا فهي طاغوت - ند»(٣).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٩١ في تفسير العياشي عن ابن أبان قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ثم ضرب بيده إلى صدره.

(٣) المصدر عن أبي الصباح الكناني قال قال أبو جعفر عليه السلام:

وهكذا فإن كل سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة منقطع إلّا ما أثبته القرآن[١] ولأن «المؤمنين» درجات فأولج الولايج منهم وأبهج المناهج هم ولاة الأمر المعصومون عليهم السلام، فإنهم استمرارية كاملة شاملة لكيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بينهم[٢].

فكما الوليجة الرسولية هي - فقط - «رسوله» كذلك الوليجة الرسالية بعده ولوجاً قيادياً بينهم ليسوا إلّا خلفاءه المعصومين عليهم السلام، ومن ثم الدرجات التنازلية لسائر المؤمنين قضية صالح الملابسات والمناسبات.

فمما لا مرية فيه أن الإنسان أياً كان لا يقدر أن يعيش عيشة صالحة بشخصه مهما كان شخيصاً محيصاً، اللَّهم إلَّا بوليجة ربانية تلج قلبه وفكره، مرشداً أو مناصراً ليكون على بصيرة ومسيرة فمصيرة صالحة لأمره في حياته.

فالمجاهدون من المؤمنين في مختلف حقول الجهاد هم الذين لا يتخذون وليجة في جهادهم وجهودهم إلّا «الله - ورسوله - والمؤمنين» فوليجة الله - كالإخلاص له فيه - دائبة لا تنفصل إلا بانفصال الإيمان، وطالما الوليجة الرسولية منفصلة بانفصاله عنا ولكنها الوليجة الرسالية مستمرة معنا، في كيانه الرسالي بسنته صلى الله عليه وآله وسلم والآخر المتمثل في عترته عليهم السلام، ومن ثم الوليجة الإيمانية من المؤمنين على كتاب الله وسنة رسوله، فمتخلفة الولايج من المؤمنين مرفوضة، والصالحة منها مفروضة، ولتكون هذه الولايج النيرة الربانية زاداً صالحاً في هذه السفرة الشاقة البعيدة المليئة بالأشلاء والدماء، كما أن ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣] راحلتهم التي ترحلهم.

---

(١) المصدر عن أصول الكافي عن أحمد بن محمد بن خالد مرسلاً قال قال أبو جعفر عليه السلام:

(٢) المصدر عن أصول الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يعني بالمؤمنين الأئمة عليهم السلام لم يتخذوا الولايج من دونهم.

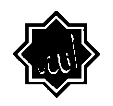
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

فكما أن جهاد المؤمن محصور في سبيل الله، محسور عما سواها وسواه، كذلك وليجته في جهاده هي وليجة الله ابتغاء رضاه ورجاء لطفه تعالى في غناه، ثم وما يرضاه من الرسول والمؤمنين، وذلك هو الجهاد الصالح دون سواه، فقد انتقشت كلمة لا إله إلّا الله في زادهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا سواه، وراحلتهم ﴿وَلِيجَةً وَاللَّهُ﴾ لا سواها.

وعبارة أخرى عن ﴿وَلِيجَةً﴾ هي ﴿بِطَانَةً﴾ فـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

ذلك «وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله»[2].

فعلى المؤمن أن يتزود في قلبه ونيته وليجة الله، وفي كيف يجاهد؟ وليجة رسول الله ﷺ فإنه الذي يدل إلى صالح الجهاد بوحي الله، ثم وليجة المؤمنين بالله شرط الموافقة للأوليين كتاباً وسنة، تعاوناً معهم في سبيل الله، وذلك المثلث يرسم له هندسة صرح الجهاد الصالح، فلا نكسة فيه ولا ركسة بإذن الله.



(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٢٠٨ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾:

«ما كان لـ » حظر حظير في موقف حذير سلباً للأهلية عن قالة أو حالة أو فعالة، كلما ذكرت فيه منها، وعمارة المساجد من هذه المحظورات للمشركين ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ هنا «الكفر» يعمم التحريم من المشركين إلى سائر الكافرين، فذكر «المشركين» إذاً يعني أنحس مصاديق الكفر.

وعمارة المسجد الحرام في ثالثة الآيات كـ ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ هنا تعم إلى عمارة بنيانه عمارة الحضور فيه تطبيقاً لطقوس كافرة أم أي حضور وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ..﴾»(1).

و«المشركين» هم أنحس مثال في ذلك الحظر، دون اختصاص له بهم، وقد يؤيده إضافة إلى ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ حيث الحبط يعم المشركين إلى كل الكافرين، فلا يسمح لهم ككل في عمارة مساجد الله ككلّ، إضافة إلى الحصر: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مهما كان حصراً في أرجح السماح لعمارة المساجد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، فكما ليست لهم أعمال ينفعهم في الآخرة، كذلك ليست لهم أعمال تسمح لهم بعمار المسجد الحرام وسائر مساجد الله، ولا لهم أعمال في مساجد الله تنفعهم، بل وهي تضرهم لأنها تخلفات عن شرعة الله الحاضرة الناسخة لما سواها، فـ :

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾:

---

(1) الدر المنثور ٣: ٢١٩ - أخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ :

إن بيوت الله خالصة لله، خاصة بعباد الله في عبادة الله، فكيف يعمرها من لا يعمر قلوبهم بتوحيد الله، فما هي الصلة بين من يسجد للأصنام ومسجد الله لعباد الله؟! أم يسجد للمسيح أم سواه زعم أنه عبادة الله؟ فلا يصلح غير المؤمن بالله أن يعمر مساجد الله، وإنما «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ» هم الصالحون لهذا الصدد المسدَّد، ثم وأولئك الأنكاد هم الطالحون، إذاً فما هو دور المؤمنين الفاقدين لهذه الشروط الثلاثة؟ إن عمارتهم للمساجد لا محظورة - إذ ليسوا بكافرين - ولا محبورة إذ ليسوا هكذا مؤمنين، فهم عوان بينهما، مسموحاً لهم عمارة المساجد دون تشجيع.

فالموقف الأوّل لعمارة المسجد الحرام وسائر مساجد الله إنما هو لمن جمع بعد الإيمان بالله مثلثة الشروط[1]، ثم لمن آمن وجاء بالأهم منها، ومن ثمَّ لمن هو خاوٍ عنها كلِّها، درجات حسب الدرجات.

و﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾ هي بين إنشاء وإخبار، إخباراً أن طبيعة حال المؤمن الحامل لهذه الشروط أن يعمر مساجد الله بنياناً وحضوراً لإقام الصلاة، وإنشاءً: ليعمر هكذا مؤمن مساجد الله في بعدي العمار دون سواه، فقضية الإيمان بالله والخشية من الله ثم إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هي عمارة مساجد الله، ويأحرى منها كلها «المسجد الحرام».

فـ «عمَّار بيوت الله هم أهل الله» و«من ألف المسجد ألفه الله»[2] و«من أدمن الاختلاف إلى المسجد أصاب أخاً مستفاداً في الله وعلماً مستظرفاً وكلمة تدعوه إلى الهدى وكلمة تصرفه عن الردى ويترك الذنوب حياءً

---

(١) ملحقات إحقاق الحق (١٤: ٤٨٢) ذكر الجبري الكوفي في تنزيل الآيات (١٢) مخطوط قال: نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢١٦ - للأول أخرج البزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط والبيهقي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والثاني عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وخشية، أو نعمة أو رحمة منتظَرة»[١] و«من توضأ في بيته ثم أتى المسجد فهو زائر الله وحق على المزور أن يكرم الزائر»[٢].

وإذا كانت عمارة المسجد في بنيانه هي قضية الإيمان[٣]، فالحضور فيها هو بأحرى من قضاياه، حيث القصد من بنيان المسجد أن يُسجد فيه دون بنيان هو خراب عن الحضور للصلاة.

وهنا قرن عمارة مساجد الله بما قرن دليلنا أن مساجد الله لا تصلح إلّا للعبادة لا سواها من أشغال الدنيا وكما يروى عن النبي ﷺ: «يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي يأتون المساجد يقعدون فيها حِلَقاً ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة»[٤].

ولأن ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ هي محال الخضوع والسجود لله فلا تزخرف بما تجلب الأنظار، وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «ما أمرت بتشييد المساجد»[٥].

ولا تعني عمارة المساجد في بنيانها - فقط - إصلاح ما أشرف منها على خراب، بل وبأحرى أصل عمارها وهذا فرع عليه تشمله عمارة المسجد.

---

(١) المصدر أخرج الطبراني عن الحسن بن علي عليه السلام قال سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: . . .

(٢) المصدر أخرج الطبراني بسند صحيح عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال: وفيه عنه ﷺ قال: بشر المدلجين إلى المساجد في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفزع الناس ولا يفزعون، وقال ﷺ: الغدو والرواح إلى المسجد من الجهاد في سبيل الله.

(٣) المصدر أخرج أحمد عن عبد الله بن عمير قال قال رسول الله ﷺ: من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً أوسع منه في الجنة، وفيه عن أنس عنه ﷺ قال: ابنوا المساجد واتخذوها حمىً.

(٤) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ١٠ عن النبي ﷺ:

(٥) المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن يزيد بن الأصم قال قال رسول الله ﷺ: وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: إن الله سبحانه يقول: إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتي والمحابين فيّ والمستغفرين بالأسحار صرفت عنهم.

وهنا ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قد تعني الخشية في العبادة أنه لا يعبد إلا الله، حيث العبادة بصورة عامة هي قضية الخشية، وهي الحالة القلبية الظاهرة في مظاهر القال والفعال، مهما كانت لها درجات أعلاها لـ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1].

فخشية الله على ضوء الإيمان بالله تحمل صاحبها على إقام الصلاة لله في بيت الله، وعلى إيتاء الزكاة وأفضله - كذلك - بيت الله لمكان الحشد والحشر العام فيه لعباد الله المحاويج.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أو لمّا يكونوا هؤلاء الأكارم من المهتدين؟ فكيف «عسى»؟ أجل، إن الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وخشية الله هي اهتداء إلى الله، ولكن الاهتداء الجماهيري الجمعي الشامل الكافل لإسعاد الحياة فردية عالية وجمعية غالية، إنما هو على ضوء تعمير مساجد الله بنياناً وحضوراً وكما في رواية الإمام الحسن المجتبى عن جدّه رسول الله ﷺ، وحتى الاهتداء الفردي هو بحاجة إلى كمال الصلاة والزكاة والخشية، فليس لهم - إذاً - إلّا رجاء الاهتداء.

ثم اهتداءٌ آخر هو استمراريته بتكافل الجمع الحاشد في بيوت الله ولا سيما في مؤتمرات الحج والعمرة، ومن ثم حسن العاقبة بذلك الاتصال الجماهيري في تحقيق عمودي الصلاة والزكاة في بيوت الله، ثم الاهتداء إلى الجنة.

ومن ناحية أخرى قد تنحو «عسى» نحو قطع آمال المشركين عن اهتدائهم دون سبب صالح، فإن السبب الصالح يوصل إلى الهدى بـ «لعل وعسى» فضلاً عن غير الصالح فلا «لعل» فيه ولا «عسى».

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

ف «عسى» هنا عساها تعني بعد الاهتداء الأوّل في مربعه سائر الاهتداء في الدارين التي هي من محاصيل تعميرات بيوت الله من كل الجهات وبكل الإمكانيات، وفي أعلى قممها ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ حيث ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[١] و﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٢] و﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾[٣] فالقيام الإسلامي السامي في ذلك المؤتمر هدىً لا بديل عنها وكما فصلناها على ضوء آيات الحج.

ذلك، وفي نظرة أخرى إلى الآيتين نستنتج أحكاماً تالية:

١ - تعمير مساجد الله في مثلث البنيان والإصلاح والحضور محرم على الكافرين بالله، حيث المشرك نَجِس نَجِس، والكافر - ككل - نجِس، وتطهير البيت فرض ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[٤] ثم ودخول الكافر مظنة تلويث المسجد وهو حرام، وإن الكافر جنب أياً كان، ودخول الجنب في المسجد حرام لا سيما المسجد الحرام إذا كان مسلماً فضلاً عن الكافر:

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾[٥] إذ هم مكلفون بالفروع كما الأصول، ثم وإقدام الكافر لتعمير مساجد الله تعيير، كما يُوجب منة على المسلمين.

إذاً فدخول الكافر مساجد الله لغير عمارة، بل للاهتداء، ليس ذلك محظوراً، وفي دوران الأمر بين محظور الجنابة ومحبور الهداية، لا ريب أن الهداية أولى وأرجح، بل وفي حظر الكافر المتحري عن الهدى عن دخول مساجد الله حظر عن الاهتداء إلى الله! ذلك، وقد تلمح ﴿شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ٤٣.

أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾ أن «المشركين» والكافرين في ذلك الحظر لا تشملان من لا يشهد على نفسه بالكفر، حيث هو في سبيل الاهتداء ليسمع كلام الله في مساجد الله، فالشهادة على النفس بالكفر هي الاستقرار الصامد على الكفر، شهادة في القال والفعال مع شهادة الحال.

هذا، ومن شهادتهم على أنفسهم بالكفر طقوس الكفر التي يعملونها في مساجد الله، كالطواف عرياناً حول البيت مكاءً وتصدية وقولهم «لبيك لا شريك لك إلا شريكٌ هو لك تملكه وما ملك» وسائر طقوسهم الكافرة في سائر مساجد الله.

ثم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ككل وفي مساجد الله، والأعمال الحابطة بها خابطةً، فيها مس من كرامة مساجد الله، كمن يصلي في مسجد دبر القبلة أم دون طهارة أماهيه من حبط للصلاة وخبطٍ فيها.

وفي نظرة أخرى إلى الآيتين نقول: حظر عمارة المساجد - ومنها دخولها - محصورٌ في ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾ فما هي هذه الشهادة؟ والكافر بصير بنفسه أياً كان! من شهادتهم على أنفسهم بالكفر حالة الصمود والجمود فيه، فالكافر المتحري عن إيمان غير شاهد على نفسه بالكفر، لا عابراً متحرياً في شكٍ مقدس، فلا حظر عن عمارته المسجد.

ومنها الالتزام في كفرهم بالطقوس الكافرة قالاً وأعمالاً إلى حالٍ، فقالة الكفر وأعماله للداخل في مساجد الله إزراء بها وبالمؤمنين بالله.

فأما إذا هو كافر لا يشهد هكذا على نفسه بالكفر، بل ويعمل عمل الإيمان ضمن المؤمنين لأنه محايد مهما لم يكن متحرياً، فقد يجوز دخوله مساجد الله، إذ لا ضير فيه ولا مسٌ من كرامة، وقد يجوز اهتداؤه في خِضمِّ الجماعات الإيمانية بطقوسها.

فالكافر المتغيب كفره تحرياً عن إيمان، أم دون تجرٍ على إيمان،

مسالمةً ومحايدةً مع أهل الإيمان، قد يجوز له عمارة مساجد الله، وأما محظور الجنابة فقد يدخل في دوران الأمر بين الأهم والمهم وما أشبه.

والأصل من محظور عمارة مساجد الله هو الصدُّ عن أن يذكر فيها اسم الله، أو يعارض بذكر اسم غير الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ذلك، وقد تعين ﴿مَا كَانَ﴾ هنا وهناك الإخبار إلى الإنشاء والإنشاء إلى الإخبار، فبالنسبة للعمارة الروحية إخبار، ولغيرها إنشاء، و﴿مَا كَانَ﴾ تضرب إلى أعماق الإخبار والإنشاء.

ولأن الأصل في عمارة المسجد الحرام عمارة الإيمان الصالح، لا فقط عمارة البنيان والعامرون هم غامرون في الكفر، خراب عن الإيمان، لذلك تأتي النبهة الثالثة:

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾:

فلقد كانت للمشركين ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قاضية عن عمارة الإيمان - منقبةً يفتخرون بها على المؤمنين بالله واليوم الآخر والمجاهدين في سبيل الله، فواجههم ذلك التنديد الشديد، ولكي يعرفوا أن الأصل في عمارة المسجد الحرام هو عمارة الإيمان، وإمارته على أهل الإيمان، فمسجد الضرار مسجد في عمارته كسائر المساجد، ولكنه يُهدم ويحرق بأمر الله لأنه كان إرصاداً لمن حارب الله ورسوله، فـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[١].

فالمسجد الحرام أسس على التقوى من أوّل يوم أحق أن تقوم فيه، ثم مسجد الرسول ﷺ وما أشبه، ولا مكانة لسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وإمارته للمشركين أمام عمارة الإيمان وإمارته، وحضور المؤمنين فيه تطبيقاً لشعائر الله.

ومهما نزلت الآية - بين منازل النزول - في عباس وشيبة وعلي عليه السلام ترتيباً عملياً بينهم: سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام ومن آمن بالله ولكنها طليقة بين الجانبين، ثم ظاهر المقابلة أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كانتا لمن هو يقابل الجانب الآخر مهما كان له إيمان، فقد قيل إن علياً عليه السلام قال للعباس: يا عم ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله ﷺ؟

فقال: ألست في أعظم من الهجرة؟ أعمر المسجد الحرام وأسقي حاج بيت الله فنزلت هذه الآية[٢].

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١٠٧-١١٠.

(٢) نور الثقلين ٢: ١٩٤ في مجمع البيان قيل: إن علياً عليه السلام: .. ومثله في الدر المنثور ٣: ٢١٨ عن عبد الله بن عبيد قال قال علي عليه السلام: وفيه روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن بريدة عن أبيه قال: بينما شيبة والعباس يتفاخران إذ مر بهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقاية الحاج، وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام فقال علي عليه السلام: استحييت لكما فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا، فقالا: وما أوتيت يا علي؟ فقال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله فقام العباس مغضباً يجر ذيله حتى دخل على رسول الله ﷺ وقال:=

وهنا «سقاية وعمارة» مصدران تقابلان بـ«من آمن»؟ ولا تقابُلَ بين مصدر وفاعل!، علّ القصد منهما بصورة المصدر هو سيرة الفاعل لهما، أنهما أصبحا سقاية وعمارة حيث أصبح كيانهما ككل إياهما دون اعتبار لسواهما من منازل الكمال مكانةً، ولكن من ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وإن لم يصبح كيانه ككل إياها فهو أفضل من الأولين، فالإيمان القليل أفضل من كثير السقاية والعمارة وعمارة المسجد الحرام ممن لا يؤمن، كما وأن الإيمان الأكثر دون سقاية وعمارة هو أفضل من الأقل بكل سقاية وعمارة للمسجد الحرام.

فما أحسنه تعبيراً قاصداً لمثل هذه العناية الأدبية الرقيقة المنبِّهة لموقف الإيمان أمام سواه.

= أما ترى إلى ما استقبلني به علي؟ فقال: ادعوا علياً فدعى له، فقال: ما دعاك إلى ما استقبلك به عمك،؟ فقال: يا رسول الله ﷺ صدمته بالحق فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض فنزل جبرئيل عليه السلام وقال: يا محمد ربك يقرئك السلام ويقول اتل عليهم ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: ١٩] وفيه عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين أخبرنا بأفضل مناقبك، قال: نعم كنت أنا وعباس وعثمان بن أبي شيبة في المسجد الحرام، قال عثمان: أعطاني رسول الله ﷺ الخزانة يعني مفاتيح الكعبة، وقال العباس: أعطاني رسول الله ﷺ السقاية وهي زمزم ولم يعطك شيئاً يا علي، قال: فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾.

وفي الدر المنثور ٣: ٢١٨ - أخرج ابن مردويه عن الشعبي قال كانت بين علي والعباس منازعة فقال العباس لعلي عليه السلام: أنا عم النبي وأنت ابن عمه وإلى سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام فأنزل الله هذه الآية، وفيه أخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عنه منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر: بل والجهاد في سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾.

ونظيرة الآية في مقابلة الفعل بالفاعل ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ . . .﴾[١].

ذلك فـ ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾: سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كأصل، ومن آمن بالله كأصل آخر، وإن كانا من المؤمنين، حيث الرجاحة دائماً هي لأصل الإيمان قبال الكفر، ولفاضل الإيمان قبال مفضوله دون أية فضيلة أخرى وجاه الإيمان ولواحقه.

ثم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مهما كانوا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وهو يهدي المؤمنين وإن لم يسقوا الحاج ولم يعمروا المسجد الحرام.

وقد يدل قرن «من آمن» بـ ﴿سِقَايَةَ﴾ على عدم إيمان من نزلت الآية نكاية به[٢]، وكما ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تؤيده، أم يعني معه كامل الإيمان أمام ناقصه تبييناً أن الإيمان بملحقاته هو - فقط - سند الفضيلة والأفضلية بمراتبه أمام فاقديها.

إذاً فـ ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ تشمل إلى جعْلِ المشركين جعلَ بسطاء من المؤمنين، هكذا جعل جاهل قاحل، وكما يتأيد كَلٌّ بمختلف ملامح الآية وما بعدها.

وقد أصفق الفريقان في روايتهم المتواترة أن الآية نزلت بشأن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام مثلاً عالياً للإيمان والجهاد، أمام من يفتخر بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، نذكر منهم عجالة تسعة عشر من الفطاحل

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢١٨ عن ابن عباس قال قال العباس حين أُسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني فأنزل الله هذه الآية. وعن ابن عباس أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله والقيام على السقاية خير من الإيمان والجهاد فذكر الله خير الإيمان به سبحانه البيت والجهاد مع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على عمران المشركين وقيامهم على السقاية.

كنماذج عن عشرات[(١)] بكلمة واحدة مشركة بينهم كما في الجمع بين الصحاح الستة من رواية الجمهور:

أنها نزلت فيه عليه السلام لما افتخر طلحة بن شيبة والعباس فقال طلحة: أنا أولى بالبيت لأن المفتاح بيدي، وقال العباس: أنا أولى أنا صاحب السقاية والقائم عليها، فقال علي عليه السلام: أنا أولى الناس إيماناً وأكثرهم جهاداً، فأنزل الله هذه الآية.

أجل وإنه لا مفاضلة ولا مفاصلة إلّا في مثلث: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله، دون سائر المفاضلات والمفاصلات أو المعادلات المزعومة، وكما تعلمنا كلمة واحدة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[(٢)] وترى كيف ترك هنا الإيمان بهذه الرسالة السامية وهي أصل للجهاد في سبيل الله؟

---

(١) كما في ملحقات إحقاق الحق ٣: ١٢٤ - ١٢٧، ممن أخرجه الثعلبي في تفسيره كما في العهدة لابن بطريق (٩٨) والواحدي في أسباب النزول (١٨٢) والخازن في تفسيره (٣: ٥٧) والبغوي في معالم التنزيل المطبوع بهامش تفسير الخازن (٣: ٥٦) وابن المغازلي في مناقبه وابن الأثير في جامع الأصول (٩: ٤٧٧) والرازي في تفسيره (١٦: ١٠) والگنجي في كفاية الطالب (١١٣) والقرطبي في تفسيره (٨: ٩١) والنيسابوري في تفسيره (١٠: ٦٠) وابن كثير في تفسيره (٢: ٢٤١) وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة (١٠٦) والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٢١٨ - ٢١٩) وفي لباب النقول في أسباب النزول (١١٥) والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي (٤٠) والشبلنجي في نور الأبصار (١٠٥) والشوكاني في فتح القدير (٢: ٣٠٣) والقندوزي في ينابيع المودة (٩٢).

وفي ملحقات الإحقاق ١٤: ١٩٤ - ١٩٩ مستدرك عما في المجلد (٣) هو: الزمخشري في ربيع الأبرار (٤٨٤) وابن المغازلي في المناقب (١١٧) والثعالبي في ثمار القلوب (٥٤٣) والبغدادي في المنتخب من صحيح البخاري ومسلم (٢١٦) والشافعي في المناقب (١٦١) وابن كثير في تفسيره (٤: ٣٥٩) والأبشهي في المستطرف (١: ١٢١) وابن الصباغ في الفصول المهمة (١٠٦) والقنفوري في نزهة المجالس (٢: ٢٠٩) واليزدي في شرح الديوان (١٧٧) والزرندي في نظم درر السمطين (٨٨) والحمويني في فرائد السمطين (٤٨ و٤٩) والأمر تسري في أرجح المطالب (٦٤).

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

علّه لأن هذه الثلاثة لا تتم إلّا على ضوء هذه الرسالة، ولا سيما الجهاد في سبيل الله، حيث الأولان مستفادان من حجة العقل كخطوة أولى، ولكن سبيل الله فضلاً عن الجهاد في سبيله لا تُعرف إلا بوسيط الوحي الرسولي، وكما هو تكملة لوحي العقل الهادي إلى الله واليوم الآخر.

ذلك، وإذا كانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام قضيةَ الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، فهي محبورة محسوبة بحساب الإيمان، فإنما المقابلة بينهما تعني مجردهما عن الإيمان قبال اللّاإيمان، أم مصحوبهما بقليل الإيمان أمام كثير الإيمان.

فللإيمان بالله موضوعية ليست لسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام إلّا على ضوء الإيمان قدرَه، فلا يقاس تفضيلاً أو تعديلاً بالإيمان إلا نفس الإيمان وهنا ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ سلب لأفضلية غير الإيمان بأحرى وأولى.

ذلك ولما «أرادوا أن يدعوا السقاية والحجابة قال رسول الله ﷺ: لا تدعوها فإن لكم فيها خيراً»[١] ولقد كان يطلب وهو في المدينة ماء زمزم ليشرب منه[٢] وذلك كرامة للمؤمن الساقي والعامر دون سواه:

ويا لزمزم من بركة ورحمة وشفاء لا توجد لغيرها من عيون الأرض كلها، فطالما وردت عن الرسول ﷺ الوصايا بشأنها[٣].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢١٩ - أخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [التوبة: ١٩] قال: أرادوا.

(٢) المصدر أخرج عبد الرزاق والأزرقي عن أبي جريج عن ابن أبي حسين قال: كتب رسول الله ﷺ إلى سهيل بن عمرو إن جاءك كتابي ليلاً فلا تصبحن وإن جاءك نهاراً فلا تمسين حتى تبعث إليّ بماء من ماء زمزم فملأ له مزادتين وبعث بهما على بعير.
وفيه أخرج الدارقطني عن النبي ﷺ قال: خمس من العبادة: النظر إلى المصحف والنظر إلى الكعبة والنظر إلى الوالدين والنظر في زمزم وهي تحط الخطايا والنظر في وجه العالم.

(٣) المصدر أخرج البخاري والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول =

و«كان النبي ﷺ إذا أراد أن يُتْحف الرجل بتحفة سقاه من ماء زمزم»(١).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ (٢١) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (٢٢)﴾

تتمة من المواصفات للمفضَّلين على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وهنا ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ بالنسبة لمن دونهم من المؤمنين حقيقة التفضيل، ولغير المؤمنين مجاراة في التفضيل، أن لو كانت مجرد السقاية والعمارة فضلاً فهؤلاء المؤمنون هم ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ الذي تسقون حاجَّه وتعمِّرون بيته، ففي مثلث المتحملات بين الإيمان وشروطه وغير الإيمان هو أعظم مِن سواه، دون مساواة فضلاً عن تفضيل اللّاإيمان على الإيمان، ثم الإيمان الأكمل أفضل من سواه مهما حمل سواه من فضائل متخيلة.

وهنا «رحمة ورضوان» قبل وقبال «جنات» تدل أنهما فوق هذه

= الله ﷺ بشراب من عندها فقال: اسقني فقال: يا رسول الله ﷺ إنهم يجعلون أيديهم فيه فقال: اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه وأشار إلى عاتقه، وفيه أخرج ابن سعد عن علي عليه السلام قال قلت للعباس: سل لنا رسول الله ﷺ ألا نأتيك بماء لم تمسه الأيدي؟ قال: بلى فاسقوني فسقوه ثم أتى زمزم فقال: استقوا لي منها دلواً فأخرجوا منها دلواً فمضمض منه ثم مجه فيه ثم قال: أعيدوه ثم قال: إنكم على عمل صالح ثم قال: لولا أن تغلبوا عليه لنزلت فنزعت معكم.

وفيه أخرج المستغفري في الطب عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: ماء زمزم لما شرب له من شربه لمرض شفاه الله أو جوع أشبعه الله أو لحاجة قضاها الله.

وفيه أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ خير ماء على وجه الأرض زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم، وفيه أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن صفية عن النبي ﷺ قال: ماء زمزم شفاء من كلّ داء، وفيه عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم.

(١) المصدر أخرج أبو نعيم عن ابن عباس أن النبي ﷺ: ...

الجنات، فهي جنات معرفية «رحمة» لنا منا بفضل الله، وأخرى روحية من الله فينا «رضوان» ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٖۚ وَرِضْوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1] ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٖ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضْوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[2].

ذلك، فهنا «رضوان» بعد «رحمة» هو أفضل مصاديق الرحمة الطليقة، فالمعرفة هي سبيل الرضوان، فهو أصل الرحمة وأثافيُّها، وهنا المعرفة للعبودية والعبودية هي سبيل الرضوان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3].

ثم و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ تعم هذه الثلاثة وبقِمَّتها «رضوان» من الله.

وهنا ﴿نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ هو قضية فضله تعالى، فليس العذاب - إذاً - مقيماً لأنه قضية عدله حيث: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[4].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

فإنما الولاية هي ولاية الله بكل أبعادها اللائقة بالله، ثم وفي سبيل ومرضاته ولايةُ أولياء الله، وقضية الإيمان بالله أن ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾ فولايتهم أولاء انتقاض للإيمان أو انتقاص من الإيمان ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المنتقضون الإيمان، أو المنتقصون من الإيمان.

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

وهنا ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ تعم إلى كفارهم منافقيهم حيث الاستحباب لا يعني مقولة اللفظ فقط، بل هو مقولة القلب ثم القالب له مظهر، فاستحباب الكفر في ثالوثه أم ضلع من أضلاعه استحباب، مهما كان الجمع أغلظ، فإنه للإيمان أرفض.

وليس فقط «لا تتخذوا. . أولياء» بل وحاربوهم على ولاية الله كما تحاربون سائر الكفار دون تمييز، وكما يروى عن الإمام علي عليه السلام: «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقتل آباءَنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم وجداً على جهاد العدو»[1].

أجل وفي مسرح الإيمان بآصرة القلب الواعي تتقلب سائر الأواصر من الدم والنسب والحسب، وتبطل ولاية القرابة في أسرة وسواها، فللّه الولاية الأولى وعلى هامشها ولاية أولياء الله، قدَرَ ما قدره الله، بعيدة عن ولاية الله نفسه حيث هي تخصه ربوبية، كما ولاية الخلق تخصهم عبودية دونما خلطٍ ولا غلطٍ.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾:

رغبات ثمان تُعرض بمسرح الحب أمام الله ورسوله وجهاد في سبيله، فقضية الإيمان هي أن الأحب إلى صاحبه هو الله أصيلاً، ثم الرسول فصيلاً لرسالته عن الله، ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ وسيلاً وصيلاً لمرضاته.

فمخمس «آباءكم - أبناءكم - إخوانكم - أزواجكم - عشيرتكم» يحلِّق على كافة الصِّلات النسبية والسببية أماهيه من صلات حيوية، فإن ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾

(١) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عنه عليه السلام.

تشمل الوالدين، بل والأعمام والأخوال والعمات والخالات، ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ تشمل البنات إلى الأولاد والأحفاد منهما أو أحدهما، ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ تشمل إلى البعولة الزوجات في مثلثة الزواجات دائِمة ومنقطعة وأمة، ثم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ تعم كل الوصائل والفصائل البعيدة نسبياً وسببياً ووِدِّياً.

ومثلث ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا - وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا - وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ تعم كافة الرغبات المالية، حاضرة كـ ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ ومستحضرة لمستقبل: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ ثم أمكنة لكم بمن يتصلون بكم، أم لأموالكم، أم لتجاراتكم: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾.

فقد حلَّقت تلك الثمانية على كل الرغبات الحيوية لنا حيث نعيشها ونعيِّش بها، ونحن في وسط بينها أن نبصر إليها دون نفاذ عنها إلى مرضاة الله فتُعمينا: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أو أن نبصر بها فتبصّرنا فإيماننا بالله وهجرة في الله وجهاداً في سبيل الله، وعلى حد المروي عن الإمام علي عليه السلام بشأن الدنيا و«من أبصر بها بصّرته ومن أبصر إليها أعمته».

هناك في حقل الولاية المحظورة يُذكر فقط «الآباء والإخوان» دون البقية المذكورة هنا، لأنهما - فقط - مسرح الولاية والنفاذ في أمور الإنسان دون الملحقين به العائشين على هامشه، وهنا في حقل الحب يأتي دور البقية مع الآباء والإخوان.

ولأن الحب الأعلى هو للأغلى فليكن الله ورسوله أحب إلى المؤمن حتى من نفسه فضلاً عما سواها، فحين يقول عمر: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلّا من نفسي - يجيبه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»[1].

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٢٣ - أخرج أحمد والبخاري عن عبد الله بن هشام قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لا يؤمن...

ولأن الحب ليس إلّا نحو الكمال فالمحبوب - إذاً - ليس إلا الكمال بمن يحمله، فالأحب هو الأكمل، ففي مثلث حب الإنسان نفسه، وسواها من خلق، وربه، لا ميزان لأصله ولا فصله إلا أصل الكمال وأكمله، إذاً فحب من سوى الله أو ما سواه دونه إلحاد حادٌّ، ثم كون غير الله أحب إليك من الله إلحاد وسط بإشراك، ومن ثم التسوية في الحب بين الله وسواه إشراك خالص، والتوحيد هو أن يكون الله أحب إليك مما سواه، ولكلّ دركات ولتوحيد الحب درجات ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] قالاً وحالاً وأعمالاً، والتوحيد الحق في حب الله هو أن لا تحب إلّا إياه، ثم تحب ممن سواه مَن يحبه الله فتحبه في حب الله قدَرَه، وأدنى درجات حب الله هو الرجاحة القلبية لحبه على من سواه، فالرجاحة العملية لحب من سواه أو ما سواه ضعف في مظهر الإيمان، كاشفاً عن ضعفه في القلب.

ولأن المؤمنين بصورة طليقة تشمل إلى المعصومين العدولَ والفساق الذين دخل الإيمان في قلوبهم، والذين أسلموا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم، بل والمنافقين، فالتنديد هنا موجه أولاً إلى الأخيرَين، حيث المنافق يحب غير الله أكثر منه علماً وتقصيراً، والمسلم الساذج قبله يحب هكذا قصوراً عن تقصير وجهالة، ثم إلى فساق المؤمنين حيث الفسق عملياً ترجيح لغير الله على الله في المظهر، كاشفاً عن ضعف الإيمان.

ومحور التنديد في مراتب الحب هنا أن يكون غير الله أحب إليك منه، لا لأن التسوية غير محظورة، وإنما لعناية مظاهر الحب بين الله وما سواه، حيث الفسوق عملياً هو مظهر من مظاهر الترجيح لغير الله على الله، وأما الحب قلبياً فأقل درجاته في حقل الإيمان أقل رجاحة لحب الله على ما سواه ومن ثم درجات إلى حب العصمة وعصمة الحب.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

ذلك فـ «من الإيمان كون الله ورسوله أحب إلى المرء من سواهما»[١] تقديماً لحب الله وعلى ضوئه حب النبي ﷺ وهكذا يكون «حب النبي من الإيمان»[٢].

ذلك حب الله أصالة وحب رسوله رسالة، ومن لزامات ثاني الحبين حب الأئمة من أهل بيته عليهم السلام وكما يروى عنه متواتراً: «عنوان صحيفة المؤمن حب علي»[٣] «حب علي براءَة من النار»[٤] و«من مات على حب آل محمد مات شهيداً»[٥] «أساس الإسلام حبي وحب أهل بيتي»[٦].

وهذه الآية تنديدة شديدة مديدة بهؤلاء الذين ظلوا بعد الفتح بمكة مصلحيةَ الحفاظ على أموالهم وأهليهم خوف تهدُّرهما رغم التهدُّر من دينهم واستمرارية السلطة المشركة عليهم.

ذلك، ثم «لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك ووَلَدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه، وإن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداءِ الله»[٧].

---

(١) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٢ ب ٩ و١٤، ك ٧٨ ب ٤٢، ك ٨٩ ب ١، ك ٩٣ ب ١٠، مس - ك ١ ح ٦٦ - ٦٨، ك ٤٥ ح ١٦١ - ١٦٥، تر - ك ٣٨ ب ١٠، ك ٣٤ ب ٥٠، نس - ك ٤٨ ب ٢ - ٤، حم - ثالث ص ١٧٢ و١٧٤ و١٩٢ و٢٠٠ و٢٠٢ و٢٠٧ و٢٠٨ و٢١٣ و٢٢٦ و٢٢٧ و٢٢٨ و٢٣٠ و٢٥٥ و٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٨ و٢٨٣ و٢٨٨ ط - ح ٢١٣١.

(٢) المصدر نقلاً عن بخ - ك ٢ ب ٨، ك ٨٩ ب ١، ك ٩٣ ب ١٠، مس - ك ١ ح ٦٦ - ٧٠، تر - ك ٣٤ ب ٥٠ ك ٣٨ ب ١٠، نس - ك ٤٦ ب ٣ - ٤ و١٩ و٢٠، مي - ك ٢٠ ب ٢٩، حم - ثالث ص ١٧٢ و١٧٤ و١٧٧ و١٩٢ و٢٠٠ و٢٠٢ و٢٠٧ و٢٠٨ و٢١٣ و٢٢٦ و٢٢٧ و٢٢٨ و٢٣٠ و٢٥٥ و٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٨ و٢٨٣ و٢٨٨، رابع ص ٢٣٣ و٢٣٦، خامس ص ١٧٠ و٢٣٣ و٢٣٦ و٢٩٣ ط - ح ٢١٣١.

(٣) هي متواترة في عشرات من الروايات عن الرسول ﷺ كما في ملحقات إحقاق الحق فليراجع.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) نهج البلاغة (٣٥٢ ح/ ٦٣٦ عن الإمام علي عليه السلام.

وهنا سير تنازلي في الولاية أمام الله، ألّا تولوا الكافرين من هؤلاء، ثم لا يكونوا أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله وإن كانوا مؤمنين، فالآية السابقة للأولى، والأخرى للأخرى، توحيداً وطيداً لولاية الله ورسوله وحبه والجهاد في سبيله، تفضيلاً فضيلاً له على مَن سواه من نفس أو نفيس، فإن كل متعلق دون الله نحيس بخيس.

ثم ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ توعيد بمن يحب غير الله أكثر من الله مهما كان مؤمناً، فضلاً عن حب الكافرين من الأقارب أو تولِّيهم فإنهم - إذاً - حيَّات وعقارب.

و«أمره» المتوعد هنا يعم أمر الحياة لهم إلى أن يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)] ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[(٢)].

ومن هؤلاء - إلى الذين يأتون في آخر الزمان - هم الذين فتح الله بهم مكة المكرمة، فحين لم يهاجر جماعة من المؤمنين إلى المدينة تحبباً إلى أموالهم وأهليهم وتحفظاً عليهم فليتربصوا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بمن يفتح الله بهم عاصمة الدعوة وأنتم بعدُ لازقون بها مخلدين إليها لازمين، رغم كرور الأمر بالهجرة عنها.

وذلك التجرد عن كل آصرة أمام حب الله يطالَب به الفرد والجماعة المؤمنة، أن يتصبَّغوا بصبغة الله، فرغم أنه شاقٌّ حسب الطبيعة البشرية، ولكنه سهل يسير على المؤمن الذي يخشى الله، ولا يخشى أحداً إلّا الله.

فالتجرد في الله عن كل آصرة ووسيلة ووصيلة وفصيلة، عن كل نفس ونفيس، هو قضية الإيمان الصادق الأمين بالله ورسوله، فجهاد في سبيله.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٩.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ
كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا
رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا
يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ
يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾
قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ
يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ
ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ
﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ

ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿لَقَدۡ﴾ في تأكيدين اثنين ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾: من جبهات القتال وسواها، حيث عشتم نصر الله، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ فلما كثرتم فأعجبتكم كثرتكم انكسرتم حيث انفلت عنكم صالح التوكل على الله ورجاء نصر الله ﴿فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ حين تركتم ما يغنيكم من نصر الله ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾: أرض المعركة أم وسواها ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ رحبة كأرض الصراع والوقاع لمكان كثرتكم أم ككل الأرض، وضيقة بما ضيقكم إعجابكم وثقتكم بأنفسكم ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ فراراً عن عدوكم، وفي الأثر أن ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ هذه هي ثمانون موطناً.

وترى ﴿كَثِيرَةٖ﴾ هنا دليل عناية ثمانين فيما تطلق على أية حال؟

والمطلق إذا عني أكثر منها أو أقل لا يعني من كثرته إلّا ما عنى، وإذا لم يعن حداً معيناً فعرفية الكثرات تختلف حسب الحالات والملابسات والإمكانيات، فمن مقلّ كثيرة أقل من ثمانين بكثير، ومن مكثر ثريّ كثيرة أكثر منه بكثير طالما اتفق، صدق ﴿كَثِيرَةٍ﴾ لمن يملك مالاً يعد الثمانون له كثيراً، إذا فكيف يستدل بـ ﴿كَثِيرَةٍ﴾ هنا أنها معنية لأقل تقدير فيما تطلق بحقل الإنفاق أم سواه؟[1].

ثم ﴿كَثِيرَةٍ﴾ في مواطن القتال هي أكثر كثيرة، ومن ثَمَّ هي في مواطن أخرى بين كثيرة وقليلة، والثالثة هي الأخرى قلة قليلة، فمن ينذر أن يتزوج كثيراً لا تعدو كثرته أربعاً وما زاد، والذي يملك مليارات حين ينذر أن يدفع كثيراً لا يعد ثمانون منه إلّا أقل قليل!.

إذاً فالكثيرة في كل حقل وحالة وملابسة لها حدّها كما تعرفها أعرافها، دون أن يحد لها حد خاص هو قليل أو أقل قليل في بعض، أم كثير أو أكثر كثير في آخر وبينهما عوان.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو واد بين مكة والطائف وقعت فيه غزوة حنين حيث تناصر فيها هوازن وثقيف على رسول الله ﷺ والذين معه، فانهزموا في

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٩٦ في معاني الأخبار عن أبي عبد الله عليه السلام انه قال في رجل نذر أن يتصدق بمبال كثير فقال: الكثير ثمانون فما زاد لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة: ٢٥] وكانت ثمانين موطناً. وفي تفسير العياشي يوسف بن السخت وتفسير القمي محمد بن عمير وفي الكافي مرسلاً كان المتوكل اعتل علة شديدة فنذر إن عافاه الله أن يتصدق بدنانير كثيرة أو قال: بدراهم كثيرة فعوفي فجمع العلماء فسألهم عن ذلك فاختلفوا عليه، قال أحدهم: عشرة آلاف وقال بعضهم: مائة ألف، فلما اختلفوا قال له عبّاده: ابعث إلى ابن عمك محمد بن علي الرضا عليه السلام فاسأله فبعث إليه فسأله فقال: الكثير ثمانون، فقالوا رد إليه الرسول فقل من أين قلت ذلك؟ فقال: من قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة: ٢٥]، وكانت المواطن ثمانين موطناً.

البداية ثم هزموا بنصر الله في النهاية، واختصاص ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ بالذكر بين كل المواطن دليل أنه أهم مما سواه، وحتى من فتح مكة، فإن تغلّب زهاء ثمانين من المؤمنين على أربعة آلاف هو منقطع النظير في كل تاريخ الحروب!: فلما فتح رسول الله ﷺ مكة وقد بقيت من رمضان أيام خرج متجها إلى حنين لقتال هوازن وثقيف بعد ما بلغه انهم جمعوا له ليقاتلوه، فسبقهم إلى أرض المعركة، وكانوا أربعة آلاف وجيش الإسلام بين عشرة آلاف واثنى عشر أو ستة عشر ألفاً، ألفان منهم من الطلقاء المكيين، فقد كانوا لأقل تقدير ثلاثة أضعاف العدو معاكسة لأصحاب بدر وهم ثلث العدو، ولكنهم هزموا العدو في بدر وانهزموا في حنين في البداية، لمكان الروحية العالية الغالية في بدر، وبخلافها الإعجاب بكثرتهم والاعتماد بأنفسهم في حنين، ولا سيما أن هذه الهزيمة العظيمة كانت بعد فتح مكة الذي هو فتح الفتوح، حيث أخذتهم غرة الفتح وعزّته ونزوته وخطوته من ناحية، وكثرتهم من أخرى - بمن معهم من طلقاء مكة - فتخلّوا عما تحلّوا به يوم بدر ومكة، فانهزموا في البداية ليعلموا أنما النصر من عند الله العزيز الحكيم، وهكذا يبتلي الله المؤمنين بكلٍّ من الهزيمة، والغلبة الهزيمة العظيمة، ولكي يحافظوا على حالة الإيمان وهالته على أية حال، دون إعجاب وإدغال.

فهنا من انفعال الإعجاب بالكثرة - التي لم يكن لها مثيل طول حروب الرسول ﷺ - إلى زلزلة الهزيمة العظيمة الروحية، إلى انفعال الضيق والحرج حتى لكأن الأرض الرحبة ضاقت عليهم، وإلى حركة الهزيمة الحسية وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب.

ذلك، ولكي يعرفوا أن الكثرة العددية - بسابق فتح الفتوح قريباً - هي بمجردها ليست بشيء للجماعة المؤمنة، وكما درسوا من بدر الكبرى وأحد، إنما هي العارفة المطمئنة بالله المتجردة لله وفي سبيل الله مهما كانت قلة،

بما في الكثرة أحياناً دخلاء غير مؤمنين، تائهين في غمارها، غير مدركين حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، فتتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة، فـ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1] وقد قامت كل ثورة صالحة عقيدية بالصفوة المختارة، لا بالكثرة المحتارة والزبد الرغو الذي يذهب جفاء، ولا الشيم الذي تذروه الرياح.

فالحرب السجال بهزيمة الكثرة وغَلَب القلة أم سواها، هي للمؤمنين درس يوقظهم، أن عليهم بجنب ما يُعِدُّون من قوة جسدانية لجسد الحرب، أن يعدوا لأنفسهم قوة روحية هي أريح وأروح للقلب لهم وللغلب على عدوهم.

ولقد كره رسول الله ﷺ إعجابهم بكثرتهم، وفرارهم على كثرتهم[2]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٢٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن النبي ﷺ أقام عام الفتح نصف شهر ولم يزد على ذلك حتى جاءته هوازن وثقيف فنزلوا بحنين وهو واد إلى جنب ذي المجاز وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا: الآن والله نقاتل حين اجتمعنا فكره رسول الله ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم فالتقوا فهزمهم الله حتى ما يقوم منهم أحد على أحد حتى جعل رسول الله ﷺ ينادي أحياء العرب إلي فوالله ما يعرج إليه أحد حتى أعرى موضعه فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فناداهم يا أنصار الله وأنصار رسوله إلي عباد الله أنا رسول الله، فعطفوا وقالوا يا رسول الله ورب الكعبة إليك والله فنكسوا رؤوسهم يبكون وقدموا أسيافهم يضربون بين يدي رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليهم.

وفيه عن أبي عبد الرحمن الفهري بسياق القصة على طولها: فاقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه وحدثني من كان أقرب إليه مني أنه أخذ حفنة من تراب فحثاها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، قال يعلي بن عطاء فأخبرنا أبناءهم عن آبائهم قالوا: ما بقي منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب وسمعنا صلصلة الحديد على الطست الحديد فهزمهم الله.

وفيه عن عبد الله بن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولّى الناس عنه وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ورسول الله ﷺ على بغلته فمضى قدماً فقال: ناولني كفاً من تراب فناولته فضرب وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً وولى المشركون أدبارهم، =

ثم القلة الباقية مع الرسول ﷺ الواقية له استحقوا نصراً من الله بعد ذلك الكسر الذي كان لغيرهم ومنهم الإمام علي عليه السلام حيث قتل بيده يوم حنين أربعين[١].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ بعد تلك الهزيمة العظيمة، حين لم يبق مع رسول الله ﷺ - لأكثر تقدير - إلا ثمانون من الأوفياء، واحد بخمسين أمام العدو بعد ما كانوا أربعة بواحد فهم إذا ١/ ٢٠٠، هنالك ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ كما يحق له ويناسب محتده الرسولي تسكيناً لخاطره الشريف القريح الجريح من تلك النكسة ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما يحق لهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فناصروكم في ضرب عدوكم، وعلّ منها الكف من التراب الذي حثّه ﷺ في وجوههم، فمهما رآه من رأى لم يكونوا ليروا كيف أثر ذلك الأثر العظيم لحد فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبراً حتى هزمهم الله عز وجل[٢].

= وفيه عن يزيد بن عامر السوائي قال: أخذ رسول الله ﷺ يوم حنين قبضة من الأرض فرمى بها في وجوه المشركين وقال: ارجعوا شاهت الوجوه فما أحد يلقاه أخوه إلّا وهو يشكو قذى في عينيه ويمسح عينيه.

(١) نور الثقلين ٢: ٢٠١ في روضة الكافي بسند متصل عن عجلان أبي صالح قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: . .

(٢) المصدر عن العباس بن عبد المطلب قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلقد رأيت النبي ﷺ . . . فلزمنا رسول الله ﷺ فلم نفارقه وهو على بغلته الشهباء التي أهداها فروة بن معاوية الجذامي فلما التقى المسلمون والمشركون ولى المسلمون مدبرين وطفق النبي ﷺ يركض بغلته قبل الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع وهو لا يألو ما أسرع نحو المشركين. . فقال رسول الله ﷺ: يا عباس: ناد يا أصحاب سورة البقرة، فوالله لكأني=

و﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النازلة عليهم السكينة هنا مع الرسول ﷺ هم الثابتون في هذه الهزهزة المزمجرة وفيهم «علي بن أبي طالب عليه السلام» وهو أفضلهم[1].

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتلك السكينة وهؤلاء الجنود وبما للرسول ﷺ والذين ظلوا معه والتحقوا به من صمود، وهؤلاء هم القلة الباقية.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الذي حصل للقلة، وعلى الكثرة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من المتخلفين عن المعركة حيث ولّوا أدبارهم دونما أي مبرر، يتوب على شروطها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فيا لهذه السكينة الرسالية المكينة - النازلة على الرسول، والنازلة على المؤمنين - من فاعلية خارقة للعادة ما لها من مثيل، اللّهم للأصيل في طاعة الله من الرسول والذين معه.

ذلك، وسكينة الله تنزل كأحق منزل على الرسول الله ﷺ ثم على صالحي المؤمنين في ساعات الحزن والعسرة، فليت شعري كيف لم تنزل على صاحبه في الغار وهو في عهد عميق الحزن لحد ينهاه الرسول ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[2] ثم الرسول ﷺ غير الحزين تنزل عليه -

---

= عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ينادون يا لبيك يا لبيك، فأقبل المسلمون فاقتتلوا والكفار وارتفعت الأصوات وهم يقولون: يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحرث بن الخزرج فتطاول رسول الله ﷺ وهو على بغلته فقال: هذا حين حمى الوطيس ثم أخذ رسول الله ﷺ رميات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى فما هو إلا أن رماهم رسول الله ﷺ بحصيات فما زلت..».

(١) ملحقات إحقاق الحق ١٤ : ٥٩٤ الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٢٥٢ بسند متصل عن الضحاك في الآية قال: نزلت في الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم حنين علي والعباس وحمزة في نفر من بني هاشم، وعن الحكم بن عيينة قال: أربعة لا شك فيهم أنهم ثبتوا يوم حنين فيهم علي بن أبي طالب.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

فقط - السكينة دونه، أفلا يدل ذلك على أنه حينذاك لمّا يصل إلى درجة إيمان يستحق به السكينة التي تنزل بعد الرسول على المؤمنين حيث ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾[١]، و﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾[٢] ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾[٣] فهذه لهم فقط، ثم مع الرسول ﷺ كما في آيتنا وثالثة في الفتح: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٤] ثم لا نجد تنزل هذه السكينة الإيمانية على المنهزمين في حنين كما لم تنزل على صاحب الغار، فلما يعلم الله ما في قلوب المؤمنين من طمأنينة الإيمان يتزل عليهم السكينة، لهم أو مع الرسول ﷺ، فما لصاحبه في الغار - إذاً - أن لم ينزل من سكينة عليه وهو ينزلها على رسوله فيه؟ لأنه علم ما في قلبه، وانه لما يستعد لنزول السكينة الإيمانية عليه! كما في الأكثرية المؤمنة يوم حنين.

و﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ وصف لمحذوف كـ «الحالة - الهالة - الرحمة أماهيه من موضوعات توصف بـ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ ومن لطيف التعبير في الأثر أن «لها صورة كصورة وجه الإنسان»[٥]، فقد تعني «كصورة وجه لإنسان» إنسان الرسالة في

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٥) نور الثقلين ٢: ٢٠١ في تفسير العياشي عن الحسن بن علي بن فضال قال قال أبو الحسن الرضا عليه السلام للحسن بن أحمد: أي شيء السكينة عندكم؟ قال: لا أدري جعلت فداك أي شيء هو؟ فقال: ريح من الجنة تخرج طيبة لها صورة كصورة وجه لإنسان فتكون مع الأنبياء.
وفي الكافي علي بن أسباط قال سألته فقلت جعلت فداك ما السكينة: قال: ريح من الجنة وجه كوجه الإنسان أطيب ريحها من المسك وهي التي أنزلها الله على رسوله ﷺ بحنين فهزم المشركين.

الرسول، وإنسان كامل الإيمان في المؤمنين الماكنين، فالصورة الإنسانية لها واجهتان أولاهما ما تحصل بمساعي الإيمان، وثانيتها ما ينزله الله على تلك الصورة، فقد تكون صورة العصمة النازلة على صورة العصمة الرسالية لتزداد عصمة وطمأنة فيها، أم صورة الإيمان الزائدة على صورة من الإيمان تستحق نزول السكينة الإيمانية المزيدة على ما كان.

وعلى أية حال هي لا تخلوا من سكينة الإيمان أم سكينة العصمة مزيدة على كلّ، باستحقاق لحاق العصمة أو الإيمان.

فليست سكينة الله - فقط - لتسكن القلوب عن اضطراب في مواقف الإيمان ومحاورة، بل ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[(١)] لهم، وليزداد الرسول ﷺ عصمة على عصمته، وأما الذي ليس له إيمان واثق ولما يرتكن في قلبه، فلا يصلح قلبه لهذه السكينة الخاصة بالقلوب المطمئنة المرتكنة بالإيمان.

وترى ﴿جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هلا يرونها المشركون أيضاً كما ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾؟ ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ تلمح أنهم رأوها، وإلّا لكان صحيح العبارة «لم تر» حتى يحلّق سلب الرؤية على الفريقين، إضافة إلى أن في عدم رؤية العدو إياهم عدم لانهباط أنفسهم وروحياتهم، فلا بد - إذاً - من رؤيتهم إياهم حتى ينهزموا برؤيتهم كما ينهزمون بوقعتهم[(٢)].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٤.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٢٦ - أخرج مسدد في مسنده والبيهقي وابن عساكر عن عبد الرحمن مولى أم برثن قال: حدثني رجل كان من المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حلب شاة إلا كفيناهم فبينا نحن نسوقهم في أدبارهم إذ التقينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ فتلقتنا عنده رجال بيض حسان الوجوه قالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا وركبوا أكتافنا وكانت إياها، وفيه أخرج البيهقي من طريق ابن إسحاق حدثنا أمية بن عمرو بن عثمان بن عفان أنه حدث أن مالك بن عوف بعث =

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾:

هذه الآية هي الوحيدة في القرآن نصاً بـ ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ مستمسكة للذين يقولون بنجاسة المشركين البدنية إلى النفسية والعملية، وقد يتجاوزون عنهم إلى سائر الكافرين والبعض من فرق المسلمين!.

وهنا ﴿إِنَّمَا﴾ تحصر المشركين في «النجس» أنهم بكل كيانهم نجس، ولا تحصر «النجس» في المشركين، وهل إنه مع النجاسة والنجاسة النفسية في قالهم وحالهم وفعالهم، نجاسة معها جسدية أيضاً ١ - ولا ملازمة بينهما، كما افترقا في المنافقين الذين أنفسهم أنجس من أنفسهم أولاء فهم في الدرك الأسفل من النار، وتأثير النجس في مجاورة مشروط بشروط هي هنا فاقدة، كالمسانخة والرطوبة وما أشبه، وحتى إن أثرت الروح النجسة في الجسم فتلك إذا نجاسة عرضية وليست عينية ذاتية، ولو أن الروح بخفتها تؤثر في الجسم بثقله لكانت الأبخرة المتصلة بالنجاسات كلها نجسة!.

٢ - ثم النجس لم يأت في القرآن إلا هنا وهو بمعنى النجاسة في غير الجسم كما في أضرابه من الرجز والرجس، وهنا يبرز

المروي عن النبي ﷺ أن وفد ثقيف لما قدموا عليه ﷺ ضرب لهم قبة في المسجد فقالوا يا رسول الله ﷺ قوم أنجاس؟ فقال رسول الله ﷺ

= عيوناً فأتوه وقد تقطعت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟ فقالوا: أتانا رجال بيض على خيل بلق فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، وفيه عن ابن عثمان الحجبي عن أبيه قال خرجت مع النبي ﷺ يوم حنين والله ما خرجت إسلاماً ولكن خرجت اتقاءً أن تظهر هوازن على قريش فوالله إني لواقف مع رسول الله ﷺ إذ قلت يا نبي الله إني لأرى خيلاً بلقاء، قال يا شيبة انه لا يراها إلا كافر فضرب بيده عند صدري حتى ما أجد من خلق الله تعالى أحب إلي منه قال: فالتقى المسلمون فقتل من قتل...

«إنه ليس على الأرض من أنجاس الناس شيء إنما أنجاس الناس على أنفسهم»[(١)] ويروى أيضاً أنه ﷺ شرب من أوانيهم[(٢)].

فروايته الأخرى أن «من صافح مشركاً فليتوضأ أو ليغسل كفيه»[(٣)] بين محمولة على التنزيه أم سواه مما لا تلزمه النجاسة الجسدية المتعدية إلى ملاصقها.

ثم لو كان دخول النجس الظاهري الجسداني محرماً في المسجد الحرام لكان من المحرم إدخال أية نجاسة فيه، بل وفي الحرم كله حيث القصد من المسجد الحرام هنا الحرم كله، وكيف بالإمكان التحرز عن دخول أية نجاسة في الحرم كله والعائشون في الحرم يتنجسون وينجسون الحرم قضية

(١) آيات الأحكام للجصاص ٣ : ١٠٥ روى حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف. .

(٢) أطبق إخواننا على طهارة المشركين ووافقهم منا ابن الجنيد وابن أبي عقيل والمفيد في المسائل الغرية حيث قال: يكره مواكلتهم، ومال إليها صاحب المدارك والمفاتيح، والروايات المشعرة بنجاستهم محمولة على التنزيه لغلبة تنجسهم دون تطهير، أم نجاسة أرواحهم، ولا برهان لأصحابنا على نجاسة المشركين إلا روايات نجاسة أهل الكتاب أم والمجوس، وهي معروضة على آية المائدة الدالة على طهارتهم.
هذا وممن وافقنا من أكابر المعاصرين العلامة المغفور له الطباطبائي صاحب الميزان في ٩ : ٢٢٩ قائلاً: وفي تعليله تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجساً اعتبار نوع من القذارة لهم كاعتبار نوع من الطهارة والنزاهة للمسجد الحرام وهي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبة وغير ذلك.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٢٧ - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: من صافح. . وفيه أخرج ابن مردويه عن هشام بن عروة عن أبيه عن جده قال: استقبل رسول الله ﷺ جبرئيل عليه السلام فناوله يده فأبي أن يتناولها فقال يا جبرئيل ما منعك أن تأخذ بيدي؟ فقال: إنك أخذت بيد يهودي فكرهت أن تمس يدي يداً قدسها يد كافر فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ فناوله يدع فتناولها، أقول: نجاسة اليهودي تعارضها آية المائدة ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المَائدة: ٥] ثم من شرط واجب الغسل في مس النجاسة الرطوبة المسرية ولم تفرض هنا رطوبة يد النبي أو جبرئيل، بما في هذا الحديث من مزرءة على رسول الله ﷺ كأنه ترك حكماً كان يعلمه من شرعة الله!.

الضرورة الحيوية الإنسانية ليل نهار، ومما يدل على هذه الوسعة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ إذ لا تخاف إلا في خارج المسجد نفسه، مكة أو الحرم كله.

ثم الإشراك - وهو أمر نفسي - لا ينجس إلّا حامله وهو النفس، دون الجسد الذي ليس ليؤمن أو يشرك خارجة عن محور الإيمان والإشراك، فلا صلة للإشراك الذي ينجس النفس، بالبدن الذي لا يشرك ولا يؤمن، كما في نفس المنافق التي هي أنجس من نفس الكافر.

كما وأن نجس العين لا يطهر إلّا بالاستحالة والإسلام لا يستحيل به إلّا النفس المسلمة دون الجسد!.

فالنجاسة الجسمية بين عينية ذاتية وعرضية ولا ثالث لهما، فكيف يكون المشرك نجس العين ثم يطهر دون تحول، والنجس العرضي لا يطهر إلّا بمطهر مادي!.

فحتى لو كان النجس يعم الجسم إلى النفس أم يخص الجسم فيما يطلق، فمناسبة الحكم والموضوع هنا تحكم - فقط - بنجاسة النفس، فكما ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾ هم أرواحهم الشريرة، كذلك ﴿نَجَسٌ﴾ هو تلك الأرواح، وليست مع الأجساد، اللّهم إلّا إذا تنجست أجسادهم بما ينجّس كل الأجساد، ولا فارق هنا بين أجساد الموحدين والمشركين.

فإذا قيل الملحد معوج، فهل يظن أو يحتمل اعوجاج جسمه إلى روحه؟ فكما «الملحد» يفسّر الاعوجاج اختصاصاً بالنفس الملحدة، كذلك ﴿الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

ثم الطهارة الغالية الروحية للمسجد الحرام تقتضي المشابهة لها المؤاتية إياها للداخلين فيه، فليست النجاسة البدنية كما الطهارة الظاهرية واردة في حقل الآية.

ولو أنها عنت النجاسة البدنية الذاتية لما اختص المنع بدخول المسجد

الحرام خوفة تنجيسه، ولعم كافة المساجد، ولأن المسجد الحرام هنا هو مكة كلّها، فليعم المنع كافة البلاد الإسلامية بما فيها مساجد وأماكن أخرى محترمة محرمة التنجيس.

ثم وحرمة التنجيس لا تختص بحقل الإشراك، بل والمسلم الذي يحمل نجساً، فهل يمنع - إذاً - عن دخول المساجد، أو البلاد الإسلامية؟.

إذاً فلا تدل الآية على نجاسة أبدان المشركين، وذهاب بعض الأعلام وصريح بعض الصحاح في طهارتهم ينقض أو يفسر النجاسة المذكورة في غيرها[1] وسواء أكان ﴿نَجَسٌ﴾ مصدراً أم كما النجس صفة، فلا تحصر الآية النجاسة فيهم، بل تحصرهم من الناحية الشركية في نجاسة أرواحهم وأقوالهم وأفعالهم المشركة، دون أجسادهم غير المشركة ولا الموحدة، وأما أهل الكتاب فهم نجس نسبياً وطاهرون كذلك حيث يخلطون الصالح مع الطالح قضية الشرعة الكتابية المحرفة والمنسوخة، وقد طهرتم آية المائدة! ذلك، وحتى لو نص دليل على نجاسة أبدانهم فليس لزامه تعديتها إلى غيرها، حيث التعدية كأصل النجاسة هي أمر تعبدي بحاجة إلى نص ثابت ولم تثبت للمشرك، كما لا نص بنجاسة خصوص المشرك، والروايات المستدل بها على نجاسة أهل الكتاب معروضة على آية المائدة، إذا فكما لا دليل على نجاسة الكتابي، بل آية المائدة دليل طهارته، كذلك المشرك مهما لم يدل الكتاب على طهارته، فإن فقدان الدليل على النجاسة كاف في الحكم بالطهارة.

والقول بوجوب أخذ ما خالف العامة في مختلف الفتيا بين الفريقين، غير وارد هنا إذ لا نص على نجاسة المشركين البدنية حتى يرجح لمخالفة العامة على نص الطهارة.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ٢٤ واحتج القاضي على طهارتهم بما روي. . .

وإذا لم نجد نصاً على إحدى الفتويين طهارة ونجاسة فأصالة الطهارة محكمة ولا سيما في مثل هذه المسألة التي تعم بها البلوى، ولم يرد أي نص على أن النبي ﷺ أو أحداً من أئمة أهل بيته عليهم السلام عاملوا المشركين معاملة نجس العين المتعدي كسائر العيون النجسة المتعدية، ولو كان لبان!.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهنا «لا يقربوا» علّه منع عن كونهم في الحجاز أم قرب الحرم المكي، فليس النص «لا يدخلوا» حتى يمنع خصوص دخولهم، بل «لا يقربوا» كما ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[1] مما يدل على حظر الاقتراب من الحرم.

ولأن ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾ لا تعم كافة الكفار، ولا أن ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ تعم كافة المساجد، فلا تدل الآية على حظر القرب أو الدخول لسائر الكفار في المسجد الحرام فضلاً عما سواه من المساجد، اللّهم إلا بدليل آخر ككونهم جنباً لآية النساء: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾[2] اعتباراً بفرض الفروع على الكفار كما المؤمنين، فليمنعوا نهياً عن المنكر، من دخول المساجد، ولكنه ليس منكراً في زعمهم فلا نهى إلا بعد البيان ثم تخلفهم.

ولأن «لا يقربوا» موجه إلى المؤمنين في الأصل إذ ليس المشرك ليصدّق وحي الله حتى يقبله، فالمفروض عليهم صدهم عن المسجد الحرام، وان دخلوا أو قربوا فنفيهم عنه، ونظيره قوله تعالى بحق الذين لم يبلغوا الحلم ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾[3].

وهل إن «لا يقربوا» مخصص ببعضهم كما في رواية؟[4] والحكم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٨.

(٤) الدر المنثور ٣: ٢٢٦ - أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد عامي هذا أبداً إلا أهل العهد وخدمكم.

المعلل لا يخصّص فلا تخصيص! اللّهم إلّا الباقية مدتهم في معاهدة قبل نزول هذه الآية ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾[1] وأما المعاهدة بعد الآية فلا تجوز لقرب المسجد الحرام لاستغراق الخطر.

﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ . . .وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ وقد خافت جماعة عيلة لفراغ المسجد الحرام - مكة أو حرماً - عن المشركين حيث كانوا يحملون سلعاً للتجارة كأصل فيها[2]، فقد طمأنهم الله أنه هو الرزاق وأنه يغنيهم عنهم إن شاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعلم بأحوالكم.

وهنا ﴿إِن شَآءَۚ﴾ تطلق مشيئته، على علمه وحكمته وقدرته، دون أن يضطر ويلجأ إلى إغناءهم بأسباب أخرى مهما كانت مرضات المؤمنين، فإنما ﴿إِن شَآءَۚ﴾ حتى ينقطعوا إليه فيما يشاءون، فلا تخيل إليهم ضرورة المبادلة وكأنها مهاترة هي لزام تقبلهم ذلك الحكم الصارم.

أجل، فهناك حظر عن حضور المشركين المسجد الحرام، وهنا الموقف الاقتصادي السلبي من جراءه، الموقف الذي ينتظره المكيون، تجارة يعيش عليها معظم الظاهرين في الجزيرة، ورحلة الشتاء والصيف التي تكاد تقوم عليها حياة الجزيرة، هذه كلها تتعرض للضياع بإعلان الجهاد العام على المشركين كافة، ثم الحظر عن قربهم الحرم مهما كانوا مسالمين غير طاعنين في الدين، ولكن الله هو الكافل بأمر الأرزاق من وراء الأسباب ودونها، فحين يشاء الله يستبدل بأسباب مألوفة أخرى غير معروفة ولا مألوفة، غلقاً

(١) سورة التوبة، الآية: ٤.
(٢) المصدر أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نفى الله تعالى المشركين عن المسجد الحرام ألقى الشيطان في قلوب المؤمنين فقال: من أين تأكلون وقد نفي المشركون وانقطعت عنكم العير قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ. . .﴾ [التوبة: ٢٨].

لباب وفتحاً لأبواب، وحتى إذا لم يستبدل فحكم الله أحرى بالاتباع من وافر العيشة، فـ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[١].

فلقد كان الوحي القرآني الناهج أفضل مناهج التربية، يعمل في المجتمع الذي نشأ من الفتح، ولمّا تتناسق مستوياته الإيمانية حيث كان يعتوره ثغرات، فهو يحاول في سد هذه الثغرات بفتح الاتجاه إلى الله في خطوات هي بالنتيجة قمة التجرد لله، والمفاصلة على أساس العقيدة مع كافة الأواصر الأخرى غيرها، فآصرة العقيدة الصالحة هي الوحيدة في الميدان، التي تتناسى سائر الأواصر أمامها ولا سيما إذا خالفتها.

وهنا بعد ما ينتهي دور المشركين، فإلى سائر الكفار ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٢]:

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿قَٰتِلُوا۟...﴾ أهجوماً لم يكن ضد المشركين؟ أم دفاعا، فعما ذا؟. هنا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ كشريطة أولى لهذا القتال يخرجهم عن الإيمان أيّاً كان ويلحقهم بالمشركين، فإن ركن الإيمان الركين هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وهم يشركون بالله وينكرون اليوم الآخر، وكما في كتاباتهم المحرفة عن جهات أشراعها، نكراناً لجسمانية المعاد أم للجزاء العدل فيه، أم تجاهلاً عن أصله كما في التوراة، نكرانات متشابهة لصالح المعاد العدل، كما تشابهت قلوبهم فهي خاوية عن الحق المرام.

ثم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ في كافة شرائعه، أم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

و﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ في شرعتهم الكتابية فـ «رسوله» إذا كل رسل الله أم رسلهم أنفسهم، ثم ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ في قرآنه ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ في سنته، وهنا ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾ يشملهم كلهم، ولا أقل دون الآخرين، حيث لا يلتزمون بما هم به متشرعون من حرمات الله في الشرائع كلها أم في شرعتهم أنفسهم تحريماً عقيدياً أو عملياً حيث يعاملون المحرمات كما المحلّلات، ولا سيما القسم الكبير من المسيحيين القائلين بنسخ شريعة الناموس أي العمل بما افتدى المسيح عليه السلام بنفسه عنها فحلت به كافة المحرمات.

ومن ثم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ في دينهم فضلاً عن دين الحق لهذه الشرعة القرآنية، وهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[1] وقد عني من ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ هذا الدين في ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ. . .﴾ كما يأتي.

إذاً فلا يقاتل أهل الكتاب إلّا الموصوفون بهذه التخلفات الثلاث، ثم قولهم: عزير ابن الله، واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، فبهذه الدركات السبع الجهنمية يقاتلون حيث هم يشابهون فيها المشركين، فهم - إذاً - يتلون تلوهم إذ ينحون منحاهم ويغزون مغزاهم ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2]! إنهم ليسوا فقط طاعنين في ديننا بل هم طاعنون في كل الأديان، بل وطعنتهم أطعن وأمعن من طعنات المشركين وسائر الكفار وكما وصفهم الله جملة واحدة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ. . .﴾[3]، وكما نجد مواقفهم المضللة أمامهم وأمام المؤمنين؟.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

﴿قَٰتِلُواْ . . .حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أمام السلطات الإيمانية، دون أية فرعنة واستكبار، وبكل ذل وهم صغار، وهذه أقل ما يعامل معهم في شرعة العدل والحكمة.

وهذه الآية هي الوحيدة في القرآن بميّزاتها ولا سيما ضريبة الجزية، وما هي إلا حفاظاً على أمنهم في ظل الدولة الإسلامية، وكما تؤخذ سائر الضرائب من المؤمنين.

فلأن هؤلاء المتخلفين من أهل الكتاب هم كالمشركين، لذلك فهم في صفوفهم لواجب قتالهم وكما يروى عن النبي ﷺ: القتال قتالان قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، فإذا فاءت أعطيت العدل[1] و﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ هي هيئة خاصة من الجزاء، وعلّها من أهل الكتاب جزاءً عدم قتالهم، ثم جزاءً الحفاظ عليهم في دولة الإسلام علّهم ينتهون.

ثم ﴿عَن يَدٖ﴾ مقرونة بـ ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ قد تعني ﴿عَن يَدٖ﴾ منهم دون أن يرسلوها بوسيط استعلاء أم يؤجلوها نسيئة دون نقد، ثم و﴿عَن يَدٖ﴾ منكم، وهي القدرة المستعلية لكم عليهم، والنعمة في ذلك الأخذ، حيث الجزية بديلة عن الحفاظ عليهم تحت رقابة السلطة الإسلامية، فهذه رحمة ربانية عليهم، فقد تعني ﴿عَن يَدٖ﴾ كلتا اليدين: معطية وآخذة، بمعنييها في كلّ، ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ دون أي استعلاء واستقلال ضمن الدولة الإسلامية، سواء في إعطاء الجزية أم سواه من حركات حيوية.

فلا تعني ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ انهم مهانون مهتوكون، وإنما تعني أنهم صاغرون أمام السلطة الإسلامية، وأمام شروطات الذمة، فهم في الحق -

(١) الدر المنثور ٣: ٢٢٨ - أخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: . . .

إذاً - عائشون في مدرسة داخلية إسلامية، يعامل معهم بصلح وصفاء ووفاء ما هم ﴿صَٰغِرُونَ﴾ أمام السلطة الإسلامية، دون أية مجاهرة بحرمات الله مهما هم عاملوها في خفاء.

وترى ﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ بعد هي بديلة القتال، والنفس المهدورة لاتباع بمال، ولا سيما هذه القليلة، فهل القصد من قتالهم - فقط - أخذ المال؟.

﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ هي مهلة بسيطة وسيطة بين بقاءهم أحراراً في فتنهم، وإبقاءهم كأسرى علّهم ينتبهون فينتهون، ودفع المال بتلك الحالة الصاغرة هو بطبيعة الحال يدفعهم إلى تأمل وتروّ تخلصاً عن خسران المال والحال، ولو أنهم فتنوا حال دفعهم جزيتهم، لم تكن الجزية دافعة عن قتالهم، فإنما دور الجزية هو فيما إذا هم ينتهون عن القتال والفتنة ولمّا ينتهوا عن ضلالهم البعيد، فلكي تتاح لهم فرصة التأمل تؤخذ منهم جزية عجالة، إجالة للنظر في أمرهم، فتحولاً - علّه - عن أمرهم، وطبيعة الحال في ﴿يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أنهم تخطوا مرحلتي الخطر على المؤمنين، فلا يحاربونهم نفسياً ولا عقيدياً وإلا فلا دور للجزية عن يد وهم صاغرون، فهم أولاء الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، لا تنطفئ نارهم وتخمد، فقد انطفأت إرادتهم النارية عن إطفاء نور الله.

فكما لا يعني أسر المشركين في جبهات القتال، إلّا حصرهم في مدرسة داخلية تربوية حتى يؤمنوا بما يلمسون من حالات المسلمين وفعالاتهم وقالاتهم الإيمانية، فكذلك الأمر لهؤلاء الذين يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

فهم أولاء يقاتلون حتى يتركوا فتنهم التي تسمح لقتالهم، انطفاء لنارهم الحارقة، فإما إيماناً أم تركا لفتنتهم، ثم يدفعوا الجزية عند ما دخلوا في السلطة الإسلامية دون قتل لهم أو أسر إكراها على الدين، إذ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى

ٱلدِّينِ﴾[١] فهم لا يتركون - إذاً - بحريتهم الشريرة، بل هم يعيشون تحت الرقابة والحفاظة الإسلامية بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون، رقابة تسلب عنهم فتنهم وتفرض عليهم أدباً إسلامياً بما يلمسونه في ذلك الجو السامي.

وذلك تعديل ليس عنه بديل في التعامل التعايش بين المسلمين وهؤلاء المتخلفين من الذين أوتوا الكتاب، فقه حكيم مستنير ينير الدرب على من يدق باب الهدى أم يتحرى عنها.

وطبيعة الحال هي عدم إمكانية التعايش بين المسلمين والكفار إلا في ظل ظليل من أوضاع ومقررات عادلة بطبيعة المنهج الحركي الإسلامي، مقابلة للواقع المرير الشرير الكافر بحركة عاقلة عادلة مكافئة له، متفوقة عليه، لكي يصلحه أم يسلخه لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٢].

وهنا - في حقل أهل الكتاب - يختص القتال فالجزية بمن فيه هذه الدركات السبع، وأما الصالحون منهم المتقون فلا، إذ ﴿۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾[٣] ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣-١١٥.
(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

فليس الله ليأمر بقتال أمثال هؤلاء آمنوا أم لـمّا يؤمنوا أم لا يؤمنون، إنما هم الموصوفون بتلك السبع الجهنمية، صداً عن فتنتهم وتسديداً لهم عن بغيهم، فإنهم بصفاتهم هذه حرب على دين الله اعتقاداً وسلوكاً، وطعن فيه ككلّ حرباً على الكتلة المؤمنة بحكم طبيعة التعارض والتصادم المبدئيين بين دين الله ودين ما سواه.

فكما المشركون تجب قتالهم دفاعاً عن صالح العقيدة وصداً عن الطعن في الدين، كذلك الكتابيون الذين يقتفون آثاراً لهم مهما تسموا بالكتابيين.

ولقد أثبت الواقع التاريخي المرير واقع التعارض بينهم وبين المسلمين، وقوفاً لهؤلاء الكتابيين في وجه الدين ككل، وفي وجهه كهذا الأخير، وإعلان الحرب عليه وعلى أهله دون هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية حتى يومنا هذا.

ذلك، فأقل تقدير لإصلاح الحال ضماناً لإزالة هذه العوائق المزرية، وحفاظاً على عدم الإكراه في الدين، هو كسر شوكة السلطات القائمة على ما يضاد الدين الحق حتى تسلم أو تستسلم - ولأقل تقدير - عيشة تحت الذمة بدفع الجزية، سلباً لطليق حريتهم في معارضة دين الله.

ففي مثلث استسلامهم، ومساهمتهم في نفقات الحفاظ على أنفسهم، وعدم المظاهرة الضارة ضد الدين ككل وضد الإسلام، تشكّل هندسة المهادنة لردح التجربة للمجموعة، ولهم انجذاباً إلى شرعة الحق، أم ولأقل تقدير تركاً لمعارضتها.

ذلك، رغم أن هذه القضية اليوم أصبحت تاريخية فحسب، إذ لا وجود لهكذا مسلمين ودولة إسلامية تصلح لتطبيق هذه الأحكام السياسية، فعلينا أولاً أن نفتش عن وجود جادّ جيد للمسلمين، ثم نتحدث عن هذه الإصلاحات والصلاحيات، والمنهج الإسلامي هو دائماً منهج الواقعية دون

الخيالية الأحلامية المعلقة على هواء الفروض وأهواء الافتراضات، فليس المنهج الإسلامي في شيء من مناهج الآرائيين الذين يقولون: «إن كان كذا كان كذا» ويفتشون عن موضوعات ومواضع الأحكام الخيالية من خلال النذور والاتفاقيات البعيدة عن متعود الواقع المعاش.

ونحن حين نبحث عن هذه الضوابط الإسلامية على ضوء القرآن، نبحث فحصاً عن خلق جو تتحقق فيه هذه الأحكام، حيث القرآن يلحق في ضوابطه على كل زمان ومكان، ويطلب من معتنقيه بجدية أن يؤسسهم أنفسهم كمسلمين واقعيين ثم يعملوا في تحرير الإنسانية عن دركات الكفر، إلى بركات الإيمان والله هو المستعان.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

فهؤلاء وأولاء أيضاً فرقة من كلّ دون الكل، فهل يؤخذ الجار بجرم الجار؟ لا و﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]! فرقة من اليهود ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وفرقة من النصارى ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ و﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ خاوياً عن حق، ثم وليس من اختلافهم أنفسهم، وإنما هم ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ من المشركين القائلين إن لله ابناً أو أبناء ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾![2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٢) لقد استعرضنا من عثرنا عليهم من المشركين القائلين بالثالوث في تفسير سورة المائدة ١٧ و١١٦ ومريم ٣٤ وإليكم نموذجاً من تفصيل:

فمن الثواليث: الثالوث البرهمي والبوظي وتاوو والصينيين والهنود والمصريين واليونان والرومان والفرس والفنلنديين والاسكندنافيين والدرديين والتتر والسيبريين والجزائر الأقيانوسية والمكسيكيين والهندوس الكنديين.

فهؤلاء من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠] وقد ضاهؤوهم هؤلاء المسيحين.

وكذلك من كفرة اليهود وقد كان (فيلو) الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح يقول: إن لله ابناً هو كلمته التي خلق بها الأشياء، ثم ومن قبلهم ومعهم سائر الكفار القائلين بالبنوة الإلهية بحذافيرها المتشتتة.

ولقد فصلنا القول حول البنوة الإلهية بحذافيرها بطيات آياتها فلا نعيد هنا إلا ثالوثاً منها هي: بنوة تشريفية كعزير في قول القائلين به ككل، وبعض القائلين إن المسيح ابن الله، وبنوة ولادية كبعض آخر من النصارى، وبنوة مرتقية إلى ذات الأبوة في قالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[١] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[٢] خطوات خاطئات في حقل البنوة الإلهية ما لها من جذور إلا الشركية من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وإليكم حوار الرسول ﷺ مع اليهود والنصارى بهذا الصدد[٣].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٧.
(٣) في كتاب الإحتجاج للطبرسي قال أبو محمد العسكري قال الصادق عليه السلام: ولقد حدثني أبي عن جدي علي بن الحسين زين العابدين عن الحسين بن علي سيد الشهداء عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين صلوات الله عليهم، أنه اجتمع عند رسول الله ﷺ أهل خمسة أديان: اليهود والنصارى والدهرية والثنوية ومشركو العرب، فقالت اليهود: نحن نقول: عزير ابن الله وقد جئناك يا محمد لننظر ما تقول، فإن اتبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك وأفضل وإن خالفتنا خصمناك وقالت النصارى نحن نقول: إن المسيح ابن الله اتحد به وقد جئناك لننظر ما تقول؟ فإن اتبعتنا فنحن أسبق إلى الصواب منك وأفضل وإن خالفتنا خاصمناك -
ثم قال لليهود: أجئتموني لأقبل قولكم بغير حجة؟ قالوا - لا - قال: فما الذي دعاكم إلى القول بان عزيراً ابن الله؟ قالوا: لأنه أحيا لبني إسرائيل التورية بعدما ذهبت ولم يفعل بهذا هذا إلا لأنه ابنه، فقال رسول الله ﷺ: كيف صار عزير ابن الله دون موسى وهو الذي جاءهم بالتورية ورأوا منه من المعجزات ما قد علمتم؟ فإن كان عزير ابن الله لما ظهر من الكرامة من إحياء التورية فلقد كان موسى بالنبوة أحق وأولى، ولئن كان هذا المقدار من إكرامة لعزير يوجب أنه ابنه فأضعاف هذه الكرامة لموسى توجب له منزلة أجل من البنوة، وإن كنتم إنما تريدون بالبنوة الولادة على سبيل ما تشاهدون في دنياكم هذه من ولادة الأمهات الأولاد بوطي آباءهم لهن فقد كفرتم بالله وشبهتموه بخلقه وأوجبتم فيه صفات المحدثين ووجب عندكم أن يكون محدثاً مخلوقاً وأن يكون له خالق صنعه وابتدعه؟ قالوا: لسنا نعني هذا فإن هذا كفر =

. . . .

= كما ذكرت ولكنا نعني أنه ابنه على معنى الكرامة وإن لم يكن هناك ولادة كما قد يقول بعض علمائنا لمن يريد إكرامه وإبانته بالمنزلة عن غيره: يا بني! وإنه ابني لا على سبيل إثبات ولادته منه، ولأنه قد يقول ذلك لمن هو أجنبي لا نسب بينه وبينه، وكذلك لما فعل الله بعزير ما فعل كان قد اتخذه ابناً على الكرامة لا على الولادة فقال رسول الله ﷺ: فهذا ما قلته لكم: إنه إن وجب على هذا الوجه أن يكون عزير ابنه فإن هذه المنزلة لموسى أولى وأن الله يفضح كلّ مبطل بإقراره ويقلب عليه حجته لأن ما احتججتم به يؤديكم إلى ما هو أكبر مما ذكرته لكم، لأنكم قلتم: إن عظيماً من عظمائكم قد يقول لأجنبي لا نسب بينه وبينه يا بني وهذا ابني لا على طريق الولادة فقد تجدون أيضاً أن هذا العظيم يقول لأجنبي آخر: هذا أخي، ولآخر: هذا شيخي وأبي، ولآخر: هذا سيدي ويا سيدي على سبيل الإكرام، وإن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول، فإذا يجوز عندكم أن يكون موسى أخا لله أو شيخاً له أو أباً أو سيداً لأنه قد زاده في الإكرام مما لعزير، كما أن من زاد رجلاً في الإكرام قال له: يا سيدي ويا شيخي ويا عمي ويا رئيسي على طريق الإكرام، وإن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول، أفيجوز عندكم أن يكون موسى أخا لله أو شيخاً أو عما أو رئيساً أو سيداً أو أميراً لأنه قد زاده في الإكرام على من قال له: يا شيخي أو يا سيدي أو يا أميري أو يا عمي أو يا رئيسي، قال: فبهت القوم وتحيروا وقالوا: يا محمد أجّلنا نفكر فيما قلته لنا، فقال ﷺ: انظروا فيه بقلوب معتقدة للإنصاف يهدكم الله -

ثم أقبل ﷺ على النصارى فقال: وأنتم قلتم: إن القديم عزّ وجلّ اتحد بالمسيح عليه السلام ابنه؟ فما الذي أردتموه بهذا القول؟ أأردتم أن القديم صار محدثاً لوجود هذا المحدث الذي هو عيسى؟ أو المحدث الذي هو عيسى صار قديماً لوجود القديم الذي هو الله؟ أو معنى قولكم: إنه اتحد به أنه اختصه بكرامة لم يكرم بها أحداً سواه؟ فإن أردتم أن القديم صار محدثاً فقد أبطلتم لأن القديم محال أن ينقلب فيصير محدثاً، وإن أردتم أن المحدث صار قديماً فقد أحلتم لأن المحدث أيضاً محال أن يصير قديماً، وإن أردتم أنه اتحد به بأن اختصه واصطفاه على ساير عباده فقد أقررتم بحدوث عيسى وبحدوث المعنى الذي اتحد به من أجله، لأنه إذا كان عيسى محدثاً وكان الله قد اتحد به بأن أحدث به معنى صار به أكرم الخلق عنده فقد صار عيسى عليه السلام وذلك المعنى محدثين وهذا خلاف ما بدأتم تقولونه، فقالت النصارى يا محمد إن الله لما أظهر على يد عيسى من الأشياء العجيبة ما أظهر فقد اتخذه ولداً على وجه الكرامة فقال لهم رسول الله ﷺ: فقد سمعتم ما قلته لليهود في هذا المعنى الذي ذكرتموه ثم أعاد ﷺ ذلك كله فسكتوا إلا رجل واحد منهم قال له: يا محمد أو لستم تقولون: إن إبراهيم خليل الله؟ قال: قد قلنا ذلك، فقال: إذا قلتم ذلك فلم منعتمونا أن نقول: إن عيسى ابن الله؟

فقال رسول الله ﷺ: إنهما لن يشتبها لأن قولنا إن إبراهيم خليل الله فإنما هو مشتق من =

ولقد اشتد غضب الله في مواطن ثلاثة حسب المروي عن الرسول ﷺ: «اشتد غضبه على اليهود أن قالوا عزير ابن الله، واشتد غضبه على النصارى أن قالوا المسيح ابن الله، وان الله أشتد غضبه على من أراق دمي وآذاني في عترتي»[1].

= الخلة والخلة إنما معناها الفقر والناقة وقد كان خليلاً إلى ربه فقيراً وإليه منقطعاً وعن غيره متعففا مستغنيا وذلك لما أريد قذفه في النار فرمى به في المنجنيق فبعث الله تعالى جبرئيل عليه السلام فقال له: أدرك عبدي فجائه فلقيه في الهواء فقال حلفني ما بدا لك فقد بعثني الله لنصرتك فقال: بل حسبي الله ونعم الوكيل إني لا أسأل غيره ولا حاجة لي إلا إليه فسمي خليله أي فقيره ومحتاجه والمنقطع إليه عمن سواه، وإذا جعل معنى ذلك من الخلة وهو أنه قد تخلل معانيه ووقف على أسرار لم يقف عليها غيره كان الخليل معناه العالم به وبأموره ولا يوجب ذلك تشبيه الله بخلقه، ألا ترون أنه إذا لم ينقطع إليه لم يكن خليله وإذا لم يعلم بأسراره لم يكن خليله وإن من يلده الرجل وإن أهانه وأقصاه لم يخرج عن أن يكون ولده، لأن معنى الولادة قائم، ثم إن وجب لأنه قال لإبراهيم خليلي أن تقيسوا أنتم كذلك فتقولوا: إن عيسى ابنه وجب أيضاً أن تقولوا له ولموسى ابنه فإن الذي معه من المعجزات لم يكن بدون ما كان مع عيسى فقولوا: إن موسى أيضاً ابنه، وأنه يجوز أن تقولوا على هذا المعنى أنه شيخه وسيده وعمه ورئيسه وأميره كما قد ذكرته اليهود، فقال بعضهم لبعض: وفي الكتب المنزلة أن عيسى قال: أذهب إلى أبي، فقال رسول الله ﷺ: إن كنتم بذلك الكتاب تعلمون فإن فيه: أذهب إلى أبي وأبيكم فقولوا: إن جميع الذين خاطبهم عيسى كانوا أبناء الله كما كان عيسى ابنه من الوجه الذي كان عيسى ابنه، ثم إن ما في هذا الكتاب يبطل عليكم هذا الذي زعمتم أن عيسى من جهة الاختصاص كان ابناً له لأنكم قلتم إنما قلنا أنه ابنه لأنه اختصه بما لم يختص به غيره وأنتم تعلمون أن الذي خص به عيسى لم يخص به هؤلاء القوم الذين قال لهم عيسى: أذهب إلى أبي وأبيكم فبطل أن يكون الإختصاص بعيسى لأنه قد ثبت عندكم بقول عيسى لمن لم يكن له مثل اختصاص عيسى وأنتم إنما حكيتم لفظة عيسى وتأولتموها على غير وجهها لأنه إذا قال: أبي وأبيكم فقد أراد غير ما ذهبتم إليه ونحلتموه وما يدريكم لعله عنى: أذهب إلى آدم أبي وأبيكم أو إلى نوح أن الله يرفعني إليهم ويجمعني معهم وآدم أبي وأبيكم وكذلك نوح بل ما أراد غير هذا، قال: فسكت النصارى وقالوا: ما رأينا كاليوم مجادلاً ولا مخاصماً وسننظر في أمورنا، الحديث، وفي آخره قال الصادق عليه السلام: فوالذي بعثه بالحق نبياً ما أتت على جماعتهم إلا ثلاثة أيام حتى أتوا رسول الله ﷺ فأسلموا وكانوا خمسة وعشرين رجلاً من كلّ فرقة خمسة وقالوا: ما رأينا مثل حجتك يا محمد نشهد أنك رسول الله.

(١) الدر المنثور ٣: ٢٣٠ - أخرج البخاري في تاريخه عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم=

ذلك وإلى قول فصل عن قصة البنوة العزيرية[1] وليعلم بتفصيل أنها واقعة لا مرد لها.

= أحد شبح رسول الله ﷺ في وجهه وكسرت رباعيته فقام رسول الله ﷺ يومئذ رافعاً يديه يقول: . .

وعن ابن عباس قال أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود - سماهم - فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله!.

(١) أورد المرحوم السيد رشيد رضا في تفسير المنار (١٠ : ٣٧٨ - ٣٨٥) خلاصة مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود وعلق عليها بعض التعليقات، نتقل منها هنا كما يناسب سفرنا وموضوع البحث شطرات، قال: جاء في دائرة المعارف اليهودية (ط ١٩٠٣) أن عصر عزرا هو ربيع التأريخ الملي لليهودية، الذي تفتحت فيه أزهاره وعبق شذا ورده، وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة لو لم يكن جاء بها موسى (التلمود ٢١ ب) فقد كانت نسيت، ولكن عزرا أعادها أو أحياها، ولولا خطايا بني إسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات: المعجزات كما رأوها في عهد موسى. . وذكر فيها انه كتب الشريعة بالحروف الآشورية وكان يضع علامات على الكلمات التي يشك فيها، وأن مبدأ التاريخ اليهودي يرجع إلى عهده، وقال الدكتور بوست الامريكي في قاموس الكتاب المقدس: عزرا (عون) كاهن يهودي وكاتب شهير سكن بابل مدة «ارتحشثتا» الطويل الباع، وفي السنة السابعة لملكه أباح لعزرا أن يأخذ عدداً وافراً من الشعب إلى أورشليم نحو سنة (٤٥٧ ق - م) (عزرا ص ٧) وكانت مدة السفر أربعة أشهر - «ثم قال: وفي تقليد اليهود يشغل عزرا موضعاً يقابل بموضع موسى وإيليا ويقولون إنه أسس المجمع الكبير، وانه جمع أسفار الكتاب المقدس وأدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرانية القديمة وانه ألف أسفار «الأيام» و«عزرا» و«نحميا» -

«ثم قال: ولغة سفر «عزرا» من ص ٤ : ٨ - ٦ : ١٩ كلدانية، وكذلك ص ٧: ١ - ٢٧، وكان الشعب بعد رجوعهم من السبي يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية -

«وأقول: إن المشهور عند مؤرخي الأمم حتى أهل الكتاب منهم أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه، قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما تراه في سفر الملوك الأول وأن (عزرا) هذا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية، واللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التي نسي اليهود معظمها، ويقول أهل الكتاب: إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله. . وهذا ما لا يسلمه غيرهم وعليه اعتراضات كثيرة مذكورة في مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن حتى من تآليفهم كذخيرة الألباب للكاتوليك - وأصله فرنسي - وقد عقد الفصلين الحادي عشر والثاني عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الأسفار الخمسة لموسى ومنها قوله: جاء في سفر =

وعزير هذا هو الذي جدد التوراة بعد اندراسه وانطماسه حيث كتبها من جديد بعد غائلة بنوكد نصّر: بخت النصر - ملك بابل، حيث افتعل ما افتعل بهم وأحرق كتبهم، وعند ما فتح «كورش» الملك الإيراني بابل شفع لهم

= (عزرا ٤: ف ١٤ عدد ٢١) إن جميع الأسفار المقدسة حرقت بالنار في عهد (نبوخذ نصر) حيث قال: إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأي امرئ أن يعرف ما صنعت ويزاد على ذلك أن عزرا أعاد بوحي الروح القدس تأليف الأسفار المقدسة التي أبادتها النار، وعضده فيها كتبته خمسة معاصرون ولذلك ترى «ترتوليانوس» والقديس «يريناوس» والقديس «ايرونيموس» والقديس «يوحنا الذهبي» والقديس «باسيليوس» وغيرهم يدعون (عزرا) مرمم الأسفار المقدسة المعروفة عند اليهود.. إلى أن قال: «نكتفي بهذا البيان هنا ولنا فيه غرضان:

أحدهما أن جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم واصل كتبهم المقدسة عندهم، وثانيهما أن هذا المستند واهي النسيان متداعي الأركان وهذا هو الذي حققه علماء أوروبا الأحرار، فقد جاء في ترجمته من دائرة المعارف البريطانية بعد ذكر ما في سفره وسفر نحميا من كتابه للشريعة: أنه جاء في روايات أخرى متأخرة عنها أنه لم يعد إليهم الشريعة التي أحرقت فقط، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التي كانت أتلفت وأعاد سبعين سفراً غير قانونية: (أبو كريف) ثم قال كاتب الترجمة فيها: وإذا كانت الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر، فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقاً (أنظر ص ١٤ ج ٩ من الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٩٢٩)» -

«وجملة القول أن اليهود كانوا وما يزالون يقدسون عزيراً هذا حتى أن بعضهم أطلق عليه لقب (ابن الله) ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما أم بالمعنى الذي سيأتي قريباً عن فيلسوفهم (فيلو) وهو قريب من فلسفة وثني الهند التي هي أصل عقيدة النصارى وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم...

«وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة كالذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ...﴾ [المَائدة: ٦٤] و﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عِمرَان: ١٨١] رداً على قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم ولم ينقل إلينا، روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله..».

عنده عزير فسمح له أن يعيدهم إلى بلادهم وأن يكتب لهم التوراة وقد مات مائة سنة ثم بعثه الله كما في آية البقرة: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ...﴾[1]، فلذلك عظموه فاتخذوه ابناً لله تكريماً له - بزعمهم - كريماً لحد البنوة الإلهية المستحيلة! وظالما لم يكن زعم بنوته الإلهية منهم أجمع، إلا أن جمعاً منهم اتبعوا حملة ذلك المشعل، وآخرون سكتوا، ثم قلة باقية لم يكن لهم أمامهم صيت ولا صوت.

إذاً فـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ هي قالة لجمع منهم جميع دون الجميع، وهكذا النصارى، ولو لم تكن لهذه القالة واقع حاضر فيهم لكانت هذه تهمة تكفي في تزييف المواجهة القرآنية، ولما سكتوا - إذاً - عن تكذيبه، فحيث الكثرة الكثيرة منهم انحرفوا هكذا عن حق التوحيد، والقلة القليلة ما كانت أمامها تؤخذ بعين الإعتبار، بل كانت تؤاخذ وتلاحق لما ذا تخلفت عن ذلك الاختلاف، لذلك صح القول ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى﴾ إضافة إلى أن المواصفات المذكورة في الآية السالفة تضيق نطاق الموضوع هنا، فهم إذا كفرة اليهود والنصارى كلهم، و«اليهود» كما «النصارى» هما المعهودان بتلك المواصفات الكافرة، فاللام - إذاً - للعهد دون الجنس فضلاً عن الاستغراق.

وهنا سرد لبنود من كفرهم بالله واليوم الآخر، وأنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، أنهم تبنوا لله، في أي من بنوده الثلاثة، مضاهاة للمشركين العائشين من قبل.

ثم اتخاذهم من دون الله من يشاقون الله في أحكام من أحبار ورهبان، أمّن هو نفسه من عباد الله المخلصين، وفي ذلك نكران لرسالة الله، كما هو نكران لكون المشرع - فقط - هو الله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

ثم استحلالهم لأكل أموال الناس بالباطل، وكنزهم للذهب والفضة وصدهم عن سبيل الله، حيث ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وكلّ ذلك تخلفات عن كل شرائع الله ورسالاته، دون هذه الأخيرة فقط.

كما وكل ذلك تبيين لمواد من كفرهم في أصول أو فروع، تبريراً لقتالهم حتى...

ثم ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ والقول بطبيعة الحال ليس إلّا بالأفواه؟ قد يعني أنهم لا يعتقدون فيه ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[1] أم حين يعتقدونه فلا يستندون فيه إلى برهان، وإنما ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ فحتى إن اعتقدوه فما هو إلّا تقليداً أعمى للذين كفروا من قبل ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

فقد جمعوا ركاماً من الباطل ظلمات بعضها فوق بعض لا يكاد يوجد فيها نور: ١ - قول بأفواههم وليس بقلوبهم. ٢ - وإن كان بقلوبهم فليس من مختلقاتهم أنفسهم. ٣ - فإنما هو مضاهاة للذين كفروا من قبل، فيا ليتهم ضاهئوا كتابيين من قبل أمّن أشبه من الموحدين، ولكنهم اصطفوا في عقيدة اللّاهوت تقوّلات من المشركين.

ذلك حمقهم في عمقهم تقليداً أعمى للمشركين، ومن ناحية أخرى نرى جهالة عميقة حميقة أخرى لهم أنهم يعارضون العقل في لاهوت الألوهية حفاظاً على خرافة الثالوث وابن الله، كما وكانوا يعارضون العلم وصالح العقيدة في محاكمهم الكنسية، فنراها في القرن (١٣) م تفتش العقائد المعارضة لخرافات إنجيلية، والعلوم المتقدمة غير المؤاتية لهذه الأناجيل[2]:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

(٢) إن منظمة أنكيزيسيون: تفتيش العقائد قتلت عشرات الآلاف من هؤلاء المتخلفين عن خرافات إنجيلية، مهما كانت بمجرد تهمة غير ثابتة. =

. . . .

= ففي خلال (١٨) سنة فقط (تركمادا)[1] رئيس واحد من محاكم التفتيش الكنسية، حكم بإحراق زهاء ١٠٢٢٠ شخصاً أن يحرقوا أحياء، وإن كانت جماعة منهم خنقت قبل الحرق كتخفيف لهم عن الحكم القاسي!.

ومن تعذيبات هذه المحاكم أنه كلّ من يتهم بالكفر والإلحاد - على حد زعمهم - يلقى عليه القبض، وكانوا يضغطون عليه بألوان التعذيب والتنكيل حتى يعترف بما أتهم به وإن لم يكن حقاً واقعاً.

إن السجناء البريئين من هذه التهم ما كان يخلّى عنهم حتى يقروا بما لم يفعلوا تحت وطأة التعذيبات غير المتحمّلة حتى يعترفوا أخيراً بما لم يفعلوا.

يقول (كرى ولف) - وهو من المحققين الأوروبيين - عن ألوان التعذيبات: إن موظفي محاكم تفتيش العقائد كانوا يحمون المتهم لحد الحرق، ويعلقونه لحد كانت أعضائهم تتفكك، ويقطعون بالمعضات الحديدية لحومهم ويضغطون على أيديهم وأرجلهم بمعاقد حديدية لحد تسمع دقات تفلك عظامهم، ويدخلون الإبر تحت أظفارهم حتى يقرب المتهم إلى حالة النزع فيلجأ إلى الإقرار بما يريدونه منه، وكانت نتيجة ذلك الإقرار أنهم يخنقونه قبل حرقه، وما الذين لا يقرون فإلى الإحراق أحياء.

ومن جملة هؤلاء المعذبين الفيلسوف الأوروبي (وانينت) إذ قطعوا لسانه - قضية عدم إقرار بما يريدونه منه - وأحرقوه أمامه، ثم قتلوه شر قتلة.

ويقول (ژوان آنتونيولورنت) ١٨٠٠ م وهو من أعضاء محكمة تفتيش العقائد في (مادريد): إن قلمي يستحي من عرض هذه التعذيبات الوحشية بحق المتهمين، وأرى تناقضاً ظاهراً بين العطف المسيحي عليه السلام وهذه الخشونات الوحشية بحق المتهمين.

ويقول: لما تجاوز عديد المحكومين من المتهمين بالإحراق، اضطر حاكم (سويل) أن يبني محرقة خارج البلد في صحراء باسم (تابلادا) وتكون دائمة الاضطرام، وقد وضعت تماثيل أربع من النبيين على أضلاعها الأربعة، وكان يحرق فيها الكافرون بالمسيحية الكذائية!.

ويقول العالم السوكيتي (لوزينسكي) في تقدمته لكتاب (شارل لنا) مؤرخ محاكم تفتيش العقائد، يقول: حين أفكر أن هذه المحاكم تتبنى الإنجيل في هذه الأحكام الوحشية، يشكل علي كثيراً أن أكتب عنها باطمئنان.

ذلك، فمدراء الكنائس الإنجيلية كانوا يعاملون المتهمين هكذا، والمسيح نفسه كان يواجه الملحدين بكل لطف وحنان حتى يجلبهم إلى الحق. =

---

(١) (TORQUMADA).

إن موظفي محاكم تفتيش العقائد كانوا يحمون المتهم لحد الحرق، ويعلقونه لحد كانت أعضائهم تتفكك، ويقطعون بالمعضات الحديدية لحومهم، ويضغطون على أيديهم وأرجلهم بمعاقد حديدية لحد تسمع دقات تفكك عظامهم، ويدخلون الإبر تحت أظفارهم حتى يقرب المتهم إلى حالة النزع فيلجأ إلى الإقرار بما يريدونه منه، وكانت نتيجة ذلك الإقرار انهم يخنقونه قبل حرقه، وأما الذين لا يقرون فإلى الإحراق أحياء.

ومن جملة هؤلاء المعذبين الفيلسوف الأوروبي (وانينت)[١] إذ قطعوا لسانه - قضية عدم إقراره بما يريدونه منه - وأحرقوه أمامه، ثم قتلوه شر قتلة.

وهنا ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ليس دعاء حيث الدعاء ليس إلا ممن لا يقدر

= هؤلاء أحرقوا خلال سنين أكثر من/ ٣٢٠٠٠ متهماً وعذبوا/ ٣٤٠٠٠ شخصاً لحد أنهى إلى موتهم، وفي الجمعين عديد من العلماء الذين كانوا يتشككون في الأناجيل المزخرفة، أم كانوا يخترعون ما لا تمضيه الأناجيل.

ذلك، ونموذجاً من سائر الجرائم الكنسية إليكم العرض التالي: يقول الدكتور جوستاولوبون الفرنسي في تاريخ التمدن الإسلامي: إن عظيم الأساقفة أمر في المحكمة المقدسة! أن يقتل الأعراب غير المسيحيين مع نسائهم وأطفالهم بالسيف، وراهب آخر تخطى هذه الجريمة البشعة وأمر بقتل الأعراب مسيحيين ومسلمين عن بكرتهم، باحتمال أن إيمان المسيحيين منهم غير صادق.

وهذا الراهب المسمى بـ (بلدا) يذكر بكل سرور أن ثلاث ملايين من هؤلاء المحكومين قتلوا في الطريق، وفي مهجر من مهاجر المسلمين وعددهم/ ١٤٠٠٠٠ شخصاً، إذ كانوا يهاجرون إلى أفريقيا قتل منهم/ ١٠٠٠٠٠ شخصاً.

وهكذا أحرق (كزيمنس) عظيم الأساقفة/ ٨٠٠٠٠ كتاباً إسلامياً ظناً منه أنه قضى بذلك على الإسلام المناوئ للمسيحية.

وكل ذلك كان في أسبانيا: الأندلس، عند التغلب عليها، ويكتب (آناتول فرانس) إن الحملة الوحشية لشمالي الأوروبا على الأندلس محقاً لكثير من المسلمين القاطنين فيها، وطمسا لآثارها العلمية الإسلامية، إن ذلك سبب تأخر الأوروبا عن التقدم العلمي/ ٥٠٠ سنة.

(١) VANINI.

على أن يحقق مأموله بنفسه فيطلب ممن هو فوقه، فهو إخبار أن قتل الله فطرهم وعقولهم كما قتلوها قضية المفاعلة المعنية من المقاتلة، فلما قالوا ما قالوه وفعلوا ما فعلوه وافتعلوا ما افتعلوه ختم الله على قلوبهم بما ختموا فـ ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾:

اتخاذ الربوبية في هذا المثلث لا يعني فقط أنهم ربّبوهم كما الله، بل وهو معاملتهم معهم كما يعامل الرب في البعض من اختصاصات الربوبية، فقد اتخذوا المسيح رباً في خرافة الأقانيم واتحاده بذات الله، وعبادتهم له كما الله، وذلك يختلف عن سائر الاتخاذ في أحبارهم ورهبانهم، حيث أطاعوهم كما يطاع الله مشرعاً، فاتخذوهم أرباباً في حقل التشريع، فأصغوا إليهم كامل الصغي فيما أحلوا أو حرموا[1]، وفي الفصل بين ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾ وبين ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ تلميح لاختلاف الاتخاذين، كما أن ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ تستأصل الأخير، ذلك ومن أحبارهم ورهبانهم من يخيل إليهم أنهم نواب المسيح عليه السلام في البنوة الإلهية أو الإلهية نفسها نسخة طبق الأصل، بما يشربون الخمر ويأكلون الفطير، بان الخمر دم المسيح والفطير

---

(١) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ. . .﴾ [التوبة: ٣١] أما المسيح فعصوه وعظموه في أنفسهم حتى زعموا أنه الله وأنه ابن الله وطائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثة، وطائفة منهم قالوا: هو الله، وأما أحبارهم ورهبانهم فإنهم أطاعوا وأخذوا بقولهم واتبعوا به ما أمروهم به ودانوا بما دعوهم إليه فاتخذوهم أرباباً بطاعتهم لهم وتركهم أمر الله وكتبه ورسله فنبذوه وراء ظهورهم وما أمرهم به الأحبار والرهبان اتبعوه وأطاعوهم وعصوا الله ورسوله، وإنما ذكر هذا في كتابنا لكي نتعظ بهم فعير الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بما صنعوا يقول الله تبارك وتعالى: وما أمروا ألا ليعبدوا إلهاً واحداً سبحانه وتعالى عما يشركون.

لحمه، فهم يصبحون - إذاً - نفس المسيح عليه السلام وقد ندد بهم المسيح عليه السلام في نقل الإنجيل بقوله: «أفلا تفهمون بعد أن كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج» (متى ٥١: ١٧).

ذلك، وكل اتخاذة لغير الله كما الله في ربوبية من ربوبياته، ذلك إشراك بالله فيما يختص به الله، فكما التوحيد درجات كذلك الإشراك دركات ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالله في ذات أم أفعال أم صفات، تسوية لخلق الله بالله، وهي ككل ضلال مبين: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1].

فهنا مشركون رسميون وهم عبّاد الأوثان بصورة رسمية، وهناك مشركون دخلاء قد يعبدون غير الله زعم أنه الله كما المسيح، أو يطيعون غير الله كأنه الرب في التشريع، كما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، أو يميلون إلى غير الله مع الله كالذين يراءون في عباداتهم، ثالوث من الإشراك بالله بما لكلّ من دركات، والقسم الأول هو المصطلح المتعود المقصود فيما يطلق الإشراك، ثم الأوسط مرحلة ثانية هي مع المنحرفين عن التوحيد من أهل الكتاب، ثم الأخير يحلق على كل هؤلاء المرائين.

ولقد يروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تفسيراً لآلية: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»[2] ولا يعني التحليل والتحريم الإفتاء، بل هو تحليل ما حرم الله

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٣٠ - أخرج جماعة عن عدي بن حاتم قال أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فقال: . . » وفي المجمع روى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عنقي صليب فقال: يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرء من سورة براءة هذه الآية. . فقلت له: انا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما =

وتحريم ما أحل الله قاصرين أو مقصرين أو مقصرين وقاصرين، فلا يحل التقليد الطليق بل ولا أصل التقليد ممن هذه صفته بتقصير أم قصور.

ذلك، فاتباع غير الله كما الله اتخاذ له رباً كما الله، وأما الرسل وسائر المعصومين فاتباعهم هو اتباع الله فـ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] ولكن غير المعصومين الذين يجوز عليهم الخطأ قصوراً أو تقصيراً فليس إتباعهم طليقاً مطبقاً، إنما يتبعون فيما يعلم أنهم صادرون فيه عن الله أم لا يتهمون، وأما المشكوك فضلاً عن المعلوم تخلفهم عن حكم الله، فليس إتباعهم فيهما إلا اعتباراً لألوهتهم أو رسالتهم عن الله، أما الرسالة فكيف يكذب الرسول على الله أو يعارضه في حكمه، وأما الألوهية فهي هيه في هذه الطاعة الطليقة الخاطئة.

فلذلك، كما الاجتهاد في الدين تفصيليا فرض على المستطيعين، كذلك الاجتهاد إجمالياً فرض على القاصرين، أن يتأكدوا ممن يقلدونه أنه صادر حسب مكنته عن الله، فأما المشكوك فيه، فضلاً عن المتأكد كونه صادراً عن هواه، فليس إتباعه إلا تأليها له كما الله، فإن الله هو الذي يحلّل أو يحرم دون سواه، ولا رسول الله.

هذا، وفي تبديل صيغة الربوبية هناك: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2] بالألوهية هنا: ﴿إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ لمحة لامعة أن الربوبية هي من لزامات الألوهية،

= أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قال: فقلت بلى فقال: فتلك عبادتهم، وفي أصول الكافي عن أبي بصيرة قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية فقال: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجابوهم ولكن أحلوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون، وعنه عليه السلام من أطاع رجلاً في معصية الله فقد عبده، وعنه في الآية: أما والله ما صاموا لهم ولا صلوا ولكنهم...

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

فاختصاص العبادة بالله هو اختصاص للربوبية بالله، ومنها الطاعة الطليقة حيث تختص بالله.

فلما أطاعوا أحبارهم ورهبانهم طليقة وهم يعلمون تخلفهم عن شرعة الله، فقد عبدوهم كأرباب، فقد ألّهوهم - إذاً - كما الله في حقل التشريع، ومثلث: الألوهية - العبودية - الطاعة المطلقة، هذه خاصة بالله.

فحتى الرسول ﷺ لا يعبد، ولا يطاع لنفسه، إنما كرسول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(١) وليس هكذا غير الرسول، ولا سيما إذا خالف حكم الله الذي ليس للرسول فضلاً عمن سواه!.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أمراً شرعياً في كتاباتهم إلى أمر فطري وعقلي في فطرهم وعقولهم، فكل الآيات الربانية، تكوينية وتشريعية، آفاقية وأنفسية، معسكرة لحق كلمة التوحيد دون إبقاء.

فلا يختص الإشراك بالله بالاعتقاد بالألوهية غير الله، ولا تقديم الشعائر التعبدية لغير الله، بل والإشراك به في كل اختصاصة له كالتشريع، فهؤلاء الذين أعطوا حق التشريع لأحبارهم ورهبانهم، فقد اعتبروهم شركاء الله في التشريع، بل ورجحوهم فيه على الله حيث اتبعوهم من دون الله، وذلك أنحس دركات الإشراك بالله.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في طاعة كما في الأحبار والرهبان، أم في عبادة كما في المسيح عليه السلام، أم في ألوهة كما الخالق مثلما يقوله الثنوية القائلة بمبدئين اثنين، والأهم هنا في هذا البين هو الطاعة الطليقة الناتجة عن العبادة الطليقة والألوهية الوحيدة الطليقة.

ذلك «فإنما ذكر ذلك في كتابنا لكي نتعظ بهم» فلا نتبع علماءنا أياً كانوا دون تثّبت، فحين نجد فقهاءنا قد لا يعتمدون القرآن أصلاً في فتياهم، أم

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

يخالفون تقصيراً أو قصوراً نصوصاً أم ظواهر مستقرة من القرآن، دونما حجة إلّا شهرات أو إجماعات أم روايات غير مأخوذة بعين الإعتبار، فكيف نتبعهم في سائر فتياهم، اللّهم إلّا من هدى الله جعلنا الله منهم.

فحين يقول الله ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1] فكيف - إذاً - نقفوا ما نعلم تخلفه عن القرآن، وكما هكذا ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾! اتخذنا نحن المسلمين أيضاً علماءنا أرباباً من دون الله، نطيعهم كما يطاع الله، رغم أخطاءهم القاصرة أو المقصرة أمام شرعة الله، وهكذا:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ القائلة هذه القولات المائلة، المضاهية قول الذين كفروا من قبل، وإطفاء نور الله وهو توحيده الحق بصفاته الحقة، وهو شرعته الصالحة غير الدخيلة، فهو كلما أراده الله من عباده معرفة وعملاً صالحاً، يريدون ليطفئوا كل ذلك بنقاب شرعة الله، خلقاً لجو التضاد بين الدين ونفسه، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ المسرود في كتابات وحيه، بالقرآن، ونوره المرسل برسول القرآن ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

إن الشيطنة الكتابية المدروسة ضد كتابات الوحي ورسله[2]، هي كتقدمه لإطفاء نور القرآن ونبيه، ولكن الله يريد ﴿أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بهذه الشرعة الأخيرة المهيمنة رسولاً ورسالة على كافة الرسل برسالاتهم.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢١٠ في كتاب الإحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: وقد بين الله تعالى قصص المغير بن بقوله: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ..» يعني أنهم أثبتوا في الكتاب ما لم يقله الله ليلبسوا على الخليقة فأعمى الله قلوبهم حتى تركوا فيه ما دل على ما أحدثوه فيه وحرفوا منه.

وشاهداً على خصوص ذلك القصد اللعين اللئيم بين عمومه آيات الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾(١).

وهنا وجه آخر في ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ هو الإشارة إلى ض آلة المحاولة لإطفاء نور الله، حيث النور القوي فضلاً عن نور الله الأقوى ليست لتطفأ بالأفواه، وهذا من عجيب البيان الشامل للوجهين بتصغير شأنهم وتضعيف كيدهم، لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفة، دون الأنوار القوية ولا سيما الإلهية!، فمن يزعم أنه يطفئ نور الشمس بفيه ففيه ما فيه فضلاً عن نور الله التي أضاءها فمن ذا الذي يطفيها بفيه!.

هنا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ تعني إلى نوره خالقاً رباً، نوره خلقاً كما في آية النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ...﴾(٢) فهو ذاته نور السماوات والأرض بهداية تكوينية وتشريعية وكافة الربوبيات، وهو في شرعته نور السماوات والأرض.

وكما هو واحد في نورية ذاته وأفعاله وصفاته، كذلك هو واحد في نوره الرسولي والرسالي، فإن الرسل والرسالات سلسلة واحدة موصولة مع الزمن، متبلورة متوحدة في النور المحمدية والمحمديين من عترته المعصومين عليهم السلام وكما قال في آية النور بياناً لظرف مثل النور: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ

---

(١) سورة الصف، الآيات: ٦-٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ ...﴾(١) (٢).

فالوحدة في ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ هنا و﴿نُورَهُ﴾ هناك، كوحدة «رسوله» هنالك، هي مما توحد رسالة الله على كثرتها، حيث تتوحد في هذه الرسالة السامية المهيمنة على الرسالات كلها.

فنور الله الرسولية المحمدية لا تطفأ بما حرفوه من بشارات الوحي الكتابي، كما أن نور الله الرسالية المحمدية لم تطفأ بما حرفوه من أحكام الله وسائر جهات اشراع الله، حيث الهيمنة المحمدية القرآنية والقرآنية المحمدية، قد تمت بها نور الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وحاولوا ما حاولوا في إطفاءها.

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) المصدر في كتاب الغيبة للطوسي رحمه الله عن محمد بن سنان قال: ذكر علي بن أبي حمزة عند الرضا عليه السلام فلعنة ثم قال: إن علي بن حمزة أراد أن لا يعبد الله في سمائه وأرضه ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، ولو كره اللعين المشرك، قلت: المشرك؟ قال: نعم والله وإن رغم أنفه، كذلك هو في كتاب الله «يريدون..» وقد جرت فيه وفي أمثاله أنه أراد أن يطفئ نور الله، وباسناده إلى الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: وقد ذكر شق فرعون بطون الحوامل في طلب موسى عليه السلام: وكذلك بنو أمية وبنو العباس لما وقفوا على أن زوال ملكة الأمر والجبابرة منهم على يد القائم عليه السلام ناصبونا العداوة ووضعوا سيوفهم في قتل أهل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإبادة نسلة طمعاً منهم في الوصول إلى قتل القائم عليه السلام فأبى الله أن يكشف أمره لواحد من الظلمة إلى أن يتم نوره ولو كره المشركون، وفي كتاب كمال الدين وتمام النقمة مثله سواء، وفيه عن تفسير العياشي عن أحمد بن محمد قال: وقف عليّ أبو الحسن الثاني عليه السلام في بني زريق فقال لي وهو رافع صوته: يا أحمد! قلت: لبيك، قال: انه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جهد الناس على إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره بأمير المؤمنين عليه السلام، وفيه عن قرب الإسناد للحميري معاوية بن حكيم عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: وعدنا أبو الحسن الرضا عليه السلام ليلة إلى مسجد دار معاوية فجاء فسلم فقال: إن الناس قد جهدوا على اصطفاء نور الله حين قبض الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبى الله إلا أن يتم نوره وقد جهد علي بن أبي حمزة على إطفاء نور الله حين قبض أبو الحسن عليه السلام فأبى الله إلا أن يتم نوره، وقد هداكم الله لأمر جهله الناس فأحمدوا الله على ما من عليكم به.

لقد جهد المضللون قبل محمد ﷺ ومعه وبعده[1] أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلّا أن يتم نوره، لا فحسب أن يبقيها كما كانت، إنما أن يتم نوره وكما أتمها على مدار التاريخ الرسالي، ولا سيما بهذه الرسالة السامية.

ومما يبرهن على أن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، أنه:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

وهكذا في الصف (٩) وفي الفتح: ﴿. . . وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[2] وهنا إيجابية الشهادة الربانية تكمل سلبية كيد المشركين في حقل إظهار محمد ﷺ على الدين كله.

ذلك، ومنذ زمن الرسول ﷺ حتى الآن لمّا يتحقق ذلك الوعد الحق أن يظهر محمد ﷺ على الدين: الطاعة - كله، فقد ظهر دينه نسخاً لسائر الدين منذ ابتعث، ولكنه لمّا يظهر في واقع الحياة ظهوراً قاهراً يخفق تحت ظله كل ظاهر من الدين، ولو كان القصد - فقط - إلى جانب النسخ، وأن شرعته تحلق شرعياً على كافة المكلفين؟ فهذا أمر حصل في كل شرعة أصلية لأولي العزم من الرسل، دون اختصاص بهذه الأخيرة، كما وهو أصل لهذه الأديان، لا غاية لها، وهنا ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ غاية، كما وليس إظهاراً بالحجة حيث يشترك معه سائر الأديان الحقة، إذا فلتعن ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ واقع إظهاره دون أن يبقى في عالم الحكم شرعياً، وفي عالم المثل والخيال والآمال غير الواقعة، بل هو الإظهار واقعياً على ضوء الإظهار شرعياً، وليس ذلك إلا في زمن المهدي القائم عليه السلام من آل محمد ﷺ حيث تسيطر

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

دولته على العالم كله، وهناك يظهر الحق في ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[١].

وقد لا يعني ذلك الإظهار ستار كل دين سواه إلا عن ظهورها الغالب، فمحمد ﷺ بقرآنه المبين سوف يظهر غالباً مسيطراً على الدين كله حين لا يبقى لها أي صوت أو صيت إلّا صوت الإسلام وصيته حيث يحلقان على العالم كله، ثم يبقى الكل تحت ذمته.

ذلك، والمهدي عليه السلام هو المعني من «ريح طيبة» على لسان الرسول ﷺ حيث «يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من خير فيبقى من لا خير فيرجعون إلى دين آباءهم»[٢].

---

(١) لاطلاع أوسع راجع آية الصف والفتح تجدهما فيهما تفصيلاً أوسع.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٣١ - أخرج أحمد ومسلم والحاكم وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزّى فقالت عائشة يا رسول الله ﷺ إني كنت أظن حين أنزل الله ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] أن ذلك سيكون تاماً، فقال ﷺ: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله..

وفيه أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن جابر في الآية قال: «لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملة إلا الإسلام حتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد والإنسان الحية، وحتى لا تقرض فأرة جراباً وحتى توضع الجزية وتكسر الصليب ويقتل الخنزير وذلك إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام» أقول: وذلك حسب متواتر الحديث عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام، لا يكون إلا زمن المهدي القائم عليه السلام ومنها: نور الثقلين ٢: ٢١١ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى أبي بصير قال قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ...﴾ [التوبة: ٣٣] فقال: والله ما نزل تأويلها بعد ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عليه السلام فإذا خرج القائم عليه السلام لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه حتى لو كان كافر أو مشرك في بطن صخرة لقالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله.

وفيه عنه بإسناده إلى سليط قال قال الحسين بن علي عليهما السلام: منا اثنا عشر مهديا أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم التاسع من ولدي وهو القائم بالحق، يحيي الله به الأرض بعد موتها ويظهر به الدين الحق على الدين كله ولو كره المشركون.

وفيه عنه بإسناده إلى محمد بن مسلم الثقفي قال سمعت أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام يقول: القائم منا منصور بالرعب مؤيد بالنصر، تطوى له الأرض وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه =

وهنا ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ - مع أن دين الله كله حق مهما كان غيره باطلاً - يعني «الحق» الثابت وغير المحرف قبال الزائل والمحرف، مهما كان حقاً قبال الباطل، فالشرايع الحقة غير الإسلام، هي مع الشرائع الباطلة، كلها زائلة بنسخ وتحريف - بفارق الحق في الحقة أمام الباطل - وهذا ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وفي تبديل «الدين الحق» بـ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لمحة إلى ذلك الحق أنه ليس فقط وجاه الباطل، بل وهو وجاه كل دين الهي منسوخ ومحرف.

فدين الحق - إذاً - يحمل مثلث الحق الثابت غير المحرف وغير الباطل، وسائر الأديان الحقة تحمل - فقط - الضلع الثالث، وبصيغة أخرى ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو الحق المطلق غير الباطل ولا المنسوخ ولا المحرف، و«الدين الحق» هو مطلق الحق قبال الباطل فقط، ثم حق رابع هو أنه يحمل كل حق يحق تبيينه لكافة المكلفين على مدار الزمن، فهو مربع من الحق.

ذلك، وفي ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ دون - فقط - «ليظهر دينه» تأييد للأحاديث التي تتحدث عن رجعته ﷺ يوم الرجعة حيث يملك فيها العالم كله، مهما عنى ضمير الغائب إلى الرسول ﷺ دينه، مما يشي بأن غيره ﷺ يساندونه في ذلك، والنقطة الأولى هو المهدي عليه السلام.

أترى الملل كلها - بعد - تسليم فلا يبقى كافر على وجه الأرض؟ إنه

= المشرق والمغرب ويظهر الله عز وجل دينه على الدين كله ولو كره المشركون، فلا يبقى في الأرض خراب إلا عمّر وينزل روح الله عيسى بن مريم عليهما السلام فيصلي خلفه...

وفيه عن الإحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: وغاب صاحب هذا الأمر بإيضاح العذر له في ذلك، لاشتمال الفتنة على القلوب حتى يكون أقرب الناس إليه أشدهم عداوة له وعند ذلك يؤيده الله بجنود لم تروها ويظهر دين نبيه ﷺ على يديه على الدين كله ولو كره المشركون، وفي تفسير الفخر الرازي ١٦ : ٤٠ روى عن أبي هريرة انه قال: هذا وعد من الله بأنه تعالى يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان وتمام هذا إنما يحصل عند خروج عيسى، وقال السدي: ذلك عند خروج المهدي لا يبقى أحد إلّا دخل في الإسلام وأدى الخراج.

«لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام، إما بعز عزيز أو بذل ذليل، إما يعزهم فيجعلهم الله من أهله فيقروا به، وإما يذلهم فيدينون له»[١] طاعة إياه وعيشة تحت ذمته وسلطته، وقد دلت آيتا «أغرينا - و - ألقينا»[٢]على بقاء جمع من اليهود والنصارى بكور دون دور.

فهذه بشارة سارة تتكرر في القرآن انه سيظهر دين الحق على الدين كله دون إبقاء، فتكون - إذاً - الدينونة الحقة على ضوء ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ لله وحده، ونحن - إذاً - في حق المسير إلى حق المصير، علينا أن نتحمل ما نحمّل من أعباء هذه الرسالة السامية، ابتداء من نقطة البدء التي بدأت منها خطوات الرسول ﷺ وانتهاء إلى نقطة الانتهاء حيث يحمل حفيده المهدي عليه السلام هذه الراية المظفرة، تحقيقاً لهذه الغاية القصوى والبغية الحاسمة الجاسمة، اللّهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أنصاره وأعوانه ومن المجاهدين في سبيل الله بين يديه - آمين.

ولقد تلاحقت البشارات الكتابية بهذه الميزة المنقطعة النظير لدين الحق هذا، بما لا حول عنه إلى غيره من أديان حقة ربانية، سردناها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

وهنا ﴿رَسُولَهُۥ﴾ كما في (٨٢) أخرى تختص الرسالة الربانية بمحمد ﷺ كما وأن آية الشورى تختص به الوحي أمام سائر أصحاب الوحي الرساليين: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[٣] ثم وآية آل عمران تصرح برسالته

---

(١) المصدر عن مجمع البيان قال المقداد بن الأسود سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يبقى.

(٢) وهما وأغرينا - أو - والقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة... حيث تعنيان اليهود والنصارى، تعني كلّ واحدة منهما.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.

إلى الرسل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١].

ذلك، ولأن ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليس إلا بمهديه القائم عجل الله تعالى فرجه.

ذلك وتعريفاً بـ «الدين» ككل عن لسان النبي ﷺ قوله: «الدين يسر»[٢] و«الدين النصيحة»[٣] و«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٤] و«إن الدين ليأزر إلى الحجاز»[٥] وأظنه في بداية ظهور المهدي عليه السلام حيث يقوم من المسجد الحرام. فقد يعني ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ هنا - بعد القرآن ورسوله - الأنوار الإثني عشر من عترته المعصومين، وكما يروى عنه ﷺ: «خلقت أنا وعلي من نور الله عز وجل»[٦] وهو نور الهداية العليا، وهو أول ما خلق الله وكما قال: «أول ما خلق الله نوري» مهما ترتبت درجات حيث «خلقت من نور الله عز وجل، وخلق أهل بيتي من نوري وخلق محبوهم من نورهم»[٧] «فهذه خمسة أسماء مكتوبة من نور أنا المحمود وهذا محمد وأنا الأعلى وهذا علي...»[٨].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٢ ب ٢٩، نس - ك ٤٦ ب ٢٨، حم - ثالث ص ٤٧٩ قا رابع ص ١٥٨ و٣٣٨ خامس ص ٣٢ قا سادس ص ٨٥ و١١٤ و١١٥ و١٣٠ و١٦٢ و١٨١ و١٨٩ و١٩١ و٢٠٩ و٢٢٣ و٢٢٩ و٢٣٢ و٢٦٢ و٢٨١ ط - ح ١٢٩٦ و٢٠٨٦.

(٣) المصدر نقلاً عن بد - ك ٤٠ ب ٥٩، نس - ك ٣٩ ب ٢٢، تر - ك ٢٥ ب ١٧ مى - ك ٢٠ ب ٤١ حم - أول ص ٣٥١، ثان ص ٢٩٧، رابع ص ١٠٢.

(٤) المصدر نقلاً عن بد - ك ٣٦ ب ١.

(٥) المصدر نقلاً عن تر - ك ٣٨ ب ١.

(٦) ملحقات إحقاق الحق ٥: ٢٥٣ و١٦: ١١٠ - ١١٤ و٢١: ٤٣٣ و٤: ٩١ و١٥: ١٩٩، ١٤٢، ٦٩٢ و٦: ٤٤٦.

(٧) المصدر ٩: ٤٨١.

(٨) المصدر ٩: ٢٥٣ و٢٦٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

هؤلاء الكثرة الكثيرة من الأحبار والرهبان - وهم عيون الأمم الكتابية - إنهم بديلاً عن زهدهم في الدنيا وفتحهم سبيل الله ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بسبب الباطل، ومصحوباً بالباطل، وفي سبيل الباطل، حيث لا مقابل له حقاً ولا غاية حقة، بل يقابله ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ فقد يأكلون أموال الناس دون مقابل، وأخرى بمقابل الصد عن سبيل الله، ولا فحسب ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾ هكذا ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بل وهم ﴿يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثالوث منحوس أمام الناس وأمام الله ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ...﴾.

وترى أن هذه الثلاثة مرفوضة محظورة - فقط - لهؤلاء الأحبار والرهبان، وأما علماء الإسلام فلا عليهم إذا عملوا أعمالهم؟ إنهم - إذاً - أنحس وأركس حيث حمّلوا ما لم يحمّله الأولون، فقد حملوا هذه الشرعة الأخيرة المهيمنة على الشرائع كلها بأصحابها.

إذاً فهذه الثلاثة هي أنحس النحس من الحرمات الكبيرة التي تفقر الناس مالياً وتقفرهم نفسياً وحالياً.

أم ترى أن الكنز من أموال الناس هو فقط محرم أم ومطلق الكنز؟ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ...﴾ هو بنفسه موضوع للحرمة طليق، مهما كان أنحسه أن يكون من أموال الناس وعند العلماء فثالوث من الحرمة.

فالكنز - لغوياً - هو ركام المال بجعل بعضه على بعض دونما تصريف في تجارة أو زراعة أمّاهيه من تحولات، فهو كل مدخر من المال لا يستفاد منه إدارة لشؤون الحياة، وإنما ركازاً وركاماً بغية الحاجة المستقبلة المتخيلة أمّا ذا من الحاجات الخيالية أم وواقعية بعيدة غير حاضرة وهناك من يحتاجون إلى مال يصرفونه في قوتهم أم يديرونه لإدارة الحياة فردية وجماعية، وأمامهم ركاز وركام من الأموال الطائلة مهما أديت زكاتها، فالمال الحلال قد يكفي لضرورة المعيشة اليومية دونما تبذير ولا إسراف فلا شيء عليه.

أم يزيد عنها ولكنه يسمد لتجارة أماهيه كرأس مال لإدارة الضرورة المعيشية، وكذلك الأمر.

أم هو زائد عن الحاجة المعيشية يومياً أو ورأس مال لها، ففيه الزكاة قدر الزائد.

أم يزيد عن كل حاجة حاضرة مصرفياً ورأس المال للحصول على المصرف، ولكنه يستعمل للحصول على الزيادة غير المحتاج إليها، فكذلك الأمر أم هو ركاز لا يحتاج إليه في أية حاجة، فيسمد مغبّة الحاجة المستقبلة المتخيلة، وله حاجته يومياً حسب الظاهر والعادة، أم ولا يحتاجه طول عمره أيضاً، وهو فيها كنز، حيث الكنز هو ركام المال وركازه دونما إدارة له في عمل فردي أو جماعي، فلينفق كله في سبيل الله، إنفاقاً لأصله، أم عوائده إقراضاً للمحاويج لكي يكتسبوا به دون أن يأخذ منهم شيئاً بمضاربة أم شركة أما شابه.

وليس الذهب والفضة هنا كما في سواه مما تذكران إلا عنواناً ونموذجاً غالياً للثروة دائماً، والنقد الرائج زمن نزول الوحي، فهما تعبيران عن الثروات المحتاج إليها في إدارة شؤون الحياة، مهما كانت أوراقاً نقدية كما

اليوم، أم أراضي ومعامل وسيارات وسفن وطائرات[١] فإنها حين تجمد دونما فائدة هي كنوز يجب إنفاقها في سبيل الله، حيث هي خارجة عن حاجيات أصحابها، فلتنفق أعيانها أو منافعها بإشغالها في سبيل الله.

وأقل الكنز ما أدي زكاته المفروضة وهو من حلّ، وأكثره ما لم تؤد زكاته وليس من حلّ وبينهما عوان، والكنز صادق في هذه الحالات كلها، وهو محظور على أية حال، لأنه هو موضوع الحرمة بصورة طليقة، فما صدق أنه كنز شمله حكمه مهما اختلفت دركاته.

وقد نظر عثمان بن عفان إلى كعب الأحبار فقال له يا أبا إسحاق ما تقول في رجل أدى زكوة ماله المفروضة هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء؟ فقال: لا - ولو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شيء، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب ثم قال له: يا ابن اليهودية الكافرة ما أنت والنظر في أحكام المسلمين! قول الله أصدق من قولك حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ...﴾[٢] والأحاديث التي تقول المال الذي أدى زكاته فليس بكنز[٣] لا تعني النصابات المقررة المعنية من ربع العشر إلى العشر

(١) كما عن الإمام الباقر عليه السلام أنه سئل عن الدنانير والدراهم وما على الناس فقال: هي خواتيم الله في أرضه جعلها الله مصلحة لخلقه وبها يستقيم شؤونهم ومطالبهم فمن أكثر له منها فقام بحق الله فيها وأدى زكوتها فذاك الذي طلبه وخلص له ومن أكثر له منها فبخل بها ولم يود حق الله فيها واتخذ منها الأبنية فذاك الذي حق عليه وعيد الله عز وجل في كتابه: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ...﴾ [التوبة: ٣٥].

(٢) نور الثقلين ٢: ٢١٣ في تفسير علي بن إبراهيم حديث طويل وفيه نظر عثمان بن عفان...
أقول: وهذه المحاولة الأرستقراطية العثمانية تتبين أكثر حين حاول أن يسقط الواو من آية الكنز حصراً لها بأهل الكتاب حتى لا تشمله هو وأضرابه من الأثرياء.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٣٢ - أخرج ابن عدي والخطيب عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أي مال أديت زكاته فليس بكنز» وأخرجه ابن أبي شيبة عن جابر موقوفاً، وفيه أخرج ابن مردويه والبيهقي عن أم سلمة أنها قالت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن لي أوضاحاً من ذهب أو فضة أفكنز هو؟ قال: كلّ شيء تؤدي زكاته فليس بكنز.
=

وإلى الخمس، بل هي مطلق الزكاة الشاملة للعفو، وهو الزائد عن مؤنة

= وفي نور الثقلين ٣: ٢١٣ في أمالي الشيخ بإسناده لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: كلّ مال تؤدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وكل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز. وفيه عن الكافي بسند متصل عن معاذ بن كثير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: موسع على شيعتنا أن ينفقوا مما في أيديهم بالمعروف فإذا قام قائمنا حرم على كلّ ذي كنز كنزه حتى يأتيه به فيستعين به على عدوه وهو قول الله عز وجل في كتابه ﴿وَٱلَّذِينَ...﴾ [التوبة: ٣٥]. أقول: هذا حكم مصلحي في تجزءة حكم الآية حفاظاً على حاجيات الدولة الإسلامية الكبرى إذا قامت، وهدماً لدويلات الجور بترك مساعدتها من زائد الإنفاق من الكنوز، ولكن فيه أن سبيل الله لا تختص بما تقرره الدولة. وفيه عن أبي جعفر عليه السلام في الآية فإن الله حرم كنز الذهب والفضة وأمر بإنفاقه في سبيل الله وقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا...﴾ [التوبة: ٣٥] قال عليه السلام كان أبو ذر الغفاري يغدو كلّ يوم وهو بالشام فينادي بأعلى صوته: بشر أهل الكنوز بكيّ في الجباه وكي بالجنوب وكي بالظهور أبداً حتى يتردد الحر في أجوافهم.

وفيه عن الخصال عن الحارث قال قال أمير المؤمنين عليه السلام قال رسول الله ﷺ: الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٣٣ - أخرج البخاري ومسلم وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها إلا جعلت له يوم القيامة صفائح ثم احمي عليها في نار جهنم ثم يكوي بها جبينه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنته حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله أما إلى الجنة وأما إلى النار.

وفيه أخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لا يوضع الدينار على الدينار ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع الله جلده فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم..».

وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: الدينار كنز والدرهم كنز والقيراط كنز.

وفيه أخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وابن مردويه عن ثوبان قال كان نصل سيف أبي هريرة من فضة فقال له أبو ذر أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من رجل ترك صفراء ولا بيضاء إلّا كوي بها؟

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من =

سنته، أم ولا أقل من أداء كل واجب في المال نفقة وكفارة ودية أماهيه من واجبات مالية ليست لتنحصر في الزكاة المعروفة، اللّهم إلّا ألا تعني الزكاة كلها، فهي إذا تشمل الزائد عن المؤنة، سواء أكان من نصاب الزكاة أمّن سواها من واجبات مقدرة وسواها.

فادخار المال محظور في شرعة الله على أية حال، وهناك سبيل الله بحاجة إلى مال، سواء في الحاجات الشخصية أو الجماعية للدولة الإسلامية، فـ ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾[1] مما تمنع عن المال غير القائم بإصلاح الحياة، فلا يصلح الكنز وهناك عطلة لحياة فردية أو جماعية لآخرين.

= أحد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا كوي بها يوم القيامة مغفوراً له بعد أو معذباً.
وفيه أخرج أحمد في الزهد عن أبي قال: ذو الدرهمين أشد حبساً من ذي الدرهم.
وفيه أخرج البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال: بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيتدلدل، ثم ولى وجلس إلى سارية وتبعته وجلت إليه وأنا لا أدري من هو فقلت لا أرى القوم إلا وهو كرهو ما قالت، قال: إنهم لا يعقلون شيئاً قال لي خليلي، قلت: من خليلك؟ قال النبي ﷺ أتبصر أحداً؟ قلت: نعم قال ما أحب أن يكون لي مثل أحد ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير وإن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون للدنيا والله لا أسألهم دنيا ولا استفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز وجل.
أقول: لقد آل أمر أبي ذر في تشدده على الأثرياء لحد شاع وضاع بين المسلمين فاعتذر له ما أخرجه أحمد والطبراني عن شداد بن أوس قال: كان أبو ذر يسمع من رسول الله ﷺ الأمر فيه الشدة ثم يخرج إلى باديته ثم يرخص فيه رسول الله ﷺ بعد ذلك فيحفظ من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر الرخصة فلا يسمعها أبو ذر فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذي سمع قبل ذلك.
وفيه أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي من أبي سعيد الخدري عن بلال قال قال رسول الله ﷺ: يا بلال الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً، قلت: وكيف لي بذلك؟ قال: إذا رزقت فلا تخبأ وإذا سئلت فلا تمنع، قلت: وكيف لي بذلك؟ قال: هو ذاك وإلّا فالنار.

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

فما صدق أنه كنز مدخر ركام، ما قل منه أو كثر، فهو مصداق التنديد في آية الكنز، وما لم يصدق أنه كنز كالأموال التي تدار بإدرار العوائد خاصة وعامة، فهو خارج عن الآية، مهما دخلت في محظور آخر كالذي لا تؤدي زكاته، أم في تصرفه وتصريفه وتداوله إجحاف بحقوق الآخرين، أم تبذير أو إسراف وما أشبه من محظور، فقد يجوز أن تبقي من المال الحلال بقية ليوم فقرك أم للوارث إذا لم يكن كنزاً كما في حديث رسول الله ﷺ «وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم»[١] ولكنه محدد بالعفو، ما زاد - لأكثر تقدير - عن مثلث حاجيات الحياة، أولاها حاضرك، ثم مستقبلك ومن ثم وارثك، ولكنما الآخران هما نافلتان - شرط كونهما متعودين للعقلاء المتشرعين - لا دور لهما إلّا إذا لم تكن حاجة ضرورية لسبيل الله، فإنها تتقدم عليهما مهما تأخرت عما يحصل من حاجيات، حيث الحاجة الحاضرة الأكيدة في الحق الإسلامي تتقدم على المستقبلة ولا سيما المظنونة.

ولقد كان يحاول اختصاص التنديد في آية الكنز بأهل الكتاب ذوداً عن المسلمين، ومن ذلك محاولة الخليفة عثمان إسقاط الواو عن ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ...﴾ فهدّد في ذلك فتركها[٢].

---

(١) المصدر عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ...﴾ [التوبة: ٣٤] كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده فقال عمر أن أفرّج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتي النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال ﷺ: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما... ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكتز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته» وفيه عن ثوبان لما نزلت هذه الآية كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه لو علمنا أي المال خير فنتخذه فقال ﷺ: أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه - وفي لفظ - تعينه على آخرته.

(٢) وهذه المحاولة ظاهرة مما سئله عثمان كعب الأحبار فصاح عليه أبو ذر الغفاري كما مضى،=

أجل وأن آية الكنز هي من أهم ما تضيّق كل المخارج على الكانزين لأموالهم ما صدق كنز، مهما أدى زكاته الأدنى من ربع العشر إلى العشر وإلى الخمس، فإن واجب «العفو» قائم - بعد - على ساقه يطالب كل كانز وسواه بما زاد عن مؤنته لمؤنة الفقراء وسائر المصاريف الثمانية، التي لا تزال بحاجة إلى مزيد الإنفاقات، لا سيما وأن البخلاء كثير وأهل الخير قليل.

وألفاظ الآية هي مما تثبت حرمة الكنز على أية حال، سواء المؤدى زكاته أم سواه، مهما كان الأول أخف محظوراً.

فـ ﴿يَكۡنِزُونَ...﴾ تعطي موضوعية ثابتة لعنوان الكنز على أية حال، ثم ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ دون «لا ينفقون منها» برهان ثان على اجتثاث الكنز أياً كان، فلو كان القصد إلى واجب الزكاة بالنصابات المقررة لكان النص «ولا ينفقون منها».

ومن ثم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي بحاجة على طول الخط إلى إنفاقات ولحد «العفو» برهان ثالث على محاربة أصل الكنز، فالتكاليف المالية التي

= وفي الدر المنثور أخرج ابن الضريس عن علياء بن أحمر أن عثمان بن عفان قال لما أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ...﴾ [التوبة: ٣٤] قال لهم أبي لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي فألحقوها. أقول وحفاظاً على ذلك يقول السدي فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم في الآية: هؤلاء أهل القبلة، وفيه أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ...﴾ [التوبة: ٣٤] فقال معاوية: ما هذا فينا هذه في أهل الكتاب، قلت أنا: أنها فينا وفيهم.

وفيه أخرج مسلم وابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال: جاء أبو ذر فقال: بشر الكانزين بكيّ من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم وكي من جباههم يخرج من أقفائهم فقلت ماذا؟ قال: ما قلت إلّا ما سمعت من نبيهم ﷺ.

تحتاجها ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في كافة وجهاتها، إنها ليست لتقف لحد ولا سيما الدعوة الإسلامية العالمية التي تتكلف عشرات أضعاف سائر التكاليف الفردية والجماعية للكتلة المؤمنة.

فكيف - إذاً - يسمح بكنز الأموال وهناك فراغات دعائية بين مستضعفي المعمورة، المبتلين بالدعايات المضللة المضادة للإسلام.

أم هل تكفي الزكوات المرسومة من التسعة، أم والواسعة التي تحلّق على كافة الإنتاجات، هل تكفي هي لواسع الحاجيات المترامية الأطراف للدعايات الإسلامية العالمية.

كلا! فما دامت حاجة في سبيل الله على درجاتها فالواجب إنفاق الأموال الزائدة عن الحاجيات الضرورية فيها وإن لم تكن من الكنوز، فضلاً عنها.

ومن ثم ف ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ دون بعضها غير المزكاة - دليل رابع على هذه الشمولية، ثم ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ ككلّ و﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ خامس وسادس من عساكر البراهين الساطعة في آية الكنز على واجب استئصاله في سبيل الله ما لزم الأمر، ومما تشبه آية الكنز هي آية الطوق: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١) ومن أصدق المصاديق ل ﴿مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ هو الكنز.

ذلك، ولأن وضع المال في تكوين الله وشرعته ليس إلّا قياماً صالحاً للحيوية الإنسانية العادلة الفاضلة: ف ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ حيث «جعلها الله مصلحة لخلقه وبها يستقيم شئونهم ومطالبهم»(٢) فكل مال لا يستفاد منه فهو كنز، سواء الركام الذي لا يدار في عمل، أم يدار ولكن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.
(٢) في الأمالي عن أبي جعفر عليه السلام يقوله بشأن الأموال.

فائدته تصبح ركاماً على ركام إذ لا يحتاجه صاحبه أم هو فوق حاجته المشروعة، فواجب إنفاق الكنز يشملهما، مهما عم إنفاق منافعه إلى إنفاق أصله ما يصدق أنه مصروف في سبيل الله.

فالمال على أية حال لا بد أن يكون دولة بين الناس ككل قدر المساعي والحاجات، فـ ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[1] ضابطة سلبية تفرض إيجابية الدولة المطلقة للمال، فالمال المركوم في أصله أم في عوائده محظور في شرعة الله يجب إنفاقه في سبيل الله أصلاً أم فائدة.

فتضخّم الثروات غير مسموح في شرعة الله وهناك بطون غرثى لا عهد لها بالشبع ولا طمع لها في القرص.

وحصيلة البحث في آية الكنز هي أن كنز الأموال والثروات محرم مطلقاً، ولا خراجها عن كنزها طريقان اثنان، إنفاقها بأعيانها في سبيل الله، أم إدارتها لصالح المحاويج فإنفاق منافعها في سبيل الله، ولكن نص الآية هو الطريقة الأولى تحللاً عن أصل الكنز بفصله عن ملكته.

صحيح أنهم إن كنزوا ولم ينفقوا كانوا أعصى لله مما إذا لم يكنزوا ولم ينفقوا، أم أداروها وأنفقوا من عوائدها، ولكن «يكنزون ولا ينفقون» تفرض إنفاق الكنز بأصله.

فأما الذي لم يكنز، وإنما أدار المال الزائد عن حاجته فأنفق من عوائده فقد لا تصدق عليه هذه الآية.

أم يقال إن إنفاق الزائد عن الحاجة في سبيل الله هو واجب الإنفاق، فالإبقاء على هذا الزائد وان لم يكن كنزاً محظور وإن لم تشمله آية الكنز، فإنه مشمول لآية العفو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

إذاً فالمحظور الأول هو ترك إنفاق العفو، ثم الشديد هو ترك إنفاق الكنز.

وفي كنز المال عدة أخطار، كعدم التنقل بفائدته، وعدم الظهور بعائدته، على أنه الزائد غير المحتاج إليه، فذلك الثالوث يجعل من المال المكنوز وبالاً على أية حال.

والذهب والفضة هنا لا تعنيان إلا الثروة المالية التي هي المدار في حاجيات الحياة، فكنزها وهي تمجيدها محظور أوّل، وعدم إنفاقها في سبيل الله وهي الزائدة عن حاجيات الحياة محظور ثان، وكونه حكرة لأصول الأموال محظور ثالث، فثالوث المحاظير تجعل الكنز للأموال من أشد المحاظير كما تنطق بها آية الكنز نفسها.

إذاً فكل مال لا يحتاجه صاحبه لحياته المتعودة يوميا ورأس مال أم ليوم فقره ولورثته، لا بد وأن يحتاجه في سبيل الله، وهذا أقل تقدير في الكنز.

ثم عليه أن ينفق ما يتركه لورثته إذا كانت حاجة حاضرة متأكدة إسلامية، فإنها تتقدم على المستقبلة المظنونة.

ثم عليه أن ينفق ما تركه ليوم فقره وبؤسه بنفس السند، وهذا هو المعني من إنفاق العفو عند الحاجة لسبيل الله، وهي دوماً بحاجة إلى بذل الأموال كما تحتاج إلى بذل النفوس وطاقاتها، مهما اختلفت درجات الحاجات فاختلفت درجات الانفاقات لزوماً ورجحاناً.

ولقد كانت آية الكنز عبئاً على جماعة من الأثرياء وأتباعهم لحد عزموا على حذف الواو منها لكي يختص حظره بالأحبار والرهبان، ومن ثم اختلقوا أحاديث في اختصاصه بمن لم يؤد زكاته، ولكن الآية بنصها أو ظاهرها كما النص إجابة عن تأويلاتهم وكل ويلاتهم على الكنز، إجابة صارمة لا قبل لها إلا ترك الآية وراءهم ظهريا.

فالكنز على أية حال محظور، والتبذير والإسراف وصرف المال في محرم أو في غير المصلحة محظور، وترك الإنفاق عفواً منه محظور، ولا يحق لأصحاب الأموال أن يجمعوا أموالاً ويجنبهم فقراء أم فقر في سبيل الله.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يحمى على أصل الذهب والفضة كرصيدين لكل الأموال، أم يحمى على أصول الأموال أياً كانت حيث الأجسام في الجحيم غيرها هنا وكما الأبدان.

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا...﴾ وإنما خصصت هذه الثلاثة بالكي؟ لأنها كانت مسجودات لأصحابها خارجة على كونها ذرائع للعيشة، وسنادات لجنوبهم وظهورهم، ففي كنز المال دونما إدارة لشؤون الحياة إخراج له عن الوسيلة إلى الأصل، وكأنه يعبد فكي للجباة، ثم يعتمد عليه كما يعتمد الظهر على عماد فكي للظهور، ثم اعتماد عليه كهامش الحياة استرواحاً إليه فكي للجنوب، ومن هذه الثلاثة يدخل النار في الأجواف، فيقال: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ إشارة إلى الكنز أياً كان، كنزتم لأنفسكم لمستقبلكم الموهوم يوم الدنيا، أم ولحياتكم الأخرى ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ ذوقاً لملكوتها التي حولتموها إليها.

ذلك لأن المال في وصفه تكويناً وتشريعاً ليس إلا ذريعة لإدارة شؤون الحياة بصورة عادلة وفاضلة، إذا فتمجيدها عن الحركة الحيوية اعتبار لها كأنها أصل من أصول الحياة فيرجع عذاباً على صاحبه الكانز إياه.

ثم يتلوه الذي يصرفه في غير صالح للحياة، أم يبذره أو يسرف به، ثم الزاوية الثالثة هي الصالحة، تحصيلاً له صالحاً، وصرفاً صالحاً دونما إفراط ولا تفريط.

وفي رجعة أخرى إلى الآية نرى أن النفقة المتعودة في غير ما تبذير أو

إسراف خارجة عن الكنز، وقد تشمل الميراث، ولو لا أنه مسموح لما كان دور لآيات الميراث، فمثلث النفقة الحاضرة والمستقبلة وما بعد الموت لمن عليه نفقتهم، إنها خارجة عن الكنز، اللّهم إلا إذا دار الأمر بين الأهم والمهم، كما إذا كانت الحاجة الحاضرة أهم من المستقبلة ومن الميراث.

فالضابطة الصالحة هي استثناء مثلث النفقة عن الكنز إلا فيما يستثنى.

وعلى أية حال فبطالة المال وعطالته هي كعطالة الحال وبطالتها غير مسموحة في شرعة الله، فلا تقوم الحياة إلا بحركة صالحة بين العمل والمال، فليس كل واحد منهما يكفي لإدارة شؤون الحياة، ولأن الأصل في كل المعاملات والمعتمد هو الذهب والفضة، لذلك فكنزهما يعني كنز الثروات دونما إدرار لمصالح الحياة.

وهنا يستثنى النفقات الحاضرة ومؤنة السنة، ومؤنة العمر، ومؤنة الورثة بالقدر المعتدل لولا الأهم الذي يقدم على متعود هذه النفقات.

فالنفقات الواجبة والراجحة دونما تبذير وإسراف هي خارجة عن الكنز، اللّهم إلّا إذا اقتضت الضرورة ترك الراجحة الشخصية الحاضرة إلى الواجبة الجماعية الحاضرة وهكذا تترتب النفقات الأربع مع بعضها البعض، متراوحة بين واجبة وراجحة، والأصل الثابت هو تقديم الأهم على المهم على طول الخط، فما كان مهما وهناك أهم فهو كنز يجب إنفاقه في سبيل الله من مستحبة أمام واجبة، أم مؤنة السنة أمام المؤنة الحاضرة الضرورية، وإلى هذا القياس.

فحين يحتاج مسلم الى قوته لا يمسح لك التوسع في نفقتك، وحين يحتاج مسلم إلى بلغة عيشته الحاضرة لا يسمح لك ادخار مؤنة المستقبل في مثلثها مترتبة.

و﴿كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ تشمل كل حظوة شخصية للكانز مهما كانت

إيراثاً وهناك أهم منه مصرفاً، إيثاراً للحظوة الشخصية الخيالية أم والواقعية على الضرورية الحيوية الجماعية.

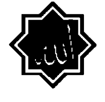
وكما أن من ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سائر السبل الربانية، كذلك سبيل الحاجة الحيوية الشخصية فرضاً وندباً كالتوسعة على العيال، إلا أن تكون هناك سبيل هي أوجب للسالكين إلى الله.

ذلك، فأين الكانزون، والبخلاء عن حقوق الفقراء، المسرفون والمبذرون في أموال الناس من أحبار ورهبان، وأين أئمة الحق الذين يخشون الله في ظلم الناس بأموالهم، وكما عن إمام المتقين علي أمير المؤمنين عليه السلام.

«واللّه لئن أبيت على حسك السعدان مسهّداً، وأجرّ في الأغلال مصفّداً، أحب إلي من أن ألقي الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى طلولها - والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سوّدت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكداً، وكرر على القول مردداً، فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى، وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعاءها، ومعجونة شنئتها، كأنما عجنت بريق حية أو قيئها، فقلت:

أهبة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت، فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنها هدية، فقلت: هبلتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني،

أمختبط أم ذو جنة أم تهجر، والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ونعيم يفنى، ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من سبات العقل، وقبح الزلل وبه نستعين» (الكلام ٢١٥).



﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا
تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ
كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى
ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ
لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا
تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ
نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى
ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا
قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ

لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟
وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن
كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ
خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن
قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ
كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى
ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن
تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ
أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ
إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن
يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا
مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ

أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ لكل سنة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ قراراً تكوينياً وآخر تشريعياً ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في تكوينه وتشريعه، منذ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأدار الأرض والشمس والقمر، عوامل حركية ثلاثة لمظاهر الزمن أياماً وشهوراً وسنين ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾.

ذلك، وأساس هذه الشهور هي الأهلة دون الشهور الشمسية، فقد ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾[1] كما والشهر بمختلف صيغة الواردة في القرآن عشرين مرة أخرى لا يعني به إلّا القمري لا سواه، ومن نصوصها ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾[2].

ذلك، وقد تتأيد عناية القمرية منها بأن حساب الشهور الشمسية حديث، وهنا ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يحول عدة الشهور إلى بداية الخلق.

وهنا ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هو أولاً كتاب التكوين لمكان ﴿يَوْمَ خَلَقَ...﴾ ثم التشريع على هامشه في كل شرائع الله، لا فقط الشرعة القرآنية.

وهكذا ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ﴾[3] حيث قرر تقدير منازل القمر وسيلة ظاهرة محسوسة لمعرفة السنين والحساب.

وهنا المناسبة لهذه المحاسبة الثقيلة أن المؤمنين أمروا بجهاد الروم وحلفاءهم من نصارى العرب في شمال الجزيرة - غزوة تبوك - وكان ذلك

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة يونس، الآية: ٥.

في رجب المنسأ وهو جمادى الآخرة ولكن ملابسة ماكرة كانت تمنع عن هذه الغزوة وهي أن رجب في هذا العام لم يكن بسبب النسيء في موعده الحقيقي بحساب الأشهر القمرية، فكأن رجب كان في جمادى الآخرة، أو كان محرماً كان في صفر، على اختلاف بين رجب ومحرم من حيث كونه من الأشهر الحرم.

فلذلك بزغت الآية بتثبيت الأشهر القمرية كأوقات شرعية ثم التالية حملت على النسيء.

وهنا ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كيوم واحد، ثم في آيات أخرى ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1] مما يبرهن على أن ﴿يَوْمَ﴾ هنا وهناك هو مطلق الزمان المقدر بأقداره حسب مختلف المقدارات فيه، ف ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني مجموعة الأيام الستة اعتباراً بجمع الخلق، ثم الستة اعتباراً بأجزاء الخلق، المفسرة المفصّلة في فصّلت فراجع.

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فما هي؟ هي طبعاً أربعة محترمة لساحة الحج فهي إذا «رجب - ثم - شوال - ذو القعدة - ذو الحجة» كما يروى[2] فالأول لحرمة خاصة العمرة مهما عمت في سائر الشهور، والثلاثة المتواصلة لمجموع الحج والعمرة ولا سيما حج التمتع.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) كما في نور الثقلين ٢: ٢١٤ في الكافي عن تفسير القمي بسند مسنداً عن زرارة قال كنت قاعداً إلى جنب أبي جعفر عليه السلام وهو محتب مستقبل الكعبة فقال: أما إن النظر إليها عبادة فجاءه رجل من بجيلة يقال له عاصم بن عمر فقال لأبي جعفر عليه السلام إن كعب الأحبار كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كلّ غداة فقال أبو جعفر عليه السلام: فما تقول فيما قال كعب؟ فقال: صدق القول ما قال كعب فقال أبو جعفر عليه السلام كذبت وكذب كعب الأحبار معك وغضب، قال زرارة ما رأيته استقبل أحداً يقول: كذبت - غيره ثم قال: ما خلق الله بقعة في الأرض أحب إليه منها - ثم أومى بيده نحو الكعبة - ولا أكرم على الله تعالى منها، لها حرم الله الأشهر الحرم في كتابه يوم خلق السماوات والأرض ثلاثة متوالية للحج: شوال - ذو القعدة - ذو الحجة وشهر مفرد للعمرة: رجب.

أم والمحرم بديل شوال، كما يروي في أخرى[1]، واستثناء شوال لا يضر بزمن من الحج والعمرة، ولأن ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾[2] هي الثلاثة الأولى، ثم و«رجب» غرة العمرة فقد ترجّح الأربعة الأولى على الأخيرة، وما لفظة «المحرم» بالتي تدمجها فيها، ودعوى الإطباق بين الفريقين على الثانية لا نعرف لها وجهاً إلا نفس الإطباق المدعى، إلّا أن المتواتر معنوياً في الآثار عدّ المحرم من هذه الأربعة، إضافة إلى تظافر النقل عن الرسول ﷺ والأئمة من عترته عليهم السلام على ذلك، فالأشبه إذا عد المحرم منها بديلاً عن شوال، ومما يرجحه أن الحجيج بعد ختام شعائرهم يظلون أياماً أم أكثر بعد ذي الحجة في الحرم، فقد يناسب كون المحرم من الأربعة الحرم، وأما شوال فالوافدون فيه للمناسك قلة، أم هم لأقل تقدير أقل بكثير من الباقين بعد ذي الحجة.

وقد يفضل المحرم مرة أخرى لمكان ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾[3] بعد ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[4] حيث الظاهر منها هو التلاحق فيها.

---

(١) في الدر المنثور ٣: ٢٣٤ عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان، وفيه عن ابن عمر عنه ﷺ مثله.

وفي نور الثقلين ٢: ٢١٥ في تفسير العياشي عن أبي خالد الواسطي عن أبي جعفر عليه السلام حدثني أبي علي بن الحسين عن أمير المؤمنين عليه السلام أن رسول الله ﷺ لما ثقل في مرضه قال: أيها الناس أن السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثم قال بيده: رجب مفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاث متواليات...

أقول: فهاتان روايتان حول ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] وهنا ثالثة في الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام تقول: منها أربعة حرم: عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر وتأويلها أنها حرم خاص بـ ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ... فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: ٢-٥].

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢.

وعلى أية حال فقلب الأشهر الحرم هو ذو الحجة الحرام، وقد خطب رسول الله ﷺ فيه خطبته الغراء قائلاً أيها الناس هل تدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم؟

قالوا: في يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا: ألا لا تظالموا، ألا لا تتظالموا، إنه لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفس منه، ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ وقد تعني إلى ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ ﴿عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ...﴾ فالدين القيم الثابت الذي لا حول عنه في شرعة الله هو اعتبار الشهور هكذا إثنا عشر شهراً، ثم و﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ والقدر المعلوم من مرجع ضمير الجمع هو ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ حيث حرم فيها القتال

(١) الدر المنثور ٣: ٢٣٤ - أخرج أحمد والباوردي وابن مردويه عن أبي حمزة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال: أيها الناس... وأن أوّل دم يوضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل - ألا وإن كلّ رباً كان في الجاهلية موضوع، وإن الله قضى أن أوّل رباً يوضع رباً العباس بن عبد المطلب لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والأرض، ألا وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكنه في التحريش بينكم واتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئاً وأن لهن عليكم حقاً ولكم عليهن حقاً لا يوطئن فراشكم أحداً غيركم ولا يأذنّ في بيوتكم لأحد تكرهونه فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها وبسط يديه وقال: اللّهم قد بلغت ألا هل بلغت، ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب فإنه رب مبلغ أسعد من سامع.

هجومياً أو انتقامياً اعتداء بالمثل، وإنما ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فيهن دفاعاً مضيقاً وفي غيرهن موسعاً ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إياه في سلبية القتال وإيجابيته بحدوده، وهكذا في كافة السلبيات والإيجابيات.

ذلك، ولتحليق ﴿فِيهِنَّ﴾ على كل ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وجه على هامش ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فالظلم فيها مضاعف وفي سائر الأشهر موحّد غير مضاعف، إلّا أن يضاعف بملابسات أخرى.

وقد يدل ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ على وجوب الحفاظ على عديد ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ دون تبديل للسنة إلى غيرها، وكذلك قمريتها، وحرمة ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ دين قيم في حقل الزمن بمثلث الزوايا، فالمتخلف عنها كلها أم بعضها متخلف عن ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المكتوب في كتابي التكوين والتشريع، ومن التخلف في ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ النسيء بحساب الأشهر غير القمرية على حساب الشمس.

ذلك، ومن ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الأئمة الاثنى عشر الذين هم تأويل الشهور الاثنى عشر حسب

المروي عن النبي ﷺ: «الأئمة بعدي اثنا عشر»[1] «حجج الله على الخلق بعدي إثنا عشر»[2] «أوصيائي بعدي إثنا عشر أولهم علي وآخرهم المهدي»[3] «يملك من ولدي إثنا عشر خليفة»[4] «اثني عشر كعدد نقباء بني

---

(١) ملحقات إحقاق الحق ١٣ : ١ - ٧٤ و١٩ : ٦٢٨ - ٦٣٢.
(٢) المصدر ٤ : ٩٤.
(٣) المصدر ٤ : ١٠٣، ٣٦٥ و١٣ : ٦٩ و٢٠ : ٥٣٨.
(٤) المصدر ١٣ : ٧٤ و٧: ٤٧٧ و١٣ : ١ - ٨، ١٦ - ١٧، ٢٠ - ٢١، ٣١ - ٣٢، ٣٥، ٤٧، ٧٤.

إسرائيل»(١) فقد «نص بإمامتهم وهم إثنا عشر»(٢) «فنظرت فرأيت إثنا عشر نوراً وفي كل نور سطر أخضر عليه اسم وصي من أوصيائي»(٣).

ذلك، وقد نجد مواصفاته التي لا تحدّ ولا تحصي في ألفين من مؤلفات إخواننا أو تزيد، كما فصلت في ملحقات إحقاق الحق.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ قتلاً يكف عنكم بأسهم، وعلّ تاءها للمبالغة عناية إلى مبالغة الكف في ذلك القتال ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ قتلاً يكف عنهم بأسكم، فلا تعني ﴿كَآفَّةً﴾ الجميع، وإنما هي القتال الكافة حيث تكف عنكم بأسهم، فهي - إذاً - حرب دفاعية.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ على أية حال وهنا في مسرح القتال، في أصله وفي زمنه وفي كمه وكيفه، تجنباً عن قتال الذراري والعجزة والصبيان ومن ألقى إليكم السلام(٤) وقتال من لا يقاتلكم ولا هو فتنة عليكم.

وهنا ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كما المشركين ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(٥) سواء دون شمول لأهل الكتاب حيث الصيغة الصالحة للشمول ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ و﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعني في مصطلح القران العبّاد الرسميين للأوثان دون كل المنحرفين عن التوحيد ككفرة أهل الكتاب، وقد قوبل بينهما في البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾(٦).

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا

---

(١) المصدر ١٣: ٤٤ - ٤٥ و١٩: ٦٢٩ - ٦٣٠.
(٢) المصدر ١٣: ٥٦، ٧١ و١٣: ٤٩ - ٧٤.
(٣) المصدر ٥: ٩٣.
(٤) خلاف ما قتل خالد في حنين امرأة فأرسل إليه النبي ﷺ ينهاه مشدداً، وقتل رجالاً قد اسلموا من بني جذيمة فتبرأ النبي إلى الله من فعلته ثلاثاً، وقتل أسامة يهودياً أظهر له الإسلام فنزلت: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا...﴾ [النساء: ٩٤].
(٥) سورة النساء، الآية: ٨٩.
(٦) سورة البينة، الآية: ١.

وَيُحَرِّمُونَهُمْ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

النسيء هنا هو الشهر المؤخر حيث تعودت الجاهلية لتنسئ من الأشهر الحرم مصلحية تحليل القتال فيها أو سماح الحج، حيث كانت تعرض حاجات لبعض قبائل العرب تتعارض مع تحريم هذه الأشهر، وهنا تتلاعب الأهواء ويقوم من يفتي باستحلال أحد الأشهر الحرم عن طريق تأخيره في عام وتقديمه في آخر، فطالما عديد الأشهر الحرم يبقى أربعة ولكن أعيانها كانت تتبدل بتبديل الأسماء في ذلك النسيء التأخير(١).

ولقد كان في العام التاسع من الهجرة رجب الحقيقي غير رجب، وذو الحجة غير ذي الحجة، فرجب واطئ جمادي الآخرة وذو الحجة واطئ ذو القعدة، وكان نفر الجهاد فعلاً في جمادي الآخرة واقعاً وفي رجب مختلفاً، فرشقت سهام هذه النصوص على تلك الجاهلية الحائرة المائرة إبطالاً للنسيء عن بكرته حيث كان خلاف سنة التكوين والتشريع ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾(٢).

---

(١) في مجمع البيان قال مجاهد: كان المشركون يحجون في كلّ شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذلك في الشهور حتى واقفت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة ثم حج النبي ﷺ في العام القابل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة فذلك حين قال النبي ﷺ في خطبته: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض السنة إثنا عشر شهراً منها أربعة حرم. . حيث أراد بذلك أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحج إلى ذي الحجة وبطل النسيء، وفي كتاب الخصال عن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ كلام من خطبة له ﷺ ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا. . . وكانوا يحرمون المحرم عاماً ويستحلون صفر عاماً ويحرمون صفر عاماً ويستحلون المحرم، أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلادكم، أقول: وهذا النسيء داخل في طليقه خارج عن مورده في الآية ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٣٧ – أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن =

ولقد زاد هذا الكفر ركاماً على جاهلية الإشراك فأصبح ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ حيث كانوا ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ كأنهم هم المشرعون أمام الله، والقصد من تراوح التحليل والتحريم ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فيه القتال ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ بذلك النسيء.

فقد جمعوا إلى تحويل موضوع التحريم بذلك النسيء أصل التحليل والتحريم به، احتيالاً حائلاً عن تحليل الله وتحريمه، ولذلك استحقوا ذلك التنديد الشديد المديد.

وليسوا هم فحسب، هكذا كل المحتالين في الأحكام والموضوعات الشرعية تسميته لها بالحيل الشرعية، ولا حيلة للشرع في تحليل ما حرم أم تحريم ما حلّل، وإنما الحيلة لهذه الأغباش الأنكاد الذين ينسبون حيلهم المحرمة إلى الشرع نفسه استرواحاً في جريمتهم البشعة المتصورة بصورة الفتوى، أو العملية الشرعية مثل الحيل المختلقة في حقل الربا وما أشبه، هزء سافراً بأحكام الله!.

والنسيء الكافر على نوعين، أحدهما احتساب الأشهر حسب سير

= مجاهد في الآية قال: فرض الله الحج في ذي الحجة وكان المشركون يسمون الأشهر ذوا الحجة والمحرم إلى ذوا الحجة ثم يحجون فيه ثم يسكتون عن المحرم فلا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفر صفر ثم يسمون رجب جمادي الآخرة ثم يسمون شعبان رمضان ورمضان شوال ويسمون ذا القعدة شوال ثم يسمون الحجة ذا القعدة ثم يسمون المحرم ذا الحجة ثم يحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة ثم عادوا مثل هذه القصة فكانوا يحجون في كلّ شهر عاماً.. ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج فيها فوافق ذو الحجة فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: إن الزمان قد استدار...

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: كان رجل من بني كنانة يقال له جنادة بن عوف يكنى أبا أمامة ينسئ الشهور وكانت العرب يشتد عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض فإذا أراد أن يغير على أحد قام يوماً بمنى فخطب فقال: إني أحللت المحرم وحرمت صفر مكانه فيقاتل الناس في المحرم فإذا كان صفر عمدوا ووضعوا الأسنة ثم يقوم في قابل فيقول: إني قد أحللت صفر وحرمت المحرم فيواطئوا أربعة أشهر فيحلوا المحرم.

الشمس، وثانيهما تناسي بعض الأشهر في العدّ وتسمية البعض باسم الآخر إنساء قاصداً ليواطئوا عدة ما حرم الله.

وتعودا على ذلك النسيء خيل إلى ضعفاء من المؤمنين أن الحرب محرمة اعتباراً بأن جمادي الآخرة المحمولة إلى رجب هو في الحق رجب فاستحرموا فيه القتال، ولذلك تشدّد النكير عليهم وعلى مختلقي النسيء هكذا، وهكذا ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ حيث زين لهم الشيطان أعمالهم وكانوا مستبصرين كما وزين الله جزاءً وفاقاً أن لم يصد الشيطان عن ذلك التزيين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾:

رغم أن قضية الإيمان بالله الترقب لأمر الله تحقيقاً له حقيقاً بالإيمان، نرى جماعة من الذين آمنوا يتثاقلون عن أمر النفر في سبيل الله إلى أرض الحياة الدنيا المتاع ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ذلك، ومع العلم أن متاع الحياة الدنيا في الآخرة لا كثير ولا قليل إذ لا ينفع أصحابه ما لم يقدموه لها، وما قدموه فهو كثير غير قليل، فكيف يعتبر هنا في الآخرة قليلاً.

علّ «في» هنا لظرف القياس دون واقع لمتاع الحياة الدنيا في الآخرة، فهو قياساً إلى متاع الآخرة قليل ضئيل وكما ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾(١).

أم و﴿قَلِيلٌ﴾ في واقعة، فإن قليلاً من المؤمنين يقدمون متاع الحياة

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

الدنيا بكاملها أو أكثرها إلى الآخرة كمتاع فالمتاع الأول متعة بعيدة[1] ككل عن الآخرة، والثاني متاع التجارة أن تشترى به الآخرة، والفارق أنه للكافرين ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]: متعة قليلة، وللمؤمنين متاع في الآخرة حسب مساعيهم إن كثيراً فكثير وإن قليلاً فقليل، ومما يقلّل متاع الحياة الدنيا للمؤمنين أن يتثاقلوا عن الجهاد في سبيل الله بأرض المعركة، إلى أرض الحياة تطويلاً لها بزعمهم، أم تطاولاً فيها بمال ومنال! إم أنه قليل بجنب متاع الآخرة وإن كان للمؤمنين الصالحين الذين يشترون به الآخرة، متاع قليل يشترى به متاع كثير وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضي ربه، وبئست الدار لمن صدّته عن آخرته وقصرت به عن رضى ربه وإذا قال العبد قبح الله الدنيا قالت الدنيا قبح الله أعصانا لربه[3].

---

(١) ويؤيده ما في الدر المنثور ٣: ٢٣٦ - أخرج الحاكم وصححه عن المستورد قال: كنا عند النبي ﷺ فتذاكروا الدنيا والآخرة فقال بعضهم: إنما الدنيا بلاغ لآلخرة فيها العمل وفيها الصلاة وفيها الزكاة وقالت طائفة منهم: الآخرة فيها الجنة وقالوا ما شاء الله فقال رسول الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم فادخل أصبعه فيه فما خرج منه فهي الدنيا، وفيه أخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: إن الله جعل الدنيا قليلاً وما بقي منها إلا القليل كالثقب في الغدير شرب صفوه وبقي كدره. وفيه في وصف الدنيا كأصل عن ابن مسعود أن النبي ﷺ نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله ﷺ: لو اتخذنا لك فقال: ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها، وفيه عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى، وعن أبي مالك سمعت رسول الله ﷺ يقول: حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٧.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٣٨ عن سعد بن طارق عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: ... وفيه عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ وغط رجلاً فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس، وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وسنته فإذا خرج من الدنيا فارق السجن والسنة.

ذلك، فما الذي أثقلهم حينذاك عن النفر لقتال الروم؟ إنه شدة الحر، وطيبة ثمار المدينة وقتذاك، وبعد المسافة وشقة الطريق واستعظام الروم، فاثّاقلوا - إذاً - إلى الأرض كأنهم رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، وإنها ثقلة أرض الحياة الدنيا ومطامعها ومطامحها، ثقلة الخوف على حياة وزخرفاتها ولذائذها ومصالحها ومتعها، ثقلة الدعة والأريحية المستقرة المستغرّة، والعبارة تحمل لكل ثقلة كهذه وما أشبه بجرس اللفظ وقرص المعنى ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: افتعال الثقل إلى السفل الثفل، رغم الإيمان بالعلو، غلباً لجاذبية الأرض على السماء، وسلباً لرفرفة الأرواح وانطلاقة الأشواق.

فالنفرة للجهاد هي انطلاقه من ثقل الأرض وقيدها، تطلعاً إلى علو السماء عن كيدها وميدها، فما من مؤمن أثاقل إلى الأرض عن نفر الجهاد إلّا وفي إيمانه دخل وخلل، حيث الحياة الإيمانية كلها جهاد، ولقد ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ﴾(١) فما دائكم وما دواءكم؟!

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

وهنا تهديد مديد بعد تهديد، متواصلا في آيات عدة ليعدوا للجهاد عدّة وعدّة، فـ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ للجهاد ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هنا وفي الأخرى، فهنا تقلبون فتغلبون أما أشبه،(٢) وهنالك تعذبون، ومما هنا «يستبدل» بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ممن لا يتهاون في الجهاد. ثم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ﴾ فإن الله ليس ليغلب في المعارك فإنما أنتم تغلبون ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فـ «انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا

(١) سورة التوبة، الآية: ٨١.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٣٩ عن ابن عباس في الآية قال: إن رسول الله ﷺ استنفر حياً من أحياء العرب فتثاقلوا عنه فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم.

بالخسف وتبوءوا بالذل ويكون نصيبكم الأخس، إن أخا الحرب الأرق - لا ينام - ومن نام لم ينم عنه»[١].

وهنا علّ ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ هم المعنيون بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

لقد تعلق بآية الغار هذه متعلقون كثير بين موجبين لفضيلة غالية لـ «صاحبه في الغار» لحدّ يسملون عليه في زيارتهم إياه بـ «السلام عليك يا صاحب الغار» تثبيتاً مبيّتاً لصحبته الوحيدة بين صحابة الرسول ﷺ بذلك النص الجلي والقص العلي، وكأنه هو صاحبه دون من سواه، وآخرين سالبين عنه أية فضيلة مائلين إلى أن آية الغار عار على صاحب الغار دون افتخار، موغلين إياه في الكفار.

ولكلّ - على ضوء المذهبية آراء، علينا أن نرفضها، ثم نقرض على ضوء الآية ما قصه الله، سواء أكان لصاحبه في الغار أم عليه.

ذلك ومن قالات الموجبين ما ينقله صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه ويرد عليه رأساً على عقب[٣]، ومن مقالات السالبين الثالبين المتألبين حضرة

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٢١٧ عن نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٣) نور الثقلين ٢ : ٢٢٠ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي=

صاحب الغار، أنه حزن في الغار و«أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى

= عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: يا سعد! وحين ادّعى خصمك أن رسول الله ﷺ ما أخرج مع نفسه مختار هذه الأمة إلى الغار إلا علمنا منه أن الخلافة له من بعده وانه هو المقلّد أمور التأويل والملقى إليه أزمة الأمة وعليه المعول في لم الشعث وسد الخلل وإقامة الحدود وتسرية الجيوش لفتح بلاد الكفر، فلما أشفق على نبوته اشفق على خلافته وإذ لم يكن من حكم الاستتار والتواري أن يروم الهارب من الشر مساعدة من غيره إلى مكان يستخفي فيه -

وإنما أبات علياً عليه السلام على فراشه لما لم يكترث له ولم يحفل به لاستثقاله إياه وعلمه أنه إن قتل لم يتعذر عليه نصب غيره مكانه للخطوب التي كان يصلح لها! -

فهلا نقضت دعواه بقولك: أليس قال رسول الله ﷺ: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، فجعل هذه موقوفة على أعمار الأربعة الذين هم الخلفاء الراشدون في مذهبكم، وكان لا يجد بداً من قوله لك: بلى، قلت له حينئذ: أليس كما علم رسول الله ﷺ أن الخلافة من بعده لأبي بكر، أنها من بعد أبي بكر لعمر ومن بعد عمر لعثمان ومن بعد عثمان لعلي عليه السلام، فكان أيضاً لا يجد بداً من قوله لك: نعم - ثم كنت تقول له: فكان الواجب على رسول الله ﷺ أن يخرجهم جميعاً على الترتيب إلى الغار ويشفق عليهم كما اشفق على أبي بكر ولا يستخف بقدر هؤلاء الثلاثة بتركه إياهم وتخصيصه أبا بكر وإخراجه مع نفسه دونهم، وفي الدر المنثور ٣: ٢٤٠ - أخرج ابن عساكر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه لم يأمن على نفسه غيره حتى دخلاً الغار، وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: أنت صاحبي في الغار وأنت معي على الحوض وفيه عن ابن عباس عن أبي هريرة مثله، وفيه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لحسان: قلت في أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم، قال: قل وأنا أسمع، فقال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صاعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا ... من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: صدقت يا حسان، وفيه عن ابن عساكر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر فقال: إلا تنصروه... وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما كانت ليلة الغار قال أبو بكر الصديق يا رسول الله ﷺ دعني فلأدخل قبلك فإن كانت حية أو شيء كانت في قبلك؟ قال: أدخل، فدخل أبو بكر فجعل يلمس بيديه فكلما رأى حجراً قال بثوبه فشقه ثم ألقمه الحجر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ويقي حجر فوضع عليه عقبه وقال: أدخل فلما أصبح قال له النبي ﷺ فأين ثوبك، فأخبره بالذي صنع فرفع النبي ﷺ يديه وقال: اللّهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة، فأوحى الله إليه أن الله قد استجاب لك. =

رسول الله ﷺ حاله قال له: تريد أن أريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدثون فأريك جعفر وأصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله ﷺ بيده على وجهه فنظر إلى الأنصار يتحدثون ونظر إلى جعفر وأصحابه في البحر يغوصون فأضمر في تلك الساعة أنه ساحر»[1] وأنه «ما ذكره فيها بخير» حيث تقرء الآية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[2] خلاف القراءة المتواترة المثبتة في القرآن.

= وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: أبو بكر أخي وصاحبي في الغار فاعرفوا ذلك له فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، سدوا كلّ خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٤١ - أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن ضبة بن محصن العبري قال قلت لعمر بن الخطاب أنت خير من أبي بكر؟ فبكى وقال: والله لليلة أبي بكر ويوم خير من عمر، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قال قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أما ليلته فلما خرج رسول الله ﷺ هارباً من أهل مكة خرج ليلاً فتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله فقال له رسول الله ﷺ ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك! قال يا رسول الله ﷺ اذكر الرصد فأكون أمامك واذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك، قال: فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه فلما رآه أبو بكر قد حفيت حمله على كاهله وجعل يشد به حتى أتى خم الغار فأنزله ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك فدخل فلم ير شيئاً فحمله فأدخله وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعي فخشي أبو بكر أن يخرج منهن شيء يؤذي رسول الله ﷺ فألقمه قدمه فجعلن يضربنه وتلسعه الأفاعي والحيات وجعلت دموعه تنحدر ورسول الله ﷺ يقول له يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته لأبي بكر فهذه ليلته وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ . . .

(١) المصدر في روضة الكافي مسنداً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبي بكر في الغار، اسكن فإن الله معنا وقد أخذته. . .

(٢) المصدر في تفسير العياشي عن عبد الله بن محمد الحجال قال: كنت عند أبي الحسن الثاني عليه السلام ومعي الحسن بن جهم فقال له الحسن: إنهم يحتجون علينا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] وما لهم في ذلك فوالله لقد قال الله: فأنزل الله سكينته على رسوله وما ذكره فيها بخير، قال: قلت له أنا: جعلت فداك وهكذا تقرؤنها؟ قال: هكذا قد قرأتها، وفيه عن الرضا عليه السلام في الآية هكذا نقرأها وهكذا =

وهنا مقالة هي عوان بينهما تجعل كلا من هذين الفرقدين علياً عليه السلام وأبا بكر في مكانته اللائقة به(١) تفضيلاً فضيلاً لفرقد الفراش على صاحب

= تنزيلها، أقول: هكذا قد قرأتها يلمح بأنه قراءة التفسير لا التنزيل، وأما «هكذا نقرأها» فقد تكون مبدلة عن الأولى، أم كذلك يعني نقرأها تفسيراً وهكذا تنزيلها تفسيراً لا أصلاً لفظياً، وإلا فتطرح لمخالفتها لنص القرآن.

وفي البحار ١٩: ٥٥ عن مجاهد قال: فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الغار فقال عبد الله بن شداد بن الهاد وأين أنت من علي بن أبي طالب حيث نام في مكانه وهو يرى انه يقتل فسكتت ولم تحر جواباً، وفيه (٨٠) قال زرارة قال أبو جعفر عليه السلام: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٢٦] ألا ترى أن السكينة إنما نزلت على رسوله ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ [التوبة: ٤٠] فقال: هو الكلام الذي يتكلم به عتيق، رواه الحلبي عنه.

(١) البحار ١٩: ٨٠ عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام إن الله تعالى أوحى إلى النبي يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إن العلي الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك: إن أبا جهل والملأ من قريش قد دبروا يريدون قتلك وآمرك أن تبيت علياً في موضعك وقال لك: إن منزلته منزلة إسماعيل الذبيح من إبراهيم الخليل يجعل نفسه لنفسك فداء وروحه لروحك وقاء -

وآمرك أن تتصحب أبا بكر فإنه إن آنسك وساعدك ووازرك وثبت على ما يعاهدك ويعاقدك كان في الجنة من رفقائك وفي غرفاتها من خلصائك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام أرضيت أن أطلب فلا أوجد وتوجد فلعله أن يبادر إليك الجهال فيقتلوك؟ قال: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضيت أن يكون روحي ونفسي فداء لأخ لك أو قريب.. وهل أحب الحياة إلا لخدمتك والتصرف بين أمرك ونهيك ولمحبة أوليائك ونصرة أصفيائك ومجاهدة أعدائك، لولا ذلك لما أحببت أن أعيش في هذه الدنيا ساعة واحدة فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على علي عليه السلام فقال له: يا أبا الحسن قد قرأ علي كلامك هذا الموكلون باللوح المحفوظ وقرأوا علي ما أعد الله لك من ثوابه في دار القرار ما لم يسمع بمثله السامعون ولا رأى مثله الراءون ولا خطر مثله ببال المتفكرين -

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر: أرضيت أن تكون معي يا أبا بكر تطلب كما أطلب وتعرف بأنك تحملني على ما أدعيه فتحمل عني أنواع العذاب؟ قال أبو بكر: يا رسول الله أما أنا لو عشت عمر الدنيا أعذب في جميعها أشد عذاب لا ينزل علي موت مريح ولا منهج متيح وكان ذلك في محبتك لكان ذلك أحب إلي من أن أتنعم فيها وأنا مالك لجميع ممالك ملوكها في مخالفتك وهل أنا ومالي وولدي إلا فداءك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا جرم إن اطلع الله على قلبك ووجد ما فيه موافقاً لما جرى على لسانك جعلك بمنزلة السمع والبصر والرأس من الجسد ومنزلة الروح من البدن كعلي الذين هو مني كذلك وعلي فوق ذلك لزيادة فضائله =

الغار ولا يظلمون فتيلاً، فإلى تحقيق الحق المعني من آية الغار بكل تجرد وحرية، وكما يستفاد من نفس الآية دون وصيل ودخيل من رؤية مذهبية أم رواية لا تتحملها الآية:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أنتم المنافقون وسائر ضعفاء الإيمان، في خصوص الاستنفار لحرب الروم، أم وفي عامة المجالات على مدار الزمن الرسالي الإسلامي، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ...﴾ ومن هنا المحصور الأصيل في مسرح النصرة الربانية هو الرسول ﷺ مهما لزق به لازق وصحبه صاحب ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ماضياً هو مستمر على طول الرسالة، نصرة حقة حقيقية منقطعة النظير، اللّهم إلّا ما كان للرسولين موسى وعيسى، ولكن موسى كان وليداً نجّاه الله عن أليمّ بيد عدوه، والمسيح عليه السلام رفع إلى السماء، وأما محمد ﷺ فقد هاجر إلى تأسيس دولة الإسلام عالية مرفرفة الأعلام حتى فتح مكة المكرمة.

﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حيث عزموا على قتله فخرج أمامهم ولم يبصروه بما نصره الله، فهو المنصور المخرج بهذه الخارقة الربانية دون سواه، وهو ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ ولماذا ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ دون «أول اثنين» وهو أوّل في الفضيلة، أول في الهجرة، وأول في كل منقبة؟!.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ حال من ذلك المنصور المهجّر المهجور ﷺ وصاحبه

= وشرف خصائله، يا أبا بكر إن من عاهد ثم لم ينكث ولم يغير ولم يبدل ولم يحسد من قد أبانه الله بالتفصيل فهو معنا في الرفيق الأعلى، وإذا أنت مضيت على طريقة يحبها منك ربك ولم تتبعها بما يسخط ووافيته بها إذا بعثك بين يديه كنت لولاية الله مستحقاً ولمرافقتنا في تلك الجنان مستوجباً... ثم قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام يا علي أنت مني بمنزلة السمع والبصر والرأس من الجسد والروح من البدن، حببت إلي كالماء البارد إلى ذي الغلة الصادي ثم قال له: يا با حسن تغش ببردتي...

هنا وهو الأول علّه لأن أبا بكر دخل الغار قبله إذ كان في موقف حراسته، بمراس دائب هو بطبيعة حاله يقدمه في موقف الغار، ليفتش داخل الغار وليدافع عنه هجمة، وينظر له إلى أية بادرة ظاهرة على باب الغار، أم لأمر آخر، ومهما يكن من أمر فـ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ هنا هو الرسول ﷺ حيث هو المنصور المخرج دون صاحبه، إذا فالاحتجاج بـ ﴿ثَانِيَ﴾ هنا أن أبا بكر هو ثاني الرسول اعوجاج في الاحتجاج هو قضية التعمية المذهبية المتعصبة لصاحبه في الغار[1]، ثم ولا يعنى ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أحدهما، فإن عبارته عبارته كـ: أحد اثنين وما أشبه، فإنما رتب دخولهما في الغار زمناً فالأول هو الحارس الداخل أولاً والثاني هو المحروس الداخل ثانياً.

وهنا فرقدان اثنان يصاحبان الرسول ﷺ فرقد الليل ينام على فراشه استعداداً للقتل بديله حيث الخطر هاجم، وفرقد النهار بلياليي وأنها حيث

---

(١) بحار الأنوار ١٩ : ٩٣: إن الطبري في تاريخه ٢ : ١٠٠ وأحمد بن حنبل رويا في كتابيهما أن هذا الرجل المشار إليه ما كان عارفاً بتوجه النبي ﷺ وأنه جاء إلى مولانا علي عليه السلام فسأله عنه فأخبره انه توجه فتبعه بعد توجهه حتى ظفر به وتأذى رسول الله ﷺ بالخوف منه لما تبعه وعثر بحجر فلق قدمه، قال الطبري في تاريخه: فخرج أبو بكر مسرعاً ولحق نبي الله ﷺ في الطريق فسمع جرس أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين فأسرع رسول الله ﷺ يمشي فقطع قبال نعله ففلق إبهامه حجر وكثر دمها فأسرع المشي فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله ﷺ حين أتاه فانطلقا ورجل رسول الله ﷺ تسيل دماً حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه وأصبح الذين كانوا يرصدون رسول الله ﷺ فدخلوا الدار..

وفي الدر المنثور ٣: ٢٤٠ - أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغار ثور، قال: وتبعه أبو بكر فلما سمع رسول الله ﷺ حسه خلفه خاف أن يكون الطلب فلما رأى ذلك أبو بكر تنحنح فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار فأصبحت قريش في طلبه.

وفي تفسير البرهان ٣: ١٢٧ - ابن طاوس في طرائفه قال: ومن طريق العامة ما ذكره أبو هاشم بن الصباغ في كتاب النور والبرهان يرفعه إلى محمد بن إسحاق قال قال حنان: قدمت مكة معقراً وأناس من قريش يقدمون أصحاب رسول الله ﷺ فقال ما هذا لفظه: فأمر رسول الله ﷺ علياً فنام على فراشه وخشي من أبي بكر أن يدلهم عليه فأخذه معه إلى الغار،

الخطر ناجم، وبوادر الأمن وكوادره قائمة بخوارق العادة بل لا حزن ولا خوف فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وعداً منه مفعولاً للحفاظ عليه ﷺ وعلى صاحبه في الغار، فلماذا - إذاً - يحزن هو أو يحزن صاحبه، اللّهم إلا ريبة في تحقيق وعد الله!.

﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ وأما كون ثاني اثنين في الغار فبما أخرجه الذين كفروا، فما الذي أدخل - إذاً - صاحبه في الغار؟ النص ساكت، والأثر المنقول عن أصحاب له ناطق بأنه اتجه إلى الغار بعد الرسول ﷺ حيث سأل عنه علياً عليه السلام أم سواه فأخبره أنه توجه ففوجأ النبي ﷺ بدهشة اتجاهه إلى الغار(١)، فأصبح علّه حارساً حيث اعتبر أولاً في الغار، أم قدّمه إلى الغار احتياطاً على نفسه لكيلا يبقى خارج الغار فيستخبر فيخبر بخبره ﷺ خوفة من المشركين وكما يروى(٢).

ومهما يكن من شيء فالنص لا يشير إلى إيجابية الدعوة أم سلبيتها لصاحب الغار أن يصاحب الرسول ﷺ إلا إلى أصل كونهما في الغار، اعتباراً أن الرسول ﷺ هو الأصل في ذلك المضمار، وصاحبه في الغار

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) في تفسير الفخر الرازي ١٦: ٦٤: أنه تعالى سماه ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠] فجعله ثاني محمد ﷺ حال كونهما في الغار والعلماء أثبتوا أنه كان ثاني محمد في أكثر المناصب الدينية - ثم أطال بقوله: - فإنه أرسل إلى الخلق وعرض الإسلام على أبي بكر آمن أبو بكر.. فهو ثاني اثنين في الدعوة إلى الله، وأيضاً كلما وقف رسول الله ﷺ في غزوة كان أبو بكر يقف في حذمته ولا يفارقه فكان ثاني اثنين في مجلسه، ولما مرض رسول الله ﷺ قام مقامه في إمامة الناس في الصلاة فكان ثاني اثنين، ولما توفي دفن بجنبه فكان ثاني اثنين هناك أيضاً، أقول وقد غفل الرازي الراضي عن اجتهاده الاضطهاد عن أن ثاني اثنين هو الرسول دون صاحبه فأين المقام الثاني لصاحبه اللّهم إلا له ﷺ وهل يرضى الأولية - إذاً - لصاحبه وهو ثانية؟! ثم ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ﴾ [التوبة: ٤٠] من هو القائل لصاحبه إلا ثاني اثنين، فإذا كان هو أبا بكر فهو القائل لصاحبه الرسول ﷺ - إذاً - لا تحزن.. فتنقلب الآية بأسرها محولة لسرد فضيلة غالية لأبي بكر والرسول ﷺ على هامشه!.

علّه إنما صاحبه مصلحية الحفاظ عليه ﷺ ولكن بأي وجه؟ لا ندري! أم صاحبه لعناية أخرى؟ كالحفاظ على نفسه لما يجد الرسول ﷺ ملاحقاً.

ثم وكيف لزمه النبي ﷺ إلى الغار ولم يتركه؟ علّه خوفاً أن يلزمه المشركون فيستخبروه فيخبرهم لضعفه وقوتهم كما يروى[١]، أم لشغفه البالغ في الهجرة وكما تطلبها منه ﷺ مراراً وتكراراً فراراً عن بأس المشركين وعبء المقام بمكة تحملاً لتوارد المضايقات، فيقول له ﷺ لا تعجل[٢]

(١) كما ذكره الطبري في حديث الهجرة بقوله: وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له رسول الله ﷺ: لا تعجل (تاريخ الطبري ٢: ٩٧).

(٢) وفي تفسير البرهان ٢: ١٢٦ روى الحسين بن حمدان الخصيبي بإسناده عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أبيه محمد بن علي الباقر عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام قال: لما لقنه جابر بن عبد الله الأنصاري رسالة جده رسول الله ﷺ إلى ابنه الباقر عليه السلام قال له علي بن الحسين يا جابر أكنت شاهداً حديث جدي رسول الله ﷺ يوم الغار؟ قال: لا يا ابن رسول الله ﷺ قال: إذا أخذتك يا جابر، قال: حدثني جعلت فداك فقد سمعته من جدك فقال: إن رسول الله ﷺ لما هرب إلى الغار من مشتركي قريش حيث كبسوا داره لقتله وقالوا: اقصدوا فراشه حتى نقتله فيه فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام إن مشركي قريش يكبسونني في هذه الليلة ويقصدون فراشي فما أنت صانع يا علي؟ قال له أمير المؤمنين عليه السلام: أنا يا رسول الله ﷺ اضطجع في فراشك واخرج واستصحب الله حيث تأمن على نفسك فقال له رسول الله ﷺ: فديتك يا أبا الحسن أخرج لي ناقتي العضباء حتى أركبها وأخرج إلى الله هارباً من مشركي قريش وافعل بنفسك ما تشاء والله خليفتي عليك فخرج رسول الله ﷺ وركب الناقة وتلقاه جبرئيل فقال يا رسول الله ﷺ أمرني الله ربي أن أكون صاحبك في مضربك وفي الغار الذي تدخله ان ان تنيخ ناقتك إلى باب أبي أيوب الأنصاري فسار ﷺ فتلقاه أبو بكر فقال يا رسول الله ﷺ أصحبك؟ ويحك يا أبا بكر ما أريد أن يشعر بي أحد، قال: فأخشى يا رسول الله ﷺ أن تستحلفني المشركون على لقائي إياك ولا أجد بداً من صدقهم، فقال له: ويحك يا أبا بكر أو كنت فاعلاً ذلك؟ فقال: أي والله لئلا أقتل أو أحلف فأحنث، فقال: ويحك يا أبا بكر فما صحبتي ليلتي بنافعتك، فقال له أبو بكر: ولكنك تستغشني أن أنذر به المشركين، فقال له: سر إذا شئت فتلقاه الغار فنزل عن ناقته العضباء وأبركها بباب الغار ودخل ومعه جبرئيل وأبو بكر وقامت خديجة في جانب الدار باكية على رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين وانضجاعه على فراش رسول الله ﷺ ليفد به بنفسه ووافى المشركون الدار ليلاً فتسوروا عليه ودخلوا قصداً إلى فراش رسول الله ﷺ=

فقد كان يتربص المخرج فحصل على أسلم مورد له تحت حفاظ الرسول ﷺ من الله، ولكن الإمام بات على فراشه تحملاً لما كان يحمل عليه ﷺ ثم ظل خليفة عنه ﷺ في أداء ديونه، وحراسة أهله، وتهيئة الجو لهجرته معهم بسائر المهاجرين، ومن الطبيعي أن تزداد المضايقات على المؤمنين بغياب صاحب الدعوة، ولا سيما على الذي خلّفه خلفه، نوماً على فراشه، ويقظة الحفاظ على أهله وسائر المؤمنين.

ذلك، ولو لا ذلك المبيت، فاعتقاد المشركين أن البائت هو الرسول ﷺ نفسه، لما صبروا عن طلبه إلى النهار أم لوقت متأخر من الليل حتى وصل ﷺ إلى الغار، فكانت سلامة صاحب الرسالة مضمونة بذلك المبيت المبيّت بوحي الله إضافة إلى سائر الضمان بأمر الله وكما قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1]!.

فقد وجد صاحبه في الغار موقفاً أميناً متيناً للهجرة بمهجر النبي ﷺ فتراه، بعد دخل الغار حفاظاً عليه ﷺ وقد صمم مراراً أن يتركه بين أعدائه ويهاجر قبله إلى المدينة؟! ذلك موقف متّهم!.

= فوجدوا أمير المؤمنين ﷺ مضطجعاً فيه فضربوا بأيديهم إليه وقالوا: يا ابن أبي كبشة لم ينفعك سحرك ولا كهانتك ولا خدمة الجان لك، اليوم نسقي أسلحتنا من دمك، فنفض أمير المؤمنين عليه السلام أيديهم عنه فكأنهم لم يصلوا إليه وجلس في الفراش وقال ما بالكم يا مشركي قريش أنا علي بن أبي طالب، قالوا له: واين محمد يا علي؟ قال: حيث يشاء الله، قالوا: ومن ففي الدار؟ قال: خديجة، قالوا: الجبية الكريمة لولا تبعلها بمحمد يا علي وحق اللات والعزى ولولا حرمة أبيك أبي طالب وعظم محله في قريش لا علمنا أسيافنا فيك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام يا مشركي قريش أعجبتكم كثرتكم وفالق الحب وبارئ النسمة ما يكون إلا ما يريد الله ولو شئت أن أفني جمعكم كنتم أهون علي من فراش السراج، فلا شيء أضعف منه، فتضاحك القوم المشركون وقال بعضهم لبعض: خلوا علياً لحرمة أبيه واقصدوا الطلب لمحمد رسول الله في الغار وجبرئيل وأبو بكر معه فحزن رسول الله ﷺ على علي وخديجة...

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

وعلى أية حال لم نحصل لصاحب الغار في مصاحبته ﷺ في الغار أي افتخار إن لم نحصل له على عار، إنما هو حتى الآن أول اثنين في الغار يصاحبه ﷺ للهجرة.

وهنا ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ نصرة ثانية له ﷺ حيث العناكب عملت ستراً ضخماً على باب الغار خمن المفتشون عنه عند الباب انه شغل سنين.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ - ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ... إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ...﴾ فهنا النصرة الربانية الثالثة للرسول لائحة من قوله لصاحبه ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ فبدلا أن يقول له صاحبه لا تحزن حيث هو المدار للفرار عن بأس المشركين، فحزنا على نواجم الخطر، يطمأن الله قلب الرسول ﷺ ربطاً عليه لحد يقول هو الأصيل في الحزن للبديل فيه الفصيل: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ فهذه نصرة ثالثة لـ ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ تقابلها نكسة لأول اثنين، حيث حزن ببوادره وظواهره لحد قد يخشى على ظهور الأمر للمشركين المتحرين عنه.

وهنا صاحبه في الغار يحزن هكذا تلهباً وتقلباً لحد ينهاه النبي ﷺ - وهو نهي عن نكير منكر - رغم أن هذا الخروج ضمن من خوارق العادات ما تبهر العقول، وتطمئن أصحاب العقول، فقد خرج على عيون الأشهاد وما رأوه، وفور دخوله الغار معه نسجت العنكبوت على باب الغار ستراً نهّاه المشركون إلى سنين[1]، وهما نصرتان أوليان، أفبعد ذلك يبقى خوف منهم

(١) الدر المنثور ٣: ٢٤٠ - أخرج ابن سعد عن ابن عباس وعلي وعائشة بنت أبي بكر وعائشة بنت قدامة وسراقة بنت جعشم دخل حديث بعضهم في بعض قالوا: خرج رسول الله ﷺ والقوم جلوس على بابه فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يدرها على رؤوسهم ويتلوا: يس والقرآن الحكيم - الآيات ومضى، فقال لهم قائل: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: والله مر بكم، قالوا: والله ما أبصرناه وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم وخرج رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه وضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض وطلبته=

وحزن ولا سيما لأبي بكر وهو غير ملاحق في ذلك المسرح، ثم الملاحق الأصيل لا يحزن، بل وينهى صاحبه عن الحزن معلّلاً بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾

= قريش أشد الطلب حتى انتهت إلى باب الغار فقال بعضهم أن عليه لعنكبوتا قبل ميلاد محمد، وأخرجه أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم التيمي أن النبي ﷺ . . . وفي بحار الأنوار ١٩ : ٣٣، لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله زوجاً من الحمام حتى باضا في أسفل الثقب والعنكبوت حتى نسج بيتاً فلما جاء سراقة بن مالك في طلبهما فرأى بيض الحمام وبيت العنكبوت قال: لو دخله أحد لانكسر البيض وتفسخ بيت العنكبوت فانصرف وقال النبي ﷺ : اللّهم أعم أبصارهم فعميت أبصارهم عن دخوله وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار وقال أبو بكر: لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا . . .

وفي تفسير البرهان ٢: ١٢٥ ذكر الطبرسي في أعلام الورى في حديث سراقة بن جعشم مع النبي ﷺ قال: الذي اشتهر في العرب يتقاولون فيه الاشعار ويتفاوضونه في الديار انه تبعه وهو متوجه إلى المدينة فساخت قوائم فرسه حتى تغيبت قوائم فرسه وهو بموضع حدب وقاع صصف فعلم أن الذي أصابه أمر سماوي فنادي يا محمد أدع ربك يطلق لي فرسي وذمة الله أن لا أدل عليك أحداً فدعا له فوثب جواده كأنه أفلت من انشوطة وكان رجلاً داهية وعلم بما رأى أنه سيكون له نباء فقال: اكتب لي أماناً فكتب له وانصرف، قال محمد بن إسحاق: أن أبا جهل قال في أمر سراقة أبياتاً فأجابه سراقة نظماً:

أبا حكم واللات لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي أن تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً ... نبي وبرهان فمن ذا يكاتمه
عليك فكف الناس عني فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدو معالمه

أقول: وقصة سراقة مروية بعدة طرق ومنها ما في الدر المنثور من حديث أبي بكر في اتجاهه مع رسول الله ﷺ إلى الغار: فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا منهم إلا سراقة على فرس له فقلت يا رسول الله ﷺ : هذا الطلب قد لحقنا فقال: لا تحزن أن الله معنا حتى إذا دنا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة فقلت يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا وبكيت، قال: لم تبكي؟

قلت: أما والله لا أبكي على نفسي ولكني أبكي عليك فدعا رسول الله ﷺ وقال: اللّهم أكفناه بما شئت فساخت فرسه إلى بطنها في أرض صلد ووثب عنها وقال: يا محمد إن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فانك ستمر بابلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك فقال رسول الله ﷺ لا حاجة لي فيها ودعا رسول الله ﷺ فأطلق ورجع إلى أصحابه ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة . . .

معية الحفاظ على الرسول ﷺ أصالة، والحفاظ على صاحبه في الغار على هامشه حيث الخطر الناجم هو عليهما - إذاً -[(١)].

وليس هذا النهي متعطفاً - فقط - عليه ﷺ كما يقول الله ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إنما هو الحزن الخطر عليه ﷺ ولذلك عدّ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ من نصرته الربانية، فلقد كان حزنه لحد قد يشكل عليه ﷺ خطراً فنصره الله أن نهى صاحبه عن الحزن وقاية عما قد يحصل من ملاحقة بضجة وصرخة من صاحبه. وهنا نقف حائرين من ذلك الحزن الحزين، فإن كان لنفسه أم للرسول أم لهما فغير محبور، حيث الحزن على الخطر الذي ضمن الله أنه لن يكون عدم إيمان واطمئنان بالله الذي ضمن الحفاظ على حياته بتلك الهجرة الخارقة للعادة، ولكنه لم يكن حزناً - فقط - في قلبه، بل هو ظاهر جاهر بصرخة حيث تسمع فيشكّل خطراً على حياة الرسول ﷺ ولولاه لم يكن في قوله لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ نصرة له ثالثة، فهل إن ترك حزن قلبي - فقط - لصاحبه نصرة له ﷺ غالية؟ كلا بل هو الحزن الحزين ببادئ صراخ يسمع المفتشين عنه ﷺ الملاحقين إياه، ففي نهيه عن حزنه وطمأنته: إن الله معنا، وإن الله قلب قلبه بذلك، نصرة ربانية ثالثة حفاظاً على حياته ﷺ بالفعل، ثم ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ نتيجة هذه المراحل الثلاث من نصرته، كما وأن الثلاث الأخرى من مخلفات النصرة الأصلية وهي إنزال السكينة عليه ﷺ.

ثم كما أن «صاحبه» لا تصاحب صحبة الخليفة للنبي ﷺ من الناحية

---

(١) ومن حزنه ما رآه كما رواه في الدر المنثور ٣: ٢٤٠ أخرج أبو نعيم عن السماء بنت أبي بكر أن أبا بكر رأى رجلاً مواجه الغار قال يا رسول الله ﷺ انه لرآنا، قال ﷺ: كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها فلم ينشب الرجل أن قعد يبول مستقبلهما فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل هذا.

الروحية، كذلك «معنا» لا تعني مساوات المعية بينهما، فإنما هي معية في دفع الخطر الناجم، أصالة للنبي ﷺ وعلى هامشه لزاماً للحفاظ عليه صاحبه في الغار، فهي - إذاً - معية الحفاظ لصاحب الرسالة.

وأما «صاحبه» فهل تعني له منقبة متميزة على سائر أصحاب الرسول ﷺ فكأن غيره لم يكونوا من صحبه، إنما هو «صاحبه» قضية إفراد النسبة المضافة إليه.

إن لـ «صاحبه» مسارح عدة تختلف في مغزاها، فـ «صاحبه» في السفر، غير «صاحبه» في التجارة، وغيرهما في الدراسة، وغيرها في المعرفة، وغيرها في الإيمان، حيث تختلف ملابسات تحمل معها فتختلف الصحابات.

وهنا «صاحبه» في الغار ليس إلّا من صاحبه فيه - دون استئذان منه أو طلبه ﷺ - ودون سائر المواقف المشرفة، فترى - إذاً - «صاحبه» في الغار، هو صاحبه بين كل صحبه في كل الميزات للصحبة الروحية الرسالية؟ هنا لو لم تدل «يقول» ما كنا نعرف أن صاحبه في الغار كان إنساناً، حيث يصاحب الإنسان غير الإنسان من ملابس وحيوان، ومن معاكسه ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[1] أم أياً كان من صاحب يصحب جسمه دون روحه.

فلقد تعرفنا أن «صاحبه» إنسان لمكان «يقول» فمن أين نعرف أنه صاحبه في الفضائل الروحية بين الأصحاب، وتلك الصحبة ليست لتثبت له أصل الإيمان فضلاً عما علاه من صالح الإيمان فضلاً عن أصلحه، وقد يدل: ﴿لَا تَحْـزَنْ - و - فَأَنـزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْـهِ﴾ على طالح الإيمان.

فحين نسمع الله يقول في الكهف ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي

(١) سورة القلم، الآية: ٤٨.

خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾(١) (٢) فهلّا يخيل إلينا أن «صاحبه في الغار»(٣) ما كان يصاحبه إلا كما صاحب المشرك المؤمن في آية الكهف، وتعاكسها آية الأعراف ونظائرها: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾(٤) (٥).

فهل إن «صاحبه» في الكهف تجعل المشرك مؤمناً بمجرد الصحابة؟ أم إن «صاحبهم» في الأعراف وسواها تجعل الرسول ﷺ مشركاً؟.

فمجرد الصحبة بين اثنين لا يحشرهما في محشر واحد ومعشر فارد من الإيمان أو الكفر أم أياً كان من المشتركات، فإنما القدر البين هو الصحابة في الجوار بدنياً أم في الشغل، ثم الصحبة الروحية هي بحاجة إلى برهان، في كفر أو إيمان أم أياً كان(٦) ثم ولا نجد في القرآن كله يعبر عن صحابة الإيمان بين المؤمنين بصاحب أو أصحاب اللّهم إلا ك ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(٧) حيث تعني المعية في حمل هذه الرسالة السامية على هامش الرسول ﷺ فلا يصاحب صيغة الصاحب أية منقبة ولا مزرءة، إلا بما يصاحب الصاحب من صاحبه من منقبة أو مزرءة، وكل منهما بحاجة إلى دليل.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٧.

(٢) ك ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النّجم: ٢] ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢] و﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سَبَإ: ٤٦] و﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمَان: ١٥] و﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ [الأنعَام: ٧١] حيث تعني مصاحبة المؤمن الكافر، النبي مع المشركين، والولد المؤمن مع الوالدين المشركين، أو أي مؤمن مع أي كافر.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٤.

(٥) مرّ تخريجها في الحاشية رقم (٢).

(٦) فمثال الكفر ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمَر: ٢٩].

(٧) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

ولكننا هنا نطلق كما أطلق الله تلك الصحبة في البداية، فحتى نعرف من حكاية الصحبة ما هي منزلة تلك الصحبة؟.

ليس هنا في دور الإيضاح إلّا ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ لأول اثنين هما ﴿لَا تَحْـزَنْ﴾ وقد عرفنا موقفها أن ليست - لأقل تقدير - امتداحاً له، إن لم يكن مزرءة عليه وهو مزرءة! فلنفرض أنه ساكت عن أية سلبية أو إيجابية، ولكن تعال معنا إلى الدور الثاني ﴿فَأَنـزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْـهِ﴾ وهي كحصيلة لتلك النصرة المتميزة الربانية للرسول ﷺ، فقد ﴿فَأَنـزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْـهِ﴾ إذ نصره في هذه الثلاث بما هو نصر الله في رسالته ودعوته وكل مواقفه السلبية والإيجابية لصالح هذه الرسالة، فـ ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] وهنا التفريع ﴿فَأَنـزَلَ ٱللَّهُ...﴾ لا يفسح أي مجال لغير صاحب النصرة الربانية في هذه الثلاث.

وترى بعد أن «عليه» تعني في رجعة يتيمة «صاحبه» دون نفسه ﷺ؟ وهذه مزرءة للرسول ﷺ أن يحرم عن السكينة الخاصة به أولاً، ويختص بها صاحبه في الغار!.

وهنا، كون الرسول ﷺ محور النصرة الربانية، والسكينة هي محور لتلك النصرة، والضمائر الثمانية - هي بطبيعة الحال - راجعة إليه، هذه وما أشبه أدلة قاطعة لا مرد لها أنه ﷺ هو صاحب السكينة هنا دون صاحبه.

و﴿إِذْ يَـقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ﴾ هي ثالثة النصرة له ﷺ، ثم ﴿فَأَنـزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْـهِ﴾ هي رابعة مفرعة على هذه التي مضت، منتوجة أصيلة لها كلها ثم و﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ خامسة و﴿وَجَعَـلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ سادسة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ هي السابعة، وهذه الثلاثة الأخيرة هي من مخلقات السكينة، وهذه السبعة من

(١) سورة محمد، الآية: ٧.

زوايا ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ هي التي تشكل هندسة النصرة الربانية المنقطعة النظير لهذا البشير النذير فلو اختصت السكينة بصاحبه في الغار لاختصت به سائر النصرة المتقدمة عليها والمتأخرة عنها!.

ثم هنا نحن بين محتملات ثلاث في ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أنها تخص الرسول ﷺ كالستة الأخرى، والضمائر السبعة الأخرى، ولأن الرسول ﷺ هو المحور الحائرة حوله الآية بكل بنودها؟ - أم تعمهما؟ وضمير المفرد لا يتحمل الرجوع إلى اثنين، فلا موقف لذلك الاحتمال أصلاً! أم هو راجع إلى صاحبه - كما يهواه من أصحاب صاحب الغار شذر نزر لأنه المرجع الأقرب[(١)] - فتصبح تلك السكينة الغالية التي هي حصيلة متفرعة علي ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾ خاصة بصاحبه دونه نفسه ﷺ، وليست أقربية المرجع بمجردها صالحة لعود الضمير إليه، وهنا القرائن القطعية قائمة على أن المرجع هنا هو محور النصرة الربانية دون صاحبه ثم الأقرب ذكراً هو الرسول لمكان ﴿صَاحِبِهِۦ﴾ حيث هو المضاف إليه.

ذلك، وحتى لو اختصت به السكينة فهي هي السكينة النازلة على المؤمنين مع الرسول ﷺ فلا تدل - إذاً - على ميزة لصاحب الغار يمتاز بها على غيره من المؤمنين.

ذلك، رغم أن ذكر صاحبه لا يعني إلّا بيان ملابسة صالحة

---

(١) إنهم احتالوا وحاولوا نزول السكينة عليه في قالات وروايات، منها ما في الدر المنثور ٣: ٢٤٥ - أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال دخل النبي ﷺ وأبو بكر غار حراء فقال أبو بكر للنبي ﷺ لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإياك فقال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر أن الله أنزل سكينة عليك وأيدني بجنود لم تروها، ورواه مثله عن ابن عباس وأبي ثابت دون اسناد إلى النبي ﷺ.
أقول: ولأن الكاذب ينسى فقد نسي الناقل أن الغار هو غار ثور دون حراء، ثم ما هذه السكينة النازلة على أبي بكر لم تلك تسكنه عن اضطرابه؟.

لاطمئنانه ﷺ في الغار عن كل الأخطار، لحد ينهي صاحبه الحزين عن حزنه الخطير الخطير.

ولننظر ثانية إلى ذلك المقترح الهاوي أن السكينة هنا نزلت على صاحبه دون نفسه، فالنتيجة - إذاً - هي كالتالية:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾: ١ - الرسول ﷺ ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ﴾، ٢ - الرسول ﴿اللَّهُ﴾ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾، ٣ - «الرسول» ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾، ٤ - الرسول ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ﴾، ٥ - الرسول ﴿لِصَاحِبِهِ﴾، ٦ - ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ثم وهذه التالية هي قاعدة علياً من نصرته ﷺ: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، ٧ - صاحبه، إذا فـ ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ٨ - تعني أيضاً صاحبه، وكذلك الأمر فيما يتلوه كـ ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ المتمثلة في صاحبه دونه!.

ذلك، رغم أن مادة النصرة الربانية هنا، المعنية من ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ هي السكينة النازلة عليه ﷺ فوق سكينة تكريماً لموقفه المشرف من عدم تخوفه وحزنه وهو المدار في ذلك الفرار!.

فقد نصره الله أولاً بالعصمة الرسالية، ثم كمل نصرته بهذه السكينة عصمة على عصمته، نصرة ذات بعدين اثنين بعيدة عن كل انهزامه في حقل الدعوة الرسالية.

ذلك ومن واجهة أخرى قد تعني ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ كافة المتثاقلين عن نصرته على مدار الزمن الرسالي، فأنتم أنتم الخاسرون دونه ﷺ ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ صيانة على نفسه ورسالته القدسية ودعوته المترامية الأطراف به وبقرآنه المبين وتبيانه المتين.

ومن نصرته والمؤمنين ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1] و﴿لَقَدْ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾(١) ومن أخريات هذه النصرة المتتالية المتمادية ما كان بفتح مكة ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾(٢).

ومن ثم ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ﴾ حيث سفلت حيلتهم بحقه، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ حيث علت بهجرته ثم غلت بفتح العاصمة بعد ردح من هذه الهجرة الهاجرة.

ولننظر هنا إلى ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ في عرف القرآن على من تنزل كأصل، ثم من فضل الأصل على من؟.

هنا نجد حين يقرن المؤمنون بالرسول ﷺ تشملهم السكينة على هامش الرسول ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) وهم الذين ظلموا مع الرسول ﷺ وما قلوا، من هؤلاء الثمانين بين اثني عشر ألفاً أو يزيدون، فكما هنا تختص السكينة بالمؤمنين الثابتين دون المنهزمين الهابطين، علّها كذلك هنا لا تنزل على صاحبه المؤمن إذ لم يكن له ثابت الإيمان الذي يحق له إنزال السكينة، فإنما نزلت السكينة الرسالية على الرسول ﷺ على سكينته الرسولية الدائبة وهي العصمة.

فهنا للرسول سكينة يعيشها قضية العصمة الرسولية، ثم سكينة تنزل عليه مزيداً لتلك العصمة، كما للمؤمنين القلة سكينة الإيمان، العائشين معها باطمئنان، ثم تنزل عليهم السكينة ليزدادوا إيماناً على إيمانهم.

هذه سكينة مزيد العصمة على عصمته ﷺ وهي النصرة الربانية البارزة للرسول ﷺ حصيلة للمواقف الثلاثة الأولى، وهي قلب مسبّع النصرة ومن حصائلها المخلفة عنها بعد ما هي مخلفة عن الثلاثة الأولى ثلاثة أخرى هي

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٣.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٦.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾.

فقد أيده في مواقف عدة بجنود لم تروها، إذ أخرجه الذين كفروا إذ هما في النار، وإذ يقول لصاحبه لا تحزن، وإذ دخل المدينة حيث أيده في حروب كبدر وحنين وما أشبه، ثم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ مهما حاولوا أن يجعلوه العليا، وكلمة الله هي العليا، مهما حاولوا أن يجعلوه السفلى، وهنا كلمة الله هي كلمة الرسالة القدسية المحمدية ﷺ الحاملة لكلمات الله التامة الطامة.

فترى بعد أن نصرة من هذه السبع فضلاً عن قلب النصرة وعمادها تختص بصاحبه في الغار؟ ولا شأن له إلّا شائن الحزن الخطر على صاحب الرسالة لحد اعتبر نهيه عنه بما نهاه الله إلى تخفيفه عن حزنه نصرة له في حق ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ فالنصرة الربانية الخفية يظاهر الحال في العهد المكي أخذت تنمو وتظهر زاهرة باهرة منذ هجرته ﷺ إلى أن توفاه الله وإلى يوم القيامة الكبرى.

إذاً فرجوع ضمير الغائب في «عليه» إليه ﷺ مقطوع أدبياً ومعنوياً من جهات عدة لا ينكرها ولا واحدة منها إلا معاند متعصب يريد ليحمل رأيه مذهبيا على نص القرآن!.

ذلك ثم في الفتح ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) وذلك حيث ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(٢).

وقد يفرد المؤمنون بالسكينة حيث يفردون عن الرسول ﷺ ذكراً، وهم

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الفتح، الآية: ١٨.

معه إيماناً، ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾(١) وهي لا تليق بساحة الرسول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾(٢) - ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

ثم هنا - ولمرة يتيمة - نجد اختصاص الرسول ﷺ بالسكينة، ومعه صاحبه الحزين في الغار، وهو أحوج إلى السكينة، وقد ذكر معه مرات ثلاث، فسكينة المؤمنين ليزدادوا إيماناً على إيمانهم إكراماً لإيمانهم بجدارته، وسكينة الرسول ليزداد عصمة على عصمته إكراماً لطمأنته، وأما صاحبه في الغار فلا سكينة تنزل عليه لا رسولياً ولا إيمانياً إذ لم تكن له سكينة إيمانية تربطه عن حزنه الحزين المهتاج، المحتاج إلى ذلك النهي المكين.

فهنا التساءل، لماذا لم تشمله السكينة النازلة على الرسول ﷺ وهو المحتاج في حزنه إليها دون الرسول ﷺ؟ إنه لزعزته هو دون الرسول الذي نهاه عنها وطمأنه.

ألأنه - على حزنه - لا يحتاج إلى السكينة والرسول على طمأنته يحتاجها؟

فهو - إذاً - أغنى من الرسول ﷺ على حاجته إليها!.

أم هو كما الرسول ﷺ وعلى مستواه في الحاجة إليها؟ فلماذا لم تشمله معه!.

أم هو دون الرسول ﷺ - وهو طبيعة الحال لكل من هو مع الرسول -؟ فإذا كان مؤمناً ما كنا فلتشمله السكينة كما شملت سائر المؤمنين مع الرسول ﷺ! وما قولة القائل إنما السكينة نزلت على أبي بكر حيث كان

(١) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٤.

يحتاجها دون الرسول ﷺ إذ لم يكن يحتاجها، ما هي إلا غائلة مائلة على قول اللّه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) ولم يكن يحتاجها إلا «المؤمنين» ثم الرسول ﷺ على رسالته هو بحاجة إلى سكينته الرسولية طول حياته، ثم وما هو الفارق بين مسرح الغار والحديبية حيث هما خطران على الطرفين، والغار أخطر على النبي ﷺ فلتنزل عليه السكينة فيها بأحرى وأجدر، وإذ لا جدارة لصاحبه في الغار، وكانت للمؤمنين في حنين وفتح مكة، فلتنزل السكينة عليهم فيها دون صاحبه في الغار!.

وحين نتخطى هذه الثلاث فهل يبقى إلا أنه على إيمانه لم يكن بتلك الجدارة الإيمانية التي تنزّل السكينة على صاحبه، فضلاً عن السكينة الرسالية، فقد علم ما في قلوب المؤمنين معه ﷺ فأنزل السكينة عليهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وعلم ما في قلب صاحبه ﷺ في الغار، فلم ينزل سكينة عليه لمكان حزنه الحزين الدال على ضعف في إيمانه!.

فقد كان مؤمناً حينذاك - لأكثر تقدير - ولكنه لمّا يصل إلى جدارة إيمانية تؤهله لنزول السكينة عليه مع الرسول ﷺ أو بعده.

فهل إن في آية الغار - بعد - افتخار لصاحب الغار، أم هي عليه عار في انتحار لأصل إيمانه - إذاً - أم لجدارة الإيمان ظرفاً للسكينة؟! ولو أننا اختصصنا السكينة به في الغار تغاضياً عن نص الآية، لما كان لصاحب الغار - بعد - مكسب من صحبة الرسول ﷺ في الغار.

فآية الغار هي خير مسؤول للإجابة عن موقف صاحب الغار، كما وآية المبيت هي خير مقرر لموقف الإمام علي عليه السلام في تضحيته العالية الغالية عن الرسول ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٦.

رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1] وترى بعد أن الحضور عند الرسول ﷺ بأمان أحضر في حذمته، أم الحضور في فراشه الخطير بغيابه؟[2].

ذلك، وإلى نظرة أخرى في مقاطع الآية لنكون على بصيرة أكثر من مغزاها: ترى ولماذا كان صاحبه حزيناً؟ أإشفاقاً على النبي ﷺ فلماذا نهاه وهو معروف لصالح الإيمان! ثم كيف يحزن هو دونه ﷺ إن كان حزنه على ناجم الخطر وقد ضمن الله خلاصة عن بأس المشركين بما أخرجه هكذا وأخرجهم حائرين.

ونرى البائت على فراشه في هاجم الخطر لا يلمح منه أي حزن إلّا صلابة وطمأنينة، ثم نرى صاحبه في الغار يحزن في ناجم الخطر وهو مأمون بما أمنهما الله!.

وحين يقال لعلي عليه السلام: أين كنت حيث ذكر الله أبا بكر فقال: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ فقال: ويلك كنت على فراش رسول الله ﷺ وقد طرح علي ريطته فأقبل قريش مع كل رجل منهم هراوة فيها شوكتها فلم يبصروا رسول الله ﷺ فأقبلوا علي يضربوني حتى ينفط جسدي وأوثقوني بالحديد وجعلوني في بيت واستوثقوا الباب بقفل...

وترى فراش رسول الله ﷺ كان أخطر أم الغار؟ طبعاً هو الفراش، وإلا فلماذا الفرار منه إلى الغار، فقد كان موقف علي عليه السلام من الرسول ﷺ موقف التضحية بنفسه عنه ولا أمان فيه ولم يحزن، وموقف أبي بكر هو موقف الأمان وقد حزن!.

ومما ينص على صاحبه ﷺ في الغار أنه ما كسب فضيلة أم قد كسب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(٢) البحار ١٩: ٧٦ يج روي أن ابن الكوا قال لعلي عليه السلام:...

رذيلة ما تواتر عنه ﷺ من قوله له في قصة إعلان البراءة حين يسأله ﷺ أما أهلتني: «كيف تبلغ عن وأنت صاحبي في الغار»[1] فلو كانت صحبته في الغار منقبة فلتخلّف منقبة رسالية في إبلاغ البراءة، ولكن حزنه إذ هما في الغار كان دليلاً على نقصان إيمانه وخوفه فيما لا خوف فيه، فكيف يؤمن على بلاغ رسالته في جو الإشراك المخيف؟.

وهنا نتساءل: هل إن من لا يصلح لحمل رسالة وخلافة جزئية زمن الرسول ﷺ يصلح لحمل خلافة هذه الرسالة بعده ﷺ؟.

وترى بعد ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ...﴾ تنديد بكافة المؤمنين بمن فيهم علي أمير المؤمنين عليه السلام وسائر فضلاء الصحابة، وتمجيد بصاحب الغار؟ و﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ تختص نصرته في الغار بالله!.

وهذا الخطاب العتاب يختص بمن ترك نصرته ﷺ من البسطاء والذين في قلوبهم مرض، دون وسطاء الإيمان فضلاً عن فضلائهم، وقد تدل آيات تالية في بضع عشرة أن المعنيين بهذه الخطابات هم أولاء الأنكاد الموصوفين بالنفاق وعدم الإيمان، فحتى البسطاء القصر هم خارجون عنهم فضلاً عن سائر المؤمنين وسطاء وفضلاء! فقد قال الله عن فضلاءهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

ولئن كان من شيء فقد يشمل هذا الخطاب أبا بكر نفسه مع سائر المؤمنين، إذ لم يستثن من ذلك الخطاب العام، وإنما استثني في موقف الغار عن صالحي المؤمنين الجديرين بنزول السكينة عليهم، فالروايات

(١) هذه وأمثالها من حجج داحضة واهية أوردها الفخر الرازي في تفسيره نصراً لصاحب الغار!.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

الواردة بهذه المنقبة المتميزة لصاحب الغار مختلقة تعارض الآية بصدرها وذيلها، أم متواطئة من أنصار صاحب الغار[١].

أم وترى هذه الصحبة الصاخبة في الغار له ﷺ نصرة، وليس المبيت على فراشه ﷺ له نصرة؟ ثم ولا تعني ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ تحليق السلب على كافة المؤمنين ومنهم أصفياء أتقياء هم كانوا له أنصاراً في كافة المواقف كما يمدحهم الله في مواطن كثيرة.

وهل إن جهادهم معه ﷺ في سبيل الله قاتلين ومقتولين بجنبه ليس نصرة له، والاسترواح معه في أمن الغار إلى الهجرة الهاجرة عن بأس المشركين هو له نصرة.

وهل إن الإيمان به قبل كل المؤمنين كما كان لعلي عليه السلام ليس له نصرة، ثم الأمن معه في الغار له نصرة، وقد تواتر الأثر عن أهليه المعصومين عليهم السلام وسواهم أنه أوّل من آمن كما عنه عليه السلام نفسه: «لم يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق» (الكلام - ١٣٩).

وانه عليه السلام هو صاحبه بحق الصحبة الصالحة الصادقة.

فهنا صاحبان لرسول الله ﷺ: صاحبه في الغار حالة الفرار، وصاحبه القارّ الكرار غير الفرّار، وأين صاحب من صاحب؟!.

ولقد تواتر عن النبي ﷺ في وصف صاحبه الحق الحقيق بحق صحبته الرسولية والرسالية قوله: «علي صاحب رايتي»[٢] و«صاحب لوائي»[٣]

---

(١) منها ما افتروه على علي عليه السلام كما في الدر المنثور ٣: ٢٤١ - أخرج خيثمة بن سليمان الاطرابلسي في فضائل الصحابة وابن عساكر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر فقال ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ...﴾ [التوبة: ٤٠] وروى مثله عن سفيان بن عيينة والحسن.

(٢) ملحقات إحقاق الحق ٤: ١٦٦، ١٦٨، ٣٦٣.

(٣) المصدر ٤: ١٦٩ - ١٧٠، ٢٢٧، ٢٦٥، ٢٦٩، ٣٦٧ و٦: ٥٤، ٥٨٨ و٧: ٣٨٤ و١٥: ٥٤٦ ٥٥١ و٢٠: ٣١٩ - ٣٢٢، ٢٢٦، ٢٧٣، ٣٣٢، ٣٠٩، ٣١١، ٤٠٧.

و«صاحبي»[(١)] و«صاحب حوضي»[(٢)] ولكل بني صاحب سر وصاحب سري علي[(٣)].

ذلك، كما وهو «الصديق الأكبر» على لسان النبي ﷺ فيما تواتر عنه[(٤)].

ذلك، وإنما هي نصرة ربانية منقطعة النظير عن كل نصرة بشرية حتى من المؤمنين ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ فمحور الخطر لا يحزن والحائر حوله ﷺ الآمن في ظله يحزن، فهل إن حزنه المحظور أم تركه نصرة له ﷺ منه وهو منصور بالسكينة الربانية أولاً، ثم بها مزيدة عليها ثانياً، أم إن اختصاصه ﷺ بالسكينة وحرمان صاحبه في الغار عنها نصرة منه له ﷺ؟! وهو عليه كسرة وحسرة، وللرسول ﷺ منهاة حيث ينهاه ﴿لَا تَحْزَنْ﴾.

وأما ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ حيث يتمسك بها بمعية الله إياهما المشتركة بينهما، إنها بطبيعة الحال معية الرحمة الخاصة؟ فموقف الغار يفسر هذه المعية أنها تعني معية الحفاظ على نفسيهما عن القتل، وكل الأحياء مشتركون معهما في هذه المعية، وإن كانت معية الرسول ﷺ متميزة عن سائر المعيات، كما ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[(٥)] تشمل

---

(١) المصدر ٤: ١٧١ - ١٧٧، ٢٩٧، ٣٤٢، ٣٦٣ و١٥: ١٦٩، ٣٤٨.

(٢) المصدر ٤: ١٠١، ١٧٠، ٢٧٠ - و١٥: ٣٠٩ و٢٠: ٣٠٨ - ٣٠٩، ٤٠٧ و٤: ٢٧٧ و٢٠: ٢٣٠.

(٣) المصدر ٤: ٢٢٦ و١٥: ٢٢٦ - ٢٢٧ و٢٠: ٣١٢ - ٣١٣.

(٤) المصدر ٤: ٢٦ - ٣٥، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٧، ٢٨٤، ٣٣١، ٣٤١، ٣٤٦، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٨٦ و٦: ١٦٠ و٧: ١٣١ و١٥: ٢٨١، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٠٠، ٤٨٩، ٥١٢ و١٦: ٥١٤ و٢٠: ٢٢٤، ٢٢٧ - ٢٢٩، ٢٥٩ - ٢٦٣، ٢٩٨، ٣٣٣، ٣٤٠، ٣٧٤ - ٣٧٩، ٤٥٤ - ٤٥٥، ٤٥٩، ٤٦٦، ٤٧٢.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.

عامة المعية لكل الخليقة علماً وقدرة وقيومية رحمانية ورحيمية، رغم أن الخلق درجات في هذه المعيات الربانية.

فالمعية الربانية لغير المؤمنين هي الرحمانية العامة، وهي للمؤمنين على درجاتهم معيات رحيمية على درجاتها ولا يظلمون فتيلاً، ثم المعية الحفيظة على الأنفس، الشاملة للكلّ مؤمنين وسواهم، لا تعني مساواتهم فيها كرامة، فإن إبقاءه تعالى على الظالمين إملاء هي مهانة: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1] وهي مع خالص المؤمنين كرامة خاصة كـ «إنني معكما اسمع داري».

فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ لا يعني إلا أصل المعية الرحمانية المشتركة واقعياً بينهما، أو والرحيمية الرسالية للرسول ﷺ وأخرى كما تناسب صاحبة في الغار، وقد لحقه الرسول ﷺ في هذه المعية ليعلم أنه محافظ عليه تحت ظله برعاية الله الخاصة به فلماذا - إذاً - يحزن؟.

هذا ومسارح هذه النصرة الربانية مبينة من مصارح الآية كالتالية:

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ حيث خرج بخارقة العادة الربانية، وستر على باب الغار بسترة العنكبوت حيث أنحوها إلى ما قبل ولاده ﷺ، ونكب من نكب فاحصاً عنه.

﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ حيث نصر حينذاك بسكينة ربانية غالية استمرت طيلة حياته الرسولية، وتستمر رسالته إلى يوم الدين.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وهي نصرة رابعة منه تعالى لجنابه ﷺ كقلب لما احتفت بها من نصرة، وقد تكون هذه السكينة المتميزة لمكان ﴿سَكِينَتَهُ﴾ هي هي النصرة الموعودة بـ ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ و«إذ» ثلاثاً دون عطف

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.

هي ظرف مواطئة مؤاتية لنزول هذه النصرة، كما وأن ﴿وَأَيَّدَهُۥ...﴾ من مخلفاتها، فهي هي بعد خاصة بصاحبه في الغار سلباً عنه النصرة الموعودة له!!!.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من ملائكة وما أشبه حيث فصلوا بينهم وبينه عند خروجه عن بيته وفي الغار وعند هجرته، وكذلك في حرب بدر وحنين والأحزاب وما أشبه.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ وهي كلمتهم الخبيثة بدار الندوة حيث أجمعوا على قتله باغتياله ليلاً في فراشه.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ على مدار الزمن دون حاجة إلى جعل، والرسول ﷺ «بقرآنه المبين وبرهانه المتين هو من كلمات الله العليا والله عزيز حكيم».

ذلك فلم يكسب صاحبه في الغار من تلك الصحبة فضيلة إن لم تكن عليه رذيلة، فإنه هو الذي لحقه ﷺ إلى الغار دون اختيار منه ﷺ ثم حزن لحد نهاه ﷺ عنه واحتسب ذلك النهي نصرة له وما هي له نصرة إلا إذا كان حزنه خطراً عليه، ثم أنز الله سكينة عليه ﷺ دون صاحبه وهو نصرة له ﷺ أخرى إيجابياً، ثم سلبياً أن صاحبه ما كان في حقل الإيمان بدرجة يليق أن تشمله السكينة الربانية وهو أحوج إليها منه ﷺ.

هذه مسارح سبعة لنصرته ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ دون انتصار فيها لصاحبه في الغار ولا افتخار اللّهم إلا عار فوق عار لمكان ﴿لَا تَحْزَنْ... فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾:

﴿ٱنفِرُوا۟﴾ لجهاد عدوكم حالكونكم ﴿خِفَافًا﴾ غير مثقلين بأهلين وأموال

وبنين ﴿وَثِقَـالًا﴾ بهم مثقلين، أو و﴿خِفَافًا﴾ يسهل لكم النفر لشبابكم وما أشبه ﴿وَثِقَـالًا﴾ يثقل لشيخوختكم وما أشبه، فعلى أية حال انفروا دون تثاقل إلى الأرض وأية عاذرة غادرة مما يبين أن لا عذر إطلاقاً عن ذلك الجهاد من خفة أو ثقل، اللّهم إلا الأعذار القاطعة، فقد كان ذلك استنفارا عاماً لا يستثنى منه.

﴿وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ التي تأخذونها معكم إلى جبهات القتال، والتي تقدمونها إليها ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ هي الأخرى المقدمة لها ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دون سواه، لغزوة الروم في تبوك أما أشبهها ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تثاقلكم إلى الأرض رضى بالحياة الدنيا من الآخرة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما أعد الله لكم من خير في الدارين.

هذا، وذلك استنفار منقطع النظير من هذا البشير النذير لحرب منقطعة النظير، وفي جو مظلم من الدعايات المضللة ضدها، المثقلة إلى الأرض فيها.

فهنا ﴿خِفَافًا وَثِقَـالًا﴾ حالان تشملان كافة الأحوال لكل المسلمين حينذاك، قطعاً لكل المعاذير غير العاذرة، فـ ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ تستنفر كل الأموال والأنفس، من جامع بينهما في ذلك الجهاد، ومن معذور في أحدهما، فرضاً عليه الجهاد بالآخر، حضوراً في المعركة بهما كليهما، أم بأموالكم إن لم تقدروا بأنفسكم، أم بأنفسكم إن لم تكن لكم أموال، استقطاباً لكافة الطاقات والإمكانيات في ذلك الاستنفار العام لكافة القوات الإسلامية عن بكرتها.

أجل ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا﴾: ناشطين - قليلي العيال، خفافاً من السلاح، مشاة، شيوخاً، شباباً - ومهازيل ومراضاً أما أشبه ﴿وَثِقَـالًا﴾ يقابلها: شاقة عليكم، ثقيلي العيال، ثقيلي السلاح، ركباناً، شيوخاً وسماناً وصحاحاً.

وقد قدمت ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ تأكيداً على النفر، أو كان النفير الخفاف متقدمين كما ﴿رِجَالًا﴾ في الحج على ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾ تشجيعاً للاتجاه إلى المفروض وكأنه على الضعفاء قبل الأقوياء.

إذاً ف ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ تعم الجميع نفراً في كل حال دون التماس حجج ومعاذير أو خضوع للعوائق والتعلات، وكما عن ابن أم مكتوم انه قال لرسول الله ﷺ أعلي أن أنفر؟ قال: ما أنت إلا خفيف أو ثقيل - فرجع إلى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه فنزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾(١) (٢).

وقد خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل صاحب ضرر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل فإن عجزت عن الجهاد كثّرت السواد وحفظت المتاع(٣).

---

(١) سورة النور، الآية: ٦١.

(٢) تفسير الفخر الرازي ١٦ : ٧٠ وفيه قال مجاهد: إن أبا أيوب شهد بدراً مع الرسول ﷺ ولم يتخلف عن غزوات المسلمين ويقول قال الله : ﴿ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبَة: ٤١] فلا أحدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً، وعن صفوان بن عمرو قال: كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، قلت يا عم أنت معذور عند الله، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، ألا إن من أحبه ابتلاه.

(٣) المصدر عن الزهري: خرج.. وفيه قيل للمقداد بن الأسود وهو يريد الغزو: أنت معذور، فقال: أنزل الله علينا في سورة براءة: انفروا خفافاً وثقالاً. وفي تفسير «في ظلال» ٤ : ٢٢٦ : قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشبانا جهزوني يا نبي، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك، فأبي فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه بها، وفيه روى ابن جرير بإسناده عن أبي راشد الحراني قال: وافيت المقداد ابن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: «أتت علينا سورة البعوث» أقول: وهي من أسماء هذه السورة.

ذلك، ولأن الآية في موقف الاستنفار العام فلا تنسخ ولا تنسخها آيات العذر من عمى وما أشبه، فلكلّ دور يخصه دونما تناسخ.

ذلك، والروايات المروية عن النبي ﷺ بحق الجهاد والمجاهدين تبلغ مثات ومئات وإليكم عناوين منها: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا»، و«أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»، و«الجهاد أفضل العمل»، و«غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»، «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله»، «لا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة»، «المجاهد في سبيل الله حق على الله عونه» و. . [1].

أترى الإسلام يأمر أو يسمح بقتال من لا يقاتلنا ولا يضارنا بشيء؟

كلّا فإن قتال من لا يعتدي اعتداء محظور كضابطة: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2] وليس الاعتداء في حقل القتال بالذي يقبل النسخ حتى يظن نسخ الآية بما يظن، وأما ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] فقد تعني قتال المفتتنين على المؤمنين والمستضعفين، سواء أكانت فتنة نفسية أم عقيدية أماهيه من فتن مدمرة مزمجرة.

ففيما يقول الله ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[4] فقد يعني ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ كما في سابقتها، وأحيان يقول: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ فالمفاعلة تعني مادة الفعل المتداول بين طرفيه، فلا تعني إلا قتال الذين يقاتلوننا أم هم يريدون قتالنا فندافع إذا عن أنفسنا.

---

(١) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن عشرات من كتب السنة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

وليس المعني من الفتنة التي لأجلها يسمح في قتال الفاتنين، إلا الأخطار المتجاوزة من أهليها، وأما هؤلاء الكفار الذين لا يفتنون المؤمنين ولا سائر المستضعفين فلا أمر ولا سماح لقتالهم أبداً.

فالقتال الإسلامي هو فقط قتال كافّة، تكف بأس الذين كفروا ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

فالتقوى في القتال هي الاتقاء عنه في غير الكف والاعتداء بالمثل، كفاً عن فتنتهم واعتداء كما اعتدوا، ثم لا قتال بعد! وإنما ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[2].

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

العرض هو العارض الزائل دون أصالة ذاتية، فهو مقابل الذات الأصيلة: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾[3] ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[4] ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[5].

والعرض القريب هو السهل التناول، قرباً في زمان ومكان ومكانة دون أي بعد وأية صعوبة.

فـ ﴿لَوْ﴾ أن ذلك الجهاد ﴿كَانَ عَرَضًا﴾: غنيمة ﴿قَرِيبًا﴾: بمتناول أيديهم طمعاً فيه ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ قريباً سهلاً يسيراً فيه غنيمة وغلبة، لكان يقصد

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

بطبيعة الحال - فلا تعني «مقتصدا» حيث الأقل من المقتصد أقرب للإتباع، إنما ﴿قَاصِدًا﴾ يقصد وكأنه بنفسه يقصد، إذا ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ في جهاد العدو ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ في هذه السفرة إلى تبوك الروم شقة في المسافة وشقة في المصافة حيث شاع بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله ﷺ في عسكر عظيم، وأن هرقل قد سار في جنوده وجلب معهم غسان وجذام وبهراء وعاملة، وقد قدم عساكره البلقاء، ونزل هو حمص فأمر رسول الله ﷺ التهيؤ إلى تبوك..[1].

فهذه الشقة مسافة ومصافة خاوية عن عرض قريب ومرض غريب كانت تمنعهم عن هذه الغزوة، وهنا المندّد بهم هم جمع منهم لا كلهم أو كثير منهم لمكان: «سيحلفون بالله» إذا رجعتم إليهم: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا

(١) نور الثقلين ٢: ٢٢٢ عن تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢] يعني إلى تبوك وذلك أن رسول الله ﷺ لم يسافر سفراً أبعد منه ولا أشد منه وكان سبب ذلك أن الضيافة كانوا يقدمون المدينة من الشام معهم الدرموك والطعام وهم الأنباط فأشاعوا بالمدينة.. فأمر رسول الله ﷺ التهيؤ إلى تبوك وهي من بلاد البلقاء وبعث إلى القبائل حوله وإلى مكة وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة وحثهم على الجهاد وأمر رسول الله ﷺ بعسكره فضرب في ثنيته الوداع وأمر أهل الجدة أن يعينوا من لا قوة به ومن كان عنده شيء أخرجه وحملوا وقووا وحثوا على ذلك وخطب رسول الله ﷺ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس أن أصدق الحديث كتاب الله...

قال: فرغب الناس لما سمعوا هذا من رسول الله ﷺ وقدمت القبائل من العرب من استنفرهم وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم ولقى رسول الله ﷺ الجد بن قيس فقال له: يا با وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة لعلك أن تحتفد من بنات الأصفر؟ فقال: يا رسول الله ﷺ إن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشد عجباً بالنساء مني وأخاف أن خرجت معك أن لا أصبر إذ رأيت بنات الأصفر فلا تفتني وائذن لي أن أقيم، وقال لجماعة من قومه: لا تخرجوا في الحر، فقال ابنه: ترد على رسول الله ﷺ وتقول ما تقول ثم تقول لقومك: لا تنفروا في الحر والله لينزلن الله في هذا قرآناً يقرأه الناس إلى يوم القيامة فأنزل الله على رسوله في ذلك: ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني إلا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين، ثم قال الجد بن قيس: أيطمع محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم؟ لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً.

﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ فهم الذين في قلوبهم مرض من المنافقين وأضرابهم، و﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾(١) تعمهم دون صالحي المؤمنين المناصرين إياه على أية حال.

هؤلاء الهلكى الأنكاد ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ إعذاراً لا يقبل، وتخلفاً عن المفروض واستحقاقاً للعذاب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قالتهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وأمثالها(٢).

وهذه السلسلة من آيات الجهاد هي منقطعة النظير في مسارحه، إذ كانت غزوة تبوك هي من أشد الغزوات عليهم وأحدّها فيهم، حيث ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ كل البعد من جهات عدة تمنع هؤلاء عن تلك العدّة.

ولقد ركزت الآيات السورة منذ الثامنة والثلاثين حتى الأخيرة - وهي أكثر من ثلثي آياتها - ركزت على حث الجهاد والتنديد بالمتكاسلين عنه من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، مما يبين شدة وطأتهم وتواطئهم ضد الإسلام، وتباطئهم عن مشاركة الجهاد.

فهؤلاء هم المندّد بهم طيلة هذه الآيات ومنها «إلا تنصروه» دون كافة

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٢) نور الثقلين ٢: ٢١٢ في كتاب التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: أكذبهم الله عز وجل في قولهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] وقد كانوا مستطيعين للخروج، وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله في الآية، أنهم يستطيعون وقد كان في علم الله لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لفعلوا.
وفي الدر المنثور ٣: ٢٤٦ - أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل له: ألا تغزو بني الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟ فقال رجلان: قد علمت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن النساء فتنة فلا تفتنا بهن فائذن لنا فأذن لهما فلما انطلقا قال أحدهما إن هو الأشحمة لأول آكل فسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينزل عليه شيء في ذلك فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المياه ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا...﴾ [التوبة: ٤٢] ونزل عليه ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٤٣] ونزل عليه ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ...﴾ [التوبة: ٤٤] ونزل عليه ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ...﴾ [التوبة: ٩٥].

المؤمنين كما قد يزعمه أصحاب صاحب الغار، تبجيلاً لصاحبهم وتخجيلاً لسائر الأصحاب، فما أجهلهم في ذلك التفسير التعتير التعيير، إزراء بكافة المؤمنين بمن فيهم من أفاضلهم كالإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ومن أشبه.

ولأن شؤون نزول الآيات ليست لتحددها بحدودها السابقة، فهي - إذاً - مطلقة منطلقة - مطبقة على كافة الموارد المشابهة من الحروب القاصية العاصية، فكلما كان الخطر أعظم فالمسؤولية لدفعه أهم وأضخم على مدار الزمن الرسالي، دون اختصاص بالزمن الرسولي.

لذلك لا تجد في ذلك المسرح الطائل ولا لمحة لخصوص غزوة تبوك، مع العلم أن الله صرح بمسرح بدر وحنين والأحزاب وما أشبه، على أن هذه المصرح بها أيضاً ليست لتقف بخاصة مواقفها، حيث التاريخ يتجدد دونما وقفة أبداً، فلتجدّد المسؤوليات أمام حوادثها وكوارثها على طول الخط.

أجل و﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ معروضاً عليهم من قرب ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ يقصد لكل قاصد ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لمكان الأريحية القاصدة لهؤلاء المنافقين، وستراً على كفرهم كأنهم من الموافقين ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ الشقة الشاقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة وتتعاسر العزائم الهابطة.

فكثيرهم أولاء الذين يتهاوون في صاعد الطريق وسامقه إلى الآفاق الفائقة، ويميلون إلى تفاهة الأعراض الدانية الفانية، عائشين على هوامش الحياة وغوامشها: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وهم مستطيعون واقعياً، ولا يستطيعون بأعذار غادرة مائرة، كذب ماكر حاكر يدل على ضعف خامر، مهما خيّل إليهم أنهم أقوياء، كلا وانهم ضعفاء أغوياء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كما وأهل الله يعلمون.

لقد حاولوا ماكرين ليأذن لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليكونوا مع القاعدين

المعذورين فأذن لهم ظناً منه أنهم صادقون في اعتذارهم حسب المرسوم من تصديق ظاهر الاعتذار ممن يدعي ويبرز الإيمان، ولكنه كان عاجلاً فعفي الله عنه ﷺ:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

هنا يتساءل قائد القوات المسلحة الرسولي ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ...﴾ قرينا بـ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ دون أن تبرز توبة منه ﷺ واستعفاء، فهل هو بعد عصيان بقرينة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾؟ أم ليس عصياناً بنفس النص، حيث لم يقرن بتوبة؟.

قد تعني ﴿عَفَا﴾ دون «يعفو» عفواً سابقاً سابغاً على إذنه كما له سابقة في: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾(١) فإنه عفو عن حكم الصيام ليلاً أن الله نفى بما عفى حكم صيام الليل، فليس - إذاً - عفواً عن عصيان رفعا، وإنما هو عفو دفعاً، وكما الاستغفار والغفر حيث يجمعان الدفع إلى الرفع، فقد عفى الله عنه قبل إذنه إياه لذلك الإذن، ثم أنبه دون تأليب ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ وبيّن سبب التأنيب «حتى تعلم...» ولكنه تعالى عرفهم إياه فلم يكن - إذاً - إذنه عصياناً.

وما أحسنه تعبيراً أدبياً أديباً يحافظ على كرامة الرسول ﷺ أن يبدأ بالعفو قبل ظاهرة المعاتبة، مما يدل على أنها معاتبة ودية أدبية، دون أية معاقبة أم مسّ من كرامة العصمة.

كما وأن «حتى تعلم» تبيّن أن ذلك لم يكن محظوراً في أصله، وقد يتبين من آيات تالية أن في حضورهم محظوراً، إذ ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(١).

ومن عفوه تعالى عنه ﷺ أنه تعالى عرّفهم خلال هذه الآيات البينات، فاستأصل - إذاً - حظر إذنه لهم، حيث النتيجة من عدم إذنه حصلت بهذه الآيات، ونتيجة إذنه أنهم كانوا خبالاً وفتنة لو حضروا، فلا مبرر إذا لتكلّفات فارغة عن الحق المرام، وكأن «هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله تعالى بذلك نبيه وأراد به أمته»(٢) فمن ذا الذي أذن لهم من الأمة حتى يفسر ذلك الخطاب تأويلاً إليهم دونه؟!، وهو - فقط - قائد القوات المسلحة، وليس لأحد أن يأذن لأحد دون إذنه.

وغاية ما هنالك أنه ﷺ أذن عاجلاً دون تثبت، فلم يتبين له الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فإن لم يأذن كانوا يقعدون كما أذن، فكان يعرفهم أنهم كاذبون(٣).

ذلك، فلم يكن إذنه - إذاً - بإذن الله، مهما كان معذورا لم يكن في إذنه عاصياً لله، ولكنه كيف يتلائم إذنه هذا - إذاً - مع ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

---

(١) نور الثقلين ٢: ٢٢٣ في عيون الأخبار بإسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يا بن رسول الله ﷺ أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول الله عز وجل - إلى أن قال -: فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] قال الرضا عليه السلام: هذا مما نزل... كذلك قول الله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] قال: صدقت يا ابن رسول الله ﷺ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٤٧ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] قالوا: استاذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾[١] و﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٢] وأضرابهما من الحجج على عصمته الطليقة؟!.

إن الرسول ﷺ على عصمته الطليقة قد يطلقه الله تعالى فيفلت فلتة يسيرة، لكي يعلم وتعلم معه الأمة أنه ليس مكتفياً بنفسه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[٣].

وهكذا تفسر كافة المظاهر من تأنيبات الله رسوله ﷺ وسائر الرسل، أنها لصالح الرسالة، كيلا يزعم زاعمون أنه يقول ما يقول من عند نفسه، دون صدام بينها وبين عصمته الطليقة[٤].

وقد يجيب الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام عن سؤال الزنديق بحق هفوات الأنبياء بقوله: «وأما هفوات الأنبياء وما بينه الله في كتابه فإن ذلك من أدل الدلائل على حكمة الله عزّ وجلّ الباهرة وقدرته القاهرة وعزته الظاهرة، لأنه علم أن براهين الأنبياء تكبر في صدورهم، وأن منهم من يتخذ بعضهم إليها كالذي كان من النصارى في ابن مريم، فذكرها دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي تفرد به عزّ وجلّ، ألم تسمع إلى قوله في صفة عيسى عليه السلام حيث قال فيه وفي أمه»: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾[٥] يعني من أكل الطعام كان له ثفل ومن كان له ثفل فهو بعيد عما ادعته النصارى لابن مريم[٦].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.
(٤) الدر المنثور ٣: ٢٤٧ - أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن جرير عن عمرو بن ميمون الأودي قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء، إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فأنزل الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ...﴾ [التوبة: ٤٣].
(٥) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٦) بحار الأنوار ٩٠: ١١٢ باب رد المتناقض في القرآن.

ذلك، فليس ليفيض الله عصمته الخاصة الطليقة على أحد من عباده، والعصمة الرسالية لا تعني إلّا تلقياً رسالياً وبلاغاً وتطبيقاً رساليين، ومن البلاغ الرسالي تبيين أنهم ليسوا إلّا رسلاً لا يستقلون عن الله ولا يستغلون رسالة الله، فلا بد - إذاً - لهم من هفوات تدليلاً على قصوراتهم الذاتية، ثم الله يبينها لذلك ولكي لا يبقى نقص في شرعته.

فلو أن الله عصمهم كما هو لضل كثير رغماً أنهم آلهة، ولو أنه لم يبين قصورهم الذاتي لم يتبينوا أنهم ليسوا بآلهة، ولا ما هو الحق فيما قصروا.

إذاً فهفوات النبيين فيما دون العصيان هي ضرورات ذوات أبعاد.

فكما أن قضية الحكمة الربانية أن يعصم رسوله بعصمة طليقة، كذلك الحكمة من واجهة أخرى حفاظاً على الرسالة من الغلو فيها أن يطلقه الله طرفة بعد طرفة، ثم يمسكه على طول الخط وفي كل طرفة، تدليلاً على ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾[1] وليس فيه تضليل للأمم حيث يبين الله لهم موارد هفواتهم، وأنها ما كانت عصياناً له تعالى إلا خطأً قاصراً دون تقصير.

ذلك وكما أبطأ عنه الوحي ردحاً حتى ظن ظانون أن ربه ودّعه وقلاه فنزلت: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾[2] فكما الضحى صالحة للحياة، كذلك الليل إذا سجى، وهكذا سجى ليل انقطاع الوحي، كضحى الوحي، هما صالحان لهذه الرسالة، مهما اختلفت صورة عن صورة، حيث السيرة واحدة تعني تبني هذه الرسالة السامية ألّا يظن بالرسول أنه يملك وحي الله، أو أنه يصدر بوحي من عقليته البشرية.

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٨٦، ٨٧.
(٢) سورة الضحى، الآيات: ١-٣.

كما وأن ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(١) نموذج آخر من هذه الحائطة، فرغم أن التلاوة وخط الكتاب هما من الفضائل، قد يصبحان خارجة عنها إلى الرذائل، حيث ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

وبعد كل ذلك فقد كان الرسول ﷺ مأذونا أن يأذن لمن شاء من المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

فظاهر إقرار هؤلاء المنافقين من ناحية، وظاهرة الاستئذان - وهي حسب هذه الآية إمارة أخرى على الإيمان - من أخرى، قد سمحت له أن يأذن لهؤلاء بمجرد استئذانهم، دون أن يعرف كذبهم حتى عرّفهم الله إياه.

فلما لم يكن الصادق بينا له عن الكاذب، فهل له أن يحملهم دون معرفة على الكذب؟ كلّا! ولكن الحائطة في ذلك المسرح الخطير كانت تقتضي أن يؤجل إذنهم نظرة تبيّنه، وقد كفى الله أمره أن عرّفهم إياه فعرفهم في هذه الإذاعة القرآنية.

إذاً ف ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بعد ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ وقبل ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ قصاراه التأنيب بما لا ينبغي وهو في نفسه غير محظور، أم إن إذنهم بين محظور ومحبور، محظور إذا لم يتبين كذبهم، ومحبور إذ ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ولكنهم ما كانوا يخرجون وإن لم يأذن لهم، ثم الله بين له ﷺ كذبهم فلم يبق في البين محظور، ولا سيما أن عدم إعدادهم عدة هو من

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.
(٢) سورة النور، الآية: ٦٢.

ملامح كذبهم: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[(١)] إذا فـ «حتى تعلم» كان حاصلاً دون تمام بعدم إعدادهم عدة، ولم يخسر هنا إلا تمام العلم بكذبهم، وقد جبر الله كسره بما أخبره.

ذلك، إضافة إلى أنه كان يعرفهم في لحن القول: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[(٢)] ومنه هنا ﴿ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[(٣)] وسائر قالهم القال الغائل.

ذلك، ومن لطيف جبر الكسر - في إذنه - من الله، أنه تكفل فضحهم بعلامات كذبهم ودلالاته في ثلثي آيات السورة، أو ليس بيان الله بعد إذنه أبين من تبيّنه إن لم يأذن لهم؟!.

وبعد ذلك كله فلم يثبت بعد أنه ﷺ أتى بمحظور، فإن إذن قائد القوات لمن يستأذنه للقعود ليس في أصله محظوراً، بل هو محبور لأصل السماح الرباني: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾[(٤)] وظاهر صدقهم لمكان الإسلام ومكانته، دون واجب اتهامهم أو راجحه لكيلا يأذن لهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

وليس ذلك التبيّن واجباً أصلياً لا يجبر، بل هو راجح رسالي وقد أجبر بنفس استئذانهم، ولحن القوم منهم، وببيان الله عنهم، فلم يفت منه شيء بذلك الإذن، بل هو من ضمن البلاغ الرسالي بإذن الله حتى يعلم قصورة الذاتي، وأنه ليس إلهاً كما زعمته النصارى في المسيح عليه السلام.

وفي الآيات التالية يبين الله له كيان الاستئذان في الجهاد أن ليس إلا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٦.
(٢) سورة محمد، الآية: ٣٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٩.
(٤) سورة النور، الآية: ٦٢.

من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون.

كلام حول العصمة:

العصمة بين طليقة ذاتية وعرضية، فالأولى خاصة بالله لا تعدوه إلى سواه، ثم العرضية بين رسالية لرسل أم سائر المعصومين عليهم السلام، وهي محدودة بقضية الرسالة تلقياً للوحي وبلاغاً وتطبيقاً فردياً وجماعياً، ولا تحصل إلّا في ظرف العصمة البشرية وما أشبه، وهي درجات حسب درجات الرسالات، وليست على أية حال طليقة، وإنما هي في خط البلاغ الرسالي السليم.

ثم عصمة بشرية ليست من محطات العصمة الربانية وتسمى العدالة وهي أيضاً درجات. والعصمة البشرية التي هي محطة الرسالة لا بد وأن تحصل بجهاد متواصل من صاحبها مهما صاحبها تأييد رباني من قبل ومن بعد، ويعبر عنه بالاصطفاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[2] ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[3] فهذه وما أشبه هي للرسل، ثم لخلفاء معصومين لهم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾[4] أم غير خلفاء: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] أم في حقل الملكية غير الرسالية: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[6]، وهكذا الاجتباء: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[7] ككل، وفي إبراهيم: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[8] وفي

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
(٨) سورة النحل، الآية: ١٢١.

آدم: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[(١)] وفي يونس ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[(٢)] وفي يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[(٣)]، وفي الرسل الإبراهيميين: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٤)] وعلى أية حال فـ ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[(٥)].

وكلٌّ من الاصطفاء والاجتباء يعني طلب الأصفى والأجبى، فلا بد من صفاء أصفى وجباء أجبى حتى يصطفي الله ويجتبي.

وترى كيف يصطفي ويجتبي مثل يحيى الذي ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[(٦)] إنه يصطفيه لما يعلم أنه سوف يقوم بصالح الجدارة لبلاغ الرسالة، فهو الذي يصنع الرسل لحمل أمانات وحيه وبلاغ رسالاته بما يعلم فيهم من جدارات سابغة، سابقة أو لاحقة.

فقد قال في موسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي... وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[(٧)].

فقد صنعه الله علي عينه منذ حمله وولاده ورضاعه ليأهل لحمل رسالته، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾[(٨)] بما جاهدت واجتهدت وجرّبت وجرّبت ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ هكذا، بين جهاد منك وتأييد من ربك.

فرسل الله عليهم السلام هم صنائع الله ولكن دون فوضى جزاف وترجيح دون مرجح، فقد يحملهم من تكاليف الدعوة ومشاق الدعاية ما يصلح لمحتدهم الرسالي.

والقول أن صناعتهم من الله هي التي تقدمهم على من سواهم، فما هي الرجاجة لهم على من سواهم؟ مردود بأن الله إنما يشاء في كل دور من

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة القلم، الآية: ٥٠.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٧.
(٥) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٦) سورة مريم، الآية: ١٢.
(٧) سورة طه، الآيتان: ٣٩ و٤٠.
(٨) سورة طه، الآية: ٤٠.

الأدوار الرسالية أن يصنع رسول أم رسل، فلا يصلح أن يصنع هكذا كلّ الخليقة، فإنما يصطفي من يعلم جدارته وهو يتحمل ما يحمّل من رسالته.

فلا ترجيح - إذاً - دون مرجح، بل هو ترجيح بمرجح، ثم الله يصنع المترجح في علمه كما يصلح لحمل رسالته، وبصورة عامة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١): فقد يصطفي من هو بالفعل أصفي وهو يبقى أصفى كرسول الهدى محمد ﷺ وأضرابه، أم يصطفى من يعلم أنه سوف يكون أصفى فيصفّيه الله لحد يصلح لحمل رسالته تعالى، وهما مشركان في واجب حمل الرسالة بكل جدارة معنية دون تفلّت عنها ولا تلفت إلى غيرها.

ومما يختص بالله تعالى فيهم أن يصطفيهم من أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة لم تنجسهم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسهم من مدلهمات ثيابها.

ذلك، وحصيلة البحث حول العصمة الرسالية، أن تحصّل الحالة اللابقة اللائقة لحمل رسالة الله لا بد له من تحصيل، إما إلهي فقط؟ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى! أم خلقي فقط؟ وهو خارج عن مقدوره إذا عنت كل أبعادها، فلتكن أمراً بين أمرين أن يصطفي الله من يعلم أنه سوف يحمل كل أعباء رسالته دون إبقاء، ثم هو يؤيده قبل رسالته وعندها وبعدها، حيث العصمة البشرية لا تكفي بمفردها عصمة عن الأخطاء، ومن تأييده تعبئة الرسل منذ ولادهم حتى نزول الوحي إليهم، وهم على طول الخط مجتهدون قمة جهدهم وغاية سعيهم ووسعهم.

فالشروط التي تهيئ لنزول الوحي ليست كلها مختارة لأي إنسان، فلا بد في الخارجة عن الإختيار من صنع رباني يصيّر إلى صالح الوحي الرسالي وليس ليسيّر، كما وليست مسيرة كلها، فأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فالرسالة بمقدماتها وأصلها وبلاغها هي أمر بين أمرين من صنع رباني فيما

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

لا صنع لغيره فيه، وصنع إنساني هو بين رحمة ربانية وجدارة إنسانية، فليست الرسالة إذا لرسل الله ترجيحاً دون مرجح.

وأما لماذا صنع الله الاستعداد للحصول على جدارة الرسالة لبعض دون بعض، فأرسل بعضاً إلى آخرين؟ فذلك قضية الابتلاء والامتحان: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

فلو أنه خلقهم درجة واحدة وصنعهم كما يصنع الرسل لبطل الامتحان، ثم وليس الكل يتماشون مع ما خلق الله لهم من إعداد الخير لو لا الإجبار، فما دام الإختيار لا يصبحون في درجة واحدة من الجدارة مهما خلقوا في درجة واحدة من الإعداد والاستعداد ذلك، والامتحان في توفر المعدات للوصول إلى الكمال القمة أعلى من عدمه، فلو أن الناس استووا في تلك المعدات القمة لم يكونوا ليستووا في جدارة نزول الوحي إليهم اللّهم إلا خروجاً عن الإختيار، وفي ذلك بطلان الاختبار والتكليف.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

ضابطة ثابتة لا تخطئ، فالذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا ينتظرون الإذن في أداء فريضة الله بعد ما أمرهم الله وأكد لهم، فهم لا يتلكأون في تلبية داعي الله نفراً في سبيل الله، بل هم سراع إليها خفافاً وثقالا طاعة لأمره ويقيناً بلقائه وابتغاء مرضاته دونما حاجة إلى حثّ بعد ما حثهم الله فضلاً عن الاستئذان.

أفبعد أمر الله المؤكد بالجهاد بالأموال والأنفس يستأذن رسول الله في

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

ذلك الجهاد، فضلاً عن استئذانه في تركه، إذا فمجرد استئذانهم للقعود قعود لهم عن الإيمان حين يكون الاستئذان للجهاد يشي بعدم الإيمان ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ إياه، والطاغين دون حاجة إلى استئذان منهم وعدم استئذان، فإنما ذلك البيان إعلان للرسول والذين معه ليعرفوا المنافقين في لحن القول.

ولقد كان أكابر المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي ﷺ في الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد أخرى، فلماذا - إذاً - الاستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول ﷺ بالقعود لشق عليهم، فترى علياً عليه السلام لما يأمره الرسول ﷺ بأن يبقى في المدينة يشق ذلك عليه حتى يقول رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى.

والاستئذان المنفي هنا لا يختص بالقعود، بل هو الظاهر في الخروج، مما يرجح أن جماعة منهم استأذنوه للخروج فأذن لهم، كما وأن ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾[1] هو من آخرين استأذنوه للبقاء، فقد يصح حمل ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ على الأمرين، إذن في الخروج وإذن في البقاء، والجهاد في سبيل الله ليس من مسارح الإذن سلباً وإيجاباً.

أجل ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ... إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ سواء أكان استئذانهم للجهاد أم تركه، وهو أحرى دلالة على كفرهم بالله واليوم الآخر، فالاستئذان في هذا المسرح لأيّ كان ومن أيّ كان، إنما هو لأولئك الذين خلت قلوبهم من الإيمان فهم يتلمسون المعاذير وهم في ريبهم يترددون، استئذاناً للخروج وآخر للقعود.

ذلك الاستئذان كان للقعود وان استأذنوه بعد للخروج: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٣.

وفي ﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ تلميحة أنهم لم يستأذنوه - فقط - في القعود، بل وفي الخروج مع المجاهدين أيضاً ليزيدوكم خبالاً، ولكن المحور في ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ هم الذين استأذنوه لعدم الخروج حيث ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً . . .﴾[1].

وهنا ﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ علم حادث له ﷺ إذ لو كان يعلمه لكان استئذانهم إياه علماً له بكذبهم، فلا يرد أنه لم يكن مأذونا في إذنهم حين أذن لهم ولا يعمه ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾[2].

إنهم أولاء الأنكاد البعاد ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فى الحق ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ بين الخروج والبقاء، وكلاهما منهم خيانة وكيد على الجماعة المسلمة «ومن تردد في الريب سبقه الأولون وأدركه الآخرون وقطعته سنابك الشياطين»[3].

فذلك علامة أولى لكذبهم في استئذانهم ثم ثانياً:

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

إن إرادة الخروج، العازمة الحاسمة، قضيتها الطبيعية الواقعية إعداد عدة له وإن بسيطاً، وهم لم يعدوا له أية عدة، إلا كل عدة للتخلف عنه ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾: كسّلهم وضعّف رغبتهم في الانبعاث كيلا يخرجوا، فإن خروجهم مروج فيهم، فخروج عن صالح الحرب إلى طالحها، فقد تطلّبت منهم شرعة التكليف أن يخرجوا، ثم ثبطتهم شرعة التكوين بما تثبطوا في أنفسهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ قيلة من رؤوس النفاق حيلة،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٦.
(٢) سورة النور، الآية: ٦٢.
(٣) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

وقيلة من الشيطان الرجيم غيلة، ثم الله لم يمنعهم عن هذه القيلة الحيلة الغيلة، وعن قعودهم بها، حيث ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[1] ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[2] ذلك و:

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿لَوْ﴾ إحالة واقعية بما عزموا على عدم الخروج وبما ثبطهم الله وقيل أقعدوا مع القاعدين ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم﴾ أنتم المؤمنين الصالحين ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾: فساداً واضطراب رأي ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾: أسرعوا فيها وفي أي فساد ﴿خِلَـٰلَكُمْ﴾: تخللاً فاسداً كاسداً بين صفوفكم الإيمانية، حال أنهم: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾: أن يطلبوكم إياها، كأن لا بغية لهم بخروجهم فيكم إلّا إياها ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ اذناً لكل كلام دونما تثبت عنه كالبسطاء من المؤمنين والذين اسلموا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الضالين والمضلّلين، ذلك:

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا منه يوم أحد حيث تخلف عبد الله بن أبي سلول بثلث القوم خذلانا للنبي ﷺ وإضلالاً للذين معه ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ التي كانت مؤاتية لصالح الحرب حيث عملوا دعايات مضادة لها بين صفوف المؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ نصرة بعد النسكة ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ مجيء الحق وظهور الأمر، متربصين عليه دوائر السوء، عليهم دائرة السوء ولكنهم لا يعلمون.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨٣. (٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

هؤلاء الأنكاد الأغباش، ومنهم جد بن قيس حين يقول له الرسول ﷺ: يا جد هل لك في جهاد بني الأصفر؟

قال: أتأذن لي يا رسول الله فإني رجل أحب النساء وإني أخشي إن أنا رأيت نساء بين الأصفر أن افتتن، فقال رسول الله ﷺ وهو معرض عنه: قد أذنت لك، فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾[1] ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ بأنفسهم المفتونة الفاتنة، فلم يفتنهم النبي ﷺ بترك الإذن لقعودهم ترغيباً في بنات بني الأصفر خلاف ما يروى[2].

ويا له من مشهد مرسوم يرسم لهم كأن الفتنة فيه هاوية وهم فيها ساقطون، فهم هنا في جحيم الفتنة التي أججوها بذات أيديهم ماقتون، ثم هم فيما أججوه خالدون ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فكفرهم وفتنتهم هما جحيمهم التي أججوها من ذي قبل: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

هذه جهنم هنا وهناك تأخذ عليهم كل المنافذ والمتجهات فلا يفلتون.

ذلك ومن أحوالهم المزرئة ضد هذه الرسالة السامية:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٤٧ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لجد بن قيس: . . .

(٢) وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: اغزوا تغنموا بنات بني الأصفر فقال ناس من المنافقين انه ليفتنكم بالنساء فانزل الله هذه الآية.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨١.

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ﴾ في حرب وسواها، من غلبة وغنيمة وسواهما ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾ ثم ﴿وَإِن تُصِبۡكَ﴾ رمية ﴿مُصِيبَةٞ﴾ على أية حال ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا﴾ لصالحنا حيث قعدنا عن الحرب ﴿مِن قَبۡلُ﴾ ثم ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن جنابكم إلى نواديهم ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾[١] رغم أن المؤمنين هم فرحون!.

ذلك بأنهم ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[٢] حاسبين السيئة شراً في كل حال، والحسنة خيراً بأي مجال، رغم أن الحياة سجال بين مختلف الفتن تمحيصاً للمؤمنين وتقليصاً للكافرين، وهنا الجواب كلمة واحدة هي:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾:

فحيث نمشي ونمضي بأمر الله إلى جبهات القتال، إذا ف ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ قتلاً لأجل مسمى فلا ضير، بل هو خير في سبيل الله، أم لأجل معلق على القتال فكذلك الأمر، حيث علّق على تحقيق أمر الله، فهو مجتمع أمريه تكويناً وتشريعاً كما الأول، مهما اختلف محتوم عن معلق حيث هما بأمر الله و﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ لا سواه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا سواه ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ بالله، دون توكل في أيّ من الأمور على سواه.

وهنا ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ يعم إصابة الحسنة والسيئة، وهما لنا حسنة حيث كتب الله لنا، فما كتب الله للمؤمن هو خير له أيّاً كان، وما يكتبه غيره مفارقاً شرعة الله هو شر أيّاً كان، فهو - إذاً - مما كتب الله عليه كما هو

(١) الدر المنثور ٣: ٢٤٨ - أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغتهم تكذيب حديثهم وعافية النبي ﷺ وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ...﴾ [التوبة: ٥٠].

(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

كتبه على نفسه، فـ «لنا» صالحة تختص بالصالحين و«علينا» طالحة لسائر الناس الطالحين ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١].

فالمؤمنون منصورون هازمين ومنهزمين، قاتلين ومقتولين فـ ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢].

ذلك، فلا تعني ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أن كل المحاصيل بسوء الإختيار إلى حسنه هي مما ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ طالما الكتابة الربانية تحلّق عليها كلها، إذ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾[٣] فأين كتابة من كتابة؟.

هنا كتابة حسنة أو سيئة ونحن في سبيل الله وتحقيق أمر الله فهي خير لنا تكويناً إلى تشريع وتشريعاً إلى تكوين، وهناك كتابة حسنة أو سيئة وهم في سبيل الطاغوت فهي شر لهم في تكوين، وشر لهم في تشريع، حيث خالفوا فيها شرعة الله فهو مما كتب الله عليهم، وهنا يبرز ناصع الحق وناصحه من قول الرسول ﷺ: «قال لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[٤].

إذاً فنحن السائلون إلى الله، المجاهدون في سبيل الله، نعيش إحدى الحسنيين، وأنتم السالكون إلى الطاغوت المجاهدون في سبيله تعيشون إحدى السوأتين:

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

(٤) الدر المنثور ٣: ٢٤٩ - أخرج أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: . . .

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾:

إعلام عام هام في هذه الإذاعة القرآنية من قبل المؤمنين بهذه الرسالة السامية قبال الذين لا يؤمنون، من ملحدين أو مشركين أو كتابيين أو منافقين من المسلمين، وكل الذين في قلوبهم مرض وليست حياتهم حياة الجهاد في سبيل الله، وهم متربصون بالسالكين إلى الله، المجاهدين في سبيل الله، أن تصيبهم مصيبة سيئة في هذه السبيل.

وقد «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة»[١].

«وكذلك والمرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر إحدى الحسنيين، إما داعي الله فما عند الله خير، وإما رزق الله فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه»[٢].

وهكذا يؤدبنا رسول الله ﷺ على ضوء كتاب الله، تكريساً محيصاً لحياتنا في الحصول على ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[٣].

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) تفسير روح المعاني ١٠: ١١٦ وصح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: تكفل الله...

(٣) المصدر أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده: بينما النبي ﷺ بالروحاء إذ هبط عليه أعرابي من سرب فقال من القوم وأين تريدون؟ قال: قوم بدوا مع النبي ﷺ، قال: مالي أراكم بذة هيئتكم قليلاً سلاحكم؟ قال: ننتظر إحدى الحسنيين أما أن نقتل فالجنة وإما أن نغلب فيجمعهما الله تعالى لنا، الظفر والجنة، قال: أين نبيكم؟ قالوا: ها هو ذا، فقال له يا نبي الله ليست لي مصلحة آخذ مصلحي ثم ألحق، قال: اذهب إلى أهلك فخذ مصلحتك فخرج رسول الله ﷺ يوم بدر وخرج الرجل إلى أهله حتى فرغ من حاجته ثم لحق بهم ببدر فدخل في الصف معهم. فاقتتل الناس=

لقد تكرر ذكر الحسنى في القرآن ثمانية عشر مرة، المناسبة منها لما هنا تعني الحياة الحسنى، وهي الطليقة دون اختصاص بجانب منها تحلّق على كافة الحيويات الحسنى فـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[1] ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾[2] ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾[3] وإلى ﴿إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ انشقاقاً للحسنى إلى اثنتين، إنما هي الحسنى هنا، فإما نقتل في سبيل الله أم نقتل: فـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[4].

فالحسنيان بالنسبة لآحاد المجاهدين في سبيل الله أن يقتلوا أو يقتلوا، وهما نسبة إلى المجموعة المجاهدة غالبين ومغلوبين، فحين يؤدي المجاهدون في سبيل الله واجبهم كان انهزامهم كهزيمتهم عدوّهم على سواء.

فسواء أصابتهم سيئة أم اصابتهم حسنة في حرب وسواها، فما داموا هم هنا وهناك في سبيل الله فهم يعيشون إحدى الحسنيين إذ ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ من حياة أو ممات، من هزيمة أو انهزامة، ومن مختلف ملابسات الحياة.

= فكان فيمن استشهد فقام رسول الله ﷺ بعد أن انتصر فمر بين ظهراني الشهداء ومعه عمر فقال: ها يا عمر انك تحب الحديث وأن للشهداء سادة وأشرافاً وملوكاً وأن هذا يا عمر منهم.

(١) سورة الرعد، الآية: ١٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الليل، الآيات: ٥-٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١.

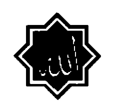
ذلك وقد يجمع بين الحسنيين فرادى وجماعات، فالمناضل الذي يقتل ثم يقتل، والجيش الذي يهزم ويهزم، أما ذا من جمع بين الحياتين الإيمانيتين، هؤلاء هم من مجامع الحسنيين.

فرغم أن أعداءنا يتربصون بنا كل دوائر السوء غالبين ومغلوبين، هنا يعبر عنهما بـ﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ فإما إحداهما أم كلاهما، فلا نعيش نحن إلّا حياة سعيدة على أية حال ما دمنا نعيش مرضات الله تحقيقاً لشرعته في حياتنا وكل حيوياتنا، مهما أنكر ناكرون، حيث الواقع لنا ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ مهما كان متربّص العدو إصابتنا بقتل أو شبهه وهي السوأى الوحيدة دون أية حسنى فضلاً عن إحدى الحسنيين.

فذلك الإعلان مما يرتعش به العدو حيث يعرف - مهما كان ناكراً في نفسه - أننا صامدون في خط النار، غير راجعين إلّا بإحدى الحسنيين، فحين يعرف العدو مدى صمودنا يحسب حسابه أمامنا فيهدر وينحدر من علواءه وغلواءه إلى واقع حضيضه، فيفقد حظه في جبهة القتال.

ذلك في ضفّة الإيمان على مدار حياة الإيمان، وأما حياة الكفر فـ :

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ هنا، أم بعد الموت في البرزخ والأخرى ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أن تقتلوا أو تغلبوا، فنحن - إذاً - منتصرون غالبين ومغلوبين، وأنتم معذبون غالبين ومغلوبين ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا إحدى الحسنيين ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ بكم إحدى السوأتين.



فهرس الجزء الثاني عشر

سورة الأنفال

سورة التوبة